

التبصير
في

التبصير

تأليف الإمام

أبي حفص السفي

نجم الدين عمر بن محمد بن أحمد السفي الحنفي

٤٦١-٥٣٧ هـ

نُطِعَ أَوَّلَ مَرَّةٍ مُّحَقَّقًا عَلَى ثَلَاثِ شُخُوطٍ

تَحْقِيقٌ وَقَوْلِي

ماهر أديب جوش

المجلد السابع

كتاب اللباب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

التَّيْسِيَّةُ

فِي

التَّيْسِيَّةِ

(٧)

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

يُمنع طباعة هذا الكتاب أو ترجمته أو تصويره ورقياً أو إلكترونياً
إلا بإذن خطي من الدار الناشرة
تحت المساءلة الدنيوية والأخروية



دار اللباب

للدراسات وتحقيق التراث

DAR-ALLOBAB

Lubab Yazma Eserleri İhya ve İlmi Araştırma Yayınları

بيروت - لبنان

☎ 009615813966

☎ 0096170112990

🌐 www.allobab.com

اسطنبول - تركيا

☎ 00905454729850

☎ 00902125255551

✉ info@allobab.com



İskenderpaşa mh. Kızıtaşı cd. No:7 D:5 Fatih (Özel Fatih Hastanesi Karşısı)

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

(١٥٠) - ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا قَالَ يَلْسَمَانَا خَلَفْتُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تُشْمِتْ بِالْأَعْدَاءِ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا﴾: أي: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ﴾ من الطور ﴿إِلَى﴾ بني إسرائيل الذين استخلف عليهم هارون وقد أخبره الله تعالى بما كان من ﴿قَوْمِهِ﴾ من عبادة^(١) العجل بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّا قَدَفَتْنَا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٥] رجع ﴿غَضْبَنَ﴾ من ذلك ﴿أَسْفًا﴾ متأسفاً على ما كان منهم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: حزينا. وقال أبو الدرداء: شديد الغضب^(٢).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَلْسَمَانَا خَلَفْتُونِي مِنْ بَعْدِي﴾: هي كلمة ذم؛ أي: ساء ما عملتم خلفني بعد غيبتني، يقال: خلفه في أهله بخير وبسوء، وقد كان قال لهارون عليه السلام: ﴿اخْلُفْنِي﴾ [الأعراف: ١٤٢]، وها هنا قال: ﴿خَلَفْتُونِي﴾ لأنه كان يجب على كل واحد منهم أن يحوط^(٣) صاحبه ويحميه عن الضلال.

(١) في (ف): «عبادتهم».

(٢) رواهما الطبري في «تفسيره» (١٠/٤٥٠).

(٣) في (أ): «يحفظ».

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: رجع ﴿غَضَبَنَ﴾ الله على قومه بعبادتهم العجل ﴿أَسِيفًا﴾؛ أي: حزيناً على قومه بما يلحقهم من العقوبة بذلك، وكذا ينبغي لكل مؤمن أن يغضب الله تعالى إذا رأى ارتكاب منكر ويتأسف على ما ينال العُصاة، وقد قال الله تعالى في حق نبيِّنا ﷺ: ﴿لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، وقال: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ [فاطر: ٨]، فدل على حزنه وتأسفه على ذلك. وقال في قوله: ﴿يَسْمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي﴾: له وجهان:

الأول: بئسما اخترتم من عبادتكم العجل على عبادة الله تعالى.

والثاني: بئسما اخترتم اتباع^(١) السامريِّ إلى ما دعاكم إليه بعد اتباعكم إياي وأخي رسول الله هارون، وأمرنا إياكم بعبادة الله تعالى^(٢).

وقوله تعالى: ﴿أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ قيل: أي: أسبقتم أمر ربكم؛ أي: عبدتم العجل قبل أن يأتي به أمر من الله تعالى؛ أي: لو كان هذا مما يجوز أن يفعل تقريباً إلى الله لأمر الله عز وجل به، فلم فعلتموه قبل أن يأتي به أمر^(٣).

وقيل: أي: أعجلتم وعد ربكم، فقد قال في سورة طه: ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًا حَسَنًا﴾ [طه: ٨٦].

قال الحسن: كان موسى صلوات الله عليه واعدّهم ثلاثين ليلة، فلما مضت الثلاثون ولم يرجع قدّروا أنه قد مات^(٤).

(١) في (ف): «بئسما اخترتم من عبادتكم العجل اتباع»، وعبارة «التأويلات»: «بئسما خلفتموني باتباعكم».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤٤/٥).

(٣) ذكر نحو هذا الواحد في «البسيط» (٣٦٩/٩) و«الوسيط» (٤١٢/٢)، والبغوي في «تفسيره»

(٢٨٤/٣)، والرازي في «تفسيره» (٣٧١/١٥)، وعزوه للكلبي، ولا حاجة لمثل هذه الأقوال،

كيفية تخيل ولو على سبيل الافتراض أن يأمر الله سبحانه بعبادة العجل.

(٤) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٢٦٣/٢)، والواحد في «البسيط» (٣٦٩/٩)، والبغوي =

وقيل: كان واعدَهم أربعين ليلةً، ولكن عدُّوا عشرين يوماً وعشرين ليلةً وقالوا ذلك.
وقيل: ﴿أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾؛ أي: وعدَ ربِّكم بالثواب على عبادته حتى عدلْتُم
إلى عبادة غيره.

وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاَحَ﴾: جاء عن قومٍ من المفسِّرين: فطرحها على
الأرض غضباً، فُرفِعَ^(١) منها كذا وبقي كذا.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كُسِرَ منها لوحان فتطايرا في السماء بما فيهما
من النور والبيان^(٢).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: لكن لا يجوز أن يُفهم من قوله: ﴿وَأَلْقَى
الْأَلْوَاَحَ﴾ طَرْحَهَا لا غير، ألا ترى أنه قال: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا﴾ [النحل: ١٥]
ليس يفهم منه الطرح، وكذا قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَلَفْنَا عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥]،
إذ لا^(٣) يُظن بموسى عليه السلام ذلك؛ لأنه يُشبه الاستخفاف، لكن يفهم منه
الوضعُ لأنه قصَدَ أَخَذَ^(٤) رأس أخيه، فكان لا يمكنه أخذه مع أن الألواح في يده،
فوضعها ثم أخذ ذلك^(٥).

= في «تفسيره» (٣/ ٢٨٤)، والرازي في «تفسيره» (١٥/ ٣٧١).

(١) في (أ): «فوقع»، وفي (ف): «فرجع».

(٢) لم أجده بهذا اللفظ، وروى عنه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٤٥٦) أنه قال: (ألقى موسى الألواح
فتكسرت، فرفعت إلا سدسها).

(٣) في (ر): «ولا» بدل: «إذ لا».

(٤) «أخذ»: ليست في (أ).

(٥) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٤٥). ولهذا الكلام وجه، لكنه لم يبين أنه إذا كان المعنى كذلك
فلم قال سبحانه: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاَحَ﴾ ولم يقل مثلاً: ووضع الألواح، أو: وترك الألواح؟ فلا بد أن
يكون لاستعمال لفظ الإلقاء دون غيره علة لا تتحقق بغيره.

وقوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾: قيل: فعل ذلك ليناجيه وليسأله عن السبب الذي وقعوا في ذلك لأجله، وعن الذي منعه عن زجرهم وقتالهم عليه، فتصوّر عند هارون أنه لغضبه ومؤاخذته عليه يأخذ لحيته ورأسه يعاقبه به، فلذلك قال: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ فيتوهم القوم أنك عاقبتني من غير ذنبٍ كان لي فاسمع عذري^(١).

وقيل: إنما فعل ذلك لا تغضباً عليه متعنفاً، بل كما يفعله المتوجّع للمصيبة بالحادث على قومه كما هو عادة أهل المصيبة، فإن كثيراً من الناس يتعلّق الواحد منهم عند المصيبة برقبة من يحلّ منه محلّ المصاب، ويجعل الآخر يده في رقبته أيضاً^(٢). قال الإمام أبو منصور رحمه الله: ذكر في هذه السورة: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾، وفي سورة طه دليل على أنه أخذ برأسه ولحيته جميعاً؛ لشدة غضبه لله تعالى على صنيع^(٣) قومه.

قال: وفيه دليل أنه أخذ شعر رأسه؛ لأنه قال: ﴿يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾، ولو أخذ عين رأسه لم يحتج إلى جرّه، ودلّ ذلك على أن من مسح رأسه فوق الشعر ثم زال شعره لم

(١) كذا ذكر المؤلف هذا القيل، وكأن قائله لم يقرأ الآية، فإن الذي ذكر الأخذ بالرأس والجرّ هو الله سبحانه لا هارون عليه السلام، وهل يقال فيمن أراد أن يناجي آخر ويسأله عن أمر: إنه أخذ برأسه يجره إليه؟ وقول هارون: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ إنما هو تأكيد للأخذ بالرأس مع بيان الأخذ اللحية كذلك، ولعله اكتفى بذكر الرأس هنا لأن اللحية منه.

(٢) في (أ): «رقبته في يده» بدل: «يده في رقبته أيضاً». وليس هذا القيل بأحسن من سابقه، فإننا لو سلمنا ما ذكر من أنه عند المصيبة يأخذ كل واحد برقبة الآخر، فإن الأخذ هنا بالرأس لا بالرقبة، ثم أين يذهب صاحب هذا القيل بقوله: ﴿يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾؟ فهل يحدث مثل ذلك أيضاً عند المصيبة، بأن يأخذ كل واحد برأس من يشاركه في المصيبة ويجره إليه؟!

(٣) في (أ): «صنع»، وفي (ف): «ما صنع».

يسقط عنه حكمُ المسح كما قال أصحابنا، وإذا مسح على لحيته ثم سقطت^(١) زال حكمه ووجب غسلُ ذقنه، لما سَمَّى الشَّعَرَ رأساً وسمَّى اللحية لحيَةً، فسقوطُها يُسقط حكمَ المسح وسقوطُ شعر الرأس لا يُسقط.

قال: ودلَّت الآية على أن الأنبياء كانوا يعملون بالاجتهاد كما كانوا يعملون بالوحي، فإن موسى أخذ برأس أخيه بالاجتهاد إنكاراً على هارون ترك النكير على قومه، ولو كان بالوحي لم يقل له هارون: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي﴾^(٢)، وهارون أيضاً عَمِلَ ما عَمِلَ مع قومه بعد عبادتهم العجل بالاجتهاد لا بالوحي، ولهذا اعتذر عنه وقال: ﴿خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ ولو فعل شيئاً بالأمر لم يعتذر منه إلى موسى^(٣).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ ابْنُ أُمٍّ﴾: قرأ حمزة والكسائي وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر بكسر الميم، وأصله: يا ابن أُمي، وحُذفت الياء تخفيفاً لكثرة الاستعمال في النداء، كما في قوله: (يا قوم) وقرأ الباقون: ﴿ابْنُ أُمٍّ﴾ بالفتح^(٤).

وقيل: كثر استعمال هاتين الكلمتين فصارتا كاسمين جُعلا اسماً واحداً، فُبْنيا على الفتحة كما في حضر موت وبعلبك وخمسة عشر. وقيل: أصله: يا ابن أُمّاه، على النُدبة، وسقطت الهاء والألف تخفيفاً.

وهذا^(٥) قول هارون لموسى عليهما السلام، ومعناه: يا أخي، وكان أخاه لأبيه وأُمّه وإنما خصَّ الأُمَّ استعطافاً؛ لأن ذكر الأُمِّ يوجب ذلك.

(١) في (ر): «ثم زالت لحيته»، والمثبت موافق لما في «التأويلات».

(٢) «بلحيتي»: ليست في (أ) و(ف).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٤٥ - ٤٦).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٥)، و«التيسير» (ص: ١١٣).

(٥) في (ف): «وهو».

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي﴾: أي: لم يهابوني ولم يَسْتَحُوا مني^(١) وكادُوا يَقْتُلُونِي: لكثرتهم وغلبتهم.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾: أي: لا^(٢) تُسِّرِ المخالفين بما يَسُوؤُنِي؛ إذ لا شك أنهم كفروا بعبادة العجل، والكافر يفرح بمَسَاءة المؤمنين، خصوصاً بوقوع التشاجر بين أخوين رسولين؛ لِمَا في التباين من وقوع الوهن في الأمر.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾: أي: في عداد هؤلاء القوم الذين ظلموا أنفسهم بعبادة العجل ووضِع العبادة في^(٣) غير موضعها، فأكون مثلهم في موجدتك وغضبك علينا.

(١٥١) - ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي﴾: ولَمَّا سمع موسى عذرَ هارون عليهما السلام عرف أنه لم يكن منه تقصيرٌ، كَفَّ غضبه ودعا لنفسه وله، فقال: رب اغفر لي بما فعلته بأخي مما أُوهم ظاهره كثيراً من الناس أنه كان موجدةً^(٤) مني عليه وعقوبةً له، واغفر لأخي تقصيره إن^(٥) كان منه شيءٌ من ذلك، وإن كان قد بذل جهده في الوعظ والإرشاد للقوم، وكذا ينبغي للكمال الموقر أن يستقصر نفسه فيما يجب لله عليه، فأولى الناس بهذه الحالة الأنبياء عليهم السلام.

(١) في (ف): «فلم يستحيوا».

(٢) «لا»: ليست في (أ).

(٣) «في»: ليست في (ف).

(٤) في (أ): «موجدته».

(٥) في (ر): «إنه».

وقوله تعالى: ﴿وَأَدْخَلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾: أي: أدخلنا في جملة من ترحمهم وتدخلهم الجنة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾: ترضى بيسير الشكر عن عظيم النعم، وتقبل العذر الواحد في حق ذنوب كثيرة.

قال الكلبي رحمه الله: لما رجع موسى إلى قومه رآهم حول العجل يرقصون ويعبدونه، فقال: ﴿بِسْمَا خَلَقْتُنِي مِنْ بَعْدِي أَعَجَلْتُمْ﴾ بعبادة العجل قبل أن يأتيكم أمر من ربكم ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمِّ﴾ وكان أخاه من أبيه وأمه، لكنه قال ذلك ليرفقه عليه ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي﴾ قهروني وهموا بقتلي ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾ عبدة العجل ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ الذين عبدوا العجل ﴿قَالَ﴾ موسى: يا ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ ما صنعت بأخي^(١) ﴿وَأَدْخَلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾؛ أي: نعمتك.

(١٥٢) - ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَاهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾: أي: معبوداً ﴿سَيَنَاهُمْ﴾ سيصيهم ﴿غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: إرادة عقوبة لا عفو معها.

قيل: قال الله تعالى ذلك لموسى قبل أن يتوب القوم بقتلهم أنفسهم.

وقوله تعالى: ﴿وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: أي: قتلهم أنفسهم بأيديهم فإنه هوان وقُبلت به توبتهم.

(١) في (ف): «وأخي».

وقيل: هذا في حقِّ الذين لم يقبلوا قتل^(١) أنفسهم بأيديهم فلم يتوبوا، وأشرب في قلوبهم حبَّ العجل، فالغضبُ - وهو الانتقام - في الآخرة لهم، ﴿وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: أخذُ الجزية، قاله الحسن^(٢)، ويدلُّ عليه ما بعده، وهو قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٥٣]. وقال مكحول: قال موسى عليه السلام: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ الآية، فقال الله تعالى: صدق عبدي موسى.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾: أي: الكاذبين، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هذه الآية في أهل عصر النبي ﷺ الذين تولَّوا آباءهم الذين فعلوا هذا، لهم عذابُ النار في العقبى وأخذُ الجزية في الدنيا^(٣). وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ويحتمل قوله: ﴿وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ذمُّهم بصنيعهم^(٤)، وثناء الشرِّ عليهم^(٥).

والمفترُّون: الكاذبون، وقد كذبوا في تسميتهم العجلَ إلهاً ومعبوداً. وقال الإمام القشيريُّ رحمه الله: قوله: ﴿سَيَنَاهُتُمْ﴾ هذه السينُ للاستقبال، ومن لا يضرُّه عصيانُ العاصين لا يبالي بتأخير العقوبة عن الحال، ولكن يكون للإمهال لا للأهمال، ولا ينبغي لمن ألمَّ بذنب ثم لم يؤخِّد^(٦) به أن يغترَّ بالإمهال^(٧).

(١) في (ف): «لم يقتلوا».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٨٦/٤)، والواحدي في «البيسط» (٣٧٩/٩)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) ذكره الواحدي في «البيسط» (٣٧٨-٣٧٩/٩).

(٤) في (ف): «بصنيعهم».

(٥) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤٧/٥).

(٦) في (ف): «يؤخِّد».

(٧) انظر: «لطائف الإشارات» (٥٧٣/١).

(١٥٣) - ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ يتناول عبادة العجل وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾: أي: بعد التوبة ﴿لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: ذكر الإيمان بعد التوبة، والإيمان الذي هو بعدها يحتمل أنهم آمنوا بأنه يقبل التوبة، أو آمنوا بأن الحق جلّ جلاله لا يضره عصيان، أو آمنوا بأنهم لا ينجون بتوبتهم من دون فضل الله عز وجل، أو آمنوا؛ أي: عدّوا ما سبق منهم من نقض العهد شركاً فأمنوا من الرأس، أو استداموا الإيمان، أو آمنوا بأنهم لو عادوا إلى ترك العهد وتضييع الأمر لسقطوا عن عين الله تعالى إذ ليس كلّ مرة تسلّم الجرّة^(١).

(١٥٤) - ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾: أي: سكن، ولما كان الغضب بفورته دالاً على ما في النفس للمغضوب عليه، كان بمنزلة الناطق بذلك، فإذا سكنت تلك الفورة كان بمنزلة الساكت عما كان متكلماً به.

وقال عكرمة: أي: سكنت موسى عن الغضب، على القلب^(٢).

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٧٤).

(٢) ذكره الواحدي في «البيسط» (٩/ ٣٨٢).

وقوله تعالى: ﴿أَخَذَ الْأَلْوَحَ﴾: وقد كان وَضَعُهَا لِيَتَفَرَّغَ لِمَا قَصَدَ لَهُ لَا رَغْبَةً عَنْهَا، فلما فرغ عاد إليها فأخذها.

وقوله تعالى: ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾: أي: وفيما نُسخ له فيها من اللوح المحفوظ، والنسخ: النقل، ومنه: نسخ الحكم، ونسخ الشمس الظل، فيقتضي نقل مكتوب من أصل إلى آخر، وقد يُطلق على الكتابة وإن لم يكن من أصل آخر؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نُنَسِّخُ﴾ [الباقية: ٢٩] فعلى هذا يكون معناه: وفيما كُتِبَ فيها هدى ورحمة.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن ما انكسر منه أُعيد له في لوح آخر.
وعن عمرو بن دينار قال: صام موسى عليه السلام أربعين يوماً فأُعطي الألواح، فلما ألقاها وتكسرت صام مثلها فأعيد له مثلها^(١)، وقد بينا ما في أصل هذا الكلام من الخلل.

وقوله تعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾: أي: يخشون الله تعالى، فيأخذون بهداه ويقبلون ما فيه لينالوا رحمته.

وإنما قال: ﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ ولا يجوز: يرهبون لربهم؛ لأن المفعول إذا تقدّم ضعُف عمل الفعل فيه، فصار كالذي لا^(٢) يتعدّى في دخول اللام عليه، وهو كقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءُوسِ يَاَعْبُرُونَ﴾.

وقيل: هو في معنى: من أجل، ويجوز فيه اللام تقدّم أو تأخّر، كما قال تعالى: ﴿رَدِّفْ لَكُمْ﴾ [النمل: ٧٢].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا﴾؛ أي: وفيما انتسخ بنو إسرائيل

(١) ذكر القولين الثعلبي في «تفسيره» (٢٨٧/٤)، والبغوي في «تفسيره» (٢٨٥/٣).

(٢) «لا»: من (أ) و(ف).

من الألواح ﴿هُدًى﴾ من كل ضلالة، وبيان من كل عمى وشبهة، ﴿وَرَحْمَةً﴾ من كل غضب ولعنة، ﴿لِّلَّذِينَ﴾ يخشون ربهم فيعملون به^(١).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾ يشير إلى حُسن إمهال الله العبد إذا تغير عن حاله وغلب عليه ما لا يطيق، وإذا كان الأنبياء صلوات الله عليهم يغلبهم ما يصرفهم عن الاختيار فكيف الظن بمن دونهم^(٢).

(١٥٥) - ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّي أَتَّهِلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْسُّفَهَاءُ مِنَّا إِن هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا﴾: أي: من قومه، ونزع الخافض جائز، وإذا نزع نصب الاسم، وقال الشاعر:

ومنا الذي اختير الرجال سماحةً وجوداً إذا هبَّ الرياحُ الزعازعُ^(٣)

أي: من الرجال، وقيل: ﴿قَوْمَهُ﴾ نصبٌ بوقوع ﴿وَاخْتَارَ﴾ عليه.

ثم قوله: ﴿سَبْعِينَ﴾ بدلٌ عنه، وهو بدلٌ البعض من الكل، كما في قولك: ضربتُ زيداً رأسه.

وقال الكلبي رحمه الله: اختار موسى سبعين رجلاً لينطلقوا إلى الجبل معه،

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤٨/٥).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (٥٧٤/١).

(٣) البيت للفَرَزْدَق، وهو في «الجمال» للخليل (ص: ١٢٢)، و«الكتاب» لسيبويه (٣٩/١)، و«شرح

نقائض جرير والفَرَزْدَق» لأبي عبيدة (٨٢٢/٣)، و«الكامل» للمبرد (٣٢/١)، و«تفسير الطبري»

فلم يُصَبِّ إِلَّا سَتِينَ شَيْخًا، فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ أَنْ يَخْتَارَ مِنَ الشَّبَانِ^(١) عَشْرَةً، فَاخْتَارَ فَأَصْبَحُوا شَبُوحًا، فَاخْتَارَ مِنْ كُلِّ سَبْطٍ سِتَّةَ رَهْطٍ فَصَارُوا اثْنِينَ وَسَبْعِينَ، فَقَالَ لَهُمْ مُوسَى: إِنَّمَا أُمِرْتُ بِسَبْعِينَ رَجُلًا فَلْيَتَخَلَّفْ مِنْكُمْ رَجُلَانِ، فَتَشَاحُّوا عَلَى ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنَّ لِمَنْ قَعَدَ مِثْلَ أَجْرِ مَنْ خَرَجَ، فَقَعَدَ رَجُلَانِ أَحَدُهُمَا كَالْوَبِ بْنِ يَوْقَنَا وَالْآخَرُ يَوْشَعَ بْنِ نُونٍ، وَخَرَجَ مُوسَى بِالسَّبْعِينَ مَعَهُ إِلَى الْجَبَلِ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَنْتَظِرُوا فِي أَسْفَلِ الْجَبَلِ، وَصَعَدَ مُوسَى الْجَبَلَ، وَذَكَرَ مَا كَانَ إِلَى أَنْ رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضَبَانِ أَسْفَاً مَعَ السَّبْعِينَ، فَلَمَّا رَأَى السَّبْعُونَ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ اتَّخَذُوا الْعَجَلَ أَتُوا مُوسَى فَقَالُوا: إِنَّ لَنَا عَلَيْكَ حَقًّا فَأَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً، فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ فَاحْتَرَقُوا عَنْ^(٢) آخِرِهِمْ، فَظَنَّ مُوسَى أَنَّهُمْ احْتَرَقُوا بِخَطِيئَةِ أَصْحَابِ الْعَجَلِ، فَقَالَ: يَا رَبُّ ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَائِي﴾، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ وَقَوْلُهُ^(٣): ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ﴾ [البقرة: ٥٦]^(٤).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما بخلافه؛ قال: إن الله تعالى أمره أن يختار من قومه سبعين رجلاً، فاختارهم وبرز بهم ليدعوا ربهم، فكان ممّا^(٥) دعوا الله تعالى أن قالوا: اللهم أعطنا ما لم تُعْطِ أَحَدًا مِنْ^(٦) قَبْلِنَا، وَلَا تُعْطِيهِ^(٧) أَحَدًا بَعْدَنَا، فَكَرِهَ اللَّهُ

(١) في (أ) و(ف): «الشباب».

(٢) في (أ) و(ر): «فاحترقوا من عند».

(٣) «﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ وَقَوْلُهُ: من (ف).

(٤) ذكره بنحوه أبو الليث السمرقندي في «تفسيره» (١/ ٥٦٨) عن ابن عباس، والثعلبي في «تفسيره»

(٤/ ٢٨٨) عن الكلبي، والطبري في «تفسيره» (١٠/ ٤٦٨) عن ابن إسحاق.

(٥) في (أ) و(ر): «فكانوا فيما».

(٦) «من»: ليست في (أ) و(ف).

(٧) في (ف): «تعطيه».

تعالى ذلك من دعائهم فأخذتهم الرجفة^(١)، فقال موسى: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ﴾ الآية^(٢).

وقيل في قوله: ﴿لِمِيقَاتِنَا﴾ في هذه الآية: إن الله تعالى وَقَّتْ لموسى وقتاً يأتيه فيه بسبعين رجلاً من خيار بني إسرائيل ليعتذروا مما كان من القوم من عبادة العجل، وهذا في^(٣) غير الميقات المذكور في قوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فلَمَّا خرج موسى معهم وكانوا في أسفل الجبل كان ما ذكر في هذه الآية، وهو قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾: أي: زلزلة الجبل، وقيل: زلزلة أبدانهم فماتوا.

ثم ليس في هذه الآية بيان سببها، واختلف فيه:

قيل: هو بقولهم: ﴿لَنُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ [البقرة: ٥٥] وهي نارٌ محرقةٌ فيها صوتٌ فرجفوا بصوتها، فالصاعقةُ والرَّجْفَةُ واحدةٌ، وإنما أُحرقوا^(٤) بها لكفرهم بقولهم: ﴿لَنُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ لا بسؤال الرؤية، أو بسؤال الرؤية جهراً^(٥)؛ أي: مقابلة، وهي تشبيهٌ وهو كفرٌ، فأما أصل الرؤية فهو ثابتٌ وليس فيه مقابلة.

وقيل: أخذتهم الرجفة بسؤالهم ما لم يؤذن لهم فيه^(٦)، وهو ما رويناه في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أعطنا ما لم تعطه أحداً قبلنا، ولا تعطه أحداً بعدنا.

(١) في (ر): «الصاعقة».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٨٩/٤).

(٣) «في»: من (أ).

(٤) في (أ): «احترقوا».

(٥) في (أ): «جهرة» وليس فيها: «أو بسؤال الرؤية».

(٦) في (ف): «به».

وقيل: بل ادَّعَوْا عند الله على موسى أنه قتل هارون.

وقيل: بل كانوا من عبدة العجل، وموسى لم يعلم بذلك.

وقيل: لم يكونوا عبدوا العجل، ولكنهم لم يفارقوهم^(١) ولم ينكروا عليهم. وفي حديث وهب خلافاً لهذا كله، وأنَّ أخذ الرجفة لم يكن عقوبةً بل هيبَةً، وهم خيارٌ ليسوا بجناة.

قال وهب: إن بني إسرائيل قالوا لموسى عليه السلام: إن طائفة يزعمون أن الله تعالى لا يكلمكم، ولو كَلَّمَك ما قمتَ لكلامه، ألم ترَ أن طائفةً منا سأله النظر إليه فلمَّا سمعوا حسَّ جنوده ماتوا، أفلا تسأله أن يُحضرَكَ طائفةً منا حتى يكلمَك فيسمعوا كلامه فيؤمنوا وتذهب التُّهمة، فأوحى الله تعالى إلى موسى: أن اخترَ من خيارهم سبعين، ثم ارتق بهم إلى الجبل أنت وهارون، واستخلف على بني إسرائيل يوشع، فاستخلف عليهم كما أمره الله تعالى.

ثم انطلق بهم إلى رأس الجبل، فنزل الغمام^(٢) فألبس الجبل كله، فلمَّا رأوا ما فيه من الهيبة أخذتهم الرعدة^(٣) وقلِّقوا ورجفوا حتى كادت تَبِينُ منهم مفاصلهم وتُنْقَضُ ظهورهم، فلما رأى ذلك موسى صلوات الله عليه رَحِمَهُم وهم يومئذٍ أحياء، فدعا الله لهم وقال: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنِّي﴾ وخاف عليهم الموت، واشتدَّ عليه فَقْدُهُمْ، وكانوا له وزراءً على الخير سامعين مطيعين، فعند ذلك قال: ﴿أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ فكشف الله عنهم تلك الرجفة والرعدة، فسكنوا واطمأنُّوا وسمعوا كلام الله تعالى موسى، وكانوا عليه شهداء وانصرفوا^(٤).

(١) في (ف): «يوافقوهم».

(٢) «الغمام»: ليس في (أ).

(٣) في (ر): «الرجفة».

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٨٨ - ٢٨٩).

وهؤلاء السبعون غير السبعين الذين قالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] أولئك أحرقتهم الصاعقة ثم بُعثوا، وهؤلاء أخذتهم الرعدة ثم كشفت عنهم.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: لا ندري مَنْ أولئك السبعون^(١).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَائِي﴾: وقال مقاتل بن سليمان: وبقي موسى يبكي ويقول: يا رب! ما أقول لبني إسرائيل إذا رجعت إليهم وقد أهلكت خيارهم؟ لو شئت أمتهم وإياي معهم من قبل أن يصحبوني^(٢).

وقيل - وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما -: ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ﴾ بما كان منهم وإياي بقتل القبطي^(٣).

وقوله تعالى: ﴿أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ قال ابن عباس ومقاتل رضي الله عنهما: أي: ﴿أَتَهْلِكُنَا﴾ عقوبة ﴿بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾؛ أي: الجهال، وهم أصحاب العجل، ظنَّ موسى عليه السلام أنهم إنما عذبوا باتخاذ بني إسرائيل العجل^(٤).

وإنما قال: ﴿أَتَهْلِكُنَا﴾ على معنى: أن إهلاك^(٥) هؤلاء إهلاك لي ولبني إسرائيل لأنهم خيارنا.

وقيل: لا يجوز أن يظنَّ موسى عليه السلام أن هؤلاء أهلكوا بفعل غيرهم؛ لأنه علم أن أحداً لا يؤخذُ بذنب غيره، وقد بينَّ ذلك في كتابه، قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٣٧﴾ أَلَا نَزَرُ وَأَنْزَرُ وَزُرْتُ أُنْزِرُ﴾ [النحل: ٣٦-٣٨]،

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٤٩).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٦٦). ورواه الطبري (١٠/ ٤٦٨) عن السدي.

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٨٩) عن وهب، وهو تمة الخبر الذي تقدم قريباً عنه.

(٤) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٦٦).

(٥) في (ف): «هلاك».

لكن^(١) معنى قوله: ﴿أَتُهْلِكُنَا﴾: أن هذا استفهامٌ بمعنى النفي كما في قوله: ﴿أَلْهَمَ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٩٥]؛ أي: إنك لا تهلكنا بما فعل^(٢) السفهاء، وقد ذكر قبله: ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَإِنِّي﴾ ومع ذلك لم تفعل، وذلك فضلٌ منك، ثم قال: ﴿أَتُهْلِكُنَا﴾؛ أي: لا تهلكنا بفعل السفهاء، وهذا عدلٌ منك.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾: أي: ما هي إلا فتنتك^(٣)، قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: بليتك^(٤). وقال الكلبي: عذابك^(٥).

وقال الربيع بن أنس ومقاتل: بلاؤك^(٦). وهو كقول ابن عباس رضي الله عنهما. وقيل: هو راجعٌ إلى قول الله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾ فقال موسى: هي^(٧) تلك الفتنة التي أخبرتني بها، وهي ابتلاءُ الله تعالى عباده بما شاء، قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وقوله تعالى: ﴿تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ﴾: أي: من قال: اختارهم ثم أهلكهم. وقوله تعالى: ﴿وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾: أي: من قال: إن الله لا يعذب أحداً من غير ذنب.

(١) في (ر): «وليس»، والمثبت من باقي النسخ، وهو الصواب. انظر: «البيضا» (٩/ ٣٩٠).

(٢) في (ف): «بفعل» بدل: «بما فعل».

(٣) «أي: ما هي إلا فتنتك»: ليس في (أ) و(ف).

(٤) رواه أبو صالح عن ابن عباس بلفظ: (بلاؤك). انظر: «زاد المسير» (٣/ ٢٦٩). ورواه بلفظ المؤلف الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٤٧٧ - ٤٧٨) من قول أبي العالية وسعيد بن جبير والربيع بن أنس. والمعنى واحد كما سيأتي.

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٤٧٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥٧٥)، عن ابن عباس.

(٦) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٦٦). ورواه الطبري (١٠/ ٤٧٨) عن الربيع بلفظ: (بليتك) كما ذكرنا قريباً.

(٧) في (ر): «هل».

وقيل: ﴿تُضِلُّ بِهَا﴾: بالفتنة ﴿مَنْ تَشَاءُ﴾: مَنْ علمت منهم اختيار الضلال، وقوله: ﴿وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾: مَنْ علمت منهم اختيار الهدى.

وقوله تعالى: ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا﴾: أي: متولي مصالح ديننا ودنيانا.

وقوله تعالى: ﴿فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾: تُمْهِلُ وَلَا تَعَاجِلْ، وتغفر الذنب الكثير^(١) بالْعُذْر اليسير، ثم تجود بالعطاء الجزيل الكثير^(٢).

قال الإمام القشيري رحمه الله: هم قومٌ اختارهم موسى ونحن قومٌ^(٣) اختارنا الله تعالى، قال: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]، وشتان بين قومٍ وقومٍ، أولئك قوم قالوا: ﴿أَرَأَى اللَّهُ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّعِقَةُ﴾ ونحن قوم يقول الله تعالى لنا: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢]^(٤).

(١٥٦) - ﴿وَكَتُبَ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَنْقُوتُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَكَتُبَ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾: أي: أثبت لنا نعمةً، وذكر الكتابة لأنها أَدوم.

وقيل: أي: وفّقنا في الدنيا للحسنات التي تكتبها لنا الحفظة.

(١) في (أ): «الكبير».

(٢) في (أ) و(ف): «الكبير».

(٣) في (ف): «أمة».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٧٥).

وقوله تعالى: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾: أي: فيها حسنة أيضاً؛ كما قال: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ﴾ [البقرة: ٢٠١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَذَا إِلَيْكَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: تُبْنَا إِلَيْكَ^(١)، وأصله الرجوع.

وقيل: أي: ملنا إليك، وليست اليهودية مشتقة منه، فإنها^(٢) اسم ذمٍّ والهود صفةٌ مدح، وقد قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا﴾ الآية [آل عمران: ٦٧]، فنفى الاسم عنه، لكنها مشتقة من يهودا، تُسبوا إليه وغيّرت العرب الذال في النسبة دالاً.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ جوابٌ قول موسى: ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ ومعناه: أُصِيبُ بالعذاب مَنْ أَشَاءُ أَنْ أُصِيبَهُ بِهِ^(٣)، وهو الذي أَشَاءَ منه الكفر والمعصية، وهو الذي أعلمُ منه اختياراً^(٤) ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾: قال الإمام أبو منصور رحمه الله: ما من مسلمٍ ولا كافرٍ إلا وعليه من آثار رحمته في الدنيا، وبها يتعيشون، وبها يتوადون، وفيها يتقبلون، لكنها للمؤمنين خاصة في الآخرة، وذلك قوله تعالى:

﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾: أي: سأجعلها في الآخرة للذين يتقون الشرك والمعاصي، ويحتمل أن يكون هذا جواب قولهم: ﴿وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ سألوا الحسنة^(٥)؛ أي: الرحمة، فقال: هي ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾^(٦).

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٤٧٩ - ٤٨٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥٧٧).

(٢) في (أ): «فإنه».

(٣) «به»: من (ر).

(٤) في (ر): «أعلم أنه اختار».

(٥) في (ر): «الجنة».

(٦) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٥٣).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: خَصَّ بالعذاب مَنْ يشاء وعمَّ بالرحمة كلَّ شيء، وفيه مجالٌ لآمال العصاة؛ لأنهم إن لم يكونوا من المطيعين والعابدين والعارفين فهم شيء^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾: يحتل الزكاة المعروفة، ويحتل تزكية النفوس؛ قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩]؛ أي: طهرها بالتوحيد والطاعة والدين^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾: أي: بما أنزلناه على الأنبياء قبلك وعليك وعلى الأنبياء بعدك.

وقال الإمام القشيري: الآيات ما يكشفهم بها في الأقطار مما يقفون عليها بوجوه الاستدلال، وما يلاطفهم بها في الأسرار مما يجدونها في أنفسهم من فنون الأحوال^(٣).

(١٥٧) - ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَإِذْ بَرَأَ أَمْثَلُهُمْ وَعَزَّوهُمْ وَنَصَرَهُمْ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ﴾: وخصَّ من بينهم رسولنا محمد ﷺ، وهو بشارته له بمجيئه.

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (١/٥٧٦).

(٢) «والدين»: من (ف).

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (١/٥٧٧).

وقوله تعالى: ﴿أَلَنِّي الْأُمِّيَّ﴾: بغير همزٍ من النبوة وهي الرِّفْعَةُ، وبالهمز من النبأ وهو الخبر، ومعناه: المخبر عن الله تعالى. والأُمِّيُّ فيه أقاويلُ:

قيل: هو العربي؛ لأن الأميين هم العرب.

وقيل: لأنه كان لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسب، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، وقال النبي ﷺ: «إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسُبُ»^(١)، وكأنه نُسب إلى الأم؛ لأن النساء لا يكتبن، أو لأن الولد يُولد من أمّه غير كاتب ولا قارئ ولا حاسبٍ إلى أن يتعلم.

وقيل: منسوبٌ إلى الأُمَّة؛ أي: هو رأسُ الأُمَّة، والهاء تسقط في النسبة كما في المكي والمدني.

وقيل: لأنه كان من أمّ القرى وهي مكة.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: أظهر الله تعالى أنه لم يكن شيءٌ من فضائله وكمالِ علمه^(٢) من قبل نفسه وتعلُّمه وتكليفه واجتهاده وتصرفه، بل من الله تعالى، فإنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب^(٣).

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾: قدرونا في قوله: ﴿قَالَ يَمْوَسَىٰ إِنَّي أَصْطَفَيْتَكَ﴾ حديث ذكر رسولنا وأُمَّته، وكذلك في الإنجيل.

وقال الكلبي: ولما نزل: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ قال أهل الكتاب: نحن المتّقون وأهل الكتاب الأول والعلم القديم، فلما نزل:

(١) رواه البخاري (١٩١٣)، ومسلم (١٠٨٠/١٥)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) في (أ): «عقله».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (١/٥٧٧).

﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ قالوا: نحن نؤتي الزكاة، فلما نزل: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ قالوا: نحن آمننا بموسى والتسع الآيات^(١)، فأكذبهم الله تعالى وأخرجهم منها بقوله: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ يعني: محمداً، وقوله تعالى: ﴿الَّذِي يَخِذُّوَنَّهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ﴾ خاتم الأنبياء.

وقوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾: بالتوحيد وشرائع الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾: ما لا يُعرف في شريعته ولا سنته^(٢). وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: كان مكتوباً عندهم أنه يأمر بما أمر الله وينهى عما نهى الله. ويحتمل: يأمرهم بما هو معروف في العقل وشهادة الخلقة^(٣) وهو التوحيد، وينهاهم عما هو منكراً في العقل وشهادة الخلقة وهو الكفر والمعاصي^(٤). وقال الإمام القشيري رحمه الله: المعروف هو القيام بحق الله تعالى، والمنكر هو البقاء بوصف الحظوظ^(٥) وأحكام الهوى، والتعريض في أوطان^(٦) المنى، وما يُظهره العبد من تزويرات الدعوى^(٧).

(١) في (أ): «بموسى والآيات».

(٢) في (أ) و(ف): «في شريعة ولا سنة».

(٣) في (ر): «الحق»، والمثبت من باقي النسخ والمصدر.

(٤) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٥٩).

(٥) في (ف): «الحدود».

(٦) في (ف): «أوطار».

(٧) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٧٧). والعبارة الأخيرة فيه: (...) وما تصوره للعبد تزويرات

الدعوى، والمؤدى واحد.

وقوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾: قال يمان بن رثاب: هو ما أحلَّ الله تعالى من اللحوم والشحوم وكلّ ذي ظُفْرٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَيَحْرِمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ﴾: المَيْتَةُ والدَّم ولحم الخنزير ونحو ذلك.
وقوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾: قرأ ابن عامر: ﴿أَصَارَهُمْ﴾ على الجمع والباقون: ﴿إِصْرَهُمْ﴾ على التوحيد^(١)؛ لأنه جنس فيُصلح للجمع^(٢).
والإِصر: الثُّقل، وهو العهد أيضاً.

وقيل: هو ما وُضع عليهم من الأمور الشديدة.

وقيل: هو ما جعلوه على أنفسهم؛ قال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّتًا بَدَّعُوهَا﴾ [الحديد: ٢٧].
وقوله تعالى: ﴿وَالْأَغْلَالِ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾: قال الحسن رحمه الله: قالت اليهود: ﴿يَذُ اللَّهُ مَعْلُولَةً﴾ [المائدة: ٦٤]؛ أي: محبوسة عن عقوبتنا، فقال الله تعالى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ [المائدة: ٦٤]؛ أي: غُلَّتْ أيديهم إلى أعناقهم في النار، فأخبر أن أمة محمدٍ لما آمنوا به وصدَّقوه رَفَعَ تلك الأغلال عنهم^(٣).
وقيل: هي الشرائعُ الشاقَّة والأحكام الغليظة، كانت الأغلالُ في أعناقهم تمنعُهم عن تخطيها.

وقال سعيد بن جبیر: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾: ما غلَّظوا على أنفسهم من قطع أثر البول وتتبُّع العروق في اللحم^(٤).

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٥)، و«التبسير» (ص: ١١٣).

(٢) «للجمع»: ليس من (أ).

(٣) ذكره الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٦٠/٥).

(٤) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٥٨٣/٥).

وقالوا: من الإصر والأغلال: تحريمُ السبت، وتحريمُ الصلاة في غير المساجد، وتحتمُّ القصاص في القتل العمد من غير عفو ولا دية، وقطعُ موضع النجاسة، وفرضيةُ صلاة الليل، والزكاةُ ربعُ النَّصاب، والصلواتُ خمسون في اليوم واللييلة، ووجوبُ قطع اللسان في الكذب، ووجوبُ قطع الذَّكر في الزنا، وفَقْء العين في النظر إلى الأجنبية، وظهورُ الذنوب في السرِّ على أبواب البيوت.

وقال عطاء: كانت بنو إسرائيل إذا قامت تصلياً لله لبسوا المِسْوَاحَ، وغَلَّوا أيديهم إلى ^(١) أعناقهم؛ تواضعاً لله ^(٢)، وخوفاً من عذابه، وطمعاً في ثوابه، فرفعها الله تعالى عن هذه الأمة.

وقوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ﴾: قيل: عَظَّمُوهُ، وقيل: أعانوه، وقيل: حمَّوه، وقيل: مدَّحوه وأثنوا عليه.

وقوله تعالى: ﴿وَنَصَرُوهُ﴾: أي: على عدوِّه، وقيل: نصرُوا دينه.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾: أي: القرآن، فعملوا به ولم يخالفوه.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: أي: الفائزون بكلِّ خير، والناجون من كلِّ شرٍّ.

وقال ابن جريج ^(٣) وروح بن عبادة: لما نزل قوله: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ قال إبليس: أنا شيء، فنزل قوله تعالى: ﴿فَسَاكُتُهَا لِلَّذِينَ يَنْقُونَ﴾ الآية، فقالت

(١) في (أ) و(ف): «في».

(٢) ذكره الواحدي في «السيط» (٤٠٢/٩) عن عطاء عن ابن عباس.

(٣) في (أ): «سريج».

اليهود والنصارى: نحن نَنْقِي الله ونؤتي الزكاة ونؤمن بآيات الله^(١)، فنزل: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الَّذِي﴾ الآية، فعزلها عن إبليس واليهود والنصارى، وجعلها لأمة محمد ﷺ^(٢).

وقال القشيري رحمه الله: الذين يَتَّقُونَ أن يروا استحقاق الرحمة^(٣) بأفعالهم. وقال في قوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾؛ أي: ثقلهم، ولا شيء أثقل من كد التدبير، فمن نُقِلَ من كد التدبير إلى روح شهود التقدير فقد وضع عنه كل إصر^(٤) كبير. وقال في قوله جل جلاله: ﴿وَعَزَّزُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾؛ أي: اعزُّوا هم^(٥) بنصرة الرسول، وإلا فالنبي عليه السلام كان الله حسيبه، ومن كان استقلاله بالحق لم يقف انتعاشه على نصرة الخلق^(٦).

وقال عطية العوفي: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ولكن لا تجب إلا للذين يَتَّقُونَ، الذين هم موصوفون بما في هذه الآية، وذلك أن الكافر يُرزق ويُدفع عنه بالمؤمن لسعة رحمة الله للمؤمن، فيعيش فيها، فإذا صار إلى الآخرة وجبت للمؤمن خاصة، كالمستضيء بسراج غيره إذا ذهب صاحب السراج بسراج^(٧).

(١) في (ف): «ونؤمن بالله».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» عن ابن جريج وقتادة وأبي بكر الهذلي، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/١٥٧٩) عن الهذلي وقتادة. وزاد الثعلبي في «تفسيره» (٤/٢٩٠) عزوه لابن عباس، والواحدي في «الوسيط» (٢/٤١٦) لسفيان بن عيينة.

(٣) في (أ): «الرؤية»، والمثبت من باقي النسخ والمصدر.

(٤) في (ر): «أمر».

(٥) في (أ): «أي اعتزازهم» ووقع بدلاً منها في «اللطائف»: «اعترف لهم».

(٦) انظر: «لطائف الإشارات» (١/٥٧٦ - ٥٧٨).

(٧) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/٢٩٠).

(١٥٨) - ﴿قُلْ يَتَايَهَاتُ النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَايَهَاتُ النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾: أي: قل يا محمد: يا أيها الناس من العرب وأهل الكتابين وغيرهم: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ وقد قال ذلك للناس كلهم، بعضهم مشافهةً، وبعضهم برسله، وبعضهم بكتبه، وبعضهم بنشر الدعوة حتى بلغ ذلك بعضهم بعضاً، ودل ذلك على أن الكتاب من الغائب كالخطاب من الحاضر، وأن لسان الرسول كلسان المرسل، وأن ظهور الدعوة كبلوغ الدعوة، وكان كل نبي مبعوثاً إلى قومه، ورسولنا ﷺ إلى الناس كافة، بل إلى الإنس والجن.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: صفة قوله: ﴿اللَّهُ﴾ في قوله: ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾: كذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ ذكر إيمانه بالله، وأمره بأن يأمر الخلق^(١) بالإيمان بالله وبه.

﴿وَكَلِمَتِهِ﴾^(٢): قيل: القرآن.

وقيل: أي: الأمر والنهي والوعد^(٣) والوعيد والأحكام؛ لأنها بالكلمات.

(١) «الخلق»: ليس من (ف).

(٢) في (أ): «وكلمة الله»، وفي (ف): «وبكلماته».

(٣) في (ف): «الأمر والنهي وقيل أي الوعد».

وقيل: بالكتب المنزلة على سائر الأنبياء قبله، وهو صفة النبي ﷺ أنه يؤمن بذلك كله، ومن قرأ: (وكلمته)^(١) فهو عيسى عليه السلام؛ أي: يصدق هو بعيسى عليه السلام أيضاً.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: ﴿قُلْ يَتَّيْنَاهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ صرّح بما رقيناك إليه من المقام، وأفصح عما لقيناك من الإكرام، وقل: إني إلى جماعتكم مرسل، وعلى كافتكم مفضل، وديني لمن نظر ذلك واعتبر مفصل، وإلهي الذي له ملك السموات والأرض لا شريك له ينازعه، ولا شبيه له يضارعه، فله حق التصرف في ملكه بما يريد من حكمه، ومن جملة ما حكم وقضى، ونفذ به التقدير وأمضى، إرسالي إليكم لتطيعوه فيما يأمركم، وتحذروا ارتكاب ما يجرّكم، وإن مما أمركم به أنه قال لكم: آمنوا بالنبي الأمي لتفلحوا في الدنيا والعقبى، وتستوجبوا الزلفى والحسنى، وتخلصوا من البلوى والسوئى^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾: وصف متبّعيه في الآية الأولى ووعدهم بالفلاح، وأمرهم^(٣) باتّباعه في هذه الآية ليهتدوا^(٤)، ثم ذكر جماعة مهتدين من أمة موسى، وهو قوله تعالى:

(١٥٩) - ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾.

﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾: أي: يدعون الناس إلى الحق ﴿وبِهِ﴾

(١) نسبت لمجاهد. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٢).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٧٨).

(٣) في (أ): «وأمر»، وفي (ف): «وأمرنا».

(٤) في (أ) و(ف): «لتهتدوا».

يَعْدِلُونَ ﴿ وهم يعملون بالحق والعدل أيضاً؛ أي: وأمةٌ منهم على خلاف ذلك، وهو تسليّةٌ للنبي ﷺ في إجابة البعض دون البعض؛ أي: قوم موسى كانوا كذلك.

واختلف في هؤلاء من هم:

قيل: هم الذين كانوا متبّعين لموسى عليه السلام في زمانه.

وقيل: هم قوم منهم كانوا على الحق في عصر محمد ﷺ.

وقيل: هم قومٌ باقون على الحق إلى يوم القيامة.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما والكلبي والسدي: هم خلف الصين^(١).

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٥٠١/١٠) من طريق ابن جريج عن ابن عباس رضي الله عنهما، وإسناده منقطع. وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٩٤/٤)، والواحدي في «البيسط» (٤٠٣/٩)، عن ابن جريج والكلبي والربيع والضحاك وعطاء والسدي. وليس في الأخبار الواردة في هذه الحكاية ما يصح، قال الآلوسي في «روح المعاني» (٤١٤/٩): وضعف هذه الحكاية ابن الخازن [في «تفسيره» (٣٠٠/٢)] وأنا لا أراها شيئاً، ولا أظنك تجد لها سنداً يعول عليه ولو ابتغيت نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء. اهـ. قلت: يعرض بما جاء في بعض الأخبار: أن الله تعالى فتح لهم نفقاً في الأرض فساروا فيه حتى خرجوا من وراء الصين.

وقال أبو شعبة في «الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير» (ص: ٢٠٧ - ٢٠٨) عن قصة الصين هذه: وهي من خرافات بني إسرائيل ولا محالة... ونحن لا نشك في أن ابن جريج وغيره ممن رووا ذلك إنما أخذوه عن أهل الكتاب الذين أسلموا، ولا يمكن أبداً أن يكون متلقًى عن المعصوم ﷺ...

قال: والذي يترجح عندي أن المراد بهم أناس من قوم موسى عليه الصلاة والسلام اهتموا إلى الحق ودعوا الناس إليه، وبالحق يعدلون فيما يعرض لهم من الأحكام والقضايا، وأن هؤلاء الناس وجدوا في عهد موسى وبعده، بل وفي عهد نبينا ﷺ كعبد الله بن سلام وأضرابه... أما ما ذكره فليس هناك ما يشهد له من عقل، ولا نقل صحيح، بل هو يخالف الواقع الملموس، والمشاهد المتيقن، =

وروى وهبٌ عن كعبٍ: أن هؤلاء قومٌ كان عندهم اسمُ الله الأكبر، فدعوا الله به فاستجاب لهم، وساروا نحو المشرق واعتزلوا بني إسرائيل، فجعل الله لهم سرباً في الأرض، وجعل أمامهم المصاييح تضيء لهم بالنهار، فإذا أمسوا نزلوا وأظلم عليهم السَّرب، فإذا أصبحوا أضاءت لهم المصاييح، ومعهم نهرٌ من ماء يجري، وأجرى الله عليهم تعالى أرزاقهم، فساروا سنة ونصفاً حتى خرجوا من وراء الصين إلى أرضٍ طاهرةٍ طيبةٍ فنزلوها، وهم مختلطون بالسباع والوحوش والهوام^(١)، لا يضرُّ بعضهم بعضاً من أجل أنه ليست لهم ذنوبٌ، ولا يخالطُ طيرُنا طيرَهم، ولا سُبُعُنا سُبُعَهم، وهم متمسكون بالإسلام لا يعصون الله طرفةً عينٍ تصافحهم الملائكة^(٢).

وكذا قال الربيع بن أنس والضحاك، وقالوا: لما ظهر التحاسد والتباغي في بني إسرائيل، بعث الله تعالى إليهم جبريل عليه السلام، فأدخلهم في نفق^(٣) من الأرض لا يوصل إليهم، وجعل لهم فيه قناديل معلقة^(٤)، وجعل معهم نهرًا، فساروا من

= وقد أصبحت الصين وما وراءها معلوماً كل شبر فيها، فأين هم؟ ثم ما هذا النهر من الشهد؟ وما هذا النهر من الرمل؟ وأين هما؟ ثم أي فائدة تعود على الإسلام والمسلمين من التمسك بهذه الروايات التي لا خطام لها، ولا زمام؟ وماذا يكون موقف الداعية إلى الإسلام في هذا العصر الذي نعيش فيه، إذا انتصر لمثل هذه المرويات الخرافية الباطلة؟ إن هذه الروايات لو صحت أسانيدُها لكان لها بسبب مخالفتها للمعقول والمشاهد الملموس ما يجعلنا في حل من عدم قبولها فكيف وأسانيدُها ضعيفة واهية؟ وقد قلت غير مرة: إن كونها صحيحة السند فرضاً لا ينافي كونها من الإسرائيليات.

(١) «والهوام»: من (ر).

(٢) لم أجده، وظاهر أنه من الإسرائيليات، وانظر التعليق السابق.

(٣) في (ف): «نقب».

(٤) «معلقة»: من (ف).

بيت المقدس إلى مكانهم الذي هم فيه اليوم سنة ونصف سنة ألف فرسخ، فهم في منقطع من الأرض لا يوصل إليهم كأنهم بنو أب واحد، وليس لأحد منهم مالٌ دون صاحبه، يُمطرون بالليل ويضحون بالنهار ويزرعون^(١).

وقال الربيع: ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾ [الإسراء: ١٠٤] هي تلك الأرض ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾؛ أي: وعد الثانية وهو عيسى بن مريم عليه السلام ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾؛ أي: بقوم عيسى^(٢) ومحمد^(٣) جمعاً^(٤) يحشرون جميعاً في أمة محمد.

وفي «تفسير مقاتل بن سليمان» وهو لي^(٥) بإسناد نرويه^(٦) عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل عليه السلام ليلة المعراج: «إني أحبُّ أن أرى القوم الذين أثنى الله عليهم فقال: ﴿وَمَنْ قَوْمُ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾»، فقال: إن بينك وبينهم مسيرة ست سنين ذاهباً وست سنين راجعاً، وبينك وبينهم نهرٌ من رمل يجري كجري^(٧) السهم لا يقف إلا يوم السبت، ولكن سل ربك، فدعا الله النبي ﷺ وأمن جبريل عليه السلام، فأوحى الله تعالى إلى جبريل عليه السلام أن أجبه إلى ما سأل، فركب البراق فخطا خطواتٍ فإذا هو بين أظهر القوم، فسلم عليهم وسألوه: مَنْ أنت: قال: «أنا النبي الأمي»، قالوا: أنت الذي

(١) ذكره دون عزو مكِّي بن أبي طالب في «الهداية» (٢٥٩٣/٤) وزاد: (ليس يدخر أحد منهم دون أخيه شيئاً، مقيمين على عبادة الله عز وجل، لا يكون على ميت). وهو كسابقه.

(٢) في (ر): «عيسى».

(٣) في (ف): «جميعاً».

(٤) في (أ): «وبقولي» بدل: «وهو لي».

(٥) في (أ): «يرويه».

(٦) في (أ): «مجري».

بَشَّرَكَ بِكَ مُوسَى فَمَنْ هَذَا مَعَكَ؟ قَالَ: «أَوْتَرُونَهُ؟»^(١)، قالوا: نعم، قال: «هو جبريل»، قال: «فَرَأَيْتُ»^(٢) قُبُورَهُمْ عَلَى أَبْوَابِ دُورِهِمْ، فَقُلْتُ لَهُمْ: وَلَمْ ذَلِكَ؟» قالوا: ذَاكَ أَجْدَرُ أَنْ نَذْكُرَ الْمَوْتَ صَبَاحاً وَمَسَاءً، فَقَالَ: «إِنِّي أَرَى بَنِيَانَكُمْ مُسْتَوِيَةً» قالوا: لئَلَا يُشْرِفَ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ، وَلئَلَا يَسُدَّ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ الرِّيحَ وَالْهَوَاءَ، قَالَ: «فَمَا لِي»^(٣) لَا أَرَى لَكُمْ قَاضِيًا وَلَا سُلْطَانًا؟» قالوا: أَنْصَفَ بَعْضُنَا بَعْضًا وَأَعْطَيْنَا الْحَقَّ مِنْ أَنْفُسِنَا، فَلَمْ نَحْتَجْ إِلَى قَاضٍ يُنْصِفُ بَيْنَنَا، قَالَ: «فَمَا لِي أَرَى أَسْوَاقَكُمْ خَالِيَةً؟» قالوا: نَزَرُ جَمِيعًا وَنَحْصِدُ جَمِيعًا، فَيَأْخُذُ^(٤) كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُ مَا يَكْفِيهِ وَيَدَعُ الْبَاقِيَ لِأَخِيهِ، قَالَ: «فَمَا لِي أَرَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ»^(٥) يَضْحَكُونَ؟» قالوا: مَاتَ لَهُمْ مِيتٌ يَضْحَكُونَ سُرُورًا بِمَا قُبِضَ عَلَيْهِ مِنَ التَّوْحِيدِ، قَالَ: «فَمَا لَهُؤُلَاءِ الْقَوْمُ يَبْكُونَ؟» قالوا: قَدْ وُلِدَ لَهُمْ مَوْلُودٌ فَهُمْ لَا يَدْرُونَ عَلَى أَيِّ دِينٍ يُقْبَضُ، قَالَ: «فَإِذَا وُلِدَ لَكُمْ ذَكَرٌ فَمَاذَا تَصْنَعُونَ؟» قالوا: نَصُومُ لِلَّهِ شُكْرًا شَهْرًا، قَالَ: «فَالْأُنْثَى؟» قالوا: نَصُومُ لِلَّهِ شُكْرًا شَهْرَيْنِ، قَالَ: «وَلَمْ؟» قالوا: لِأَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَخْبَرَنَا أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى الْإِنْثَى أَعْظَمُ أَجْرًا مِنَ الصَّبْرِ عَلَى الذَّكَرِ، قَالَ: «أَفْتَزَنُونَ؟»، قالوا: وَهَلْ يَفْعَلُ ذَلِكَ أَحَدٌ، لَوْ فَعَلَ ذَلِكَ أَحَدٌ لَحَصَبَتْهُ^(٦) السَّمَاءُ مِنْ فَوْقِهِ، وَ^(٧) لَخُسِفَتْ بِهِ الْأَرْضُ مِنْ تَحْتِهِ، قَالَ: «أَفْتُرَبُّونَ؟»، قالوا: إِنَّمَا يُرَبِّي مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِرِزْقِ اللَّهِ تَعَالَى، قَالَ: «أَفْتَمْرَضُونَ؟» قالوا: لَا نَمْرَضُ

(١) فِي (أ): «إِذَا تَرَوْنَهُ».

(٢) «قَالَ فَرَأَيْتُ» مِنْ (أ) وَ(ف)، وَفِي (ر): «فَإِذَا».

(٣) فِي (ف): «فَمَا بَالِي».

(٤) فِي (أ): «فَيَأْخُذُ» بِدَلٍّ: «وَنَحْصِدُ جَمِيعًا فَيَأْخُذُ».

(٥) «الْقَوْمَ»: لَيْسَتْ فِي (ف).

(٦) فِي (أ): «لَخَصَبَتْهُ».

(٧) فِي (ف): «أَوْ».

ولا تُذنب، إنما يُذنب أمتك فيمضون ليكون ذلك كفارةً لذنوبهم، قال: «أولكم سباعٌ وهَوَامٌّ؟» قالوا: نعم، تمرُّ بنا ونمرُّ بها ولا تؤذينا ولا تؤذيها، فعرض عليهم النبي ﷺ شريعته والحجَّ، قالوا: وكيف لنا بالحج وبيننا وبينه مسافةٌ بعيدة؟ فدعا النبي ﷺ وأمن جبريل عليه السلام.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: فتطوى لهم الأرض طياً حتى يحجَّ من يحجُّ منهم مع الناس، فإذا انقضى^(١) الحج طويت لهم الأرض فرجعوا إلى بلادهم.

فلما أصبح النبي ﷺ أخبر من بحضرته من قومه وفيهم أبو بكر رضي الله عنه، فقال أبو بكر: فإن قوم موسى بالخير، فعلم الله ما في قلوبهم فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً﴾؛ أي: من هذه الأمة أمة ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١] فصام أبو بكر شكراً لله تعالى وأعتق عبداً، إذ لم يفضل الله أمة موسى على أمة محمد ﷺ^(٢).

وذكر الكلبي والضحاك وهبٌ وكعبٌ ومقاتلٌ وغيرهم: مرور النبي ﷺ بهم ليلة المعراج وتعليمه إياهم الصلوات الخمس والفتحة وسوراً من القرآن. وفي حديثنا للضحاك^(٣): أنهم كانوا يسبتون، فأمرهم أن يتركوا ويجمعوا.

(١٦٠) - ﴿وَقَطَعْنَهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ، آبَ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ

(١) في (أ) و(ف): «انقطع».

(٢) لم أجده.

(٣) في (ر) و(ف): «وفي حديث الضحاك».

أَنَاسٍ مَّشَرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلَوى كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١﴾

وقوله تعالى: ﴿وَقَطَعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ تنصرف الكناية إلى قوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ﴾؛ أي: فَرَقْنَاهُم اثنتي عشرة أسباطًا، والتاء للتأنيث، والهاء في ﴿عَشْرَةَ﴾ كذلك، وفيه لغتان: تسكين الشين، وكسرها في التأنيث من إحدى عشرة إلى تسع عشرة.

و﴿أَسْبَاطًا﴾ ليس بتفسير العدد، فإنه يُوحَد ولا يجمع، لكن تقديره: وقطعناهم أسباطًا أممًا اثنتي عشرة قطعة، و(قطعة) مضمرة، وتأنيث العدد لذلك، ويدل عليه: ﴿وَقَطَعْنَاهُمْ﴾، ومعناه: وفَرَقْنَاهُم اثنتي عشرة فرقة.

والأسباط: جمع سبط، وهم أولاد يعقوب، وقد شرحناه في سورة البقرة. و﴿أُمَمًا﴾: جمع أمة؛ أي: جماعات، وهو بدلٌ عن قوله: ﴿أَسْبَاطًا﴾ وترجمة له.

والآية في بيان إنعامه على بني إسرائيل، يقول: لَمَّا أخرجناهم من أرض مصر وأدخلناهم البرَّ جعلناهم اثنتي عشرة فرقة قبائل شتى؛ ليكون أمرٌ كل سبطٍ متصرفاً^(١) من جهة رئيسهم فيخفف الأمر على موسى فيما يحتاج إليه من تعريف أحوالهم، ويسهل عليه جمعهم إذا أراد جمعهم، ويعلم كل فريق مرجعهم في أمورهم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾: وكان ذلك في التيه، والانبجاس: خروج الماء الجاري بقله، والانفجار: خروجه بكثرة، وكان البدء بقله ثم يكثر بالانتساع.

(١) في (أ) و(ف): «متصرفاً».

وقوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾: فسرنا هذه الكلمات، وبيننا هذه القصة في قوله: ﴿وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ [البقرة: ٦٠].

وقوله تعالى: ﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاتِ وَالسَّلَوىٰ كُلُوا﴾: أي: وقلنا لهم: كلوا ﴿مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ مرَّ كلُّ ذلك في سورة البقرة.

(١٦١ - ١٦٢) - ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَازِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ يَمَّا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾: أي: قال لهم موسى بأمرنا ﴿وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَازِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ مر ذلك في سورة البقرة^(١).

(١) كل هذا مر في سورة البقرة كما قال المؤلف، لكن وقع هنا بعض الاختلاف في السياق، ولا شك أن لذلك حكمة وغاية، لأن القرآن هو كلام الله المعجز، فلكل حرف فيه غاية، وأي اختلاف بين لفظين فيه فيكون بلا شك لحكمة، فلا يصح مجرد الإحالة على المتقدم دون بيان علل الاختلاف، وقد أجمل ابن كمال باشا في تفسيره لهذه الآية بعض ما قيل في ذلك، فقال: (هناك): ﴿ادْخُلُوا﴾ وهنا: ﴿اسْكُنُوا﴾ والسكنى يتعقب الدخول، فأمرنا هناك بالمبدأ وهنا بما تسبب عنه، وهناك: ﴿فَكُلُوا﴾ بالفاء وهنا بالواو، وذلك لأن الدخول حالة منقضية فحسن ذكر فاء التعقيب بعده، والسكنى حالة مستمرة فحسن الأمر بالأكل معه لا بعده، وأثبت ﴿رَعَدًا﴾ هناك بعد الأمر بالدخول لأنها حالة قدوم فالأكل فيها ألدُّ، بخلاف السكنى المذكور هنا، فإنها حالة استقرار واطمئنان فليس الأكل فيها كالأكل عند الدخول، وأما تقديم الحِطَّة على الدخول وتأخرها عنه فلا تفاوت فيه لأن الواو =

وقوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ ﴿١﴾ مرَّ أيضاً.

(١٦٣) - ﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ﴿٢﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ ﴿٣﴾: أي: سل اليهوديا محمد عن القرية التي كانت قريبة من البحر وعلى شاطئه، وهي أيلة، وقيل: مدين، وكلاهما عن ابن عباس رضي الله عنهما^(١).

وقيل: طبرية.

وقال محمد بن إسحاق: هي مَقْنَا بين مدين وعَيْنُونَا^(٢).

= للجمع لا للترتيب، وأما قوله: ﴿وَإِذْ قِيلَ﴾ في مقام ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ على حذف الفاعل فللعلم، وأما (أَنْزَلْنَا) و(أَرْسَلْنَا)، و﴿يَفْسُقُونَ﴾ و﴿يَظْلِمُونَ﴾ فمن وإِدِّ أَحَد. اهـ. قلت: ولو كانت من واد واحد لما اختلف اللفظ، فلا بد من حكمة لها، والله أعلم.

(١) رواهما عنه الطبري في «تفسيره» (٦١/٢) و(٥٠٧/١٠) و(٥٠٩).

(٢) في (أ): «وعينوتا». والصواب المثبت، وهذا القول رواه الطبري في «تفسيره» (٥٠٨/١٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٥٩٧/٥)، عن ابن زيد. و(عينونا)، وتكتب أيضاً: (عينوني)، وقد تحذف الألف فيقال: (عينون)، ذكرها ياقوت في «معجمه» (٤/١٨٠)، وقال: من قرى باب المقدس، وقيل: قرية من وراء البنية من دون القلزم، في طرف الشام، ذكرها كثير:

إِذْ هُنَّ فِي غَلَسِ الظَّلَامِ قَوَارِبٌ أَعْدَادَ عَيْنٍ مِنْ عَيْنُونِ أُنَالٍ
يَجْتَزْنَ أَوْدِيَةَ الْبُصَيْعِ جَوَارِعًا أَجْوَارَ عَيْنُونَا، فَتَعَفَ قِبَالٍ

ومعنى سلمهم؛ أي: قل لهم: ألم يكن كذا^(١)؟ فإنهم يصدقونك.
 وقيل: ليس هذا بأمير بالسؤال، لكنه تمثيل، كأنه قال: لو سألتهم لقالوا لك كذا،
 وهو كقوله تعالى: ﴿سَلَبْنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْنَهُمْ مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ [البقرة: ٢١١]؛ أي: لو
 سألتهم أكان كذا؟ لأجابوك أنه كان كذا.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾: أي: يتعدّون حدَّ^(٢) الشرع في دينهم
 من ترك الاصطياد في يوم السبت، وكانوا يكتُمون هذه القصة لما فيها من الشُّبه^(٣)
 عليهم، فأطلع الله نبيّه ﷺ على ما كَتَمُوهُ وقَصَّ ذلك، وهو قوله تعالى:
 ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا﴾: قال ابن عباس: أي: ظاهرةً
 على وجه الماء^(٤). جمعُ شارع.

وقال السدِّيُّ: كان إذا كان يومُ السبت لم يبقَ حوتٌ في البحر إلا خرج،
 فيُخْرِجَنَّ خراطيمهنَّ من الماء، فإذا كان يومُ الأحد غِبْنَ^(٥).
 وقال الحسن: ﴿شُرَعًا﴾ على أبوابهم كأنها الكِبَاشِ الْبَيْضُ^(٦).
 وفي روايةٍ قال: إذا كان يومُ السبت جاءت الحيتان فتنطَّحت^(٧) بأفئيتهم كأنها
 المخاض، فإذا غابت الشمس ذهبَت فلا تُرى إلى السبت الآخر^(٨).

(١) في (ر): «هذا».

(٢) في (ف): «حق».

(٣) في (ف): «السيئة».

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٥٠٩/١٠).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (٦٣/٢).

(٦) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٢٧٢/٢).

(٧) في (أ): «فتنطحت».

(٨) رواه الطبري في «تفسيره» (٥٢٣/١٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٥٩٩/٥).

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْئُرُونَ لَا تُأْتِيهِمْ﴾: يقال: أُسْبِتَ: إذا دخل في يوم السبت، وسَبَتَ؛ أي: أقام السبت وعَمِلَ فيه ما يَعْمَلُ في السبت، وعلى المقابلة بقوله: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْئُرُونَ﴾ يكون قوله: ﴿وَيَوْمَ سَكَبَتْهُمْ﴾ مصدراً ليكون مقابلةً للفعل بترك الفعل، وظاهره أنه اسم للوقت في الأول.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾: أي: كانت لا تظهر لهم في غير يوم السبت، وكانوا يحتاجون إلى استخراجها عن مكائدها ومغائصها بالحيل.

﴿كَذَلِكَ نَبِّئُهُمْ﴾ مستقبل بمعنى الماضي؛ أي: امتحنّاهم به تغليظاً للمحنة عليهم بفسقهم ومجاهرتهم بالمعاصي عقوبةً لهم.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ابتلاهم بهذا النهي ليرى الخلق المطيع منهم والعاصي.

قال: وقال قائلون: ابتلاهم بذلك لما كانوا يفسقون في السر؛ ليكون فسقهم وتعدّيهم ظاهراً عند الخلق كما كان^(١) عند الله تعالى؛ لئلا يقولوا عند التعذيب: إنهم عذبوا بلا ظلم ولا تعدّ.

وقد بيّنا القصة في سورة البقرة: أنها كانت في زمن داود عليه السلام في أرض يقال لها: أيلة، مجاورة البحر بين المدينة والشام.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في رواية: كانت بين مدين والطور^(٢).

فكانت الحيتان تظهر على وجه الماء يوم السبت ولا تظهر في غيره، وقد نُهوا عن الاصطياد فيه ابتلاءً حيث اختاروا السبت وتركوا يوم^(٣) الجمعة، فمكثوا ما شاء الله

(١) «كان»: ليست في (أ).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٥٠٧/١٠).

(٣) «يوم»: ليست في (ف).

تعالى، ثم إن رجلاً منهم أخذ حوتاً فخرمه بخيطٍ ثم شدّه إلى وتدٍ بالساحل وربطه وتركه في الماء، فلما كان الغداة أخذه فأكله سرّاً، ففعلوا مثل ذلك وهم ينظرون لا يتناهون إلا بقيةً منهم ينهونهم، حتى ظهر ذلك في الأسواق وبيع علانية.

(١٦٤) - ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعَذَرَةَ إِلَىٰ رَبِّكُمُ وَلَعَلَّهُمْ يَنْقَوْنَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾: أخبر أن أمةً منهم - أي: جماعة - وهم الصالحون وعظوهم، فقال لهم جماعةٌ أخرى: لِمَ تَعِظُونَ هؤلاء مع إعراضهم عن القبول منكم واستخفافهم بوعظكم، وقد أشرفوا على أن يهلكهم الله تعالى فيصطلمهم، أو يعذبهم عذاباً شديداً غير مصطلم، ويحتمل: يهلكهم في الدنيا و^(١) يعذبهم في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا مَعَذَرَةَ إِلَىٰ رَبِّكُمُ﴾: قرأ عاصمٌ في رواية حفص: ﴿مَعَذَرَةَ﴾ نصباً وهو مفعولٌ له؛ أي: إعداراً إلى الله، وقرأ الباقر بالرفع^(٢)، ومعناه: موعظتنا معذرةً إلى الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَنْقَوْنَ﴾: أي: قالوا: نكرّر الوعظ إعداراً إلى الله فيما يلزمنا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتأميلاً لرجوعهم واثقائهم وانتهائهم. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا أثلاثاً: ثلثاً نهوا، وثلثاً قالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾، وثلثاً أصحاب الخطيئة، فما نجا إلا الذين نهوا^(٣).

(١) في (أ) و(ف): «أو».

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٦)، و«التيسير» (ص: ١١٤).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٥٢٠/١٠).

وقال السَّدي: فجعل الرجل يحفر الحَفيرة^(١) ويجعل لها نهراً إلى البحر، فإذا كان يوم السبت فَتَحَ النهر فأقبل الموج بالحيثان يضربها حتى يلقيها في الحَفيرة فلا تطيق الخروج، فإذا كان يوم الأحد جاؤوا وأخذوا فأكلوا وشووا وملَّحوا، وفشى ذلك فيهم، فقال لهم علماءهم: أتصيدون يوم السبت^(٢)؟! قالوا: إنما نصيدها يوم الأحد، فلم ينتهوا، فقال بعض الذين ينهون لبعض: ﴿لَمْ تَعْظُونَ قَوْمًا﴾ فأجابوا بما ذكرنا، فلما أبوا قال المسلمون: لا تُساكنوهم في قريتهم، فقسَموا القرية بجدارٍ؛ للمسلمين بابٌّ وللمعتدين بابٌّ، ولعنهم داود، فخرج المسلمون من بابهم والمعتدون من بابهم، فخرج المسلمون ذات يوم ولم يخرج المعتدون، فلما أبطؤوا تسوَّر عليهم المسلمون الجدار فإذا هم قردهٌ يَثْبُ بعضُهم على بعض، فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَآئِهِمْ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾^(٣).

(١٦٥) - ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾: أي: تركوا ما وُعظوا به ترك الناسي له، يعني: الذين أخذوا الصيد في السبت ﴿أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ خلَّصنا الذين كانوا ينهونهم عن هذا الفعل السوء.

وقوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي^(٤): ﴿بَئِيسٍ﴾ على وزن فعيل؛ أي: شديد، والبأس: الشدة وكذلك البؤس.

(١) في (أ) و(ف): «الحفرة» في الموضعين.

(٢) في (ر): «لم تصيدون» وفي (ف): «لم تصيدون يوم السبت».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٦٣/٢).

(٤) وهي أيضاً قراءة عاصم بخلاف عن أبي بكر، وسيأتي الوجه الآخر لأبي بكر.

وقرأ نافع: ﴿يَيْسُ﴾ على وزن بئر غير مهموز.

وقرأ ابن عامر كذلك مهموزاً.

وقرأ عاصم في رواية أبي بكر: ﴿يَيْسُ﴾ على وزن فَيْعَل^(١).

وعن مجاهد: (بائس) على وزن فاعل^(٢)، وفيه قراءاتٌ أُخْرُ شاذةٌ^(٣).

وقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾: أي: بخروجهم عن الطاعة^(٤).

(١٦٦) - ﴿فَلَمَّا عَتَا عَنْ مَآثُهُواَعْنَهُ فَلَنَاهُمْ كُفُوًا فَرَدَّةً خَسِيعَةً﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَا عَنْ مَآثُهُواَعْنَهُ﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: أبوا

أن يرجعوا عن المعصية^(٥). وقيل: أي: تمرّدوا.

وقوله: ﴿فَلَنَاهُمْ كُفُوًا فَرَدَّةً خَسِيعَةً﴾: أي: جعلناهم قردةً أذلاءً مُبْعِدِينَ عن

الناس، وقد شرحناه في سورة البقرة.

وقال عكرمة: أتيْتُ ابنَ عباس رضي الله عنهما يوماً وهو يبكي والمصحفُ في

حِجره، قلتُ: ما الذي يبكيك؟! قال: هذه الورقات، فإذا هو في سورة الأعراف،

قال: أتعرفُ أيلة؟ قلتُ: نعم، قال: كان بها حيٌّ من يهودٍ سِيقَتْ إليهم الحيتانُ يوم

(١) هي قراءة أبي بكر بخلاف عنه، والوجه الآخر عنه: ﴿يَيْسُ﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٦)،

و«التيسير» (ص: ١١٤).

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٢٩٨)، وذكرها ابن جني في «المحتسب» (١/ ٢٦٥) عن أبي رجاء.

(٣) وقد ذكر فيها أبو حيان رحمه الله في «البحر» (١٠/ ٣٧١) اثنتين وعشرين قراءة بسط ضبطها ثم

لخصها، وقد خرجناها جميعاً في تحقيقنا له، فلترجع فيه.

(٤) في (ف): «الطاعات».

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٩٨)، والبغوي في «تفسيره» (٣/ ٢٩٤).

السبت ثم غاصت فلا يقدرّون عليها حتى يغوصوا عليها بعد كدٍّ، فكانت تأتيمهم يوم السبت شُرْعاً بيضاً سماناً، فكان كذلك برهةً من الدهر، ثم إن الشيطان وسوس إليهم فقال: إنكم نُهيتم عن أكلها في يوم السبت، فخذوها فيه وكلوها في غيره، وقالت طائفة: بل نُهيتم عن أخذها وأكلها وتغييرها في يوم السبت، وكانوا كذلك حتى جاءت الجمعة الأخرى، فقال الأيمنون: الله الله ويلكم لا تتعرّضوا لعقوبة الله، واعتزلت ذات اليمين وسكتت، وقال الأيسرون: ﴿لَمْ تَعْطُوا قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ فقال الأيمنون: ﴿مَعَذَرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾^(١)، فإن انتهوا فهو^(٢) أحبُّ إلينا أن^(٣) لا يصابوا ولا يُهلكوا، وإن لم ينتهوا فقد أعذرنا^(٤)، فمضوا على الخطيئة، فقال الأيمنون: والله ما نبايتكم^(٥) الليلة في مدينتكم، وما نرى أن تصبحوا حتى يصيبكم الله بخسفٍ أو قذفٍ أو ببعضٍ ما عنده من العذاب، فلما أصبحوا ضربوا الباب عليهم ونادوهم فلم يجيبوا^(٦)، فوضعوا سلماً وأعلوا سورها رجلاً، فالتفت إليهم فقال: يا عباد الله! قروا والله تعاوى لها أذنان، ففتح الباب ودخلوا، فعرفت القروا [أنسابها من الإنس، ولا تعرف الإنس أنسابها من القرود، فجعلت القروا تأتي] نسيبها من الإنس فجعلت تبكي وتشم ثيابه، فيقولون: ألم ننهكم عن كذا؟ فيقولون برأسها: نعم ثم قرأ ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ اتَّخَذْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ فأسمع ذكر الذين نهوا ولا أسمع ذكر الذين سكتوا،

(١) في (ر): «يتقون»، بدل: «يتقون».

(٢) في (أ): «فإنه».

(٣) في (ر): «إذ».

(٤) في (ف): «عذرنا».

(٥) في (أ) و(ف): «لا نأيتكم».

(٦) في (أ) و(ف): «يجابوا».

ونحن نرى أشياء ننكرها فلا نقول فيها، فقال عكرمة: فقلت: جعلني الله فداك! أولاً تراهم قد كرهوا ما هم عليه فقالوا: ﴿لَمْ تَعْطُوا قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ﴾؟ - وفي رواية: قال لابن عباس رضي الله عنهما: إن^(١) لم يقل الله: أنجيهم، لم يقل أيضاً: أهلكهم - قال: فرضي وأمر بي فكسيت بُردين^(٢).

فصار عن ابن عباس رضي الله عنهما ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه أهلكهم كما أهلك المعتدين.

والثاني: أنه أنجاهم كما أنجى الناجين^(٣).

والثالث: أنه توقف فيهم.

وقال الحسن: نجت فرقتان وهلكت فرقة، وهم الذين أخذوا الحيتان^(٤).

وقال الحسن: وأيُّ نهْيٍ يكون أشدَّ من إثبات الوعيد، والتخويف بالإهلاك والعذاب الشديد، بقولهم: ﴿اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾؟

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: لسنا نعلم أنهم كانوا مهلكين أو ناجين، وليس لنا إلى معرفة ذلك حاجة، ولو كان لنا إليه حاجةً لبيَّنه^(٥) لنا، سوى أنه بيَّن مَنْ نجا منهم بالنهي وعذب مَنْ أخذ الحيتان بالظلم والفسق^(٦).

(١) في (ف): «إذ».

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٩٥٣)، ومن طريقه الطبري في «تفسيره» (٥١٥/١٠)، وما بين معكوفتين منهما. والرواية الأخرى ذكرها الواحدي في «السيط» (٤١٧/٩)، والبغوي في «تفسيره» (٣/٢٩٤). وفي رواية للطبري أيضاً (٥١٤/١٠) أن عكرمة قال: (فَلَمْ أَزَلْ بِهِ حَتَّى عَرَفْتُهُ أَنَّهُمْ قَدْ نَجَوْا، فَكَسَانِي حُلَّةً)، وفي أخرى: (فَمَا زِلْتُ أَبْصُرُهُ حَتَّى عَرَفْتُ أَنَّهُمْ نَجَوْا، وَكَسَانِي حُلَّةً).

(٣) في (ف): «الناهين».

(٤) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٤٢١/٢)، والبغوي في «تفسيره» (٣/٢٩٤).

(٥) في النسخ: «لبين»، والمثبت من «التأويلات».

(٦) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٧٣/٥).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: إذا انتهت مدة الإمهال فليس بعده غير الاستئصال، وإذا سقط العبد عن عين الله لم يتعيش بعده أبداً، ومن أسقطه حكمُ الملوك فلا قبول بعد الرد، وفي معناه أنشدوا:

إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكذب
إليه بوجهٍ آخر الدهر تُقبلُ^(١)

(١٦٧) - ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيَبْعَنَ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ مَن يَسُوءُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ قال الحسن رحمه الله: أي: أعلم^(٢)، وهو قول الزجاج^(٣).

وقيل: أسمع وأقسم.

وقوله تعالى: ﴿لِيَبْعَنَ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ مَن يَسُوءُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾: أي: ليسلطن عليهم؛ أي: اذكر يا محمد إذ أعلم الله أسلافهم على السنة أنبيائهم أنهم إن غيروا وبدلوا ولم يؤمنوا بالنبى الأمي سلط الله عليهم العرب يقاتلونهم إلى أن يسلموا أو يعطوا الجزية صاغرين، وهو من سوء العذاب؛ أي: أشده وأشقّه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾: لا يحتاج إلى إحضار أسبابه وإعداد آلاته.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: مع هذا لمن تاب وأناب، وقد حقق الله

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (١/٥٨١).

(٢) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٢/٢٧٣)، والواحدى في «البسيط» (٩/٤٢٢ - ٤٢٣).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/٢٨٧).

ذلك بما كان من رسول الله ﷺ من إجلالهم عن أوطانهم، وقتلهم وسبي نساءهم وولدانهم، ثم إنهم إلى الآن مقموعون، وكذا يكونون إلى يوم القيامة.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رُبُّكَ﴾؛ أي: قال ربك^(١).

وقال عطاء: وإذ ختم ربك.

(١٦٨) - ﴿وَقَطَّعْنَهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾: أي: فرقناهم في البلاد فرقا.

وقوله تعالى: ﴿مِّنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾: أي: دون الصالح.

﴿وَبَلَوْنَهُمْ﴾: أي: اختبرناهم، ومعناه: عاملناهم معاملة المختبر، وإن كان لا يخفى على الله شيء لكن ليظهر للناس ما كان علمه منهم.

وقوله تعالى: ﴿بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾: أي: الأحوال الحسنة من السَّعة والخصب، والأحوال السيئة من الضيق والجذب؛ أي: صرَّفناهم على أحوال شتى.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: أي: ليرجعوا عن الباطل إلى الحق؛ أي: فلم يرجعوا.

وقال الكلبي: ﴿مِّنْهُمْ الصَّالِحُونَ﴾: هم الذين وقعوا وراء الصين، وهم الذين ذكرناهم في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩] ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾؛ أي: من هاهنا من اليهود^(٢).

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/٢٩٠)، والبغوي في «تفسيره» (٣/٢٩٥). ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/١٦٠٣) عن مجاهد وسفيان الثوري.

(٢) ذكره الواحدي في «البيسط» (٩/٤٢٧)، والبغوي في «تفسيره» (٣/٢٩٥). وقد ذكرنا أن قصة الصين ليست سوى خرافة لا أصل لها في هذا الدين.

وقال عطاء ومجاهد: ﴿مَنْهُمْ أَصْلَحُونَ﴾ الذين آمنوا بمحمد وعيسى ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ^(١).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ﴿وَقَطَعْنَاهُمْ﴾ يحتمل تفريقهم في وقت واحد في أماكن، ويحتمل تفريقهم في الأهواء، ويحتمل: وقطعناهم في الأرض أمماً أمةً بعد أمةٍ وعصراً بعد عصرٍ، ولذلك قال: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾.

وقال في قوله تعالى: ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: هذا يخرج على وجوه:

اختبرناهم بالنعمة ليرجعوا إلينا بالشكر والثناء، وبالمحنة ليعرفوا قدرتنا فيرجعوا إلينا بالتضرع والدعاء.

ويحتمل: وبلوناهم بهذا وبهذا^(٢) ليتقرر عندهم أن غيرهم أملكُ بهم من أنفسهم، فيرجعوا إليه بتسليم النفوس لأمره وحكمه.

ويحتمل: وبلونا المؤمن والكافر بالحسنات والسيئات، [حتى إذا رآوا الاستواء في الدنيا وفي الحكمة التفرق بينهم، فيضطروا إلى الإيمان بالبعث لذلك.

ويحتمل: أنه إنما جعل النعيم في الدنيا ليعرفوا لذة الموعود^(٣) في الآخرة، وكذلك الشدة ليعرفوا به^(٤) ألم العذاب في الآخرة، فابتلاهم بالأمرين ليرغبوا في نعيم الجنة ويحذروا عقوبات النار^(٥).

(١) ذكره دون عزو لقائل ابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٢٧٩).

(٢) في (ف): «وهذا».

(٣) في (ف): «اللذة الموعودة»، والمثبت من باقي النسخ و«التأويلات».

(٤) «به»: ليست في (ف).

(٥) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٧٦-٧٧)، وما بين معكوفتين منه.

(١٦٩) - ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالذَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَنْقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾: أي: قومٌ سوءٍ يَخْلِفُونَ الْأَوَّلِينَ، ويستعمل الساكن في الذم، والخلف بفتح اللام: قومٌ أخيارٌ يَخْلِفُونَ الْأَوَّلِينَ، ويستعمل هذا في المدح^(١).

قال لبيد:

وَبَقِيَْتُ فِي خَلْفٍ كَجِلْدِ الْأَجْرِبِ^(٢)

وقد جاء بالتسكين في المدح في شعرِ حسان رضي الله عنه:

لَنَا الْقَدَمُ الْأُولَى إِلَيْكَ وَخَلْفُنَا لَأَوْلَنَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَابِعٌ^(٣)

وقوله تعالى: ﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾: أي: التوراة، وهم علماء اليهود ورثوه من أسلافهم، يقول: جاء بعد هذه الطبقة الذين كان فيهم الصالحون ومنهم دون ذلك قومٌ أرديأٌ مذمومون^(٤).

(١) وقد يستعمل هذا في الذم عند البصريين، قال الآلوسي رحمه الله في «روح المعاني» (٩/ ٤٤٠): وعن البصريين أنه يجوز التحريك والسكون في الرديء، وأما الجيد فبالتحريك فقط، ووافقهم أهل اللغة إلا الفراء وأبا عبيدة.

(٢) عجز بيت في «ديوان لبيد» (ص: ٢٤ و ٢٦)، و«الأمثال» لأبي عبيد القاسم بن سلام (ص: ٢٧٦)، و«إصلاح المنطق» (ص: ١٧)، و«تفسير الطبري» (١٠/ ٥٣٥)، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٤٧٢)، و«البحر المحيط» (١٠/ ٣٧٧)، وكلهم أنشدوه في مجيء الساكن في الذم، لكن الآلوسي رحمه الله في «روح المعاني» (٩/ ٤٤٠) أورده في مجيء المتحرك في الذم، وصدر البيت:

ذهب الذين يُعَاش في أكنافهم

(٣) انظر: «ديوان حسان» (ص: ٣١٠).

(٤) في (ف): «مذنبون».

وقوله تعالى: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾: العَرَض: حطام الدنيا، وما يصيب الإنسان منها فهو شيءٌ يُعَرَضُ فيزول ولا يبقى، و﴿هَذَا الْأَدْنَى﴾ بمعنى: هذه الدنيا، وإنما ذُكر لأنه لم يذكر الدار أو الحياة، فكأنه جعله صفة للمكان أو للشيء، يعني: يأخذون الرُّشَى لتغيير الأحكام وتعطيل الحدود من العلية والسفلة.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾: أي: إذا عوتبوا على ذلك اعتذروا بما^(١) يرجونه من سعة رحمة الله، ويقولون: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾: أي: يصرون على ذلك ولا يمتنعون، بل إذا وجدوا شيئاً^(٢) مثله لم يتركوه.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾: استفهامٌ بمعنى التقرير؛ أي: قد أخذ عليهم الميثاق في كتابهم أن لا يقولوا على الله إلا الحق؛ أي^(٣): الصدق وقرأوا^(٤) ذلك، والله تعالى ما وعدهم في التوراة المغفرة مع الإصرار.

وقال مالك بن دينار رحمه الله: يأتي على الناس زمانٌ إن قصّروا عما أمروا به قالوا: سيغفر لنا لم نشارك بالله شيئاً، كلُّ أمرهم إلى الطمع، خيرهم فيهم^(٥) المداهن، فهم من هذه الأمة أشباه الذين ذكرهم الله تعالى ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾^(٦).

(١) في (أ): «مما».

(٢) في (أ): «إذا أمكنهم».

(٣) «الحق أي»: زيادة من (ف).

(٤) في (ر): «وقرأوا».

(٥) في (أ): «فيه».

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا آخِرَةَ حَيزٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾: أي: خير من أخذ العَرَضَ للذين يَتَّقُونَ الشركَ والمعاصي.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: بما في كتابهم أنه كذلك.

(١٧٠) - ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَآفَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾: قرأ عاصم في رواية أبي بكر بالتخفيف، والباقون بالتشديد^(١).

والإمساكُ والتَّمْسِكُ والتَّمسُّكُ والاستمساكُ كلُّه: الاعتصام والتعلُّقُ بالشيء. ذكر الممدوحين بعد المذمومين، فقال: والذين يعتصمون بالتوراة، قال مجاهد ومقاتل بن حيان والكلبي: هم مؤمنو أهل الكتاب: عبدُ الله بن سلام وأصحابه، أحلُّوا حلاله وحرَّموا حرامه، ولم يتخذوه مأكلَةً ولم يحرفوه ولم يكتُموه^(٢). وقال عطاء: هم أمة محمد عليه السلام، والكتابُ: القرآن^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَآفَامُوا الصَّلَاةَ﴾: أي: يقيمون الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾: في معنى جوابِ أولِ الآية؛ لأن معناه: نوفيهم أجورهم لأنَّا لا نضيع أجرَ المحسنين، وهو تعليل فيُغني عن إظهار ذكر المعلول.

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٧)، و«التيسير» (ص: ١١٤).

(٢) ذكره بهذا اللفظ عن مجاهد البغوي في «تفسيره» (٢٩٧/٣)، ورواه عنه الطبري في «تفسيره»

(٥٤٢/١٠) بلفظ: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ من يهود أو نصارى.

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٣٠١/٤)، والبغوي في «تفسيره» (٢٩٧/٣).

وقال الإمام القشيري رحمه الله في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ سَيَعْفِرُ لَنَا﴾: من أمارات الاستدراج ارتكابُ الزَّلَّةِ، والاغترارُ بزمان المهلة، وحملُ تأخير العقوبة على استحقاق الوصلة.

وقال في قوله: ﴿وَالَّذَارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾: يعني: التعرُّضُ لِنَفَحَاتِ فَضْلِهِ سُبْحَانَهُ خَيْرٌ لِمَنْ أَمَّلَ جُودَهُ مِنْ مَقَاسَةِ التَّعَبِ لِمَنْ بَذَلَ فِي تَحْصِيلِ هَوَاهُ مَجْهُودَهُ.

وقال في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾: التمسُّكُ بالكتاب إيمان، وإقامة الصلاة إحسان، فبالإيمان وجدوا الأمان، وبالإحسان وجدوا الرِّضوان. ويقال: التمسُّكُ بالكتاب نَجَاةٌ، وإقامة الصلاة مناجاةٌ، والمناجاة في الحال والنجاة في المآل.

وقال في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾: مَنْ نَقَلَ إِلَى بَابِهِ قَدَمَهُ لَمْ يُعْدَمْ فِي الْآجِلِ نِعَمُهُ، وَمَنْ رَفَعَ إِلَى سَاحَاتِ جُودِهِ هِمَمَهُ نَالَ فِي الْحَالِ كَرَمَهُ^(١).

(١٧١)- ﴿وَإِذْ نَنقَضْنَا الْجِبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَنقَضْنَا الْجِبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾: الآيةُ في تمرُّدهم أيضاً كالتِي مضت، ومعناه: وإذ قلَّعْنَا الْجِبَلَ مِنَ الْأَصْلِ وَحَرَّكَناه وَرَفَعناه فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ، وَقَدْ تَنَقَّ ما فِي الْجِرَابِ: إِذَا اقْتَلَعَهُ عَنْ أَصْلِهِ وَنَثَرَهُ، وَتَنَقَّتِ الْمَرْأَةُ تَتَّقُ تَتَوَقَّأً - مِنْ حَدِّ دَخَلَ - وَهِيَ مُتَنَقِّ: إِذَا كَثُرَ وَلَدُهَا، وَأَصْلُهُ: الزَّرْعَةُ وَالتَّقْضُ، وَتَنَقَّتِ الدَّابَّةُ صَاحِبَهَا حِينَ تَعْدُوا بِهِ؛ أَيْ: حَرَّكَته وَرَفَعَتَهُ.

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (١/٥٨٣).

وقوله تعالى: ﴿وَطَوَّأُ اللَّهُ لَكُمْ بِهِنَّ﴾: أي: علموا أنه واقع عليهم إن لم يقبلوا ما في التوراة قاله الحسن^(١). وقيل: غلب ظنهم بذلك.

وقوله تعالى: ﴿خُذُوا مَاءَ تَابُوتِكُمْ فِي يَوْمٍ﴾: أي: قلنا لهم: اقبلوا، وذلك حين جاء موسى بالتوراة وفيها أحكام شاقة فامتنعوا عن قبولها، ووعظهم موسى عليه السلام فلم يقبلوا، فأمر الله تعالى برفع الطور عليهم.

وقيل: هو الطور الذي سمع موسى وهو عليه كلام الله تعالى وأُعطي الألواح.

وقيل: هو جبل من جبال فلسطين فرسخاً في فرسخ.

وقيل: هو الجبل الذي عند بيت المقدس.

وقيل لهم: إن قبلتم وإلا وقع عليكم فرضحكم، فقبلوا.

وقوله تعالى: ﴿يَقُوَّةٌ﴾ يدلُّ على أن قوة الفعل مع الفعل، فقد ذكرها مع الأخذ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: وقد بينا القصة وفوائدها مستوفاةً في سورة البقرة عند قوله عز وجل: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾.

قال القرطبي رحمه الله: قصارى من أتى جبراً أن ينكص على عقبيه طوعاً، كذلك أهل الكتاب لما قبلوا الكتاب بإجبار التكليف ما لبثوا حتى قابلوه بالتحريف^(٢).

(١٧٢) - ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾.

(١) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٢/٢٧٦).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (١/٥٨٤).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ بُنَىٰ آدَمَ ۖ﴾ الآية: قال القشيري رحمه الله: أخبر بهذه الآية عن سابق عهده وصادق وعده، وتأكيده وده بتعريف عبده، وفي معناه أنشدوا:

أفديك والأيام أيضاً كلها يفدين أياماً عرفتكَ فيها^(١)

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: تكلم الناس في تأويل هذه الآية، فمنهم من يقول: ذلك عندما خلق آدم أخرج من يكون من ذريته مثل الذرّ فعرض عليهم قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۖ﴾ لكنهم اختلفوا.

فمنهم من يقول: جعلوا بالمبلغ الذي يجري على مثله القلم، وهو قول الحسن. ومنهم من يقول: عرض ذلك على الأرواح دون الأبدان.

ومنهم من يقول: [بلا عرض] إنه خلق صنفين فقال: هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي، وهؤلاء إلى النار^(٢) ولا أبالي.

ومنهم من يقول: عرض الكل على ما عليه أحوالهم وآجالهم في الدنيا. والله أعلم كيف كانت القصة، أو^(٣) كيف ترى أحوال الفقر والغنى في الذر، أو^(٤) كيف قال: هؤلاء في كذا ولا أبالي، مع اجتماعهم على القول بـ ﴿بَلَىٰ ۖ﴾؛ لقوله تعالى^(٥): ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۖ﴾.

وقد رأينا في تلك الأخبار ما كان حفظ الناس - وبخاصة حفظ العوام وأهل

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٨٥).

(٢) في (أ) و(ف): «هؤلاء للجنة... وهؤلاء للنار».

(٣) في (أ) و(ف): «و».

(٤) في (ف): «و».

(٥) في «التأويلات»: (لما عرض عليهم قوله)، بدل: «لقوله تعالى».

الضعف عن تبليغها - ألزَمَ وأعظمَ في النفع وأبعدَ عن الشبهة من روايتها وتكُلَّفِ الكشف عنها، فنسأل الله العصمة عمَّا به الهلاكُ، والتوفيقَ للنُّصح بما به نجاةُ كلِّ سامع، ودفعُ كلِّ شبهةٍ وحيرةٍ، فإنه لا قوة إلا به.

ومنهم مَنْ ذهب في تأويل الآية إلى أن المعروف من أمرِ ذرية آدم هو الأخذُ عن الأصلاب والأرحام على ما يكون إلى يوم القيامة، وطوَّلَ وبَيَّنَ على وجهٍ يتعذَّرُ ضبطُهُ على أكثر أهل العلم^(١).

لكن ذكر الشيخ أبو بكر القفال الشاشي رحمه الله في^(٢) معنى ذلك ما فهمه وحفظه، والوقوفُ على حاصله أسهلُّ وأقرب، قال: ذكر الله تعالى في هذه الآية والآيات التي قبلها أن الله عز وجل بالغ في إلزام الحجة وإبلاء العذر بما جمع لهم من دلائل السمع ودلائل العقل، وذكر بعد أخذ الميثاق على بني إسرائيل أخذ الميثاق على الكلِّ بالعقول التي ركبها فيهم وأشهدهم بها على أنفسهم بقوله ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾؛ أي: أخرجهم من أصلاب آبائهم ونقلهم إلى أرحام أمهاتهم، إلى أن بلغوا بتقليب الأحوال عليهم من نطفة ثم علقة ثم مضغة مخلقة وغير مخلقة إلى أن بلغهم إلى الحال التي يصلحون فيها للتكليف بكمال عقولهم، وأشهدهم بما شاهدوه^(٣) من آثار الصنعة فيهم وفي غيرهم على أنفسهم^(٤) أن لهم صانعاً قادراً حكيماً عالماً فرداً قد ابتدأهم بالنعمة، وأن له بحكم ملكه أن يستأديهم الشكرَ على نعمه بالطاعة فيما يأمرهم به، ثم أتبع ذلك إرسال الرسل وإنزال الكتب

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٨٢ - ٨٣).

(٢) في (ر): «أن»، بدل: «في».

(٣) في (ف): «شاهدوه».

(٤) «أنفسهم»: ليست في (أ).

بما فيها من أوامره ونواهيه، وقال لهم تقديرًا: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ أنت ربُّنا، بما ظهر عليهم من آثار الصنعة، وهو كما يُتأول عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسِخُ بِحِجِّهِ﴾ [الإسراء: ٤٤] وقوله تعالى: ﴿يَسِخُ اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١] على معنى: أنه ما من شيء إلا وهو بما عليه من آثار الصنعة ينزّه الله تعالى عن الأضداد والأنداد، فأقيمت شهادة الآثار مقامَ شهادة النطق؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يُنْطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ﴾ [الجاثية: ٢٩]، فجعلَ لِمَا لا لسان له نطقاً وكلاماً، وهكذا جعل ما يوجد كلُّ إنسان عليه في نفسه من تعاقب الأحوال كالشهادة منه على نفسه، وما أجراه الله تعالى عليه من ذلك كالقرار له به، وكأنه قال لهم بما أجراه عليهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ وكأنهم قالوا بلسان أحوالهم: ﴿بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ وتمَّ الكلام هاهنا، ثم قال: ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ عن أن لنا رباً وصانعاً إذا حُوسِبتم يوم القيامة على التوحيد. وعامة المفسرين وجمهور الصحابة والتابعين على إخراج ذرية آدم من ظهره وأخذ الميثاق عليهم في عصره.

وقد رُوي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول - وقد سئل^(١) عن هذه الآية فقال -: «خلق الله تعالى آدم ثم مسح ظهره فاستخرج منه^(٢) ذريته فقال: خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذريته فقال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون»، فقال رجل: يا رسول الله! فقيم العمل؟ فقال: «إن الله تعالى إذا خلق الرجل للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عملٍ من أعمال أهل الجنة فيدخله الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله

(١) في (أ): «سئل»، وفي (ف): «يسأل»، بدل: «يقول وقد سئل».

(٢) «منه»: ليست في (أ) و(ف).

بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ فَيُدْخِلُهُ النَّارَ»^(١).

وذكر هذه القصة على البسط والاختصار والإقلال والإكثار: ابن عباس وابن مسعود وأبي بن كعب والكلبي والحسن وعطاء وأبو العالية وسعيد بن جبير وابن جريج ومعمّر وعبد العزيز بن يحيى والسدي وعوف ومقاتل ومجاهد وأبو مسلم الخولاني وعطاء بن يسار^(٢) وعكرمة وأبو قلابة وداود بن أبي هند رضي الله عنهم.

قال أبو العالية: جمّعهم جميعاً يومئذ، فجعلهم أزواجاً^(٣)، ثم صورهم، ثم استنطقهم وأخذ عليهم الميثاق ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ قال: فإني أشهد عليكم السماوات السبع والأرضين السبع، وأشهد عليكم أباكم آدم أن تقولوا يوم القيامة ما لم تعلموا أنه لا إله غيري فلا تشركوا بي شيئاً، وإني سأرسل إليكم رسلاً يذكرّونكم عهدي، وأنزل عليكم كتبي، قالوا: نشهد أنك إلهنا لا إله غيرك، فأقروا يومئذ بالطاعة ورفع إليهم أباهم آدم فنظر إليهم فرأى منهم الغني والفقير وحسن الصورة ودون ذلك، فقال: يا رب لو شئت لسويت بين عبادك؟ فقال: إني أحب أن أشكر، ورأى منهم الأنبياء مثل الشرج، وخُصّوا بميثاق

(١) رواه الإمام مالك في «الموطأ» (٢/ ٨٩٨ - ٨٩٩)، والإمام أحمد في «المسند» (٣١١)، وأبو داود (٤٧٠٣)، والترمذي (٣٠٧٥)، وصححه ابن حبان (٦١٦٦). لكن أعله ابن عبد البر في «التمهيد» (٣/ ٦) بجهالة الراوي عن عمر، ثم قال: لكن معنى هذا الحديث قد صح عن النبي ﷺ من وجوه كثيرة ثابتة يطول ذكرها، من حديث عمر وغيره. اهـ. قلت: وثمة حديث آخر عن عمر - رضي الله عنه - في هذا المعنى أورده الآلوسي (٩/ ٤٦٧) هنا، ورواه الحاكم في «المستدرک» (١٦٨٢)، والبيهقي في «الشعب» (٤٠٤٠)، وأعله بأبي هارون العبدی، وقال الذهبي في «تلخيص المستدرک»: أبو هارون ساقط.

(٢) في (أ): «السائب».

(٣) في (ر) و(ف): «أرواحاً».

آخر في الرسالة والنبوة، قال: وفي هذا الميثاق قوله: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] وقوله تعالى: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذَرِ الْأُولَى﴾ [النجم: ٥٦] وقوله: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِّنْ عَهْدٍ﴾ [الأعراف: ١٠٢]^(١).

وفي رواية ابن جريج: خرجت كل نفس خلقت للجنة نقيّة بيضاء، وكل نفس خلقت للنار مظلمة سوداء، وهم أمثال الخردل في صور الذر، فقال: يا عباد الله أجيئوا، يا عباد الله^(٢) أطيعوا، فقالوا: لبيك اللهم لبيك، فأخذ عليهم العهد بالإيمان به وبأمره^(٣).

واختلفت الروايات في مكان ذلك:

قال ابن عباس رضي الله عنهما: بدخناء الطائف^(٤).

وقال سعيد بن جبير: بنعمان السحاب عند عرفات^(٥).

(١) رواه عبد الله بن أحمد في زوائده على «المسند» (٢١٢٣٢)، والطبري في «تفسيره» (٥٥٧/١٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٥١٦/٥)، والآجري في «الشرية» (٤٣٥)، والحاكم في «المستدرک» (٣٢٥٥)، والبيهقي في «القضاء والقدر» (٦٦)، والضياء في «المختارة» (١١٥٨)، جميعهم من طريق أبي العالية عن أبي بن كعب رضي الله عنه موقوفاً.

(٢) في (ف): «يا عبادي» في الموضعين.

(٣) رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (٥٥٦/١٠) من طريق ابن جريج بعضه عن ابن عباس وبعضه عن مجاهد.

(٤) رواه ابن سعد في «الطبقات» (٢٩/١) دون كلمة: «الطائف»، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٥٤٥/٥) لكن بلفظ: (بدخناء أرض بالهند)، ورواه الطبري في «تفسيره» (٢٢٥/١٣) (ت: محمود شاكر) بلفظ: (بدخناء أرض بالهند).

(٥) رواه الفاكهي في «أخبار مكة» (٢٩١١). ورواه الطبري في «تفسيره» (٥٥٦/١٠) بلفظ: (بنعمان ونعمان من وراء عرفة). ورواه (٥٥٠/١٠) من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس بلفظ: (بطن =

وقال الكلبي: بين مكة والمدينة والطائف.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في رواية أخرى: بحراء خلف جبل عرفة^(١).
وروي أنه كان بعدما رفع إلى السماوات على باب الجنة في صحراء عرضها
مسيرة ثلاثين ألف سنة.

وقال مقاتل: إن الله تعالى مسح صفحة ظهر آدم اليمنى فأخرج منه ذرية بيضاء
كهية الذرّ يتحرّكون، ثم مسح صفحة ظهره اليسرى فأخرج منه ذرية سوداء كهية
الذرّ وهم ألف أمة، فقال: يا آدم هؤلاء ذريتك آخذ^(٢) ميثاقهم على أن يعبدوني
ولا يشركوا بي شيئاً وعليّ رزقهم، فقال: نعم يا رب، فقال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ
قَالُوا بَلَىٰ﴾ ثم أفاضهم إفاضة القِداح فقال للبيض: هؤلاء في الجنة برحمتي وهم
أصحاب اليمين وأصحاب الميمنة، وقال للسود: هؤلاء في النار ولا أبالي وهم
أصحاب الشمال وأصحاب المشئمة، ثم أعادهم جميعاً في صلب آدم، فأهل القبور
محبوسون حتى يخرج أهل الميثاق كلّهم من أصلاب الرجال وأرحام النساء، فمن
مات منهم صغيراً دخل الجنة بمعرفته [بربه]، ومن بلغ العقل منهم أخذ ميثاقه أيضاً
للمعرفة بربه والطاعة له، ومن لم يؤمن إذا بلغ العقل لم يُغن عنه الميثاق الأول شيئاً،
وكان العهد الأول حجةً عليه، قال تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِّنْ عَهْدٍ﴾^(٣).

= نعمان، واد إلى جنب عرفة). ونعمان السحاب: جبل بالقرب من عرفة، يقال: إنه يتصل بوادي
القرى ونواحيه، وهما جبلان، ونسبه إلى السحاب لأنه مُشرف عالٍ، والسحاب يركد دون أعلاه.
انظر: «مجمع الغرائب» للفارسي (مادة: دحن).

(١) لم أقف عليه، وانظر ما تقدم من روايات عن ابن عباس.

(٢) في (ف): «أخذت».

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٧٢ - ٧٤)، وما بين معكوفتين منه.

(١٧٢) - ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾.

وقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ تقديرها: وإذ أخذ ربك من ظهور بني آدم، وما رويناه أنه أخذ من ظهر آدم، فالتوفيق بينهما: أن الأخذ من ظهر آدم: أن الله أخرج ذرية آدم بعضهم من بعض إلى آخر الدنيا على ما يتوالدون، فكان ذلك أخذاً من ظهره، وكان ذلك في أدنى مدة كما يكون في موت الكل بالنفخ في الصور وحياة الكل بالنفخة الثانية، وكما في تعليم أسماء الأشياء لآدم: وما ذكر في الحديث: «مسح الله ظهره^(١) بيده» فهو مسح ملك بأمره.

وعلى هذا ما روي: «خلق الله تعالى جنة عدن بيده»^(٢) و«غرس شجرة طوبى بيده»^(٣) وهو كما يقال: ضرب الأمير فلاناً؛ أي: ضربه ضارباً بأمره.

وقوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾: أي: ذرية بني آدم، وهم ذرية آدم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما وأبي بن كعب: فجعلهم سامعين ناطقين عقلاء مختارين، فإنه أشهدهم ولا يصحُّ الإشهاد إلا على الموصوفين بهذه الصفات، ولأنه خاطبهم فدلَّ على سماعهم، وأجابوا فدلَّ على كلامهم، وقالوا: ﴿شَهِدْنَا﴾ فدلَّ على علمهم وعقلهم، وقال: ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ فدلَّ على اختيارهم^(٤)، وليس

(١) في (أ) و(ف): «ظهر آدم».

(٢) رواه الطبراني في «الأوسط» (٥٥١٨) و«الكبير» (١٢٧٢٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وجوّد إسناده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٩٧/١٠). ورواه الحاكم في «المستدرک» (٣٤٨٠) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٥٢٨/١٣) من حديث معاوية بن قرّة عن أبيه مرفوعاً، وإسناده ضعيف جداً.

(٤) روى معناه عن ابن عباس وأبي الطبري في «تفسيره» (٥٥٦/١٠ - ٥٥٧).

بمستبدعٍ مستبعدٍ وضعُ هذه الأشياءِ في الذرِّ الصغارِ من قدرة الله اعتباراً بنمل سليمان وهدهده، وكلام عيسى في المهد، وشهادة الرضيع ليوسف عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾: أي: فقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ استفهامٌ بمعنى التقرير، كما في قول الشاعر:

أَلَسْتُ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونٌ رَاحٌ^(١)

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا بَلَى﴾: وهو في سؤال النفي إثباتٌ فكان إقراراً، وكان من الكلِّ فكان إيماناً منهم؛ لأنه إقرارٌ وتصديق، والإقرار قولهم: ﴿بَلَى﴾ والتصديق ثبت بمقتضى قوله: قالوا: ﴿شَهِدْنَا﴾ لأن الإقرار بدون الاعتقاد لا يكون شهادةً، ولهذا رد الله تعالى على المنافقين قولهم: ﴿قَالُوا أَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ١] فقال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]، وقولهم: هو رسول الله، لم يكن كذباً، لكن ذكروا أنهم يشهدون به ولم يكن لهم اعتقادٌ، فلم تكن لهم شهادةً، فكانوا كاذبين في دعوى الشهادة.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾: أي: فعلنا هذا لئلا تقولوا يوم القيامة، قرأ أبو عمرو يقولوا بياء المغايبة، وكذا بعده: ﴿أَوْ يَقُولُوا﴾^(٢)؛ أي: لئلا يقول هؤلاء.

وقرأ الباقون بقاء المخاطبة خطاباً لهؤلاء؛ أي: لئلا تحتجوا فتقولوا: إِنَّا كُنَّا غَافِلِينَ عَنْ أَنْ لَنَا رَبًّا وَصَانِعًا.

(١) البيت لجريز، وهو في «ديوانه» (٨٩/١).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٨)، و«التيسير» (ص: ١١٤).

(١٧٣) - ﴿أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَهِيَكَنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾: أي: لئلا تقولوا يا معشر المشركين من العرب: إنما أشرك آبائنا من قبل خلقنا وكنا أولاداً صغاراً من بعدهم فأتبعناهم، ولم يكن لنا علمٌ بهم^(١) بأنهم على الباطل وأن الحق في غيره.

وقوله تعالى: ﴿أَفَهِيَكَنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾: أي: آبائنا والعيبُ لهم لا لنا، يقول: سدّدتُ عليهم^(٢) هذا البابُ بأخذ هذا الميثاق، على قول عامة المفسرين، وينصب الدلائل العقلية والسمعية على قول القائلين^(٣).

(١٧٤) - ﴿وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْآيَاتِ﴾: أي: كما بينّا هذا نبين جميع ما يحتاجون إليه قطعاً لعذرهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: أي: وليرجعوا عن الشرك إلى التوحيد، والواو زائدة عند بعضهم، ومقرّرة عند آخرين بتقدير إضمار قبلها أو بعدها.

فإن قالوا: ما وجه إلزام الحجة بقوله: ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ ونحن لا نذكر هذا الميثاق وإن تفكرنا.

(١) «بهم»: من (ف).

(٢) في (أ) و(ف): «عليكم».

(٣) في (أ): «القائلين».

قلنا: الله تعالى أنسانا ذلك ابتلاءً؛ لأن الدنيا دارٌ غيبٌ وعلينا الإيمانُ بالغيب، ولو تذكّرنا ذلك زال الابتلاء، وليس ما يُنسى تزول به الحجة ويثبت به العذر؛ قال الله تعالى في أعمالنا: ﴿أَخْصَنُ اللَّهُ وُسُوءَهُ﴾ [المجادلة: ٦] وأخبر أنه سينبئنا به وقال: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾ [ق: ٢٢]، ولأن الله تعالى جدّد هذا العهد وذكرنا هذا المنسيّ بإرسال الرسل وإنزال الكتب بعده، فلم يثبت العذر.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: وَسَمَ بِالْجَهْلِ قَوْمًا فَالْزَمَهُم بِالْإِشْهَادِ الْحُجَّةَ، وَأَكْرَمَ بِالتَّوْحِيدِ آخَرِينَ فَأَشْهَدَهُم وَاضِحَ الْمَحْجَّةِ.

وقال: أَسْمَعَهُمْ وَفِي نَفْسٍ مَا أَسْمَعَهُمْ أَحْضَرَهُمْ لِمَا أَسْمَعَهُمْ، ثُمَّ أَخَذَهُمْ عَنْهُمْ فِيمَا أَحْضَرَهُمْ، وَقَامَ عَنْهُمْ فَأَنْطَقَهُمْ بِحُكْمِ التَّصْرِيفِ^(١)، وَحَفِظَ عَلَيْهِمْ بِحُسْنِ التَّوَلَّى أَحْكَامَ التَّكْلِيفِ، فَكَانَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَهُمْ مَكْلَفًا، وَعَلَى مَا أَرَادَ مُصَرِّفًا، وَبِمَا اسْتَخْلَصَهُمْ لَهُ مَعْرِفًا، وَبِمَا رَقَّاهُمْ إِلَيْهِ مُشْرِفًا.

وقال في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾: إِذَا سَدَّتْ عَيُونُ الْبَصِيرَةِ فَمَا يَنْفَعُ وَضُوحُ الْحُجَّةِ^(٢).

(١٧٥) - ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾: اتَّصَالُهَا بِمَا قَبْلُهَا

(١) كذا في النسخ، وفي «لطائف الإشارات»: (التعريف).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٨٥ - ٥٨٧).

أنه ذكر إيمان الكل يوم الميثاق، ثم ذكّر اليوم بكفر بعضهم، فبيّن^(١) أن ذلك الإيمان ليس بمبقٍ على الإيمان، فإن إيمان بلعم مع الآيات لم يكن مُبْقِيًا له على الإيمان.

واختلف المفسرون فيمن نزلت فيه^(٢) هذه الآية على أقوال:

قال ابن عباس رضي الله عنهما وابن مسعود ومقاتل والكلبي ومجاهدٌ ووهبٌ وعطاءٌ وعبد الكريم بن أبي المخارق والضحاك: هو بلعم^(٣)، واختلفوا في نسبه:

قال ابن عباس والكلبي: هو ابن باعوراء^(٤).

وقال ابن مسعود ومجاهد: هو ابن أبر^(٥).

وقال عطاء: هو ابن باعر^(٦).

وقال مقاتل: هو بلعم بن باعورا بن مان بن لوط^(٧).

وقال ابن عباس رضي الله عنهم: كان من مدينة الجبارين^(٨) التي مرّت قصتهم في سورة المائدة.

(١) في (أ) و(ف): «ثم بين».

(٢) «فيه»: من (أ) و(ف).

(٣) رواه الطبري (١٠/٥٦٦ - ٥٦٩) عن ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وعكرمة.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/٥٦٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/١٦١٧) عن ابن عباس.

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/٥٦٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/١٦١٦) عن ابن مسعود،

وقيده الطبري في إحدى الروايات عن ابن مسعود (أبر) بضم الباء، ولعل فيه إشارة إلى أن باقي الروايات بالفتح.

(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/٥٦٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/١٦١٨) عن ابن عباس.

(٧) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٢/٥٨٩) (ط: دار التفسير)، وفيه: (مأب)، بدل: «مان». وفي «تفسير

مقاتل» (٢/٧٤): بلعام بن باعورا بن ماث بن حراز بن آزر.

(٨) رواه الطبري (١٠/٥٦٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/١٦١٦ - ١٦١٧).

وقال مقاتل: كان من مدينة بلقاء، وسميت بلقاء لأن رجلاً ملكها يقال له: بالق^(١).

وكان من قصته: أن موسى عليه السلام أراد أن يغزو ملكاً، فقال الملك لبلم: إن موسى رجلٌ حديدٌ، ومعه جنودٌ كثير، فإن ظهر علينا أهلكنّا، فادعُ الله تعالى أن يردهَ عنا، فقال: إن فعلتُ ذلك ذهبَ دنيائي وآخرتي، فلم يزلوا به حتى دعا عليهم، قالوا: فوقع موسى وبنو إسرائيل في التَّيِّه بدعائه، فلما انقضت المحنة قال موسى: يا رب! بأيّ ذنب وقعتُ لنا هذه المحنة؟ قال: بدعاء بلعم، قال: فكما سمعتَ دعاءه عليّ فاسمع دعائي عليه، فدعا موسى عليه فسלخه الله مما كان عليه، ونزع منه معرفته فخرجت من صدره كحمامة بيضاء، وذلك قوله ﴿فَأَنسَلَخَ مِنْهَا﴾^(٢).

وهذا كلامٌ مختلٌ، واحتباسهم في التَّيِّه كان بقولهم: ﴿فَأَذْهَبَ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] لا بدعاء بلعم، وكيف يُستجاب دعاء بلعم وقد أنسلخ من الآيات، ولأنه قد دعا على موسى وقومه بالباطل، وكيف دعا موسى على بلعم بزوال الإيمان وكان مبعوثاً إلى الناس ليدعوهم إلى الإيمان^(٣).

وقال مقاتل: قال له ملك بلقاء: ادع الله على موسى، فقال: إنه من أهل ديني لا أدعو عليه، فنصب خشبةً ليصلبه، فلما رأى ذلك خرج على أتانٍ له ليدعو عليه،

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٧٤)، و«تفسير الثعلبي» (٤/ ٣٠٤).

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٣٠٦) عن مقاتل، وسياقه في «تفسير مقاتل» مختلف وسيأتي.

(٣) وقد رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٥٧٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٦) عن ابن عباس بسند جيد وسياق لا إشكال فيه، ولفظه: هو رجلٌ من مدينة الجبارين يقال له: بلعم، وكان يَعْلَمُ اسمَ الله الأكبر، فلما نزل بهم موسى أتاه بنو عمّه وقومُه، فقالوا: إن موسى رجلٌ حديد، ومعه جنودٌ كثيرة، وإنه إن يظهر علينا يهلكنا، فادع الله أن يردهَ عنا موسى ومن معه. قال: إني إن دعوت الله أن يردهَ موسى ومن معه ذهبَ دنيائي وآخرتي! فلم يزلوا به حتى دعا عليهم، فسלخه الله مما كان عليه، فذلك قوله: ﴿فَأَنسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِرِينَ﴾.

فلما عاين عسكرهم قامت به الأتان ووقفت فضربها، فقالت: لَمْ تَضْرِبْنِي وهذه نار قد منعْتَنِي أن أمشي، فرجع فأخبر الملك بذلك، فقال الملك: لتدعَوَنَّ عليه وإلا^(١) لأُصلِّبَكَ، فدعا على موسى عليه السلام بالاسم الأعظم أن لا يدخل المدينة، فاستُجيب له، وبلغ ذلك موسى صلوات الله عليه فدعا الله تعالى أن ينزع منه الاسم الأعظم فنزعه، فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَنسَلَخَ مِنْهَا﴾^(٢).

وقال وهب: لَمَّا نَزَلَ موسى أرضَ كنعان من الشام بين أريحا وبين أردنَّ وجبلِ البلقاء، والتيه بين هذه المواضع، أرسل بالقي إلى بلعم بن باعوراء^(٣) وكان يسكن قريةً من قرى البلقاء^(٤)، فقال: إِنَّا رهبنا هؤلاء القومَ لأنه قد جاز البحرَ ليُخرجنا من بلادنا ويُنزلها ببني إسرائيل، ونحن قومُك وليس لك بقاءٌ بعدنا، ولا خير لك في الحياة بعدنا، وأنت مجابُّ الدعوة، فاخرج وادْعُ عليهم، فقال بلعم: ويلكم، نبيُّ الله معه الملائكةُ والمؤمنون! كيف أدعو عليهم وأنا أعلم من الله ما أعلم؟ فلم يزالوا يترَفَّقون به ويتضرَّعون إليه، وكانت له امرأةٌ أشبُّ منه وكان^(٥) يحبُّها ويطيعها، ففسدوا إليها هدايا فقبلتها، ثم أتوها فقالوا لها: قد نزل بنا ما تَرَيْنَ فكَلِّمي بلعم في هذا، فقالت لبلعم: إن هؤلاء القومَ حقاً وجواراً وحرمةً، وليس مثلك أسلمَ جيرانه عند الشدائد، وقد كانوا محسنين إليك، وأنت جدير أن تكافئهم وتهتمَّ بأمرهم، فقال لها: لولا أني أعلم أن هذا الأمر من عند الله لأَجَبْتُهم، فقالت: انظر في أمرهم، فلم

(١) في (أ) و(ف): «أو».

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٧٤ - ٧٥).

(٣) في (أ): «باعور».

(٤) في (ف): «بلقاء» هنا وفي الموضع السابق.

(٥) «وكان»: من (ف).

تَزَلُّ بِهِ حَتَّى ضَلَّ وَغَوَى، وَكَانَ اللَّهُ تَعَالَى عَزَمَ لَهُ فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ عَلَى الرُّشْدِ فَفَتَنَتْهُ، فَرَكِبَ حِمَارَهُ فَوَجَّهَهَا إِلَى الْجَبَلِ الَّذِي يُطْلَعُهُ^(١) عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَلَمَّا^(٢) سَارَ غَيْرَ بَعِيدٍ رَبَضَتْ أَتَانَهُ، فَتَزَلَّ عَنْهَا فَضْرِبَهَا فَقَامَتْ، فَلَمْ تَسِرْ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى رَبَضَتْ، فَفَعَلَ بِهَا مِثْلَ ذَلِكَ، فَلَمْ تَسِرْ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى رَبَضَتْ، فَضْرِبَهَا فَأَذَنَ لَهَا فَكَلَّمَتْهُ^(٣) فَقَالَتْ: يَا بَلْعَمَ! إِنِّي مَأْمُورَةٌ فَلَا تَظْلِمْنِي، انْظُرْ إِلَى مَا بَيْنَ يَدَيْكَ، أَلَا تَرَى أَنَّ الْمَلَائِكَةَ أَمَامِي يَرُدُّونِي عَنْ وَجْهِي هَذَا، يَقُولُونَ: أَتُذْهِبِينَ إِلَى نَبِيِّ اللَّهِ وَالْمُؤْمِنِينَ يَدْعُو عَلَيْهِمْ بَلْعَمَ؟ فَخَلَّى سَبِيلَهَا ثُمَّ انْطَلَقَ حَتَّى أَشْرَفَ عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ مُشْرِفٍ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَجَعَلَ يَدْعُو عَلَيْهِمْ، فَلَا يَدْعُو بِشَيْءٍ مِنَ السُّوءِ إِلَّا صَرَفَ اللَّهُ بِهِ لِسَانَهُ إِلَى قَوْمِهِ، وَلَا يَدْعُو لِقَوْمِهِ بِخَيْرٍ إِلَّا صَرَفَ اللَّهُ لِسَانَهُ بِهِ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَقَالَ لَهُ قَوْمُهُ: أَتَدْرِي مَا تَصْنَعُ؟ فَقَالَ هَذَا مِمَّا لَا أَمْلِكُ، وَهَذَا شَيْءٌ قَدْ غَلَبَهُ اللَّهُ عَلَى لِسَانِي^(٤).

وَفِي رِوَايَةٍ: فَجَاءَتْهُ لَمْعَةٌ فَذَهَبَتْ بِبَصَرِهِ فَعَمِيَ، فَقَالَ لَهُمْ: قَدْ ذَهَبَتِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ^(٥).

وَفِي رِوَايَةٍ: فَلَمَّا وَقَفَتِ الْأَتَانُ وَكَلَّمَتْهُ قَالَتْ لَهُ: انْظُرْ أَمَامَكَ، فَإِذَا بِمَلَكٍ قَدْ قَطَعَ عَلَيْهِ الطَّرِيقَ، فَخَرَّ سَاجِدًا حَتَّى انْكَشَفَ عَنْهُ الْمَلَكُ، فَانْطَلَقَ لَوَجْهِهِ حَتَّى قَدَّمَ عَلَى الْقَوْمِ، فَقَرَّبَ قَرْبَانًا فَتَقَبَّلَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُ، وَأَوْحَى إِلَيْهِ: أَنْ مُوسَى خَيْرُ تِي فَانْصَرِفْ، فَارْجِعْ فَمَا زِلَ الْوَابِ حَتَّى فَتَنُوهُ فَقَالَ: لَمْ يَبْقَ إِلَّا الْمَكْرُ وَالْحِيلَةُ، اعْلَمُوا أَنَّهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ

(١) فِي (أ): «يُطَالَعُهُ».

(٢) فِي (ف): «فَمَا».

(٣) فِي (ف): «حَتَّى كَلَّمَتْهُ».

(٤) رَوَاهُ ابْنُ عَسَاكِرَ فِي «تَارِيخِهِ» (١٠/٤٠٣ - ٤٠٥).

(٥) ذَكَرَهَا ابْنُ عَسَاكِرَ فِي «تَارِيخِهِ» (١٠/٤٠٥).

فإذا أذنب مذبذبهم ولم يغيّر عامّتهم عمّهم البلاء، فدُسّوا في عسكرهم النساء فإني لا أعلم فتنةً أوشكَ صرعةً للرجل من المرأة، فانظروا نساءً لهنّ جمالٌ فأعطوهن السِّلَع ثم أرسلوهن إلى العسكر يبعثهنّ فيه، ولا تمنع امرأةً نفسها عن رجلٍ أرادها، فإنه إن زنى^(١) منهم رجلٌ كفيتُموهم، ففعلوا، فمرت كشي بنت صوراً على زمريّ بن شلوم^(٢) من سبط شمعون بن يعقوب، فأعجبته فأخذ بيدها فأدخلها قُبّة فوقع عليها، فأظهر الله تعالى عليهما كاهن^(٣) بن هارون، وكان أعطي بسطةً في الخلق وقوةً في البطش^(٤)، فأخذ حربته فدخل عليهما وهو فوقها فطعنهما بحربته حتى أنفذهما، ثم رفعهما كذلك في الهواء وأقبل الناس وأنكروا وغيّروا، فواقاهم الله العذاب، وأقبل موسى وقومُه وحاربوا أهل بلقاء وغلبوهم وقتلوا منهم وأسروا، وأتوا ببلعم أسيراً فقتل، فجاءوا بما قبل من الهدايا وهي عشرُ صحافٍ ذهباً مملوءةٌ ورقاً وغنمها، وذلك قوله تعالى ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾^(٥).

قيل: هي اسم الله^(٦) الأعظم.

(١) في (أ): «يزني».

(٢) في (أ) و(ر): «مري بن شولا»، وفي (ف): «موسى بن شولا». والمثبت من المصادر. انظر: «تفسير الطبري» (١٠/٥٨٠)، و«تفسير الثعلبي» (٤/٣٠٥)، و«تاريخ دمشق» لابن عساكر (١٠/٤٠٥)، و«تفسير البغوي» (٣/٣٠٢).

(٣) في (أ): «كاهن». والذي في المصادر السابقة أن اسمه: (فتحاص بن العيزار بن هارون).

(٤) في (أ): «الجسم».

(٥) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٠/٤٠٣ - ٤٠٦) عن وهب، وبنحوه الطبري في «تفسيره» (١٠/٥٧٩ - ٥٨١) من طريق ابن إسحاق عن سالم بن أبي النضر، ونسب في «تفسير الثعلبي» (٤/٣٠٥)، و«تفسير البغوي» (٣/٣٠٢) لابن عباس وابن إسحاق والسدي وغيرهم.

(٦) في (ف): «هو الاسم».

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: العلم^(١).

وقال الحسن: الدين الحق.

وما يذكر في بعض الروايات أنها الوحي والكتاب وكان نبياً، فما ينبغي أن يقال ذلك أو يُقبل؛ لأن أنبياء الله تعالى^(٢) مختارون على العلم، قال الله تعالى ﴿وَلَقَدْ آخَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢] وقال تعالى ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ فمن المحال أن يكون منهم الانسلاخ عن الدين.

وقيل: الآيات: صحف إبراهيم وكان يحفظها.

وقيل: هي الكرامات، وكان إذا نظر إلى السماء رأى إلى العرش، وإذا نظر إلى الأرض رأى إلى ما تحت الثرى، وكان ولياً له كرامات.

قوله تعالى: ﴿فَأَنسَلَخَ مِنْهَا﴾؛ أي: ترك الآيات وفارقها، فكان كالمنسلخ الخارج من الشيء.

قال وهب: الآيات:

أولهن: أنه دعا الله تعالى في المرة الأولى فعزم له على رُشده أن لا يفعل.

والثانية: كلام الأتان.

والثالثة: مقام^(٣) الملك.

والرابعة: الإخبار بأن موسى عليه السلام خيرة الله تعالى من خلقه^(٤) وما ينبغي أن يُدعى عليه وعلى قومه.

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٥٧٦/١٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٦١٨/٥).

(٢) في (ف): «لأن الأنبياء».

(٣) في (أ) و(ف): «كلام».

(٤) في (أ): «خير الله».

فانسَلْخ منها كُلَّهَا.

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾: أي: لَحِقَهُ فَعَرَّه.

قال الأخفش: (اتَّبَعَهُ) بقطع الألف: صار معه وَتَبِعَهُ، و(اتَّبَعَهُ) بالتشديد: أخذ^(١) في أثره أدركه أو لم يُدركه؛ قال تعالى في الأول بمعنى الإدراك: ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُتَرْقِبِينَ﴾ [الشعراء: ٦٠]؛ أي: أدركوهم.

وقوله تعالى: ﴿فَكَاتَ﴾ أي: فصار، كما في قوله: ﴿فَكَاتَ مِنَ الْمُعْرِقِينَ﴾ [هود: ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿أَبْنَىٰ وَأَسْتَكْبَرُوا ۖ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤] أو: كان في علم الله تعالى أنه ينسلخ من آياته فيكون من الكافرين حين ينسلخ^(٢).
وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾: أي: لأَعْلَيْنَا درجته في الناس بتلك الآيات.

وقال مجاهد: لرفعنا الكفر عنه^(٣).

وقال عطاء: لعصمناه من المعاصي^(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَكُنْهُ أَخْلَدًا إِلَى الْأَرْضِ﴾ قال سعيد بن جبير والسدي: أي: رَكَنَ^(٥).

(١) في (أ): «أخذه».

(٢) «حين ينسلخ»: ليس في (أ).

(٣) انظر: «تفسير الثعلبي» (٣٠٨/٤)، و«النكت والعيون» (٢/٢٨٠)، ورواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (٥٨٣/١٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٦١٩/٥).

(٤) انظر: «البيضا» (٤٦٥/٩).

(٥) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (٥٨٤/١٠)، وعن سعيد بن جبير ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٦١٩/٥).

وقال مقاتل: أي: رضي بالدنيا^(١).

وقيل: أي: أحبَّ الجاه في الدنيا، وقد خَلَدَ؛ أي: دام، وأَخْلَدَ؛ أي: سَكَنَ واطمأن.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾: أي: ترك هداه واختار^(٢) ما دَعَتْهُ إِلَيْهِ نَفْسُهُ وهواه من حَبِّ دنياه.

وقال أبو رَوَيْقٍ: أي: اختار الدنيا على الآخرة.

وقال الكلبي: أي: اتَّبَعَ مَسَافِلَ الأمور وترك معاليها.

وقال يمان بن رِثَاب: أي: اتَّبَعَ امرأته؛ لأنها حملته على الخيانة^(٣).

وقال عطاء: أي: أطاع شيطانه^(٤).

وقوله تعالى: ﴿فَمَثَلُ الْكَلْبِ إِنْ تَحَمَّلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ﴾: اللَّهْثُ من حَدِّ عِلْمٍ^(٥)، وهو التنفُّس الشديد الذي قد يلحق الإنسان من شدة الإعياء، وهو في الكلاب طبعٌ، وقد يكون من العطش؛ أي: إِنْ حَمَلَتْ عَلَيْهِ لتطرده لَهْثَ وَإِنْ تركته لَهْثَ، فسواءٌ عنده الطردُ وتركه، فكذا هذا الخبيثُ سواءٌ وَرَدَتْ عليه زواجرُ^(٦) آيات الله أو لم تَرِدْ فهو بحاله.

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٧٥ / ٢).

(٢) في (ر): «واتبع».

(٣) في (أ): «الجنابة».

(٤) انظر هذه الأقوال جميعها في «تفسير الثعلبي» (٣٠٨ - ٣٠٩).

(٥) وفي «مختار الصحاح»: بابه قَطَعَ، ومثله في «القاموس» قال: لَهْثَ كَمَنَعَ لَهْثًا وَلَهْثًا: أخرج لسانه

عطشاً أو تعباً أو إعياءً. وذكر أنه يكون من باب سَمِعَ بمعنى العطش.

(٦) في (ر): «واردات».

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الكلب منقطعُ الفؤاد فهو يلهث إن حُمِلَ عليه أو^(١) لم يُحْمَلْ عليه، كذلك مثلُ الذي يترك الهدى لا فؤاد له^(٢).

وقال عطاء: ﴿إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ﴾ ينبج، وإن لم تحمل عليه فكذلك^(٣).

وقال القتيبي: كُلُّ شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش، إلا الكلب فإنه يلهث في الكلال والراحة، والمرض والصحة، والعطش والرِّي، ضرب الله مثلاً للذي كفر^(٤) بآياته أنه ضالٌّ وعُظُّ أو لم يُوعِظ، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سِوَاكُمْ عَلَيْهِمْ أَدْعَاؤُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صُمُتُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٣]^(٥).

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾: أي: ليتعظوا.

وقوله: ﴿فَأَنْسَلَخَ مِنْهَا﴾ دليلٌ على أن شقاوته كانت من جهته، وهو أنه انسلخ من الآيات، وكانت مراعاته إياها^(٦) حافظةً له، فلمَّا تركها أتبعه الشيطان، وهو كاللص لا يصل إلى العير^(٧) ومعهم الرعاة، فإذا فارقوهم وصل إليهم اللص، ولمَّا جهل قدرها واستخفَّ بها حُرْمُها وتغيَّرت عليه أحواله؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

(١) في (ف): «وإن».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٥٨٦/١٠) عن ابن جريج.

(٣) انظر: «تفسير الثعلبي» (٣٠٩/٤).

(٤) في (ر): «مثلاً للذين كفروا».

(٥) انظر: «تأويل مشكل القرآن» (ص: ٢١٦)، و«تفسير الثعلبي» (٣٠٩/٤).

(٦) في (ر): «لها».

(٧) في (ف): «الغنم».

وكان انسلأخه عنها بسبب طاعته امرأته في الميل إلى الدنيا، وأخذ الحطام من أهل الزمان، ولا شيء أضرُّ بالعالم من الطمع؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ [التوبة: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ [الأعراف: ١٦٩] وقال الأنبياء: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [الشعراء: ١٠٩].

وقوله: ﴿كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ لم يسوّه بالكلب، بل جعل مثله كمثل الكلب في المعنى الذي ذكر، ولا مساواة بينهما، بل كلبٌ واحدٌ خيرٌ من ألفٍ أو^(١) أكثر من بلعم، فإن الكلب عارفٌ بالله موحدٌ لله لا يعاقب بالنار، وبلعم كافرٌ بالله خالدٌ في عقوبة الله تعالى.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: قيل: إنما ضرب المثل بالكلب لأن من عادة الكلب أنه^(٢) يذُلُّ ويخضع لكلِّ أحد؛ لِمَا يطمع أن ينال منه أدنى شيء، ولا يبالي ما يصيبه من الذلِّ والهوان، وكذا المكذَّب بالآيات لا يبالي بما يلحقه من الذلِّ بعد أن يصيب من الدنيا شيئاً.

ويُشَبِّهُ أن يكون وجهه ضرب هذا المثل: أن من عادة الكلب أنه إذا ظفر بالجيف ينكبُّ لها^(٣)، حتى إذا دُعِيَ إلى غيرها لم يلتفت، فكذا الكافر^(٤).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: إن الحق سبحانه وتعالى قد يُظهر الأعداء في لباس الخلَّة ثم يردُّهم إلى سابق القسمة، ويُبرز الأولياء بنعت الخلاف والذلَّة ثم تغلب عليهم مقسومات الوصلة.

(١) في (أ) و(ف): «و».

(٢) في (ف): «أن».

(٣) في (ف): «عليها».

(٤) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٩٢/٥).

(١٧٦) - ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَنُكِنِّيهِ إِلَى الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ هُوهً فَشَلُّهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحِمَلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتَرَكَّهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وقال في قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾: لو ساعدته المشيئة بالسعادة الأزلية لم تلحقه الشقاوة الأبدية، ولكن مَنْ قَصَمَتْهُ السوابق لم تُعْشِهِ اللواحق.

وقال في قوله: ﴿وَلَنُكِنِّيهِ إِلَى الْأَرْضِ﴾: إذا كانت مساكنة آدم الجنة وطمعه في الخلود فيها أوجب خروجه عنها، فالركون إلى الدنيا متى يُوجب البقاء فيها^(١)؟

هذا كله تمشية مَنْ قال: إنها في بلعم.

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص وسعيد بن المسيب وزيد بن أسلم وأبو روق: إنها نزلت في أمية بن أبي الصلت^(٢).

وكان ابتداء أمره أنه كان قد قرأ الكتب، وعلم أن الله يُرسل رسولا في ذلك الوقت، وظن أنه يكون ذلك الرسول، فلما أرسل إلى محمد ﷺ حسده، وكان قصده بعض الملوك، فلما رجع مرَّ على قتلى بدر فسأل عنهم ف قيل: قتلهم محمد، فقال: لو كان نبياً ما قتل أقرباءه، فلما مات أمية فأتت أخته فارعة رسول الله ﷺ، فسألها عن وفاة أخيها فقالت: بينا هو راقد أتاه آتيان^(٣) فقعد أحدهما عند رجله والآخر

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (١/٥٨٧).

(٢) انظر: «تفسير البغوي» (٣/٣٠٣). ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٩٥٨)، والطبري في «تفسيره»

(١٠/٥٧٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/١٦١٦).

(٣) في (ف): «اثنان».

عند رأسه، فقال الذي عند رجله للذي عند رأسه: أَوْعَى؟ قال: وَعَى، قال: أَزْكَى؟ قال: أَيْبَى^(١).

وفي رواية الكلبي: كَشَطَ سَقَفَ الْبَيْتِ آتِيَانِ^(٢)، فنزل أحدهما وشقَّ بطنه، وناداه الذي على ظهر البيت: أَوْعَى؟ قال: وعى، قال: أَزْكَى؟ قال: أَيْبَى، ومعه ابتناه فذكرتا له فقال: خير أريد بأبيكما فلم يقبله^(٣).

وفي رواية: نزل طيرانٍ فشَقَّ أحدهما بطنه وأخرج قلبه وشَمَّه، ثم سأله الآخر ذلك فقال ذلك^(٤).

وذكرت فارعةٌ من شعره لرسول الله عليه السلام قصيدةً ثم قصيدةً، ثم^(٥) أنشدت هذه:

عند ذي العرشِ يُعَرِّضُونَ عَلَيْهِ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَالسَّرَّارَ الْخَفِيًّا
يَوْمَ نَأْتِي الرَّحْمَنَ وَهُوَ رَحِيمٌ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٨٢/٩) من طريق إسحاق بن بشرٍ عن محمد بن إسحاق عن الزهري عن سعيد بن المسيب، وعثمان بن عبد الرحمن عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، قال: قَدَمَتِ الْفَارِعَةُ أُخْتُ أُمَيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ... فذكره. وإسحاق بن بشر متروك والخبر مرسل. ورواه من طريق آخر عن ابن إسحاق ابن عبد البر في «الاستيعاب» (١٨٩٠/٤) ولم يسقه بتمامه، وفي سنده إلى ابن إسحاق ضعف كما في «الإصابة» (٥١/٨). ورواه صاحب «الأغاني» (١٣٤/٤) من طريق آخر عن الزهري، ولم يذكر ابن المسيب. وجاء في هذه الروايات: طائران، بدل: آتيان.

(٢) «آتيان»: ليس من (ف).

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٩٥٩). وفيه: (نسران)، بدل: «آتيان».

(٤) هي رواية إسحاق بن بشر. وقد ذكرناها قريباً.

(٥) «قصيدة ثم»: من (أ) و(ف).

يَوْمَ نَأْتِيهِ مِثْلَ مَا قَالَ فَرَدًّا ثُمَّ لَا بَدَّ رَاشِدًا أَوْ غَوِيًّا
أَسْعِيدًا سَعَادَةً أَنَا أَرْجُو أَوْ مُهَانًا بِمَا اكْتَسَبْتُ^(١) شَقِيًّا
إِنْ يُوَاحِذْ بِمَا اجْتَرَمْتُ فَإِنِّي سَوْفَ أَلْقَى مِنَ الْعَذَابِ فَرِيًّا
رَبِّ إِنْ تَعَفَّ فَالْمَعَاوَةُ ظَنِّي أَوْ تَعَاقَبْ فَلَمْ تُعَاقِبْ بَرِيًّا

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَمِنْ شَعْرِهِ وَكَفَرَ قَلْبُهُ»^(٢).

وفي روايةٍ ذكرت أنه أتاها خبر موته قالت: فانطلقت إليه^(٣) فوجدته منعوشاً قد سَجَّى عليه، فدنوت منه فشهِقَ شهقةً وشَقَّ بصره ونظر نحو السقف ورفع صوته فقال: لِيَكَمَا لِيَكَمَا هَا أَنَا ذَا لَدَيْكَمَا، لَا ذُو مَالٍ فِيغْنِيَنِي، وَلَا ذُو أَصْلٍ^(٤) فَيَحْمِيَنِي، ثُمَّ أُغْمِي عليه فشهِقَ شهقةً فشَقَّ بصره ورفع صوته فقال: لِيَكَمَا لِيَكَمَا هَا أَنَا ذَا لَدَيْكَمَا لَا ذُو بَرَاءَةٍ فَأَعْتَذِرُ وَلَا ذُو عَشِيرَةٍ فَأَنْتَصِرُ، ثُمَّ أُغْمِي عليه وشهِقَ^(٥) شهقةً ونظر نحو السقف فقال: لِيَكَمَا لِيَكَمَا هَا أَنَا ذَا لَدَيْكَمَا:

رَبِّ إِنْ^(٦) تَغْفِرْ تَغْفِرْ جَمًّا وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لَا أَلَمَّا

ثم أُغْمِي عليه، ثم شهِقَ شهقةً فقال: لِيَكَمَا لِيَكَمَا هَا أَنَا ذَا لَدَيْكَمَا، ثم قال:

(١) في (ف): «كسبت».

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٣٠٧/٤)، والشعر في «ديوان أمية» (ص: ١٥٥-١٥٦). والمرفوع منه رواه

ابن عبد البر في «التمهيد» (٧/٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وروى مسلم (٢٢٥٥) من

حديث الشريد بن سويد عن النبي ﷺ قوله: «فلقد كاد يسلم في شعره».

(٣) في (ر): «فأتيته».

(٤) في (أ): «أهل».

(٥) في (أ) و(ف): «ثم شهِق».

(٦) المشهور في رواية هذا الشطر هو: «إِنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ»، وبه يستقيم وزن البيت.

كُلُّ عَيْشٍ وَإِنْ تَطَاوَلَ يَوْمًا صَائِرٌ مَرَّةً إِلَى أَنْ يَزُولَا
 لِيَتْنِي كُنْتُ قَبْلَ مَا قَدْ بَدَا لِي فِي قَلَالِ الْجِبَالِ أَرعى الوُعُولَا
 إِنَّ يَوْمَ الْحِسَابِ يَوْمٌ عَظِيمٌ شَابَ فِيهِ الصَّغِيرُ يَوْمًا ثَقِيلًا

ثم مات، قال النبي ﷺ: «كَانَ مِثْلُ أَخِيكَ كَمَثَلِ الَّذِي آتَاهُ اللَّهُ آيَاتِهِ فَأَنْسَلَخَ مِنْهَا»
 الْآيَةَ^(١).

وفيه قول آخر: روى أبو الجوزاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن
 الآية نزلت في البسوس^(٢)، وكان من قصته: أن رجلاً أُعطي له ثلاث دعوات
 مستجابات، وكانت له امرأة يقال لها: البسوس، وكان له منها ولد فقالت له:
 اجعل لي منها دعوة واحدة، فقال: لك منها واحدة فما تريدين؟ قالت: ادعُ الله
 لي أن يجعلني أجملَ امرأة في بني إسرائيل، فدعا لها فجعلت أجملَ امرأة في
 بني إسرائيل، فلما علمت أنه ليس فيهم مثلها رغبت عنه، فغضب الرجل ودعا
 عليها فصارت كلبَةً نَبَّاحَةً فذهبت فيها دعوتان، فجاء أولاده^(٣) فقالوا: ليس بنا
 على هذا قرار، قد صارت أمنا كلبَةً نَبَّاحَةً والناس يعيروننا بها^(٤)،.....

(١) قطعة من خبر سعيد بن المسيب الذي رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٨٢/٩)، وقد تقدم
 قريباً. ورواه دون المرفوع صاحب «الأغانى» (١٣٤/٤) عن الزهري، وقد تقدم أيضاً. ورواه دون
 المرفوع أيضاً العقيلي في «الضعفاء» (٢١/٤) من طريق محمد بن إسماعيل بن طريح الثقفي عن
 أبيه عن جده عن جد أبيه، قال العقيلي: لا يتابع عليه. ورواه الفاكهي في «أخبار مكة» (١٩٧١) من
 طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، والكلبي متروك.

(٢) في (أ): «الموسوس»، ولعله تحريف.

(٣) في (أ) و(ف): «بنوها».

(٤) في (أ): «بهذا».

ادع الله أن يردها إلى^(١) الحال التي كانت عليها، فدعا الله تعالى فعادت كما كانت، فذهبت الدعواتُ وبقيت البسوس^(٢).

وقال عكرمة: نزلت في اليهود والنصارى ممن آتاه الله كتابه وآياته فانسلخ منها^(٣).

وقيل: نزلت في أبي عامر بن النعمان^(٤) الراهب، الذي سماه النبي ﷺ: الفاسق، وكان ترهب في الجاهلية ولبس المسوح، فقدم المدينة فقال للنبي ﷺ: ما هذا الذي جئت به؟ قال: «جئت بالحنيفية^(٥) دين إبراهيم» قال: فأنا عليها، فقال له النبي ﷺ: «لست عليها، ولكنك أدخلت فيها ما ليس منها» فقال أبو عامر: أمت الله الكاذب طريداً وحيداً، فخرج إلى الشام وأرسل إلى المنافقين: استعدوا بالقوة والسلاح وابنوا لي مسجداً فأني ذاهب إلى قيصر وأتي بجندٍ وأخرج محمداً وأصحابه من المدينة، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِصْكَادًا لِّمَن حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [التوبة: ١٠٧] يعني: انتظاراً لمجيئه، فمات بالشام طريداً وحيداً، فاستجاب الله دعاءه على نفسه^(٦).

(١) في (ر): «على».

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٦١٧/٥) من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما. والراوي عن عكرمة أبو سعد الأعور - واسمه سعيد بن المرزبان - وهو ضعيف.

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٦١٨/٥). وروى عنه الطبري في «تفسيره» (٥٦٩/١٠) قوله: (هو بلعام)، وفي رواية: (هو بلعم).

(٤) هو أبو عامر بن صيفي بن النعمان بن مالك بن أمية بن ضبيعة، ويقال: بن صيفي بن زيد بن أمية بن ضبيعة، واسمه: عمرو، ويقال: عبد عمرو. انظر: «الاستيعاب» لابن عبد البر (٣٨٠/١).

(٥) في (ف): «دين الحنيفية» بدل: «جئت بالحنيفية».

(٦) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٣٠٧/٤).

وقال عبادة بن الصامت: هي في قريش، آتاهم الله آياته، فانسلكوا منها فلم يقبلوها فأهلكهم الله، فحذّر هؤلاء أن يكونوا أمثالهم^(١).

وقال قتادة: هذا مثلٌ ضربه الله تعالى لمن عُرِض عليه الهدى فأبى أن يقبله^(٢).

وقال الحسن: هو المنافق لا يُنِيب إلى الحق دُعي أو لم يُدْع، وُعْظ أو لم يُوعْظ، كالكلب يلهث طرد أو ترك^(٣).

وقال ابن كيسان: نزلت في منافقي أهل الكتاب الذين كانوا يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم^(٤).

(١٧٧) - ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلْمٍ﴾

وقوله تعالى: ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلْمٍ﴾: ﴿سَاءَ﴾ بمعنى: بُسْ، و﴿مَثَلًا﴾ نصبٌ على التفسير فإنها تنصب النكرات، تقول: بُس رجلًا زيدٌ، و﴿الْقَوْمُ﴾ اسمه المعرفة، ومعناه: وما أسوأ هذا المثل الذي ضربناه للذين كَذَّبُوا بآياتنا، وإنما استوجبوا هذا المثل لتقبيح^(٥) الحال بتكذيبهم بآياتنا، وظلمهم أنفسهم إذ جَنَوْا عليها بما يوجبُ الذمَّ في الدنيا والعقوبة في العقبى.

وقيل: لا سوء في المثل، إنما السوء في الممثل، ومعناه: ساء القوم الذين مثلهم

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٣٠٧/٤).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٥٨٧/١٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٦١٧/٥).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٣٠٩/٤)، والواحدي في «البيضا» (٤٦٩/٩). ورواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (٥٨٧/١٠).

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٣٠٨/٤)، والبغوي في «تفسيره» (٣٠٤/٣).

(٥) في (أ): «القبيح».

كمثل الكلب، وهو كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ﴾ الآية [الجمعة: ٥].

وقال الإمام القشيري رحمه الله: أيُّ صفةٍ أدنى من صفةٍ من بُلي بالإعراض الأزلِّي، وأيُّ نعتٍ أعلى من نعتٍ من أُكرم بالقبول الأبدي، وأيُّ حيلة تنفع مع مَنْ يخلق الحيلة، وكيف تصحُّ الوسيلة إلا بمن منه الوسيلة^(١).

(١٧٨) - ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَى وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَى﴾: أي: مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ ﴿وَمَنْ يُضِلِّ﴾؛ أي: وَمَنْ يَضِلُّهُمْ ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ كهؤلاء الذين كذبوا بآياتنا وانسلخوا عنها، وحَدَّ ﴿الْمُهْتَدَى﴾ وجمع (الخاسرين) لأنَّ مَنْ لَفْظُهُ لَفْظُ الْوَاحِدِ^(٢) ومعناه جمعٌ فيجوز التوحيد للفظه والجمع لمعناه.

والآية نصٌّ على إثبات الهداية والإضلال من الله تعالى، وهو فيمَنْ عَلِمَ أنه يختار ذلك.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: فهو المهتدي في الآخرة، والخاسر في الآخرة^(٣).

(١٧٩) - ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ

أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾.

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (١/٥٨٨).

(٢) في (أ): «واحد».

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/٩٣).

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾: أي: خلقنا^(١) ﴿كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ وهم الكفار المعرضون عن تدبر آيات الله، والله تعالى علم منهم اختيار ذلك فشاء منهم ذلك، وخلق منهم ذلك^(٢)، وجعل مصيرهم إلى جهنم لذلك.

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾: أي: لا يفهمون بها الحق ولا يتفكرون فيه. وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾: أي: الحق، ولا ينظرون إلى الآيات في الآفاق والأنفس نظر اعتبار واستدلال^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾: أي: لا يسمعون إلى ما يتلى عليهم من آيات الله والمواعظ، فهم لتركهم استعمال هذه الآلات^(٤) فيما خلقت لها كأنهم عُدوها.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَانُوا لَئِيمَةً﴾: أي: كالبهائم في أنها لا تعقل ولا تميز. وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾: عن الطريق المستقيم منها؛ لأنها مع عدم العقول تجتنب مضارها، والكفار لا يجتنبون مضارهم بل يقفون على الكفر مع علمهم بأنه يُوردهم النار.

وقال الكلبي ومقاتل^(٥): ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ لأن الأنعام تعرف ربها وتذكره وتطيعه والكافر لا يعرفه ولا يذكره ولا يطيعه^(٦).

(١) في (ف): «أي خلقاً كثيراً».

(٢) «وخلق منهم ذلك»: ليس من (أ).

(٣) في (ف): «الاعتبار والاستدلال»، وفي هامشها ما يوافق المثبت.

(٤) في (أ) و(ف): «الآيات».

(٥) «ومقاتل»: زيادة من (أ) و(ف).

(٦) ذكره عنهما الواحدي في «البيسط» (٩/٤٧٧)، وهو في «تفسير مقاتل» (٢/٧٦). ووقع هنا في

(ر): «وكذا قال مقاتل».

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْفَافِلُونَ﴾: أي: المتغافلون عما أعدَّ الله لأوليائه من الثواب ولأعدائه من العقاب.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ لأنهم لا يهتدون وإن هُودوا، والأنعام تهتدي إذا هُديت، أو هم أضلُّ لأنهم يضلُّون ويضلُّون غيرهم والأنعام لا تُضلُّ غيرها، أو لأنهم لا يُنتَفَعُ بهم والأنعام يُنتَفَعُ بها ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْفَافِلُونَ﴾؛ أي: عن فهم ما ألقى إليهم وأمروا به، وغافلون عما أوعدوا^(١).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: مَنْ خَلَقَهُ اللهُ لْجَهَنَّمَ مَتَى يَسْتَوْجِبُ الْجَنَانَ؟ وَمَنْ أَهْلُهُ لِسَخَطِهِ أَتَى يَسْتَحِقُّ الرِّضْوَانَ؟ هم اليوم في جحيم الجحود والكفران، مقرَّنين في أصفاد الخذلان، مُلبَّسين ثياب^(٢) الحرمان، طعامهم ضريع الوحشة، وشرابهم حميمُ الفرقة، كما فصَّل^(٣) في الكتاب شرح تلك الحالة.

وقال في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾؛ أي: ليس لهم تمييز بين خواطر الحق وهواجس النفس ووساوس^(٤) الشيطان، لا ينظرون إلا من حيث الغفلة، ولا يسمعون^(٥) إلا دواعي الفتنة، ولا ينخرطون إلا في سلك ركوب الشهوة ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ لأن الأنعام رُفِعَ عنها التكليف فإن لم يكن لها وفاق الشرع فليس منها خلافُ الأمر^(٦).

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٩٨/٥).

(٢) في (أ): «بنار»، وفي (ف): «ثياب».

(٣) في (ر): «فسر».

(٤) في (أ): «ووسواس».

(٥) في (أ): «يستمعون».

(٦) انظر: «لطائف الإشارات» (١/٥٨٩ - ٥٩٠).

(١٨٠) - ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾: قال مقاتل: إن رجلاً من الصحابة دعا الله في صلاته ودعا الرحمن، فقال رجل من المشركين: أليس يزعم محمد وأصحابه^(١) أنهم يعبدون رباً واحداً، فما بال هذا يدعو ربين اثنين؟! فأنزل الله تعالى هذه الآية، فدعا النبي ﷺ [الرجل] وقال: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ [الإسراء: ١١٠] رغماً لأنوف المشركين، فإنك ما دعوت من هذه^(٢) الأسماء ﴿فَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾^(٣). وقيل: ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ هي الدلالات على معانيها حقيقة، دون أسماء الأصنام التي هي ألقاب لا معاني لها ولا حقيقة.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: يحتمل أنهم ظنوا أن في إثبات عدد الأسماء إثبات عدد من الذات، فأخبر أنه ليس كذلك، فإنه تسمى الحركة: حركة، عَرَضاً، شيئاً، خَلْقاً، ولا يوجب ذلك إثبات عددٍ فيها.

ويحتمل أنهم وصفوا الله تعالى بما لا يحسن أن يوصف به^(٤)، وأضافوا إليه أشياء لا يصلح أن تُضاف إليه، نحو قولهم: يا خالقَ الخنازير، و: يا خالقَ الخبائث، و: يا إلهَ القردة، ونحوه، فأمرهم أن يدعوه بأسمائه الحسنى التي فيها تعظيمه، كما يقال: يا رحمن، يا رحيم، يا كريم، يا جواد، يا لطيف، يا هادي، يا مرشد، ونحو ذلك.

(١) في (ر): «أليس محمد وأصحابه يزعمون».

(٢) في (أ): «فإنك إذا دعوت من هذه»، وفي (ر): «فإنك إذا دعوت بهذه»، وفي (ف): «لأنك إذا دعوت من هذه»، والمثبت من «تفسير مقاتل».

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٧٦-٧٧)، وما بين معكوفتين منه.

(٤) في (ف): «لا يحسن وصفه به»، وفي هامشها ما يوافق المثبت.

ويَحْتَمِلُ أَنَّهُ أَرَادَ بِهَا أَنَّ الْأَسْمَاءَ الْحَسَنَى لِلَّهِ لَا لِلْأَصْنَامِ، فَادْعُوا اللَّهَ ^(١) بِهَا لَا الْأَصْنَامَ ^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾: قرأ حمزة: ﴿يُلْحِدُونَ﴾ بفتح الياء والحاء، من قولهم: لَحَدَ؛ أي: مال، والباقون: ﴿يُلْحِدُونَ﴾ بضم الياء وكسر الحاء من أَلْحَدَ ^(٣)؛ أي: أمال ^(٤)، والإلحاد في أسماء الله تعالى: تسمية الأصنام بأسمائه، كما سَمَّوا اللَّاتَ من الله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان.

ومن الإلحاد: تحريف معاني أسمائه، وتغييرها، وتفسيرها ^(٥) على خلاف حقيقتها.

ومن الإلحاد فيها: تسمية الله تعالى بما لم يَرِدْ به الشرع؛ كالجوهر والجسم والعقل والعلة وما يقوله المبطلون.

ومعنى ذرهم؛ أي: دَعَهُمْ فلا تكافئهم بصنيعهم، ولا تُجَازِهم بإيذائهم إياك، فإن الله تعالى هو يجزيهم، وذلك قوله تعالى: ﴿سَيَجْزِيَنَّهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: الإلحاد هو الميل عن القصد، وذلك على وجهين: بالزيادة والنقصان: فأهل التشبيه زادوا فألحدوا، وأهل التعطيل نقصوا فألحدوا، فالمشبهة وصفوه بما لم يأذن فيه، والمعطلة سلبوه ما اتَّصف به ^(٦).

(١) في (ف): «وادعوه».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٩٨/٥ - ٩٩).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٨)، و«التيسير» (ص: ١١٤).

(٤) في (أ): «مال»، وسقطت الجملة من (ف)، والمثبت من (ر)، وكلاهما صواب.

(٥) في (ف): «على تفسيرها».

(٦) انظر: «لطائف الإشارات» (١/٥٩١).

وسئل أبو الحسن البوشنجي^(١) عن التوحيد، فقال: إثبات ذاتٍ غير مشبَّهة بالذَّوات، ولا معطَّلة عن الصِّفات.

(١٨١) - ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾: أي: وممن خلقنا اللجنة، في مقابلة الآية الأولى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ قال النبي ﷺ فيما روى ابن جريج: «هذه أمَّتي بالحقِّ يأخذون ويعطون»^(٢).

وقد رويناه قبل هذا أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمٍ مُّوسَىٰ أُمَّةٌ﴾ تمنَّى أصحاب رسول الله ﷺ مدحاً في حقِّ هذه الأمة، فنزلت هذه الآية.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: هدايتهم بالحق: أنهم يدعون إلى الحق، ويدلُّون على الحق، ويتحرَّكون بالحق، ويسكنون للحق بالحق، فهم قائمون بالحق، يصِرُّ فهم الحقُّ للحقِّ بالحقِّ، أولئك هم غياث الخلق^(٣).

(١٨٢) - ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

(١) واسمه علي بن أحمد بن سهل، كان أوحداً فتيان خراسان، لقي أبا عثمان وصحب بالعراق ابن عطاء والجريري، وبالشام طاهراً وأبا عمرو الدمشقي، وتكلم مع الشبلي في مسائل، وهو من أعلم مشايخ وقته بعلوم التَّوحيد وعلوم المعاملات، وكان ذا خلق متديناً متعهداً للفقراء، مات سنة (٣٤٨هـ) وأُسند الحديث. انظر: «طبقات الصوفية» للسلمي (ص: ٣٤٢).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٦٠٠/١٠).

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (١/٥٩١-٥٩٢).

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾: وقال الخليل بن أحمد: أي: سنطوي عمرهم في اغترار منهم^(١).

وقال الضحاك: كلما جدّدوا لنا معصيةً جدّدنا لهم نعمة^(٢).

وقال النبي ﷺ «إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ تَعَالَى أَنْعَمَ عَلَى عَبْدِهِ وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَى مَعْصِيَتِهِ فَاعْلَمْ أَنَّهُ مُسْتَدْرَجٌ» ثم تلا هذه الآية^(٣).

والاستدراج استفعالٌ من الدَّرَج؛ أي: يُدْنِيهِ إِلَى الْهَلَاكِ دَرَجَةً فَدَرَجَةً فِي كِتْمَانٍ وَخُفْيَةٍ، وَقَدْ دَرَجَ الْكِتَابُ؛ أَي: طَوَاهُ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ، وَدَرَجَ الْقَوْمُ: إِذَا^(٤) مَاتَ بَعْضُهُمْ فِي^(٥) إِثَرِ بَعْضٍ، وَدَرَجَ الصَّبِيُّ: إِذَا قَارَبَ بَيْنَ خُطَاهُ فِي الْمَشْيِ.

وقال عطاء: نزلت الآية في المستهزئين^(٦).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: الاستدراج أن يُلقَى في أَوْهَامِهِمْ أَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ الْوَصْلَةِ، وَفِي الْحَقِيقَةِ سَبَقَتْ لَهُمْ فِي الْقِسْمَةِ الْفُرْقَةُ^(٧).

وقيل: الاستدراج: انتِشَارُ الصَّيِّتِ بِالْخَيْرِ فِي الْخَلْقِ، وَالْانْطَوَاءُ عَلَى الشَّرِّ فِي السَّرِّ مَعَ الْحَقِّ.

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/٣١٢)، و«زاد المسير» (٣/٢٩٤)، و«البحر» (١٠/٤١٧).

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/٣١٢)، و«البيسط» للواحد (٩/٤٨٦)، و«تفسير البغوي» (٣/٣٠٨)، و«زاد المسير» (٣/٢٩٤).

(٣) لم أجده مسنداً.

(٤) في (ف): «أي».

(٥) في (ر): «على».

(٦) ذكره دون عزو الثعلبي في «تفسيره» (٤/٣١٢)، والبغوي في «تفسيره» (٣/٣٠٨)، وعزاه الواحدي في «البيسط» (٩/٤٨٨) للمفسرين.

(٧) في (ر): «سبقت لهم الفرقة في القسمة»، وفي «اللطائف»: (السابق لهم من القسمة حقائق الفرقة).

وقيل: الاستدراج: الرجوع من توهم صفاء الأحوال إلى ركوب قبيح الأعمال.
 وقيل: الاستدراج: دعاوى عريضة صدرت عن أحوال مريضة.
 وقيل: هو اتساع^(١) البر مع إنساء^(٢) الشكر^(٣).

(١٨٣) - ﴿وَأْمَلِي لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأْمَلِي لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ﴾: قال الكلبي^(٤): أي: أمهلهم،
 والملاوة بفتح الميم وضمها وكسرها: القطعة من الدهر؛ أي: أخر عنهم العذاب
 مدة وهم يتوهمون أنه توسعة عليهم وإكرام لهم.

وقوله: ﴿إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ قال الكلبي: أي: إن أخذي شديد، وقد قتلهم الله
 كل رجل منهم بغير قتل صاحبه، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾
 [الحجر: ٩٥]، ونفسر ذلك في تلك الآية إن شاء الله تعالى.

قال عطاء: قتلهم في ليلة واحدة^(٥).

والكيد: الأخذ على خفاء أو مجازاة كيدهم مع رسول الله ﷺ وأصحابه
 رضي الله عنهم. والمتين: القوي، والمتانة: القوة.

(١) في (أ): «إشباع»، وفي «اللطائف»: (إفاضة).

(٢) في (أ): «إنساع» وفي (ر): «انتشاء». ويؤيـض لها في مطبوع «اللطائف» لاشتباهاها في نسخته الخطية.

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (٥٩٢/١).

(٤) «قال الكلبي»: ليس من (أ) و(ف).

(٥) ذكره دون عزو الثعلبي في «تفسيره» (٣١٢/٤)، والبغوي في «تفسيره» (٣٠٨/٣)، وعزاه الواحدي

في «البيسط» (٤٨٨/٩) للمفسرين. وقاله مقاتل في «تفسيره» (٧٧/٢).

(١٨٤) - ﴿أَوَلَمْ يَنْفَكُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنَّهُ هُوَ الْبَاقِي الْمُبِينُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْفَكُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ﴾: وهذا تعجيبٌ من الله تعالى عباده من مقام الكفار على التكذيب بالنبي ﷺ، وتسميتهم إياه مجنوناً مع علمهم ما الجنون ووجودهم إياه منزهاً عنه، وسماء صاحبهم لأنه نبئهم يصحبهم ويخالطهم. قال قتادة: كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يحذّرهم عقوبة الله تعالى، فقام على الصفا ليلاً وجعل يدعو قريشاً فخذاً فخذاً: (يا بني فلان، يا بني فلان) إلى الصباح، فقال قائلهم: إن صاحبكم هذا لمجنون، بات يصوت إلى الصباح! فنزلت الآية^(١).
وقوله: ﴿مِنْ جَنَّةٍ﴾؛ أي: جنون، من مس الجن.
وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَاقِي الْمُبِينُ﴾: أي: ما هو إلا مخوف ظاهر.

(١٨٥) - ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: هو^(٢) نظر القلب بالتفكير. والملكوت: الملك الأعظم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ عطفٌ على ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ معناه: في جميع مخلوقات الله تعالى من الأشياء.

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٦٠٢/١٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٦٢٤/٥) عن قتادة قال: (ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان على الصفا فدعا قريشاً، فجعل يفخذهم فخذاً فخذاً...). وانظر: «الكشاف» (١٨٢/٢)، و«تفسير البيضاوي» (٤٤/٣)، وفيهما: (.. بات يهوت..)، ومعناه: يصيح.

(٢) في (أ): «هذا».

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ﴾: أي: وفي أن يكون أجلهم لعله اقترب.

وهذا تعجيبٌ من الله تعالى على عباده^(١) من مقام الكفار على التكذيب بالساعة والجزاء والحساب، يقول: أو لم ينظروا نظرَ استدلالٍ في السماوات والأرض وغيرهما، الدالة على قدرة الله تعالى وملكه، فيعلموا أنه لم يخلقها عبثاً، ولا يترك عباده سُدىً، وأنه جعلها قواماً لهم مدةً كونهم في الدنيا ليعملوا بطاعة الله، ثم ينقلهم إلى دار الجزاء فيميز بين المطيع والعاصي، وأن من مات فقد قامت قيامته، وأن آجالهم لعلها قد قربت، وإذا كان كذلك فقد أشرفوا على الهلاك، وإذا هلكوا فلا رجعة، ولا تمكّنُ التوبة فيتوبوا.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا حُذِرْتُمْ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾: أي: بأي كلامٍ بعد أجلهم يؤمنون؛ أي: ليس بعد الموت مستعْتَبٌ، ولا إيمانٌ نافعٌ دافعٌ للعذاب. وقال عطاء: ﴿قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ﴾ يعني: يومَ بدرٍ وأحد^(٢).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿فَإِذَا حُذِرْتُمْ﴾ بعد القرآن يصدّقون^(٣)، يعني: أنه كلام الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولو اجتمعت الخلائق لم يأتوا بمثله، فإذا لم يقبلوا هذا فماذا يقبلون؟

ويحتمل أن يكون المراد: أنهم يقبلون الحديث، فإذا لم يقبلوا حديث رسول الله ﷺ فبأي حديثٍ يقبلون.

(١) «على عباده» ليست في (ر).

(٢) ذكره الواحدي في «السيط» (٤٩٢/٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) ذكره الواحدي في «السيط» (٤٩٢/٩).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْفَكُوا﴾ ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا﴾ دليل على أن الحق يلزم وإن كان لا يعلم إلا بالتدبر والتفكير؛ لما أنه ألحق به^(١) التهديد والوعيد الشديد^(٢).

وقال القشيري رحمه الله: ألح الله لقلوب الناظرين حقائق التحصيل، فمن لم يعرج في أوطان التّقصير أنزلته مراكب السير بساحات التحقيق.

وقال في قوله: ﴿وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾: الناس في مغاليط آمالهم ناسون لو شيك^(٣) آجالهم، فكم ناسج لأكفانه، وكم بانٍ لأعدائه، وكم زارع لا يحصد زرعه^(٤).

(١٨٦) - ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَلاَ هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَلاَ هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ﴾: قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم بياء المغايبة، وجزم الراء عطفاً على موضع الفاء في جواب الشرط، وتقديره: لا يهده أحد ويذره الله في طغيانه، وقرأ أبو عمرو بالياء ورفع الراء على الابتداء، وقرأ ابن كثير وابن عامر ونافع وأبو بكر عن عاصم بالنون والرفع^(٥). قوله تعالى ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾: أي: في إفراط ترفّعهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾: أي: يترددون متحيرين.

(١) في (ف): «بهذا».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (١٠٣/٥).

(٣) في (أ): «لوشك».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (٥٩٣/١).

(٥) انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٩)، و«التيسير» (ص: ١١٥). وقراءة حفص عن عاصم فيهما برفع الراء،

كقراءة أبي بكر عنه.

والبداية بالوحدان والختم بالجمع؛ لِمَا مَرَّ: أن (مَنْ) لفظه واحدٌ وأريد به الجنس، فصلح لذا وذا، يقول: مَنْ عَلِمَ الله منه اختيارَ الضلالة أضلَّهُ، وَمَنْ أضلَّهُ لم يهتدِ بالنظر والتفكر.

(١٨٧) - ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ نَقَلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾: أي: متى ثبوتها وقيامها؟ وقد رسا يرسو رسوا؛ أي: ثبت.

وقيل: هو استقرارُ الشيء الثقيل، ومنه: الجبال الراسيات، وأرساه غيره إرساءً ومُرسًى؛ كقوله: إدخالاً ومُدْخِلاً، وحقيقته: متى إثباتها وتقديرها؟

وكان النبي ﷺ يدعوهم إلى الإيمان والطاعة، وينهاهم عن الكفر والمعصية، ويحذّرهم قيام الساعة، فقالوا: متى هي؟

قوله تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ﴾: أي: لا يكشفها ولا يظهرها إلا هو، فهو الذي يُقيمها وعنده عِلْمُهَا.

وقوله تعالى: ﴿نَقَلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: أي: خَفِيَ عِلْمُهَا عَلَى كُلِّ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَكُلُّ مَا خَفِيَ عِلْمَهُ ثَقُلَ عَلَى الْفُؤَادِ، رُوي معناه عن السَّدي وغيره^(١).

وقيل: ثَقُلَ مجيئُها على السماوات والأرض؛ لِمَا يَرُدُّ عَلَى السَّمَاءِ بَقِيَامِهَا مِنَ الانشِقَاقِ وَانْتِشَارِ النُّجُومِ وَسُقُوطِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَعَلَى الْأَرْضِ مِنْ ذَهَابِ بَحَارِهَا

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٣١٣/٤)، ورواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (٦٠٨/١٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٦٢٧/٥).

وزوالِ جبالها؛ أي: يَسْتَغْظِمُ قيامَها أهلُ السماوات والأرض لهذه الأمور الهائلة وأنتم تسألون عنها مستعجلين لها غافلين عما يكون عليكم فيها؟ كما قال تعالى:

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ [الشورى: ١٨].

وقيل: أي: عَظُمَ وصفُها على أهل السماوات والأرض.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَأْتِكُمْ إِلَّا بَغْةٌ﴾: أي: فجأة.

وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾: أي: كأنك أَلْحَحْتَ في طلب علمِها واستقصيت السؤال عنها فَعَلِمْتَهَا، وقد أَحْفَى فلانٌ؛ أي: أَلَحَّ في المسألة، قال تعالى: ﴿إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُخَفِّكُمْ بَنِّحُوا﴾ [محمد: ٣٧].

وقال الفراء: كأنك فَرِحَ به، يقال: حَفَيْتُ به حفاوةً وتحفَيْتُ تحفياً؛ أي: فرحتُ به وبَشَشْتُ^(١): وتقديره: يسألونك عنها كأنك حَفِيٌّ به^(٢).

وقيل: الحَفِيُّ: البرُّ اللطيف، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧]، وتقديرها: يسألونك عنها كأنك حَفِيٌّ بهم؛ أي: برُّ لطيف، وروي أنهم قالوا: إن بيننا وبينك قرابةً فأخبرنا عن وقتها إكراماً منك لنا وعطفاً علينا لقرابتنا، وإن كنت تكتُمُها عن غيرنا^(٣).

(١) في (أ): «وتشبَّثت» بدل: «به وبششت».

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣٩٩/١)، وفيه: (كأنك حفي بها). وذكره عنه الواحدي في «البيسط» (٥٠٠/٩) بلفظ: (بهم)، وعبارته: (كأنك حفي بهم إذا سألك حين يسألونك عنها؛ أي: فرح بهم، فعلى هذا التقدير: يسألونك عنها كأنك حفي بهم؛ أي: بارٌّ بهم لطيف). قلت: وعلى ما قاله الواحدي فهذا الوجه كالذي بعده.

(٣) رواه بنحوه عبد الرزاق في «تفسيره» (٩٦٧)، والطبري في «تفسيره» (٦٠٤/١٠ و٦١١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٦٢٧/٥).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: يتوهمون أنه موجودٌ علمُها عند غير الله، قطع الله أطماعهم عن معرفتها بخبرٍ من النبي ﷺ وإنما أعاد قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ بعدما قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾؛ لأن ختم الآية بأن الناس لا يعلمونه فقدّم عليه إثبات علمه، ولأن الأول علمٌ وقتها والثاني علمٌ كُنْهها.

وقالت عائشة رضي الله عنها: كانوا يعاودون رسول الله ﷺ في هذا السؤال إلى أن نزل قوله تعالى: ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا﴾ (١٣) إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْهَاجًا ﴿فَكُفُّوا﴾ (١).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: إن كان هذا السؤال عن المكذِّبين لها فهو سؤالٌ استهزاء، وإن كان عن المصدِّقين فهو سؤالٌ استعلام وإشفاقٍ ليتأهَّبوا لها، فإنهم لما سمعوه يقرأ: ﴿أَنَّىٰ أَمُرُّ اللَّهَ﴾ [النحل: ١] ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ [القمر: ١] ويقول: «بعثتُ أنا والساعةُ كهاتين» (٢) و: «كادت الساعةُ تسبقني» (٣) حملهم الخوف على هذا السؤال ليعلموا فيستعدوا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: أنها كائنة، أو: لا يعلمون أنك لا تعلم متى تكون، أو: لا يعلمون ما لهم وما عليهم فيها (٤).

(١) لم أجده بهذا اللفظ، وروى ابن راهويه في «مسنده» (٧٧٧)، والبخاري في «مسنده» (٢٢٧٩) - كشف الأستار، والطبري في «تفسيره» (٩٩ / ٢٤)، والحاكم في «المستدرک» (٧) و(٣٨٩٥) وصححه، عن عائشة رضي الله عنها: قالت: لم يزل النبي ﷺ يسأل عن الساعة، حتى أنزل الله عز وجل: ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا﴾ (١٣) إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْهَاجًا. قلت: وعلى هذا يكون السائل هو النبي ﷺ بدليل ما جاء في بعض الروايات في آخره: (قال: فانتهي).

(٢) رواه البخاري (٦٥٠٤)، ومسلم (٢٩٥١)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٢٩٤٧) من حديث بريدة رضي الله عنه.

(٤) انظر: «تأويلات أهل السنة» (١٠٦ / ٥ و ١٠٨).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: السائل عنها رجلان: منكرٌ يتعجب لفرط جهله، وعارفٌ مشتاقٌ يستعجل لفرط شوقه، والمتحقق بوجوده ساكنٌ في حاله^(١).

(١٨٨) - ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾: أي: إنما يعلم الغيب من قيام الساعة وغيرها من يملك النفع والضرر على الإطلاق، وهو الله تعالى، وأنا لا أملك الأمرين إلا ما ملّكني^(٢) الله تعالى منهما.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾: قال الزجاج: أي: ولو كنت أعلم الغيب لاستكثر من معرفته حتى لا يخفى عليَّ شيء ﴿وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾: أي: التكذيب^(٣).

وقال الكلبي: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ﴾: متى أموت ﴿لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾؛ أي: العمل الصالح.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: هذا ليس بقوي؛ لأنه وإن كان لا يعلم

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٥٩٤).

(٢) في (ف): «ملكني».

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٣٩٤)، وقد ذكر قولين: الأول - وابتدأ به - لا دّخرت زمن الخصب لزمن الجدب. والثاني - وقدم له بقوله: قيل - لو كنت أعلم ما أسأل عنه من الغيب في الساعة وغيرها [لأجبت عنه] ﴿وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾؛ أي: لم يلحقني تكذيب. ولعل مراد المؤلف هو القول الثاني، وقد نقله عنه ابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٣٠٠) ولم ينقل غيره، وما بين معكوفتين منه.

متى يموت كان يستكثر من^(١) الخير ولا يقصّر^(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن أهل مكة قالوا: يا محمد! ألا يخبرك ربك بالسعر الرخيص قبل أن يعلو فتشتريه فتربح به، أو يخبرك بالأرض التي يريد أن تجذب فترحل منها إلى ما أخصبت، فأنزل الله هذه الآية^(٣).

وروى حيان عن الكلبي: ولو كنت أعلم جدوبة الأرض وقحط المطر لهيأت لسنة القحط ما يكفيها ﴿وَمَا مَسْنَى السُّوءِ﴾ أي: الضر والفقر^(٤).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: وهذا أيضاً ليس بقوي^(٥)؛ لأنه - وإن كان يعلم ذلك - لا يستكثر المال، ولكن التأويل الصحيح والله أعلم: ﴿وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمَ﴾ قيام الساعة متى يكون وأخبرتكم به فصداً فتموني وأمتم بي لاستكثر الثواب بإيمانكم عند الله تعالى ﴿وَمَا مَسْنَى السُّوءِ﴾؛ أي: تكذيبكم.

(١) «من»: زيادة من (ف).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (١٠٩/٥).

(٣) انظر: «تفسير الثعلبي» (٣١٣/٤)، و«السيط» للواحدي (٥٠٧/٩)، و«تفسير البغوي» (٢/٢٥٦)، و«زاد المسير» (١٧٦/٢) عن ابن عباس، و«تفسير أبي الليث» (١/٥٧٣)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص: ٢٢٨)، عن الكلبي، ولعل الوارد عن ابن عباس هو من طريق الكلبي عن أبي صالح عنه.

(٤) الظاهر أن هذا من تنمة الخبر السابق، فقد ذكره الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (١٠٩/٥) معه، ولفظه: (وقال ابن عباس في قوله: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾: وذلك أن أهل مكة قالوا: ألا يخبرك ربك يا محمد بالتجارة المربحة فتتجر فيها فتربح، أو لا يخبرك بسنة القحط والجذوبة، أو يخبرك بوقت السعة والخصب؟! فقال عند ذلك: ﴿وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمَ الْغَيْبِ﴾ من جدوبة الأرض والقحط؛ ﴿لَأَسْتَكْرَثْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ يقول: لتهيات لذلك ﴿وَمَا مَسْنَى السُّوءِ﴾ من الضر والشدة).

(٥) في (أ) و(ف): «غير قوي» بدل: «ليس بقوي».

أو: ولو كنت أملك لكم نفعاً وضراً؛ نفع ما غاب ودفع ما غاب^(١) اتبعتموني، فكثرت بذلك ثوابي.

أو: ولا أعلم الغيب إلا قَدَر ما أوحى إليّ، ولو كنت أعلم أكثر مما أوحى إليّ لاستكثر من الخير.

أو: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾: مَنْ يصدّقني وَمَنْ يكذّبني، اشتغلتُ بدعوة مَنْ يجيبُ دون مَنْ لا يجيب، فاستكثرُ الأتباع والمطيعين.

قال: وقيل في قوله: ﴿وَمَا مَسْنِي السُّوءُ﴾: أي: الجنون، جواباً لقولهم: إنه مجنون^(٢)، وقد مر ذكره في قوله: ﴿مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا إِنَّا لَا نَذِيرُ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾: أي: هم المستفيعون بإنذارني وتبشيرني، واتصال هذا بما قبله: أني لست بعالم الغيب بل أنا رسول عالم الغيب أرسلني نذيراً وبشيراً.

(١٨٩) - ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيّاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْنَا صَبْلاً لَّنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾: بَيِّن الإنذار وهو للمشركين، وذكر في آخر هذه الآية شرك الكافرين.

وقوله: ﴿مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾؛ أي: من آدم.

(١) في (أ): «عاب».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ١٠٩ - ١١٠).

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾: أي: حواء ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾: أي: ليستأنس بها.
وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾: أي: وطئها، وأصله: التغطية، والرجل لباس للمرأة والمرأة لباس للرجل^(١)، فكان اجتماعهما تغشياً.

وقوله تعالى: ﴿حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيفًا﴾: أي: حين كان نطفة ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾: أي: مضت بالماء على الخفة، أو بالحمل تقوم وتقع وتمشي على سهولة.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾: أي: صارت ذات ثقل بكبر الولد في البطن ﴿دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا﴾: أي: سألا الله وقالوا: ﴿لَئِنْ آتَيْنَا صَاحِبًا﴾: أي: ولداً سوي الأعضاء.
وقيل: صالحاً في الدين.

وقيل: أي: له صلاحية كل شيء مما يرجوه الآباء والأمهات من الأولاد.

وقوله تعالى: ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾: لك على نعمائك^(٢).

وقرأ يحيى بن يعمر: (فَمَرَّتْ بِهِ) بتخفيف الراء^(٣)، من مَرَى يَمْرِي؛ أي: شكّت أنها حملت أم لا.

وقيل: أي: شكّت أن في بطنها بشراً مثلهما أو بهيمة.

(١٩٠) - ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَاحِبًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

(١) في (أ) و(ف): «له».

(٢) في (أ) و(ف): «إنعامك».

(٣) نسبت لابن عباس وأبي العالية ويحيى بن يعمر. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٣)، و«المحتسب» (١/ ٢٦٩)، و«الكشاف» (١٨٦/ ٢)، و«المحرر الوجيز» (٤٨٦/ ٢)، و«البحر» (٤٤٠/ ١٠).

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهُمَا صَالِحًا﴾: أي: ولدًا سويًا ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا﴾ قرأ نافع وعاصم في رواية أبي بكر بكسر الشين^(١)، ومعناه: نصيبًا؛ كما في قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾؛ أي: نصيب.

وقرأ الباقون: ﴿شُرَكَاءَ﴾ بضم الشين ومد الآخر، وهو جمع شريك.

وقوله تعالى: ﴿فَتَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: أي: تنزه الله تعالى عن الشريك.

قال الكلبي: إن إبليس - لعنه الله - أتى حواء حين أنقلت^(٢) في صورة رجل فقال: ما هذا الذي في بطنك؟ فقالت: ما أدري، قال: إني أخاف أن يكون بهيمة، وذلك أول ما حملت، فقالت ذلك لآدم، فلم يزالا في همٍّ من ذلك، ثم عاد إليها فقال: إني من الله عز وجل بمنزلة، فإن دعوت الله تعالى فولدت إنساناً أتسمينه بي؟ قالت: نعم، قال: فإني أدعو الله تعالى، قال: فأتاها وقد ولدت غلاماً، فقال: سمّيه باسمي، قالت: وما اسمك؟ قال: الحارث، فسَمَّته: عبد الحارث^(٣).

(١) أي: ﴿شُرَكَاءَ﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٩)، و«التيسير» (ص: ١١٥).

(٢) في (ف): «انقلب» بدل: «حين أنقلت».

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٣١٥/٤)، والماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (١١١/٥ - ١١٢)،

ورده الماتريدي كما سيأتي. وهذا الخبر وأمثاله مما دخل على كتب التفسير من الإسرائيليات،

وقد فندها وبين حقيقتها ابن كثير في «تفسيره» عند هذه الآية، وكذا أسهب في ردها وبيان خطأ

من تناولها من المفسرين العلامة أبو شهبه في «الإسرائيليات والموضوعات» (ص: ٢٠٩ - ٢١٥)

ثم خلاص إلى أن التفسير الصحيح لها على وجهين - أحدهما لابن كثير - فقال: والمحققون من

المفسرين منهم من نحا منحى العلامة ابن كثير فجعل الآية الأولى في آدم وحواء، وجعل قوله:

﴿فَلَمَّا أَتَاهُمَا صَالِحًا﴾ الآية في المشركين من ذريتهما؛ أي: جعل أولادهما شركاء لله فيما أتاها،

والمراد بهم الجنس؛ أي: جنس الذكور والأنثى، فمن ثم حسن قوله: ﴿فَتَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

بالجمع، ويكون هذا الكلام من الموصول لفظاً المفصول معنى، ومنهم من جعل الآيتين في ذرية =

وقد ذكر في هذه القصة زوائد وكلها باطلة.

وقد ردَّ الإمام أبو منصور رحمه الله وغيره من أئمة الحق هذا القول، وأبوا أن يكون آخر الآية المذكورة في الشرك في حقهما، ولئن ثبت أنهما سمياه عبد الحارث فهو ليس بشرك فإن المملوك يسمى عبد مالكة وهو ليس بشرك^(١).

والتأويل الصحيح للآيتين ما قاله الحسن البصري رحمه الله: أن أول الآية في حق آدم وحواء عليهما السلام، وهو كالكلام المعترض، والآية الثانية المتصلة بها في حق المشركين^(٢)، وسياقهما على قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿مِنْ نَفْسٍ وَحِدَةٍ﴾ وهي آدم ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ حواء ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ فلما تَغَشَّى آدمُ حواءَ ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾ دعا آدم وحواء ربَّهما لئن أعطيتنا ولدًا سويًا صالحًا في الدين؛ لأن آدم رأى حين أخذ الميثاق على ذريته^(٣) جميع أولاده:

= آدم وحواء؛ أي: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَحِدَةٍ﴾ وهي نفس الذكر ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا﴾؛ أي: من جنسها ﴿زَوْجَهَا﴾ وهي: الأنثى، ﴿فَلَمَّا أَتَاهُمَا صَالِحًا﴾؛ أي: بشرًا سويًا كاملاً، ﴿جَعَلَا﴾؛ أي: الزوجان الكافران ﴿لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾، وبذلك أبدلوا شكر الله كفراناً به وجحوداً، وعلى هذا: لا يكون لآدم وحواء ذكر ما في الآيتين.

قلت: وسيأتي من كلام المؤلف في رد هذه القصة نحو هذا.

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» (١١٢/٥).

(٢) روى الطبري في «تفسيره» (١٠/٦٢٩) عن الحسن قوله: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ كان هذا في بعض أهل الملل، ولم يكن بآدم، وفي رواية: (عني بهذا ذرية آدم، من أشرك منهم بعده) يعني بقوله: ﴿فَلَمَّا أَتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾، وفي رواية ثالثة: (كان الحسن يقول: هم اليهود والنصارى، رزقهم الله أولاداً فهودوا ونصروا). وساق هذه الروايات ابن كثير عن الطبري بأسانيدها وعقبها بقوله: وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن أنه فسر الآية بذلك، وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت عليه الآية.

(٣) بعدها في (ف): «وهم».

منهم السَّوِيُّ ومنهم غيرُ السَّوِيِّ، ومنهم التَّقِيُّ ومنهم غيرُ التَّقِيِّ، فسألا أن يكون هذا الولدُ سوياً تقيّاً، وقالوا: لئن آتَيْتَنَا ذلكَ لنشكرنَّ لك، فأعطاهما الله تعالى ذلكَ فشكراً؛ لأنَّ آدمَ وحواءَ لم يكونا ليعِدَا من أنفسهما ذلكَ ولا يفعلا، وهذا مفهومٌ وإن لم يذكر، وتمَّ الكلام.

ثم قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا﴾؛ أي: فلَمَّا أعطى مَنْ بعدهما من أولادهما كلَّ والدٍ ووالدةٍ من أهل الشرك ولدًا صالحاً سويَّ الأعضاء جعلَ هذان الأبوان لله شركاءَ فيما أعطاهما، وذلك على وجوه:

منها: أنهم كانوا يسمُّون الأولاد: عبدَ العُزَّى، وعبدَ اللَّات، وعبدَ مناة، وعبد يغوث، ونحو ذلك.

ومنها: أنهم كانوا يأتون بالأولاد حالماً ولدوا فيمسحونها بالأصنام، ويسجدون لها شكراً على هذه النعمة.

ومنها: أنهم كانوا يعلمون أولادهم الشركَ ويحملونهم عليه.

وإنما صحَّ صرفُ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا﴾ على هذين الأبوين لأنَّ أول الآية: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ وهو خطابُ الجمع، فتناولَ كلَّ الناس، فكان هذان الأبوان فيهم، ويدلُّ عليه ما بعده، وهو قوله جلَّ جلاله: ﴿فَتَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وهو جمعٌ، فدلَّ على أنه على المشركين دون آدم وحواء.

وفيه أقاويلٌ كثيرةٌ ووجوهٌ مختلفةٌ، وما ذكرناه أصحُّها وأسلمها.

(١٩١) - ﴿أَيْشُرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَيْشُرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾: أي: الأصنام، وإنما أدخل

فيها الواو والنون وذلك فيما يعقل والأصنامُ جمادٌ؛ لأنهم كانوا يعظمونها وينزلونها منزلةَ الفاعلين^(١) المختارين، فألحقوها بهم كما في قوله: ﴿أَحَدَ عَشَرَ كُوكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ أَتَيْنَهُمْ لِيُسْجِدُوا لِي﴾ [يوسف: ٤].

(١٩٢) - ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهَا نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَصْرِفُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهَا نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَصْرِفُونَ﴾: قال مقاتل: أي: ولا تقدر الأصنام منع السوء إذا نزل بعبدتها، ولا تمتنع الأصنام ممن أراد بها سوءاً من كسرٍ ونحوه، فكيف يعبدون من هذا حاله ويتركون عبادة الله^(٢). وهو عطفٌ على قوله: ﴿أَيُّشْرِكُونَ﴾ وهو استفهامٌ بمعنى التوبيخ.

(١٩٣) - ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾: قرأ نافع بالتخفيف على الثلاثي، وقرأ الباقون بالتشديد على الافتعال منه^(٣).

ومعناه: وإن تدعوا^(٤) أنتم هؤلاء المشركين إلى الهدى لم يتابعوكم عليه. وقوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾: أي: ساكتون، وهو كقوله تعالى: ﴿ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]، وهو في قوم معاندين عليم الله منهم ذلك.

(١) في (أ): «وينزلونها كفاعلين».

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٨٠).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٩)، و«التيسير» (ص: ١١٥).

(٤) في (أ) و(ف): «تدعوهم».

وقيل: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ﴾؛ أي: الأصنام التي تدعونها آلهة^(١) - فقد مر ذكر ذلك في الآيات التي قبلها - لم يكن منها جواب؛ لأنها لا تعقل، فدعاؤها والصمت عنها واحد^(٢).

(١٩٤) - ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ﴾؛ أي: الأصنام التي تدعونها آلهة عباد لله أمثالكم، وإنما جعلها عباداً له وهي جماد؛ لأنها مخلوقة لله تعالى، وكل مخلوق لله فهو ذليل لله تعالى كالعبد.

وقيل: في قوله: ﴿عِبَادُ﴾ ألف الاستفهام مضمرة، وتقديره: عباد أمثالكم، وإضمارها جائز كما في قوله تعالى: ﴿يُخَدِّعُونَ اللَّهَ﴾ [البقرة: ٩]؛ أي: أيخادعون الله، وقوله: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦]؛ أي: أهذا ربي، وهذا استفهام بمعنى النفي؛ أي: ليسوا بعباد أمثالكم بل هي دونكم، ودليله ما ذكر في الآية التي بعدها: ﴿أَلَمْ أَزْجُلْ يَمْسُونَ بِهَا﴾ الآية؛ أي: ألا تأنفون من عبادة ما هو دونكم في أنها ليست لها جوارح عاملة ولكم ذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَادْعُوهُمْ﴾: هذا الدعاء غير الدعاء المذكور في أول الآية؛ أي: هذا دعاء السؤال؛ أي: سلوا حوائجكم هذه الأصنام.

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾؛ أي: فليجيبوكم إن كنتم صادقين^(٣) أنها آلهة، وهو على وجه التوبيخ والإنكار.

(١) بعدها في (ر): «من عباد الله أمثالكم وإنما جعلها عباداً له وهي جماد مضمرة عاجزة».

(٢) في (ر): «والصمت منها سواء».

(٣) «أي: فليجيبوكم إن كنتم صادقين»: ليس في (أ) و(ف).

(١٩٥) - ﴿ اَللّٰهُمَّ ارْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا اَمْ لَكُمْ اَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا اَمْ لَكُمْ اَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا اَمْ لَكُمْ ااذُنٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ اَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوْنَ فَلَا تُنْظِرُوْنَ ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ اَللّٰهُمَّ ارْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا اَمْ لَكُمْ اَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا اَمْ لَكُمْ اَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا اَمْ لَكُمْ ااذُنٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾: استفهامٌ بمعنى النفي؛ أي: ليست لهم صفات هذه الآلات، ولهم صور^(١) هذه الجوارح بلا صفاتٍ، ولكم الجوارح والصفات، فهي دونكم، فمحالٌ منكم عبادتكم إياهم، وهذا تسفيهٌ لهم، وهو كقول إبراهيم لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ اَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾: أي: أصنامكم، فإنهم جعلوها شركاء لله، وأضافها إليهم لادّعائهم ذلك.

وقيل: أي: الذين شاركوكم^(٢) في الكفر.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كِيدُوْنَ فَلَا تُنْظِرُوْنَ﴾: أي: قد ذممتُ أصنامكم، وسفّهتُ عقولكم وأحلامكم، فاقصِدوني بما شئتم من الكيد ولا تمهلون، فإنني لا أخافكم في الله، وهذا من صدق توكله على الله، وهكذا كان سائرُ رسل الله؛ قال تعالى خبراً عن نوح عليه السلام: ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تُنْظِرُوْنَ﴾ [يونس: ٧١]، وقال تعالى خبراً عن هود عليه السلام: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ [هود: ٥٦] بعد قوله تعالى: ﴿فَكِيدُوْا فِي جَمَاعَتِكُمْ لِتَقْتُلُوْا هُوْدًا وَسَوَءَ حَسَنَتُهُ فِي إِبْرَاهِيْمَ﴾ وقال تعالى خبراً عن إبراهيم عليه السلام: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيْمَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا عَلَيْنَا تَوَكَّلْنَا﴾ [المتحنة: ٤].

(١) في (ف): «صورة».

(٢) في (ف): «شاركوهم».

وقال الإمام القشيري رحمه الله: صدق التوكل على الله يوجب ترك المبالاة بغير الله، وكيف لا يكون كذلك والمتفرد^(١) بالقدرة على النفع والضرر والخير والشر هو الله تعالى^(٢).

(١٩٦) - ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابُ وَهُوَ تَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابُ﴾: يقول: كيدوني فلا تنظرون، فإن ناصري وحافظي الله الذي أكرمني بإنزال القرآن عليّ.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ تَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾: أي: يكفي مهمّات جميع الصالحين أيضاً. وقال الإمام القشيري رحمه الله: مَنْ قام بحق الله تولى الله أموره على وجه الكفاية فلم يُخَوِّجْهُ إلى أمثاله، وأجرى أموره على ما يريد بأفضاله، فإن لم يفعل ما يهواه جعله راضياً بما قضاه، فيكون روح الرضاء أتم له من نفع العطاء^(٣).

(١٩٧) - ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصَرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَصْرُوتُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصَرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَصْرُوتُ﴾: كرر هذا لأن الأول للتقريع والثاني للتقرير؛ أي: وليي الله الذي ينصرني ومعبودكم لا ينصركم.

(١) في (ر): «والمنفرد».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (١/٥٩٧).

(٣) المصدر السابق.

(١٩٨) - ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا﴾: قيل: أي: الأصنام، وقيل: أي: عبدة الأصنام^(١)، كما في قوله: ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾، وكذا قوله تعالى:

﴿وَتَرَاهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾: يحتمل الوجهين، فإنَّ حُمِلَ على الأصنام فمعنى النظر: المقابلة، كما يقال: دُور بني فلانٍ تتناظر؛ أي: تتقابل. وقيل: معناه: كأنهم ينظرون إليك وليست لهم عينٌ باصرة.

وإن حُمِلَ على المشركين فمعناه: ينظرون^(٢) إلى صورتك وهم لا يبصرونك على صفاتك بحقيقتك، ولو رأوك كما أنت لآمنوا بك واتبعوك.

(١٩٩) - ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ ﴿١٣١﴾ وَإِنَّمَا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾: أمرٌ محمداً ﷺ - بعد تعريف المشركين أن كيدهم لا يضره - بمكارم الأخلاق الداعية إلى الألفة والاتفاق فقال: خذ من الناس - أي: اقبل منهم - ما عفا لك من أخلاقهم؛ أي: تيسر وسهل، ولا تكلفهم الجهد، من قولك: أخذت حقي عفواً؛ أي: بسهولة.

وروي أنه سأل جبريل^(٣) عليهما السلام: «ما الأخذُ بالعفو؟ فقال: أعطِ مَنْ

(١) «وقيل أي عبدة الأصنام»: زيادة من (أ).

(٢) «إليك وليست لهم عين باصرة وإن حُمِلَ على المشركين فمعناه ينظرون»: ليس في (أ) و(ف).

(٣) في (ف): «قال لجبريل» بدل: «سأل جبريل».

حَرَمَكَ، وَصِلْ مَنْ قَطَعَكَ، وَاعْفُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ، وَأَحْسِنْ^(١) إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ»^(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾؛ أي: خذ فضل أموال الناس، من قوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ وذلك قبل فرض الزكاة^(٣).

وقال الضحاك: أي: خذ ما عفا لك من أموال الناس ولا تسألهم ما وراء ذلك، وهو قبل فرض الزكاة^(٤)، وبعد ذلك أمر أن يأخذ منهم طوعاً وكرهاً.

وقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾: أي: بالمعروف^(٥)، وهو ما عرفه العقل والشرع، وهو كالنكر بمعنى المنكر، وقالوا: من العُرف تقوى الله، وصلة الأرحام، وصون اللسان عن الكذب ونحوه، وغض البصر عن المحارم، وكف الجوارح عن المآثم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾: هو كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَمًا﴾ [الفرقان: ٦٣] ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]، وهو تحمّل الأذى، والعفو عمن جنى، والحلم عمن جفا.

(١) في (ف): «وتحسن».

(٢) رواه بنحوه ابن مردويه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، كما في «الدر المنثور» (٣/ ٦٢٨). ورواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٦٤٣) من طريق سفيان بن عيينة عن رجل قد سماه، ومن طريق سفيان عن أميِّ الصيرفي، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٣٨) من طريق سفيان عن أميِّ عن الشعبي، وكل هذه مراسلات كما قال ابن كثير عند تفسير الآية، وزاد: (وقد روي له شواهد من وجوه أخر). قلت: له شاهد من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه عند أحمد (١٧٤٥٢).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٦٤١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٣٨).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٦٤١).

(٥) «أي: بالمعروف»: ليس في (ف)، وفي (أ): «وأمر بالمعروف».

وقال عطاء: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾^(١): بلا إله إلا الله^(٢)، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ [المرسلات: ١]؛ أي: الأنبياء أرسلوا بلا إله إلا الله.

وقال مقاتل: ﴿وَأَعْرَضَ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ يعني: أبا جهل وأصحابه، ونسخه آية السيف^(٣).

وقال عبد الرحمن بن زيد: لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «كيف يا رب والغضب» فتزل قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾^(٤).
(إما) كلمتان: (إن) التي هي للشرط، و(ما) التي هي صلة زائدة.

والنون في ﴿يَنْزَغَنَّكَ﴾ للتأكيد، والنزغ: الإزعاج بالحركة إلى الشر.

وقال مقاتل: يعني: وإما يفتننك من الشيطان فتنة^(٥).

وقال عطاء: وإما يعرضنك من الشيطان عارض^(٦).

ومعناه: إن اعترض لك الشيطان بإفساد شيء من هذه الأخلاق التي أمرت بها ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾؛ أي: فاستعصم^(٧) به من الشيطان الرجيم يعصمك ويثبتك، هذا الجواب مضمّر في آخره.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: أي: سميع لكلامك عليم بمرادك.

(١) في (أ): «وأمر بالمعروف».

(٢) ذكره عن عطاء الثعلبي في «تفسيره» (٣١٨/٤)، والبخاري في «تفسيره» (٣/٣١٦)، وذكره الواحدي في «البيضا» (٥٤٤/٩) من طريق عطاء عن ابن عباس.

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٨١/٢)، وانظر المصادر السابقة، فقد ذكره من تمة قول عطاء.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٦٤٦/١٠) وهو مرسل.

(٥) انظر: «تفسير مقاتل» (٨٢/٢).

(٦) ذكره الواحدي في «البيضا» (٥٤٦/٩) من طريق عطاء عن ابن عباس.

(٧) في (ف): «فاعتصم».

(٢٠١) - ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ﴾ قرأ نافع وعاصم وابن عامر وحمزة: ﴿طَئِفٌ﴾ بالألف، والباقون: ﴿طَيْفٌ﴾ بغير ألف^(١).

وقرأ سعيد بن جبير: (طَيْفٌ) بتشديد^(٢) الياء^(٣)، وهما واحد عند بعضهم كالْمَيْتِ والمَائِثِ والمَيْتِ.

وقيل: الطَيْفُ مصدرٌ، والطائِفُ نعتٌ.

وقال الزجاج: طاف الخيال يطيف بالياء، وطاف عليهم يطوف - أي: دار - بالواو^(٤). ومن جعل هذا من الطَّوْفِ الواوي قال: (طَيْفٌ) أصله: (طَيْفٌ) بالتشديد ثم خفف، وهو كَالْهَيْنِ وَالْهَيْنِ.

والطَّيْفُ والطائِفُ: ما أَلَمَ بالإنسان من عوارض^(٥) الشيطان.

يقول: إن المؤمنين المتقين الله إذا نالهم طيفٌ من الشيطان؛ أي: وسوسةٌ بإغراء وتنفيذٍ غضبٍ ﴿تَذَكَّرُوا﴾؛ أي: مواعظ الله ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾: قيل: أبصروا قبح ذلك، وقيل: أي: أبصروا الرُّشْدَ فسلكوا طريقه فسلموا من نزغهِ، وإن ارتكبوا مأثماً ثم تذكروا وتابوا فغفر لهم؛ أي: يا محمد فكذلك فكن.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: وفيه دليلٌ أنَّ المتقين قد ينالهم ذلك، وهو في

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٠١)، و«التيسير» (ص: ١١٥).

(٢) في (أ) و(ف): «بتثقيل».

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٣)، و«البحر» (١٠/ ٤٦٣). وزاد ابن خالويه نسبتها

لابن عباس.

(٤) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٣٩٦).

(٥) بعدها في (ر): «من».

حال غفلتهم عن ذكر الله تعالى، والذاكر قد يغفل، فلكل صارم نبوة، ولكل عالم هفوة، ولكل جواد كبوة، ولكل عابد غفوة^(١)، ولكل قاصد فترة، ولكل سائر وقفة، ولكل عارف حجة، قال النبي ﷺ «وإنه ليغان على قلبي»^(٢)، وقال النبي ﷺ «إِنَّ الْحِدَّةَ لَتَعْتَرِي خِيَارَ أُمَّتِي»^(٣)؛ أي: قد يعتريهم ذلك مع علو رتبتهم فيخرجهم عن دوام الحلم^(٤).

(٢٠٢) - ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ﴾: أي: وإخوان الشيطان، وهم الغواة.

وقوله تعالى: ﴿يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ﴾: أي: الشياطين يُديمونهم^(٥) في الغي.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ﴾: أي: لا يكفون بعدما مدَّهم الشياطين في غيهم.

أي: مَنْ عَمِلَ بما يأمر^(٦) به الشياطين، فإن الشياطين يزدون في غيهم ويلحون

(١) في (أ): «ولكل عادم شره»، في (ر): «ولكل عايد شره»، والمثبت من (ف). وفي «اللطائف»: (ولكل عابد شدة).

(٢) رواه مسلم (٢٧٠٢) من حديث الأغر المزني رضي الله عنه.

(٣) رواه الطبراني في «الكبير» (١١٣٣٢) و(١١٤٧١)، وأبو يعلى في «مسنده» (٢٤٥٠)، وابن الجوزي في «العلل» (١٢٢٢)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. قال ابن الجوزي: لا يصح، وفيه آفات سلام الطويل. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٦/٨): فيه سلام بن سلم الطويل وهو متروك. ورواه ابن أبي شيبة في «مسنده» (٦١٦) من حديث أبي منصور الفارسي، وهو مختلف في صحبته، وقال البخاري: حديثه مرسل. انظر: «الإصابة» (٣٨٨/٧).

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (٥٩٩/١).

(٥) في (ر): «يدعونهم»، وفي (ف): «يمدونهم».

(٦) في (ف): «ما يأمر» وفي (ر): «ما تأمره».

عليهم بالإغراء^(١)، ثم لا يمسون عن ذلك حتى يهلكوهم، ف﴿لَا يُقْصِرُونَ﴾ صفةُ الشياطين على هذا.

وقيل: صفةُ الغوايةِ المشركين؛ أي: لا يتهون عن الغي.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: في هذه الآيات تقديمٌ وتأخيرٌ: ﴿وَتَرْنَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ - أي: هلاً اختلقتها من تلقاء نفسك - الآية، ثم بعدها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ﴾ الآية^(٢).

(٢٠٣) - ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَإً مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾: أي: إن الشياطين ليمدُّونهم في الغيِّ، ومن ذلك أنهم يحملونهم على أن يطالبوك بالآيات المقترحة، فإذا سألوك إحياء ميت^(٣) يكلمهم ونحو ذلك فلم تأت^(٤) به، قالوا لك: هلا اخترت هذا الذي سألناك وأتيت به وأنت رسول الله بزعمك، وللرسول معجزةٌ، فهلا تأتينا بالمعجزة التي نطلبها^(٥) منك.

وقال الكلبي رحمه الله: أي: وإذا لم تأت أهل مكة بآية سألوكها تعتُّ قالوا:

(١) بعدها في (أ) و(ف): «من عمل».

(٢) لم أجده.

(٣) في (أ): «ميتة».

(٤) في (ف): «تأتهم».

(٥) في (ف): «طلبناها».

هَلَا تَلْقَيْتَهَا فَأَتَيْنَا بِهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ نَسْأَلَ كَهَا ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾^(١).
 وقيل: إذا لم تأتهم بآية اقترحوها قالوا: إنما أنت تتقوله فهلا اخترت شيئاً تقرأه
 علينا من عند نفسك، وما اعتذارك بإبطاء الوحي عنك وليس ما تأتي به وحياً؟!
 ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾ ولا أختلقه من عند نفسي.
 وقال مجاهد: ﴿لَوْلَا أَجَبْتِيَّتَهَا﴾؛ أي: هلا ابتدعتها^(٢).
 وقال الفراء: تقول العرب: اجتبيت الكلام واختلقته وارتجلته؛ أي: افعلته^(٣).
 وقوله تعالى: ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾: أي: لهذا
 القرآن حجج ظاهرة يبصر بها الحق، وهاذي إلى الطريق المستقيم، ويرحم الله من
 عمل به فيدخلهم الجنة، وهذا نفع يختص به المؤمنون.

(٢٠٤) - ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.
 وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾: ويتصل
 بقوله: ﴿هَذَا بَصَائِرُ﴾ يعني: القرآن.
 وقال الكلبي: كانوا يرفعون أصواتهم حين يسمعون ذكر الجنة والنار، فنزلت
 هذه الآية^(٤).

(١) انظر: «الوسيط» (٤٣٩/٢)، و«تفسير البغوي» (٣١٨/٣).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٦٤٤/٥)، وبنحوه الطبري في «تفسيره» (٦٥٥/١٠).

(٣) انظر: «تفسير الطبري» (٦٥٦/١٠)، و«تفسير الثعلبي» (٣٢٠/٤)، و«البيضا» (٥٥٩/٩)، و«زاد

المسير» (٣١٢/٣)، و«البحر المحيط» (٤٦٨/١٠)، وكلمة: «افتعلته» تحرفت في النسخ إلى:

«اقتلته»، والتصويب من المصادر. وانظر: «معاني القرآن» للفراء (٤٠٢/١)، ولفظه: ﴿لَوْلَا أَجَبْتِيَّتَهَا﴾:

هلا افتعلتها، وهو من كلام العرب جائز أن يُقال: اختار الشيء، وهذا اختياره.

(٤) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٩٧٨)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٣٢١/٤)، والواحدي في =

وقال قتادة: كان الرجل يأتي وهم في الصلاة فيسلم ويسألهم: كم صليتم؟ وكم بقي؟ فنزلت هذه الآية^(١).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان المسلمون يتكلمون في الصلاة، فحرم الكلام في الصلاة بهذه الآية^(٢).

وقال ابن مسعود وسعيد بن جبير وعطاء ومجاهد وعمر بن دينار وزيد بن أسلم والقاسم بن مخيمرة: هذا في الخطبة^(٣).

وقال مجاهد: في الخطبة والصلاة^(٤).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قرأ في المكتوبة وقرأ أصحابه خلفه، فنزلت هذه الآية^(٥).

وكذلك روي عن أبي العالية وعلباء بن أحمر^(٦)، وهو نص على أنه لا قراءة على المقتدي، وأن قراءة الإمام قراءة له.

= «البيسط» (٩/). ووقع بعدها في (ر): «وقال ابن عباس رضي الله عنهما»، ولا وجه لها.

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٩٧٧)، والطبري في «تفسيره» (١٠/٦٦٢).

(٢) لم أجده عن ابن عباس بهذا اللفظ، ورواه بنحوه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٨٣٨٠)، والطبري في «تفسيره» (١٠/٦٥٩)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) ذكره عنهم - عدا ابن مسعود - الواحدي في «البيسط» (٩/٥٦٥)، والقرطبي في «تفسيره» (٩/٤٣١)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٠/٦٦٤) عن مجاهد.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/٦٦٤ - ٦٦٦) عن مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء.

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/٦٦٤).

(٦) ذكره عنهما الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٥/١٢٧). وقوله: «علباء بن أحمر» تحرف في

(أ) و(ف) إلى: «علي بن أحمر»، وفي (ر) إلى: «علي بن أحمد».

(٢٠٥) - ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: عنى بالذكر القراءة في الصلاة، ﴿تَضَرُّعًا﴾: جهراً باللسان ﴿وَخِيفَةً﴾^(١): سرّاً في القلب ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾: أي: لا جهراً مفراطاً^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾: أي: العشيات، وهي جمع أصيل، وهي ما بين العصر والمغرب؛ كاليمين والأيمان.

وقيل: الأصيل واحدٌ، وجمعه: الأُصُل، وجمع الأُصُل: الآصال، فهي جمعُ جمعٍ. وقيل: الأُصُل اسم للواحد أيضاً.

وقيل: التضرُّعُ: الاستكانة، والخيفة: الخوف، والذكر: هو ذكر اللسان، والغدوُ والآصال في حق الصلاة تخصيصُ لهذين الوقتين بالذكر، كما في قوله تعالى: ﴿طَرَفِي النَّهَارِ﴾ [هود: ١١٤]، وسائرُها ثبتت^(٣) بغيرها من الآيات.

وقيل: الغدوُ والآصال عبارةٌ عن الليل والنهار، وأراد به الذكر على الدوام.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾: خاطبه وأراد به أمته؛ أي: لا تقتدوا بالغاflين، لكنْ بالملائكة الذين لا يغفلون، وذلك قوله تعالى:

(١) في (أ): «خفية».

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٣٢٢). وروى عنه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٦٦٤) أنه كان يقول في

هذه: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾: هذا في المكتوبة، وأما ما كان من قصص أو قراءة بعد

ذلك فإنما هي نافلة.

(٣) في (ف): «يثبت».

(٢٠٦) - ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾: هم الملائكة، و﴿عِنْدَ﴾ بيان قرب الكرامة دون المكان، فإن الله تعالى يتعالى^(١) عن ذلك.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾: أي: فكونوا أنتم كذلك.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: أثبت لهم عندية الكرامة، وحفظ عليهم أحكام العبودية؛ لئلا ينفك حال جمعهم عن نعت تفرقتهم، هذه سنة الله تعالى مع خواص عباده^(٢)، يلقنهم خصائص^(٣) عين الجمع ويحفظ عليهم حقائق عين التفرقة؛ لئلا يخلوا بآداب العبودية في أوان وجود الحقيقة^(٤).

والحمد لله رب العالمين، حمداً لا يشوبه ريب ولا يخالطه عيب، حمداً لا لكثرته يؤنف ولا لجمته يستنكف، حمداً لا يحصى عدده ولا ينتهي أمده، حمداً لا يضجر عنه الجلد ولا يفتّر عنه كل أحد، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين^(٥).

(١) في (ف): «نزه».

(٢) في (ف): «عباد الله».

(٣) في «اللطائف»: «يلقاهاهم بخصائص».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (١/٦٠١).

(٥) من قوله: «حمداً لا يشوبه ريب...» إلى قوله: «ولا يفتّر عنه كل أحد» من (أ) و(ف). وقوله:

«وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين» من (ر).

سُورَةُ الْاَنْفَالِ

سُورَةُ الْأَنْفَالِ

بِسْمِ اللَّهِ الَّذِي مِنْ عِنْدِهِ النَّصْرُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، الرَّحْمَنُ الَّذِي لَمْ
يَعَاجِلْ بِالْعُقُوبَةِ لِلْقَائِلِينَ: ﴿فَأَمْطَرَ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ وَأَثَقْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾
[الأنفال: ٣٢]، الرَّحِيمُ الَّذِي وَعَدَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا بِالْمَغْفِرَةِ وَالرَّزْقِ الْكَرِيمِ.

وسورة الأنفال مدنية، وقيل: إلا آية، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ
كَفَرُوا﴾ الآية [الأنفال: ٣٠].

وقيل: غير قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]
فإنها نزلت بالبيداء في غزوة بدر قبل القتال.

وهي خمسٌ وسبعون آية، وقيل: ستٌ وسبعون آية، وقيل: سبعٌ وسبعون آية،
والاختلاف في ثلاثة مواضع: ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦]، ﴿كَانَ مَفْعُولًا﴾
[الأنفال: ٤٢]، ﴿يَنْصُرُوهُ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢].

وكلماتها ألفٌ ومئتان وأربعٌ وثلاثون، وحروفها خمسةٌ آلاف ومئتان
وأحدٌ وتسعون^(١).

وروى أبي بن كعب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ

(١) في (ف): «وسبعون».

الأنفال وبراءة فأنا شفيعه يوم القيامة، شاهد أنه بريء من النفاق، وأعطى عشرَ حسنات بعدد كل منافقٍ ومنافقةٍ، وكان العرش وحملةُ العرش يستغفرون له أيامَ حياته»^(١).

وذكر في «تفسير عبد بن حميد» مسنداً عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: سألتُ عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن سورة الأنفال، قال: فينا نزلت معشر أصحاب بدر حين اختلفنا في الأنفال وساءت فيه أخلاقنا، فانتزعها الله من أيدينا فجعلها إلى رسول الله ﷺ بما أنزل من قوله تعالى: ﴿يَسْتُلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ فقسّمها على السواء^(٢).

ثم انتظام أول هذه السورة بآخر تلك السورة: أن الله تعالى ختم تلك السورة بذكر عظماء السماء، وهم الملائكة الذين وصفهم الله تعالى بأنهم ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، وافتتح هذه السورة بذكر عظماء الأرض، وهم المؤمنون ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

ووجه آخر: أنه ذكر في ختم تلك السورة الخيفة وفي افتتاح هذه السورة الوجلة، وهما واحد^(٣).

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٨/١٣)، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور، وقد تقدم الكلام عليه مراراً.

(٢) رواه عبد بن حميد كما في «الدر المنثور» (٥/٤)، والإمام أحمد في «المسند» (٢٢٧٤٧)، والحاكم في «المستدرک» (٣٢٥٩) وقال: صحيح على شرط مسلم.

(٣) من قوله: «ووجه آخر...» إلى هنا ليس في (أ) و(ف).

ووجه آخر: ذكر هناك الاستماع للقرآن والإنصات، وذكر هنا ما زاد في يقين المؤمنين إذا تليت عليهم تلك الآيات.

ووجه آخر: أنه ذكر هناك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [الأعراف: ٢٠١] وذكر هاهنا: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

وانتظام هذه السورة بتلك السورة: أن سورة الأعراف في بيان نصر المؤمنين ونجاتهم، وإهلاك الكافرين وعقوباتهم في أزمنة سائر المرسلين، وهذه السورة في نصر^(١) المؤمنين ونجاتهم^(٢) وإهلاك الكافرين في زمن خاتم النبيين، وما وقع بيدر بصناديد المشركين.

(١) في (ف): «نصرة».

(٢) «ونجاتهم»: ليست في (أ) و(ف).

سُورَةُ الْأَنْفَالِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) - ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾: قيل: هو سؤال الاستفتاء.

وقيل: هو سؤال الاستعطاء.

والأنفال: جمع نَفْلٍ، وهو الغنيمة، وأصله: الزيادة، ومنه: نوافل العبادات، ونوافل الولادات، والنفل بالسكون: التطوع.

وقيل: الأنفال هاهنا: ما كان ينقله رسول الله ﷺ بعض الغزاة على الخصوص من سلب المقتول ونحوه.

وقوله تعالى: ﴿عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾: أي: يسألك أصحابك يا محمد عن الغنائم التي غنمتها أنت وأصحابك يوم بدر: لمن هي؟ قل: لله ولرسوله؛ أي: جعل الله الأمر فيه إلى الله ورسوله^(١)، لا حق لأحد منكم في شيء منها إلا بإعطاء الرسول، وله البدل والحرمان والزيادة والنقصان، روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما كان يوم بدر قال النبي ﷺ: «مَنْ صَنَعَ كَذَا فَلَهُ كَذَا»

(١) في (أ): «إلى ما يريد رسوله»، وفي (ر): «إلى ما يراه رسوله».

فتسارع في ذلك الشَّبَّانَ وبقيت الشيوخ تحت الرايات، فلما فتح الله تعالى وكانت الغنائم ثم^(١) جاؤوا يطلبون ما جعل لهم، فقالت الشيوخ: لا تذهبوا بها دوننا، فقد كنّا رداءً لكم، فتنازعوا فنزلت الآية^(٢).

وقال أبو أمامة الباهلي: سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال فقال: فينا نزلت، حين اختلفنا في النفل وساءت فيه^(٣) أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا وجعله إلى رسوله، فقسمه رسول الله ﷺ بين المؤمنين، فكان في ذلك تقوى الله وطاعةُ رسوله وصلاح^(٤) ذاتِ البين^(٥).

وقال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: نزلت في هذه الآية، وذلك أنّي أتيت رسول الله ﷺ بسيفٍ فقلت: يا رسول الله، هذا السيفُ قد شفى الله به من المشركين، وإنني أصبته فأعجبني فهبه لي، فقال: «ليس هذا لي ولا لك» فقلت: عسى أن يعطيه مَنْ لم يَبُلْ بلائي، فإذا رسول الله ﷺ خلفي فقلت: يا رسول الله إنني أخاف أن يكون نزل في شيء، فقال: «إنَّ السيف قد صار لي [فهو لك]»، ونزل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ الآية^(٦).

وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهم قال: نزلت هذه الآية

(١) «ثم»: زيادة من (أ).

(٢) رواه أبو داود (٢٧٣٧)، والنسائي في «الكبرى» (١١١٣٣)، والطبري في «تفسيره» (١١ / ١٣)، وانظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص: ٢٣١).

(٣) في (ر): «به».

(٤) في (ر): «وإصلاح».

(٥) تقدم قريباً.

(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (١١ / ١٥) وما بين معكوفتين منه، وبنحوه الإمام أحمد في «المسند» (١٥٥٦)، وأصل الحديث عند مسلم (١٧٤٨).

أولاً فصارت الأنفال لرسول الله، ثم نزلت ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ فقسم الله تعالى ذلك الخمس لرسوله ولمن سمي في الآية^(١).

وروى أبو صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي عليه السلام قال وهو يحرض الناس على القتال: «إن الله تعالى وعدني أن يفتح لي بداراً وأن يُغنمكم عسكرهم، فمن قتل قتيلاً فله كذا من غنائمهم» فلما توافعوا أوقع الله في قلوب المشركين الرعبَ وانهزموا، وتبعهم سرعان^(٢) القوم، فأسروا سبعين وقتلوا سبعين، وغنموا العسكر وما فيه، وأقام وجوه الناس في مصاف رسول الله عليه السلام معه، فلم يشدَّ منهم أحدٌ، ثم قام أبو اليسر كعب بن عمرو الأنصاريُّ أخو بني سلمة فقال: يا رسول الله! إنك قد وعدتَ مَنْ قتل قتيلاً فله كذا، ومَنْ أسر أسيراً فله كذا، وإنَّا قد قتلنا سبعين وأسرنا سبعين، فقام سعد بن معاذ فقال: والله ما منعنا أن نطلب ما طلب هؤلاء زهادةً في الآخرة ولا جبنٌ عن العدو، ولكن كرهنا أن نُعري مصافك فيعطفَ عليك خيلٌ من خيل المشركين فيصيبوك، فأعرض عنهما رسول الله عليه السلام، ثم قال^(٣) أبو اليسر بمثلِ مقالته وقام سعدٌ بمثل كلامه، وقال: يا رسول الله! إن الناس كثيرٌ، وإن الغنيمة والقتلى دون ذلك، وإن تعطِ هؤلاء الذين ذكرتَ لا يبقى لأصحابك كثيرٌ شيء، فنزلت الآية، فقالوا: سمعاً وطاعة يا رسول الله، فرجع القوم وليس لهم من الغنيمة شيء، ثم نزل: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ﴾ الآية^(٤).

(١) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٩٤٨٣)، وأبو عبيد في «الناسخ والمنسوخ» (ص: ٣٤٢)، والطبري في «تفسيره» (٩ / ١٧٥).

(٢) في (ف): «فرسان». وسرعان الناس: أوائلهم المستبقون إلى الأمر. انظر: «القاموس» (مادة: سرع).

(٣) في (ف): «قام».

(٤) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٩٨٨) من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، وذكره ابن

أبي زمنين في «تفسيره» (٢ / ١٦٤) عن الكلبي، والثعلبي في «تفسيره» (٤ / ٣٢٤) عن ابن عباس، =

فقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ ظاهره سؤال الاستفتاء، وهو السؤال عن الحكم، وظهر ذلك بجوابه وإن كان السؤال مطلقاً كما في قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢] ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى﴾ [البقرة: ٢٢٠]، وهذه الأحاديث تدلُّ على أنه سؤال الاستعطاء، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: (يسألونك الأنفال)^(١) وهذا ظاهر.

وأما قراءة الجمهور: ﴿عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ فلا يقتضي إلا سؤال الاستفتاء، إلا أن يُجعل ﴿عَنِ﴾ بمعنى: من، ويكون للتبعيض، وحروف الصلوات تتناوب.

أو يقال: كانوا يستعطون أولاً، ثم لما تأخر الإعطاء استفتوه حكمها ومضرفها، وقد روينا عن ابن عباس رضي الله عنهما - وهو مروى عن مجاهد وعكرمة -: أن الآية نسخت بقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ الآية^(٢)، فكان في هذه الآية جعلٌ كلّها له، وفي الثانية صارت لأهل الشَّهْمَانِ والغزاة.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هي ثابتة لم تنسخ، وإنما معناها: قل الأنفال لله تعالى، ولا شك أنها لله مع الدنيا وما فيها والآخرة، [وهي لرسول الله ﷺ يضعها في مواضعها التي أمر الله تعالى بوضعها فيها]^(٣)، ويُن ذلك في الآية الثانية:

= وفي رواية عبد الرزاق بعض اختصار. وعلى كلّ فالكلبي متروك.

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٤)، و«المحتسب» (١ / ٢٧٢). ووقع في النسخ: «يسألونك عن الأنفال»، وهو خطأ ظاهر.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١ / ٢١ - ٢٢) عن مجاهد وعكرمة والسدي، وذكره عنهم الواحدي في «البيسط» (١٠ / ١٣) ثم قال: وهذا قول ابن عباس في رواية الوالبي عنه. وذكره عن ابن عباس أيضاً الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٥ / ١٤٢).

(٣) انظر: «تفسير الطبري» (١١ / ٢٢)، و«تفسير الثعلبي» (٤ / ٣٢٦)، و«البيسط» (١٠ / ١٤). وما بين معكوفتين مستفاد من هذه المصادر.

أن الله تعالى خمسه ولأهل السهمان، وأربعة أخماسه للغزاة من الرِّجَالَة والفرسان.
وقيل: قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ هذا للثبوت بذكر الله تعالى وتعظيم حال رسول الله،
والحاصل أنها لرسول الله ﷺ يحكم فيها بأمر الله.

قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: أي: ولا تنازعوا ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾: أي:
تألفوا على الحق. و(ذات) تأنيث قولهم: ذو، ويكون نعتاً لاسم مؤنث مضمراً، كأنه
قال: وأصلحوا ألفة بينكم، وعلى هذا نظائره: كنت عند فلان ذات ليلة؛ أي: ساعة ليلة.
وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾: أي: بما تُخفيه الصدور، أَلقت
المرأة ذات بطنها؛ أي: حمل بطنها، وافعل كذا في ذات الله؛ أي: في مرضاة الله.
وقيل: (ذات) هي النفس، وسيمر ذلك في هذه الوجوه كلها.

وقيل: ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾: أي: افعلوا فيما بينكم ما يعودُ بصلاح^(١)
أحوالكم.

قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: أي: أطيعوا الرسول فيما يأمر في الغنيمة
وغيرها، فإن طاعته طاعة الله فإنها بأمر الله.
﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: أي: الإيمان يوجب ذلك، وهو كما يقال: افعل كذا إن
كنت إنساناً؛ أي: الإنسانية توجب ذلك فلا تخالفها.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ ولا تطيعوا دواعي مُنالكُم، ولا
تحكموا بمقتضى هواكم، والتقوى: إثارة رضى الحق على مراد النفس ﴿وَأَصْلِحُوا
ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ بالانسلاخ عن شح النفس وإثارة حق الغير على ما لك من الحظ،
وتنقية القلوب من الحسد والحقد^(٢).

(١) في (ف): «بإصلاح».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (١/٦٠٢).

(٢) - ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾: ولما سمعوا الآية الأولى خافوا واتَّقوا الله وأطاعوا وسَلَّمُوا، وتركوا الأنفال، فمدحهم الله بهذه الآية. أو يقال: لما قال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وصف المؤمنين الكاملين في الصفات بهذه الآيات، فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: خافت خوفاً شديداً تعظيماً لله تعالى وهيبة منه^(١).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾: أي: قُرئت عليهم بالأمر والنهي والحُكم، قَبِلُوا هذا الأمر والنهي والحكم، وصدَّقوا بالوعد والوعد، وازدادوا إيماناً إلى إيمانهم بما كان قبل ذلك، وإن حُمِلت على أنهم كانوا آمنوا بها قبل ذلك وهذا على زيادة اليقين أو على الثبات على إيمانهم الكامل السابق، وأضاف فعل الزيادة إلى الآيات على التسبب^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾: أي: يعتمدون، وبه يثقون.

وقال القشيري رحمه الله: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: تخرجهم شدة الخوف عن أوطان الغفلة، وتزعجهم عن مساكن الغيبة، فإذا انفصلوا عن أودية التفرقة، وفاؤوا إلى مشاهد الذكر، نالوا السكون إلى الله عز وجل، فيزيدهم ما يتلى عليهم من آياته تصديقاً على تصديق، وتحقيقاً على تحقيق، فإذا طالعوا جلال قدرته توكلوا عليه فأمدَّهم برعايته في نهايتهم كما استخلصهم بعنايته في بدايتهم.

(١) «منه»: زيادة من (ف).

(٢) في (ف): «التسبب».

قال: وسنة الله تعالى مع أهل العرفان ترديدهم بين كشف جلاله وبين لطف جماله، فإذا كشفهم بجلاله وجلت قلوبهم، وإذا لطفهم بنعت جماله سكنت قلوبهم، قال تعالى: ﴿لَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

قال: وقيل: وجلت قلوبهم لخوف فراقه، ثم تطمئن أسرارهم بروح وصاله، فذكرُ الفراق يُغنيهم، وذكر الوصال يحييهم^(١).

وقال السدي: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ عند ذكر الوعيد، وتطمئن قلوبهم بالوعد، وهو قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾؛ أي: بالوعد، ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ﴾ [الزمر: ٢٣]؛ أي: بالوعد.

(٣) - ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾: أي: يُجرون الصلاة على الاستقامة اللازمة فيها ويديمونها في أوقاتها.

﴿وَمِمَّا﴾ (من) للتبعض؛ لأن الرزق منه حلالٌ وحرام، والممدوح هو الإنفاق من الحلال؛ أي: ينفقون الحلال من رزقهم في أداء الزكوات ونوافل الصدقات، وفي مصالح الجهاد وسائر الطاعات.

ويحتمل: رزقناهم من سائر النعم من الأموال.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الآية، ليس ذكر هذه الصفات لشرط ثبوت الإيمان بإجماع الأمة أن من آمن عن اعتقاد وإقرار على الصحة ثم مات من ساعته قبل أن يوجد منه شيء من هذه الصفات فهو مؤمن، ولكن يحتمل ثلاثة أوجهٍ صحيحة:

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٦٠٢).

إنما المؤمنون الذين حَقَّقُوا إيمانهم بهذه الأفعال.

والثاني: إنما المؤمنون الذين ظهر صدقهم عندكم بهذه الأفعال.

والثالث: إنما المؤمنون الذين قبلوا واعتقدوا هذه الأفعال، وهو كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥] هو على القبول والاعتقاد^(١).

(٤) - ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾: أي: إيماناً حقاً.

وقيل: المصدقون إلهاً^(٢) حقاً.

وقيل: أي: حقيقة، وقيل: هو قسم، وقيل: أي: حَقَّقُوا أقوالهم بأفعالهم.

﴿لَّهُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾: أي: درجاتٌ في الجنة.

وقيل: أي: مراتبٌ في الآخرة: من إعطاء الكتب بالإيمان، وتلقّي الملائكة بالبشارة بالجنان، وتبييض الوجوه بالفضل والإحسان^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾: سترٌ للذنوب^(٤) فلا يُفتضحون.

﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾: أي: جليلُ القدر في الجنة، لا يَفْنَى ولا يَنْتَقِصُ، ولا يتكدر ولا يَنْتَغِصُ.

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ١٥٢ - ١٥٤).

(٢) في (أ): «لها».

(٣) في (أ) و(ر): «وتبييض الوجوه وسائر وجوه الفضل والإحسان».

(٤) في (ف): «أستر الذنوب».

وقال الحسين بن الفضل رحمه الله: ﴿أُولَئِكَ﴾ الذين فعلوا هذه الأفعال ﴿هُمْ﴾ الْمُؤْمِنُونَ ﴿﴾ لا الذين يقولون بألسنتهم: آمَنَّا، وقلوبهم منطوية على خلافه، لا يقيمون صلاة ولا يؤدُّون زكاة.

وقال ابن أبي نجيع^(١): سأل رجلُ الحسن: أَمُؤْمِنٌ أَنْتَ؟ فقال: إِنْ كُنْتَ تَسْأَلُنِي عَنِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكِتَابِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَالْبَعْثِ وَالْحِسَابِ فَأَنَا بِهَا مُؤْمِنٌ، وَإِنْ كُنْتَ تَسْأَلُنِي عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فما أدري أنا منهم أم لا.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: ﴿دَرَجَتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ على حسب ما أَلَّهِمْ له من الرتب، فبسابق قسمته لهم استوجبوها، ثم بصادق خدمتهم - حيث وفَّقهم لها - بلغوها، ﴿و﴾ لهم ﴿مَغْفِرَةٌ﴾: سَتْرٌ لِمَسِيئَتِهِمْ فِي الْمَالِ وَلِأَكْبَارِهِمْ فِي الْحَالِ، فَيَسْتَرِ مَثَالِبَ الْعَاصِينَ غَدًا فَلَا يَفْضَحُهُمْ لَثْلًا يُحْجِبُوا عَنْ مَأْمُولِ أَفْضَالِهِمْ، وَيَسْتَرِ مَنَاقِبَ الْعَافِينَ عَلَيْهِمْ فِي الْحَالِ لَثْلًا يُعْجِبُوا بِأَحْوَالِهِمْ، وَشَتَانُ بَيْنَ السَّتْرَيْنِ.

وأما الرزق الكريم: فما يعطيه اليومَ من حيث لا يُحْتَسِبُ، وفي الجنة لا يُقَدَّرُ^(٢) ما يَكْتَسِبُ.

وقيل: ما لا ينقص بإجرامهم^(٣).

وقيل: ما لا يشغلهم به عن شهود الرزاق^(٤).

(١) قوله: «ابن أبي نجيع» كذا نقله المؤلف عن الثعلبي في «تفسيره» (٣٢٨/٤) وهو عبد الله بن أبي نجيع من رجال «التهذيب»، ورواه البيهقي في «الشعب» (٧٦) وفيه: تمام بن نجيع، وهو من رجال «التهذيب» أيضاً.

(٢) في (أ): «بقدر»، وليست هذه العبارة في «اللطائف».

(٣) في النسخ: «ما لا ينقصه بإجرامهم»، والمثبت من «اللطائف».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (٦٠٣/١).

(٥) - ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ﴾:

قال الإمام أبو منصور رحمه الله: لم يخرج لهذا الكلام جوابٌ في الظاهر؛ لأن جوابه أن يقول: كما أخرجك ربك من بيتك بالحق يفعل^(١) بك كذا، ثم أهل التأويل اختلفوا في جوابه:

قال بعضهم: هو صلة قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾؛ أي: يجادلونك في الأنفال كما جادلوك إذ أخرجك ربك من بيتك، فإنه قال: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ ⑤ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ.

قال: ومنهم من يقول: جوابه في أمره بالقتال، يقول: كما أخرجك ربك من بيتك وهم كارهون، كذلك يكلفك القتال وهم كارهون لذلك.

قال: ومنهم من يقول: جوابه في قوله: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ﴾ إلى قوله: ﴿وَيُثَبِّتُ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ كما أجبتم الله تعالى في الخروج للقتال على غير تدبير منكم في ذلك ولا نظر، فعلى ذلك يُجيبكم في النعاس أمانة منه، وإنزال الماء من السماء والتطهير به، وثبت^(٢) الأقدام، على غير علم منكم ولا تدبير.

قال: ومنهم من يقول: كما أخرجك ربك من بيتك غير متأهبين ولا مستعدين للقتال، كذلك يَعِدُّكم النصرَ والظفر^(٣).

(١) في (ف): «فعل».

(٢) في (أ): «ويثبت».

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ١٥٥ - ١٥٦).

وقال غيره: أي: كما أخرجك ربك من بيتك بالمدينة إلى الروحاء، فاذهب^(١) من الروحاء إلى بدر.

وقيل: إنه نزع الأفعال من أيديهم بالحق كما أخرجك ربك من بيتك بالحق.

وقيل: أي: ما بيناه لك حق كما أن إخراجك من بيتك كان بالحق.

وقوله: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ﴾ ولم يقل: كما خرجت، ولا: خرجوا؛ لأن الحامل لهم على الخروج إلى الروحاء طوعاً وطبعاً هو وعد الله لهم إحدى الطائفتين أنها لهم، ولم يكن عندهم أنهم يحتاجون إلى القتال، فكان ذلك إخراجاً لهم.

قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ قال الإمام أبو منصور: يحتمل: بالحق الذي لله عليهم من الأمر بالخروج والقتال، ويحتمل: بالوعد الذي وعد من النصر والظفر.

وقيل: ﴿بِالْحَقِّ﴾؛ أي: بالقرآن؛ أي: بالأمر في القرآن.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ﴾ قال الإمام أبو منصور رحمه الله: يحتمل: فريقاً من المؤمنين في الظاهر وهم المنافقون كرهوا ذلك اعتقاداً، كما قال في صفتهم: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَرِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤]، ويحتمل أن يكون من المؤمنين في الحقيقة، ويكون هذا كراهية طبع لأنهم أمروا به وهم غير متأهبين له، وهو كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]^(٢).

(٦) - ﴿يُجِدْ لَوْكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿يُجِدْ لَوْكَ فِي الْحَقِّ﴾: قيل: أي: في القتال، وقيل: أي: في الحق الذي وجب عليهم من ذلك.

(١) بعدها في (ف): «به».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (١٥٦/٥).

وقيل: يعني^(١): في الوعد الذي وعدهم الله تعالى من الظفر والغنيمة.

وقال ابن عباس ومحمد بن إسحاق: إنما جادلوه طلباً للرخصة في الانصراف، لا ردّاً لأمر الله تعالى^(٢).

قوله تعالى: ﴿بَعْدَ مَا بَيَّنَّ﴾: أي: ظهر بقول النبي عليه السلام، وقوله كان بأمر الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾: وهذا كان من بعضهم، فأما أكثرهم فكانوا في أشدّ رغبة فيه^(٣).

رُوي أن سعد بن خيثمة وأباه تنازعا في الخروج إلى القتال، وكل واحد منهما يقول: أنا أخرج^(٤) وتتخلف أنت، فقال سعد: لو كان غير الجنة لأثرتك، إني لأرجو الشهادة في وجهي هذا، فقال خيثمة: أثرتني به فأقم، فأبى سعد، فقال خيثمة: إنه لا بد لأحدنا من أن يقيم، فاستهما فخرج سهم سعد، فنهض فاستشهد^(٥).

وفي تأويل الآية وجه آخر: ﴿كَأَنَّمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ فكان خيراً لهم، فكَذلك فأصلحوا ذات بينكم ولا تنازعوا في الأنفال،

(١) «يعني»: من (ف).

(٢) رواه عنهما بنحوه الطبري في «تفسيره» (١١/٣٧).

(٣) في هذا الكلام نظر، فإن نسبة الأمر للجميع إما أن يكون تعبيراً عن موقف الأكثر، أو أن البعض فعله والباقي وافقهم، أما أن ينسب فعل البعض للجميع والأكثر منهم راغبون عنه غير راضين به فلا يقبل أن يفسر به كلام الله سبحانه، وما سيأتي من القصة لا يعبر بالضرورة عن موقف الأكثرين.

(٤) من قوله «فصارت الأنفال لرسول الله» إلى هاهنا من (أ) و(ف).

(٥) رواه سعيد بن منصور في «سننه» (٢٥٥٨)، والحاكم في «المستدرک» (٤٨٦٦).

وإن كرهتُم ذلك فهو خير لكم، قال تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾^(١) قاله عكرمة^(١).

وقيل: هذا أمر من الله تعالى لرسوله أن يمضي لأمره في الغنائم على كُره من أصحابه كما مضى لأمره في خروجه من بيته لطلب العير وهم كارهون.

وقيل: الكاف بمعنى: على؛ أي: امضِ على ما أخرجك ربك من بيتك، كما تقول: كن كما أنت؛ أي: اثبت على حالك.

قال الواقدي: كانت وقعة بدر يوم الجمعة السابع عشر من شهر رمضان على رأس تسعة عشر شهراً من الهجرة^(٢)، وكانت عير قريش ترجع من الشام، وندب رسول الله ﷺ المسلمين وقال: «هذه عير قريش فيها أموالهم، لعل الله يُغنمكموها فأسرعوا»^(٣).

قال مقاتل: كان فيهم أبو سفيان بن حرب، وعمرو بن العاص، وعمرو بن هشام، ومخرمة بن نوفل الزهري، في أربعين راكباً^(٤).

فأخبر جبريل عليه السلام النبي ﷺ بأمر العير، فندب النبي ﷺ أصحابه فساروا، وبلغهم أن النبي ﷺ يريدهم فبعثوا ضمضم بن عمرو الغفاري إلى مكة مستغيثاً، فخرجت قريش، وأخبر جبريل النبي ﷺ بذلك، فقال لأصحابه: «إن الله يعدكم إحدى

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٣٣/ ١١).

(٢) انظر: «مغازي الواقدي» (٢/ ١)، ورواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢٤٠/ ١) عن أبي جعفر محمد بن علي.

(٣) انظر: «مغازي الواقدي» (٢٠/ ١)، وفيه: «... لعل الله يغنمكموها» فأسرع من أسرع... إلخ.

(٤) انظر: «تفسير مقاتل» (١١٦/ ٢).

الطائفتين: إمَّا العيرُ، وإمَّا فتحُ بدر، فما ترون؟» فأشاروا إليه بالعير^(١)، وكرهوا القتال وقالوا: إِنَّا لَمْ نَتَّخِذْ أَهْبَةً لِلْقِتَالِ، إِنَّمَا نَدَبْتَنَا إِلَى الْعَيْرِ، فَأَعَادَ الْمَشُورَةَ فَأَشَارُوا بِالْعَيْرِ، فَقَالَ سَعْدُ بْنُ عِبَادَةَ^(٢): يَا رَسُولَ اللَّهِ، انْظُرْ فِي أَمْرِكَ فَاْمُضِ لَهُ، فَوَاللَّهِ لَوْ سَرَتْ إِلَى عَدْنِ أَبِيْنَ^(٣) مَا تَخَلَّفَ عَنْكَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَفَرَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِذَلِكَ.

وقال المقداد بن الأسود الكندي: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا لَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] بل نقول: اْمُضِ لِأَمْرِ رَبِّكَ فَإِنَّا بَيْنَ يَدَيْكَ مَقَاتِلُونَ مَا دَامَتْ مِنَّا عَيْنٌ تَطْرَفُ^(٤)، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَالَ لَهُ خَيْرًا^(٥).

وفي رواية: قَالَ الْمَقْدَادُ: فَوَالَّذِي نَفْسُكَ بِيَدِهِ لَوْ سَرَتْ إِلَى بَرَكِ الْغِمَادِ - وَهِيَ مَدِينَةُ بِالْحَبَشَةِ - لَجَالَدْنَا مَعَكَ مِنْ دُونِهِ حَتَّى تَبْلُغَهُ، فَدَعَا لَهُ بِالْخَيْرِ^(٦).

(١) فِي (ف): «فَأَشَارُوا بِالْعَيْرِ»، وَفِي (ر): «فَأَشَارُوا إِلَيْهِ بِالْعَيْرِ».

(٢) قَوْلُهُ: «سَعْدُ بْنُ عِبَادَةَ» كَذَا وَقَعَ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ، وَمِنْهَا مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١٩٧٩) مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لَكِنْ قَالَ الْحَافِظُ فِي «الْفَتْحِ» (٧/٢٨٨): فِيهِ نَظَرٌ؛ لِأَنَّ سَعْدَ بْنَ عِبَادَةَ لَمْ يَشْهَدْ بِدْرًا، وَإِنْ كَانَ يُعَدُّ فِيهِمْ لَكُونَهُ مِمَّنْ ضَرَبَ لَهُ بِسَهْمِهِ...، قَالَ: وَوَقَعَ عِنْدَ الطَّبْرَانِيِّ أَنَّ سَعْدَ بْنَ عِبَادَةَ قَالَ ذَلِكَ بِالْحَدِيثِيَّةِ، وَهَذَا أَوْلَى بِالْصَوَابِ.

(٣) فِي رِوَايَةِ مُسْلِمٍ: (إِلَى بَرَكِ الْغِمَادِ).

(٤) فِي (أ) وَ(ف): «تَطْرَفُ».

(٥) رَوَاهُ بَنُوهُ الْبُخَارِيُّ (٤٦٠٩) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٦) ذَكَرَ هَذِهِ الرِّوَايَةَ الْوَاقِدِيُّ فِي «الْمَغَازِي» (١/٤٨)، وَابْنُ إِسْحَاقَ كَمَا فِي «السِّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ» لِابْنِ هِشَامٍ (١/٦١٥)، وَالْقُرْطُبِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٩/٤٦٢). وَعِنْدَهُمْ بَدَلُ «وَالَّذِي نَفْسُكَ بِيَدِهِ»: (وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ). وَقَوْلُهُ: «وَهِيَ مَدِينَةُ بِالْحَبَشَةِ»، وَقَعَ مِثْلُهُ عِنْدَ الْقُرْطُبِيِّ، وَلَمْ يَرِدْ عِنْدَ ابْنِ هِشَامٍ، وَجَاءَ عِنْدَ الْوَاقِدِيِّ بَدَلًا مِنْهُ: (وَبَرَكُ الْغِمَادِ مِنْ وَرَاءِ مَكَّةَ بِخَمْسِ لَيَالٍ مِنْ وَرَاءِ السَّاحِلِ مِمَّا يَلِي الْبَحْرَ، وَهُوَ عَلَى ثَمَانِ لَيَالٍ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْيَمَنِ).

وفي رواية الواقدي: لما استشارهم قام أبو بكر رضي الله عنه فأحسن، ثم قام عمر رضي الله عنه فأحسن، ثم قال: يا رسول الله إنها والله قريش ما دلت مُدْعَزَت، ولا آمنت مُدْكَفَرْتُ، والله لا تُسَلِّمَ [عزها] أبداً ولتقاتلنك، فتأهبَّ أهْبَتَهُ وأَعِدَّ لذلك عُدَّتَهُ. ثم قام المقداد وقال ما ذكرناه، ثم قال النبي ﷺ: «أشيروا عليَّ أيها الناس» وإنما يريد الأنصار، وكان يظنُّ أن الأنصار لا تنصُّره إلا في الدار، وذلك أنهم شرطوا له أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأولادهم، فلما قال ذلك قام سعد بن معاذ فقال: أنا أجيب عن الأنصار، كأنك يا رسول الله تريدنا^(١)؟ فقال: «أجل»، قال: إنك عسى أن تكون خرجت على أمرٍ قد أوحى الله تعالى إليك^(٢)، فإنَّا قد آمنا بك وصدَّقناك، وشهدنا أن ما جئتنا به حقٌّ، وأعطيناك موثيقنا وعهودنا على السمع والطاعة، فامضِ يا نبيَّ الله لِمَا أَرَدْتَ ونحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضتَ هذا البحر فحُضِّصْتَهُ لَحُضِّنَاهُ معك ما بقي منا رجل، وصِلْ مَنْ شِئْتَ واقطَعْ مَنْ شِئْتَ، وخُذْ مِنْ أَمْوَالِنَا مَا شِئْتَ، وما أخذتَ من أَمْوَالِنَا أَحَبُّ إلينا مما تركتَ.

فلما فرغ سعدٌ قال رسول الله ﷺ: «سيروا على بركة الله، فإنَّ الله عز وجل قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم»، وأرانا رسول الله ﷺ مصارعهم يومئذ: هذا مصرعُ فلانٍ وهذا مصرعُ فلان، فما عدا كلُّ رجلٍ مصرعَه^(٣). فعلم القوم أنهم ملاقون القتال، وأن العير قد تفلَّتت، ورَجَّوْا النصرَ لقول

(١) في (ر): «تريدهم»، والمثبت موافق لما في «المغازي».

(٢) العبارة في «المغازي»: «(إنَّكَ عَسَى أَنْ تَكُونَ خَرَجْتَ عَنْ أَمْرِ قَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ فِي غَيْرِهِ).

(٣) رواه بنحوه مسلم (٢٨٧٣) من حديث أنس عن عمر رضي الله عنه أنه قال: إنَّ رسولَ الله ﷺ، كان

يُرِينَا مَصَارِعَ أَهْلِ بَدْرٍ بِالْأَمْسِ، يَقُولُ: «هَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ غَدًا، إِنْ شَاءَ اللَّهُ»، قال: فقال عمر: فوالذي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ مَا أَخْطَأُوا الْحُدُودَ الَّتِي حَدَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

رسول الله ﷺ، ونزل رسول الله ﷺ أدنى بدرٍ عشَاء ليلة الجمعة لسبعِ عَشْرَةِ مَضَتْ من رمضان، فبعث عليّاً والزبيرَ وسعد بن أبي وقاص وبسبَس بن عمرو ويتجسسون^(١) على الماء، وقال: «أرجو أن تجدوا الخبر عند هذا القلب»، فجاؤوا فوجدوا على القلب روايا قريش وفيها سُقَّاءُهم، فَأَقْلَتَ عَامَّتُهُم، وكان فيهم عجيرٌ، وهو أولُ مَنْ جاء قريشاً بخبر رسول الله ﷺ وأصحابه، فنادى في العسكر: يا آل غالب! هذا ابنُ أبي كبشة وأصحابه قد أخذوا سُقَّاءكم، فماج العسكر.

فقال النبي ﷺ للسُّقَّاء: «أين قريش؟» فقالوا: خلف هذا الكثيب الذي ترى، قال: «كم هم؟» قالوا: بين الألف والتسع مئة^(٢)، فقال: «مَنْ خرج من مكة؟» قالوا: لم يبقَ أحدٌ إلا خرج، فأقبل النبي ﷺ على الناس فقال: «هذه مكة قد أَلَقْتُ أَفْلاذَ كِبْهَا»^(٣).

وكان المسلمون مع رسول الله ﷺ ثلاث مئةٍ وثلاثة عَشْرَ، ولهم^(٤) سبعون بعيراً، وكان يتعاقب الإبل الاثنان والثلاثة والأربعة، فكان النبي ﷺ وزيد بن حارثة وعليٌّ يتعاقبون بعيراً واحداً^(٥).

وكان النبي ﷺ قال حين نزل بالمنزل الأول في اليوم الثاني عشر من شهر رمضان فنظر إلى أصحابه فقال: «يا رب، إنهم حفاةٌ فاحملهم، وجياعٌ فَأَشْبِعِهِمْ، وعُرَاةٌ فَاكْسُهُمْ، وعالةٌ فَأَغْنِهِمْ من فضلك»، فما رجع أحدٌ إلا ومعه بعيْرٌ وبعيران،

(١) في مطبوع «المغازي»: (يتجسسون).

(٢) في (ف): «بين ألف وتسعمئة».

(٣) انظر: «مغازي الواقدي» (١/٤٨ - ٥٣).

(٤) في (ف): «ومعهم».

(٥) انظر: «مغازي الواقدي» (١/٢٣ - ٢٤).

واكتسَى مَنْ كَانَ عَارِيًّا، وَأَصَابُوا طَعَامًا مِنْ أَزْوَاجِهِمْ، وَأَصَابُوا فِدَاءَ الْأَسَارَى فَأَغْنَى بِهِ كُلُّ عَائِلٍ^(١).

وكانت عاتكة بنت عبد المطلب رأت قبل قدوم ضمضم بن عمرو رؤيا أفزعَتْها، فأرسلت إلى أخيها العباس بن عبد المطلب وقالت: يا أخي! رأيت راكباً أقبل على بعيرٍ حتى وقف بالأبطح، ثم صرخ بأعلى صوته: يا آل عُذْر انْفِرُوا إلى مصارعكم، صرخ بها ثلاثاً^(٢)، فاتَّبَعه الناس فدخل المسجد والناس يتبعونه، إذ مثَّل به بعيره على ظهر الكعبة، فصرخ مثلها ثلاثاً، ثم مثَّل^(٣) به بعيره على أبي قُبَيْس فصرخ مثلها ثلاثاً، ثم أخذ صخرةً من أبي قُبَيْس فأرسلها فأقبلت تهوي حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضت^(٤) فما بقي بيت من بيوت مكة إلا دخلته منها فلذةً.

وكان عمرو بن العاص يقول: لقد رأيتُ أنا كلَّ هذا، ورأيت في دارنا فلذةً من الصخرة، ولقد كان فيه عبرةٌ ولكنَّ الله تعالى لم يُرِدْ أن نُسلم يومئذٍ وآخر إسلامنا إلى ما أراد الله.

فاغتم^(٥) العباس لذلك، وخرج فلقي الوليد بن عتبة بن ربيعة وكان له صديقاً، فذكرها له واستكتمه، ففشا الحديث في الناس، قال: فغدوت أطوف بالبيت وأبو جهل في رهطٍ من قريش يتحدثون برؤيا عاتكة، قال أبو جهل: يا بني عبد المطلب!

(١) انظر: «مغازي الواقدي» (٢٦/١).

(٢) في (أ): «ثلاث مرات».

(٣) في (أ) و(ف): «تمثل».

(٤) أي: تفتتت، ووقع في النسخ: «انقضت»، والمثبت من المصادر. انظر: «مغازي الواقدي» (٢٩/١)،

وكذا في رواية ابن إسحاق عن ابن عباس وعروة بن الزبير كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٦٠٧/١)

و«دلائل النبوة» للبيهقي (٣٠/٣)، ومثله في رواية عروة عند الطبراني في «الكبير» (٣٤٦/٢٤).

(٥) في (أ): «فأهم»، وفي (ف): «فاهتم».

أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم؟ زعمت عاتكة أنها رأت في المنام كذا، فستريص بكم ثلاثاً، فإن يك ما قالت حقاً فسيكون، وإن مضت الثلاث ولم يكن نكتب عليكم كتاباً أنكم أكذب أهل بيت في العرب، فقال العباس^(١): يا مصفرّ استه، أنت أولى باللوم والكذب منّا.

فقال العباس: فغدوت في اليوم الثالث وأنا حديد مغضب أرى أن قد فاتني منه أمر أحب أن أدركه، فوالله إني لأمشي نحوه وكان رجلاً حديد الوجه حديد اللسان حديد النظر، إذ خرج نحو باب بني سهم يشتد، فقلت: ما له لعنه الله؟ أكل هذا فرقاً من أن أشاتمّه، فإذا هو قد سمع صوت ضمضم وهو يقول: يا معشر^(٢) قريش، العير قد عرض لها محمد في أصحابه، الغوث الغوث، وتجهّزت قريش فأخرجت أسلحتها، وأعان قوئهم ضعيفهم وخرجوا^(٣).

وأقبل أبو سفيان بالعير، وخافوا خوفاً شديداً حين دنوا من المدينة، واستبطؤوا ضمضمًا والنفير، فلمّا كانت الليلة التي يصبحون فيها على ماء بدر غشيهم تلك الليلة ظلمة، وكان اللذان بعثهما رسول الله ﷺ لتجسس الخبر نزلاً بدرًا وسمعا جاريتين تقول إحداهما لصاحبتهما: إنما العير غدًا أو بعد غد، فرجعا وأصبح أبو سفيان ببدر، فرأى أبعاداً ففتّها فإذا فيها نوى، فقال: والله هذه علائف يثرب، هذه عيون محمد وأصحابه ما أراهم إلا قريباً، فعدّل عيره وسار بهم إلى مكة من طريق الساحل، وترك بدرًا يساراً وانطلق سريعاً^(٤).

(١) «العباس»: من (ف).

(٢) في (ف): «معشر».

(٣) انظر: «مغازي الواقدي» (١/ ٢٩ - ٣٢)، و«السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٦٠٧ - ٦١٠)،

و«المعجم الكبير» (٢٤/ ٣٤٦ - ٣٤٧).

(٤) انظر: «مغازي الواقدي» (١/ ٣٩ - ٤١).

وخرج أهل مكة، ونزلوا حيث قلنا في حديث سُؤال النبي ﷺ السُّقَاء، ثم قال لأصحابه: «أشيروا عليَّ في المنزل»، فقال الحُبَاب بن المنذر: يا رسول الله، أُرِيتَ هذا المنزل، أَمُنزلُ أنزلَكَه الله ليس لنا أن نتقدَّمه أو نتأخَّر عنه، أم هو الرأْي والحرب والمكيدة؟ فقال ﷺ: «بل هو الرأْي والمكيدة والحرب»، قال: فإن هذا ليس بمنزلٍ، انطلق بنا إلى أدنى ماءٍ إلى القوم فإنِّي عالمٌ بها وبقلْبها، بها قَلِيبٌ قد عرفتُ عذوبةَ مائه، وماؤه كثيرٌ لا يُنْزَح، ثم بنى عليه حوضاً ونقذَف فيه الآنية، فنشرب ونقاتل ونغور ما سواه من القُلُب، فنزل جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ وقال: الرأْي ما أشار به الحُبَاب، فقال ﷺ: «الرأْي ما أشرتَ إليه» ونهَضَ ﷺ وفعل ذلك.

ولمَّا تحول إلى المنزل أرسل عمار بن ياسر وابن مسعود فأطافا بالقوم، ثم رجعا إلى النبي ﷺ فقالا: القوم مذعورون فزعون، إن الفرس ليريدُ أن يَصْهَلَ فيضربُ وجهه، مع أن السماء تسحُّ عليهم، فلما أصبَحوا قال منبِّه بن الحجاج وكان رجلاً يبصر الأثر: هذا أثرُ ابن سمية وأثر ابن أمِّ عبدٍ أعرفهما، قد جاءنا محمد بسفهاثنا وسفهاء أهل يثرب.

وُبني لرسول الله ﷺ عَرِيشٌ من جَرِيدٍ، فقام سعد بن معاذ على باب العريش متوشِّحاً بالسيف، فدخل النبي ﷺ العريش هو وأبو بكرٍ، ونزل رسول الله ﷺ بالعدوة الشامية ونزلوا بالعدوة اليمانية، ثم دعا رسولُ الله ﷺ ربَّه، فنزل جبريل عليه السلام [بهذه الآية]: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ﴾ الآية [الأنفال: ٩].

وعَدَّل رسولُ الله ﷺ الصفوف، فتقدم سوادُ بن غَزِيَّة أمام الصفِّ، فدفع النبي ﷺ في بطن سوادٍ بقدحٍ وقال: «استوي سواد»، فقال: قد^(١) أوجعتني، والذي بعثك بالحق نبياً أَقْدَنِي، فكشف رسول الله ﷺ بطنه ثم قال: «استَفِدْ»، فاعتنقه وقَبَله، فقال

(١) «قد»: ليس في (ف).

له: «ما حملك على ما صنعت؟» فقال: حضر من أمر الله ما ترى، فخشيتُ القتل، فأردتُ أن يكون آخر عهدي بك أن أعتنقَكَ.

وقال عليُّ رضي الله عنه: وجاءت ريحٌ لم أرَ مثلها قطُّ شدةً، ثم ذهبَتْ فجاءت مثلُها أخرى، ثم ثالثةٌ، فكانت الأولى جبريلَ في ألفٍ من الملائكة فكانوا مع رسول الله ﷺ، والثانية ميكائيلَ في ألفٍ فكانوا في ميمنة رسول الله ﷺ وأبي بكر، والثالثة إسرافيلَ في ألفٍ ونزل على ميسرة رسول الله ﷺ، وأنا في الميسرة^(١)، ولَمَّا هزم الله أعداءه جعلني رسول الله ﷺ على فرسه، فخرَّت بي فلما خرَّت^(٢) خررتُ على عنقها، فدعوت ربي فأمسكني حتى استويتُ، وما لي وللخيل؟! إنما كنتُ صاحب غنم، فلما استويتُ طعنْتُ بيدي هذه حتى اختضب مني إبطي.

وخطب رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه وقال: «أما بعدُ، فإنِّي أحثُّكم على ما حثَّكم الله عليه، وأنهاكم عما نهاكم الله عنه، فإن الله عظيمٌ شأنه، يأمر بالحق ويحب الصدق، ويعطي على الخير أهله على منازلهم عنده، به يُذكرون وبه يتفاضلون، وإنكم قد أصبحتم بمنزلٍ من منازل الحق، لا يقبل الله فيه من أحدٍ إلا ما ابتغى به وجهه، وإن الصبر في مواطن البأس مما يفرِّج الله به الهمَّ، ويُنجي به من الغمِّ، به تدركون النجاة في الآخرة، فيكم نبيُّ الله يحذركم ويأمركم، فاستحيوا اليوم أن يطلع الله على شيء من أمركم يمقتكم عليه، فإن الله يقول: ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَّقَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [غافر: ١٠]، انظروا إلى الذي أمركم به في كتابه، وأراكم في آياته، وأعزكم بعد ذلِّه، فاستمسكوا به يرضى به ربُّكم عنكم، وأبْلُوا ربَّكم في هذه المواطن أمراً تستوجبون به الذي وعدكم من رحمته ومغفرته، فإن وعدَه حقٌّ وقوله

(١) في (ف): «وكانوا في ميسرته» بدل: «ونزل على ميسرة رسول الله ﷺ وأنا في الميسرة».

(٢) في مطبوع «المغازي»: (فجمزت بي فلما جمزت)، وفي بعض نسخه: (فجرت بي فلما جرت).

صدق وعقابه^(١) شديد، وإنما أنا وأنتم بالله الحي القيوم، إليه الجأنا ظهورنا، وبه اعتصمنا، وعليه توكلنا، وإليه المصير، يغفر الله لي وللمسلمين».

ورأى رسول الله ﷺ قريشاً تصوب^(٢) في الوادي، وكان أول من طلع زمعة بن الأسود على فرس له يتبعه ابنه، فاستجال بفرسه يريد أن يتبوأ للقوم منزلاً، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم إنك أنزلت علي الكتاب، وأمرتني بالقتال، ووعدتني إحدى الطائفتين، وأنت لا تخلف الميعاد، اللهم وهذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تجادل وتكذب رسولك، اللهم نصرك الذي وعدتني، اللهم أحنهم الغداة».

ولمّا نزل القوم أرسل رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب إلى قريش فقال: ارجعوا فإنه أن^(٣) يلي هذا مني غيركم أحب إلي من أن تلوّه أنتم، وأليّه من غيركم أحب إلي من أن أليّه منكم، فقال حكيم بن حزام: قد عرض نصفاً فاقبلوه، والله لا تنصرون عليه بعدما عرض من النصف، فقال أبو جهل لعنه الله: والله لا نرجع بعد أن أمكن الله منهم، ولا^(٤) نطلب أثراً بعد عين، ولا يتعرّض لغيرنا بعد هذا أبداً.

فلمّا تراخف الناس قال الأسود بن عبد الأسد المخزومي^(٥): أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتنّ دونه، فشد حتى دنا من الحوض، فاستقبله حمزة ابن عبد المطلب فضربه فقطع قدمه، فزحف الأسود حتى وقع في الحوض وهدمه برجله الصحيحة وشرب منه، وأتبعه حمزة فضربه في الحوض حتى قتله.

(١) في (ف): «وعذابه».

(٢) في (ف): «تصوب».

(٣) «أن»: من (ف).

(٤) في (ف): «والله لا».

(٥) «المخزومي»: ليست في (أ) و(ف).

والمشركون ينظرون على صفوفهم وهم يرون أنهم ظاهرون، فدنا الناس بعضهم من بعض.

وقال عكرمة: قال النبي ﷺ: «إِنْ تُطِعْ قَرِيشَ صَاحِبِ الْجَمَلِ الْأَحْمَرِ رَشَدُوا» يعني: عتبة؛ لأنه قال: يا معشر قريش، لا تقاتلوا هؤلاء، فإنكم إن فعلتم لم يزل الرجل منكم ينظر في وجه قاتل أخيه وابنه وابن عمه، فإن^(١) يكن محمد ملكاً أكلتم في ملك أخيكم، وإن يكن^(٢) نبياً كنتم أسعد الناس به، وإن يكن كذاباً كفتكموه العرب. فأبوا أن يطيعوه، فقال: أنشدكم الله في هذه الوجوه التي كأنها المصابيح أن تجعلوها كأنها وجوه الأفاعي، فقال أبو جهل لعنه الله: لقد انتفخ سحرُك^(٣)، فقال عتبة: يا مصفر استه^(٤)، ستعلم أننا الجبان اللئيم المفسد لقومه، ثم قال لأخيه شيبه وابنه الوليد: انزلا، فخرج عتبة وشيبه والوليد حتى فصلوا من الصفوف، ثم دعوا للمبارزة، فخرج إليهم فتیان ثلاثة من الأنصار وهم بنو عفراء: معاذ ومعوذ وعوف، فاستحيا رسول الله ﷺ من ذلك وكره أن يكون أول قتال^(٥) لقي فيه المسلمون المشركين في الأنصار، وأحب أن تكون الشوكة ببني عمه وقومه، فأمرهم فرجعوا إلى مصافهم، وقال لهم خيراً، ثم نادى منادي المشركين: يا محمد، أخرج لنا الأكفاء

(١) في (ف): «قاتل أخيه وأبيه وإن».

(٢) في (ر): «كان».

(٣) السحر: ما تعلق بالخلقوم؛ ولهذا قيل للرجل إذا جبن: انتفخ سحره، كأنهم أرادوا الرثة وما معها.

انظر: «مجمع الغرائب» لعبد الغافر الفارسي (مادة: سحر).

(٤) قوله: «يا مصفر استه» قيل: رماه بالأبنة، وأنه كان يزعم استه، وقيل: هي كلمة تقال للمُنعم الذي لم تحنكه التجارب، وكأنه أخذ من الصفير، يريد أنه يضرب نفسه بيده، وهو كقولك: يا صراط.

انظر: «مجمع الغرائب» (مادة: صفر).

(٥) في (ر): «قتل».

من قومنا، فقال رسول الله ﷺ «قوموا يا بني هاشم فقاتلوا بحقكم الذي بعث الله به نبيكم إذ جاؤوا بباطلهم ليطفئوا نور الله» فقام حمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف، فمشوا إليهم، فقال عتبة: تكلموا نعرفكم، وكان عليهم البيض فأنكروهم^(١)، فقال حمزة: أنا حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله، فقال عتبة: كفؤ كريم، وأنا أسد الحلفاء، من هذان معك؟ فقال: علي بن أبي طالب وعبيدة بن الحارث، فقال: كفؤان كريمان، ثم قال عتبة لابنه الوليد: قم يا وليد، فقام الوليد وقام إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكان أصغر نفر، فاختلفا ضربتين فقتله علي، ثم قام عتبة فقام إليه حمزة فاختلفا ضربتين فقتله حمزة، ثم قام شيبة فقام إليه عبيدة بن الحارث وهو يومئذ أسن أصحاب رسول الله ﷺ، فضرب شيبة رجل عبيدة بذياب السيف فأصاب عضلة ساقه فقطعها، وكرّ حمزة وعلي على شيبة فقتلاه، واحتملا عبيدة فجاءا به إلى الصف ومنح ساقه يسيل، فقال عبيدة: يا رسول الله، ألسنت شهيداً؟ قال: «بلى»، ونزلت فيهم هذه الآية: ﴿هَٰذَا خِطْمَانِ أَخْضَمُوا فِي رَيْبِهِمُ﴾ الآية.

وإن إبليس لعنه الله تصوّر بصورة سراقه بن جُعْشَم يخبرُ المشركين أنه لا غالب لكم^(٢) اليوم من الناس، فلما أبصر عدو الله الملائكة نكص على عقبيه وقال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ [الأنفال: ٤٨]، فتشبّث به الحارث بن هشام وهو يرى أنه سراقه لما سمع من كلامه، فضرب في صدر الحارث فسقط، وانطلق إبليس لا يرى حتى وقع في البحر، ورفع يديه وهو يقول: يا رب موعدك الذي وعدتني.

فأقبل أبو جهل لعنه الله على أصحابه فحضّهم على القتال، وقال: لا يغرنكم

(١) «فأنكروهم»: ليس من (ف).

(٢) في (ف): «لهم».

خذلانُ سراقَةِ إياكم، فإنما كان على ميعادٍ من محمد وأصحابه، سيعلم إذا رجعنا إلى قومه^(١) ما نصنع بقومه، ولا يهولنكم مقتلُ عتبة وشيبة والوليد فإنهم عجلوا وبَطَرُوا حين قاتلوا، وإيمُ الله لا نرجعُ اليوم حتى نفرِّقَ محمداً وأصحابه في الجبال، فلا أَلْقَيْنَ^(٢) أحداً منكم قتلَ محمداً^(٣)، ولكنْ خذوهم أخذاً حتى نعرِّفهم^(٤) بالذي صنعوا بمفارقتهم دينكم ورغبتهم عما كان يعبد^(٥) آبائهم.

وكان فتيةً من قريشٍ سبعةٌ قد أسلموا فاحتبسهم آبائهم، فخرجوا معهم إلى بدرٍ وهم على الارتياب، فلما رأوا قلةَ أصحاب النبي ﷺ قالوا: ﴿غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾
الآيات [الأنفال: ٤٩].

والتحم القتال ورسولُ الله ﷺ رافعٌ يديه يسألُ الله النصرَ وما وعده، ويقول: «اللهم إنْ ظهر عليَّ هذه العصابةُ ظهر الشرك ولا يقومُ لك دينٌ» وأبو بكر رضي الله عنه يقول: والله لينصرنَّك الله يا رسول الله، وليبيضنَّ الله وجهك، فأنزل الله تعالى أَلْفَاً من الملائكة مردفين.

وكان سِيماً الملائكةِ عمائمٌ قد أرخوها بين أكتافهم خضراً وحمراً وصفراً من نُورٍ، والصوفُ في نواصي خيلهم، وفي مغافرهم^(٦) وقلانسهم، وكان الملك يتصوَّر في صورةٍ مَنْ يعرفون من الناس يثبَّتُونهم ويقول: إني قد دنوتُ منهم فسمعتهم

(١) في «المغازي»: (إلى قديد)، وقديد: قرية جامعة بين مكة والمدينة كثيرة المياه.

(٢) في (ف): «ألقين».

(٣) في «المغازي»: (قتل أحداً)، وهو الأنسب بالسياق.

(٤) في (ف): «خذوهم أخذاً نعذبهم».

(٥) في (ر): «عليه».

(٦) في (أ): «مفارقهم».

يقولون: لو حملوا علينا ما ثبتنا، وذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢] فأخذ رسول الله ﷺ كفاً من الحصباء^(١) فرماهم بها وقال: «شاهت الوجوه، اللهم أرعب قلوبهم وزلزل أقدامهم».

فانهزم أعداء الله لا يَلَوْن على شيء، والمسلمون يقتلون ويأسرون، فأقبل عاصم بن عوف كأنه ذئبٌ فقال: يا معشر قريش، عليكم بالقاطع مفرق الجماعات الآتي بما لا نعرف، محمد لا نجوت إن نجا، واعترضه أبو دجانة فاختلفا ضربات، وضربه أبو دجانة فقتله، فوقف على سلبه يسلبه، فمرَّ به عمر وهو على تلك الحال فقال: دَغ سَلْبِهِ حَتَّى يُجَهِّضَ الْعَدُوَّ وَأَنَا أَشْهَدُ بِهِ لَكَ.

ولما رأت بنو مخزوم مقتلَ مَنْ قُتِلَ أَجْمَعُوا عَلَى أَنْ يُلْبَسُوا لِأُمَةِ أَبِي جَهْلٍ رجلاً منهم، فألبسوها عبد الله بن المنذر، فقصدته عليٌّ فقتله وهو يراه أبا جهل، فضربه فقتله وهو يقول له: خذها وأنا ابن عبد المطلب، ثم ألبسوها أبا^(٢) قيس بن الفاكه، فقصدته حمزة وهو يراه أبا جهل فضربه فقتله حمزة وهو يقول له^(٣): خذها وأنا ابن عبد المطلب، ثم ألبسوها آخر^(٤) فقصدته عليٌّ فقتله، وأبو جهل في أصحابه، ثم أرادوا أن يلبسوها آخر^(٥)، فأبى أن يلبسها يومئذ.

فقال معاذ بن عمرو بن الجموح: نظرت إلى أبي جهل يومئذ في مثل الحَرَجَةِ^(٦)

(١) في (ر): «الحصى».

(٢) في (ف): «ألبسوها آخر وهو أبو».

(٣) في (ف): «فقال» بدل: «حمزة وهو يقول له».

(٤) في «المغازي»: (ثم ألبسوها حرملة بن عمرو).

(٥) في «المغازي»: (أن يلبسوها خالد بن الأعلم).

(٦) الحرجة: الغيضة التي تضايقت لالتفافها. انظر: «الفائق» (١/ ٢٧٣).

وهم يقولون: يا أبا الحكم لا يُخْلَصُ إليك، فعرفتُ أنه هو، فقلتُ: والله لأموتن دونه اليوم أو لأخلصنَّ إليه، فقصدته حتى إذا أمكثتني منه غرةً حملتُ عليه فضربته ضربةً طرحت رجله من الساق، فشبَّهتها بالنواة تنزو من تحت المراضخ^(١)، ثم أقبل ابنه عكرمة عليّ فضربني على عاتقي فطرح يدي من العاتق إلا أنه بقيت جلدتها، فأنا أسحب يدي بجلدة من خلفي، فلما آذنتني وضعتُ عليها رجلي فتمطّيت عليها حتى قطعتها.

ورُوي أن النبي ﷺ نقلَ معاذَ بن عمرو سيفَ أبي جهل وهو عند آلِه اليوم، بعد أن أرسل النبي ﷺ إلى عكرمة فسأله: «مَنْ قتل أباك؟» قال: الذي قطعته يده.

ولما وضعت الحرب أوزارها أمر النبي ﷺ أن يلتمس أبو جهل لعنه الله، قال ابن مسعود: فوجدته في آخر رَمَقٍ، فوضعت رجلي على عنقه فقلتُ: الحمد لله الذي أخزأك، فقال: إنما أخزى الله عبدَ بن أمِّ عبدٍ، لقد ارتقيتُ مُرتقاً صعباً يا رويي الغنم، لمن الدِّبْرَةُ^(٢)؟ قلت: لله ولرسوله، فاقتلعت بيضته عن قفاه فقلتُ: إني قاتلك يا أبا جهل، قال: لست بأول عبد قتل سيده، أما إن أشدَّ شيءَ لقيته اليوم في نفسي لقتلك إياي، فضربه عبد الله ضربة فوق رأسه بين يديه، ثم سلبه، فنظر إلى خصره كأنها السياط، وأقبل بسلاحه ودرعه وبيضته فوضعها بين يدي رسول الله ﷺ فقال: أبشر يا نبي الله بقتل عدو الله أبي جهل، فقال النبي ﷺ: «أحقاً يا عبد الله فوالذي نفسي بيده لهو أحبُّ إليَّ من حُمُر النعم»، وذكرت ما به من الآثار فقال: «ذلك ضربُ الملائكة»، وقال: «إنه أصابه جحش^(٣) من دفعة دفعته في مأدبة ابن جدعان

(١) المراضخ: جمع المرضخة، والمرضخة حجر يرضخ به النوى؛ أي يكسر. انظر: «النهاية» (مادة: رضخ).

(٢) قوله: «لمن الدِّبْرَةُ؟ أي: الظَّفَرُ والنَّصْرُ والدَّوْلَةُ، ويقال: عَلَى مَنْ الدِّبْرَةُ؟ أي: الْهَزِيمَةُ. والباء من (الدِّبْرَةُ) يجوز فيها الفتح والتسكين. انظر: «مجمع الغرائب» (مادة: دبر)، و«النهاية» (مادة: دبر).

(٣) في (ف): «خمش أي خدش».

فَجُحِشْتُ^(١) ركبته»، فالتمسوه فوجدوا ذلك الأثر، فقال النبي ﷺ: «اللهم قد أنجزت ما وعدتني فتمم علي نعمتك»، وقال: «اللهم اكفني نوفل بن خويلد».

وأقبل نوفل يومئذ وهو مرعوبٌ قد رأى أصحابه قتلَى، وكان^(٢) أول ما التقوا يصيح بصوت له زجل: يا معشر قريش، اليوم يومُ العلا والرّفعة، فلما رأى قريشاً قد انكشفت جعل يصيح بالأنصار: ما حاجتكم إلى دماننا؟ ألا^(٣) ترون من تقتلون؟ أما لكم في اللّين من حاجة؟ فأسرّه جبّار بن صخر، وكان^(٤) يسوقه أمامه، وأقبل عليّ رضي الله عنه فقتله، فأخبر النبي ﷺ بذلك، فكبر وقال: «الحمد لله الذي أجاب دعوتي فيه».

وأقبل العاص بن سعيد يحث للقتال، فالتقى هو وعليّ فقتله عليّ. وقال عكاشة بن محصن: انقطع سيفي فأعطاني النبي ﷺ عوداً، فإذا هو سيف أبيض، فقاتلت به حتى هزم الله تعالى المشركين، فلم يزل عنده حتى مات. وبينما حارثه بن سُرّاقة رضي الله عنه كارعاً في الحوض إذ أتاه سهمٌ غرّب^(٥) فوقع في نحره، فلقد شرب آخر النهار من دمه، فبلغ أمّه وأخته وهما بالمدينة مقتله، فقالت أمه: والله لا أبكي عليه حتى يقدّم رسول الله ﷺ فأسأله، فإن كان^(٦) ابني في

(١) في (ف): «فخمشت».

(٢) في (ف): «قد رأى قتل أصحابه وهو».

(٣) في (ف): «أما».

(٤) في (ف): «وجعل».

(٥) «سهم غرّب»: هو الذي لا يعرف راميّه، قال ابن الأثير: يقال: (سهمٌ غرّب) بفتح الرّاء وسكونها، وبالإضافة وغير الإضافة. وقيل: هو بالسُّكون إذا أتاه من حيث لا يدري، وبالفتح إذا رماه فأصاب غيرَه. انظر: «النهاية» (مادة: غرّب).

(٦) في (ف): «يكن».

الجنة لم أبك عليه، وإن كان في النار بكيتُ عليه^(١)، فلما قدم رسول الله ﷺ جاءت وسألت فقالت: يا رسول الله، قد عرفتَ موقع^(٢) حارثة من قلبي^(٣)، فأردتُ أن أبكي عليه ثم قلتُ: لا أفعل حتى أسأل رسول الله ﷺ، فإن كان في الجنة لم أبك عليه، وإن كان في النار بكيتُه، فقال ﷺ: «أَوْجَنَّةٌ واحدة، إنها جنانٌ كثيرة، والذي نفسي بيده إنه لفي الفردوس الأعلى»^(٤)، فقالت: لا أبكي عليه أبداً، ودعا رسول الله ﷺ بإناءٍ من^(٥) ماء، فغمس يده فيه ومضمض فاه، ثم ناول أمَّ حارثة^(٦) وأختَه فشربتَا منه^(٧)، ثم أمرهما أن ينضحَا في جيوبهما ففعلتا، فرجعتا وما بالمدينة امرأتان أقرَّ عينا ولا أسرَّ منهما.

ولما جُمعت الغنائم اختلفوا فيها على ما مرَّ في أول السورة، ونزل ما قلنا، وأخذ عليُّ رضي الله عنه درعَ الوليد ومُغْفَرَه، وأخذ حمزة رضي الله عنه سلاح عتبة، وأخذ عبيدةُ بن الحارث رضي الله عنه درعَ شيبَةَ بن ربيعة حتى دُفعت إلى ورثته.

وكانت في الغنائم إبلٌ وأنطاغٌ وثياب فقَسَمَهَا بينهم، فجعل يصيب^(٨) الرجل البعيرَ ورحله معه، وآخرَ بعيران، وآخرَ أنطاغٌ، وكانت السُّهُمان ثلاث مئة وسبعة

(١) في (ف): «بكيتُه».

(٢) في (ف): «موضع».

(٣) في (ف): «مني».

(٤) رواه بنحوه البخاري (٢٨٠٩) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٥) في (ف): «فيه».

(٦) في (ر): «أُمه».

(٧) بعدها في (أ) و(ف): «ثم ناول ابنتها فشربت»، وفيها تكرار، وعبارة «المغازي»: «ثم ناول أمَّ حارثة فشربت، ثم ناولت ابنتها فشربت».

(٨) في النسخ «نصيب»، والمثبت من «المغازي».

عشر سهماً، والرجال ثلاث مئة وثلاثة عشر رجلاً، والخيْلُ فرسان، للرجال سهم ولل فارس سهمان.

وكانت إبل الغنيمة^(١) مئة وخمسين بعيراً، وأدّم كثير حملوه للتجارة فغنموها، وكان فيما أصابوا قطيفة حمراء، ففقدوها فقالوا: لعل رسول الله ﷺ أخذها، فنزل: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُغَلَّ﴾ الآية.

وكان غنم رسول الله ﷺ جمل أبي جهل، فلم يزَلْ عنده يضرب في إبله ويغزو عليه حتى ساقه في هدي الحديدية، فسأله يومئذ المشركون الجمل بمئة بعير، فقال: «لولا أنا^(٢) سمّيناه في الهدي لفعلنا».

وأخذ أيضاً ذا الفقار صفيّاً لنفسه، وكان لمُنَبِّه بن الحجاج.

ولما أسر سهيل بن عمرو قال عمر: يا رسول الله، انزع ثنيتيه^(٣) فلا يقوم عليك خطيباً أبداً، فقال: «لا أمثله^(٤)»، ولعله يقوم مقاماً لا تكرهه» فقام سهيل حين جاءه وفاة رسول الله ﷺ^(٥) بخطبة أبي بكر رضي الله عنه بمكة كأنه كان سمعها، فقال عمر حين بلغه كلام سهيل: أشهد أنك رسول الله، يريد حيث قال: «لعله يقوم مقاماً لا تكرهه».

وأمر بالقلب أن تغور^(٦)، ثم أمر بالقتلى فطرحوا فيها كلهم إلا أمية بن خلف فإنه كان سميناً انتفخ من يومه وترايل لحمه حين جرّوه، فقال: «اتركوه»، ونظر إلى

(١) في (ف): «القسمة».

(٢) «أنا»: ليس من (ف).

(٣) في (ر): «أنتزع ثنيتاه».

(٤) في «المغازي»: «لا أمثل به».

(٥) بعدها في (ر): «يخطبهم»، والمثبت من (أ) و(ف) و«المغازي».

(٦) في (أ): «يعود»، والمثبت من (ر) و(ف) و«المغازي».

عتبة يُجرُّ، وكان جسيماً^(١) جميلاً في وجهه أثر الجدري، ورأى وجه ابنه أبي حذيفة تغير، فقال: «يا أبا حذيفة، كأنك ساءك ما أصاب أباك» فقال: لا والله يا رسول الله، ولكنني رأيت لأبي عقلاً وشرفاً كنت أرجو أن يهديه الله تعالى للإسلام.

وقال ﷺ: «الحمد لله الذي جعل حدَّ^(٢) أبي جهل الأسفل، فصرعه وشفانا منه».

ولما توافوا في القليب وقف عليهم وناداهم: «يا عتبة بن ربيعة ويا شيبة بن ربيعة ويا أمية بن خلف ويا أبا جهل بن هشام، هل وجدتم ما وعدكم^(٣) ربكم حقاً، فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً، بئس القوم كنتم لبيكم، كذبتُموني وصدقتني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتُموني ونصرني الناس» قالوا: يا رسول الله تنادي قوماً قد ماتوا؟! فقال رسول الله ﷺ: «قد وجدوا ما وعدهم ربهم حقاً»^(٤).

ولما صلى العصر بعد انهزام المشركين وصلى ركعة تبسم، فلما سلم سئل عنه فقال: «مربي ميكائيل وعلى جناحه النقع وتبسم إليّ وقال: إني كنت في طلب القوم».

وأناه جبريل على فرس أنثى قد عصم ثنيته الغبار وقال: إن ربي بعثني إليك وأمرني أن لا أفارقك حتى ترضى، هل رضيت؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «نعم». وأمر النبي ﷺ عاصم بن ثابت أن يضرب عنق عقبة بن أبي معيط، فجعل

(١) في (ر): «سميناً»، والمثبت من (أ) و(ف) و«المغازي».

(٢) في «المغازي»: (خد).

(٣) في (أ): «وعد».

(٤) روى بعضه البخاري (٣٩٧٦) مسلم (٢٨٧٥) من حديث أنس عن أبي طلحة رضي الله عنهما. والبخاري (٣٩٨٠)، ومسلم (٩٣٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. ومسلم (٢٨٧٥) من حديث أنس عن عمر رضي الله عنهما، و(٢٨٧٤) من حديث أنس رضي الله عنه.

يصيح على ماذا^(١) أقتل؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «لعداوتك لله ولرسوله» فقال: مَنْ لِلصَّبِيَّةِ؟! قال: «النار، قَدْ مَهْ يا عاصمُ فَأَضْرِبْ عَنْقَهُ» فَقَدَّمَهُ فَضْرَبَ عَنْقَهُ، فقال ﷺ: «بَسَّ الرجلُ كُنْتَ، والله ما علمتُ كافراً بالله ورسوله وكتابه مؤذياً لنبيه أسوأ منك، فأحمدُ الله الذي قَتَلَكَ وأَقَرَّ عيني منك».

وقدِمَ رسول الله ﷺ المدينة، فقدم بالأسرى وأُمِّ سلمة قيل لها: أتي بالأسرى، فقالت: يا رسول الله، إن بني عمِّي طلبوا مِنِّي^(٢) أن يُدْخَلَ بهم عليَّ فَأُضَيِّفَهُمْ وأُدهنَ رؤوسَهُمْ وأَلَمَ من شَعَثِهِمْ، ولم أَحَبَّ أن أفعلَ ذلك حتى استأمرَكَ، فقال ﷺ: «لستُ أكرهُ شيئاً من ذلك، فافعلي من ذلك ما بدا لك».

وبلغ النجاشي مقتل قريشٍ ببدرٍ وما أظفر اللهُ به نبيّه، فخرج في ثوبين أبيضين^(٣)، ثم جلس على الأرض، ثم دعا جعفر بن أبي طالب وأصحابه فقال: أَيُكُم يعرف بدرًا؟ فأخبروه، فقال النجاشي: أنا بها عارفٌ، قد رعيْتُ الغنمَ في جوانبها، ولكن أردتُ أن أَتَبَّتَ منكم، قد نصر الله تعالى رسوله ببدرٍ فاحمدوا الله على ذلك، فقالت بطارقته: أصلح الله الملك! إن هذا شيءٌ لم تكن تصنعُهُ، تلبس ثوبين وتجلس على الأرض؟ فقال: إني من قوم إذا أحدث الله لهم نعمةً ازدادوا لها^(٤) تواضعاً، ويقال: إنه [قال: إن عيسى عليه السلام كان إذا حدث له نعمةً ازداد لها تواضعاً.

ومشت نساء قريش إلى هند بنت عتبة فقلن: ألا تبكين على أبيك وأخيك وعمك وأهل بيتك؟ فقالت: أبكي فيشمت بنا محمدٌ وأصحابه ونساء بني الخزرج،

(١) في (ف): «ما».

(٢) «مني»: ليس من (أ) و(ف).

(٣) في (ف): «أصفرين». وفي هامشها ما يوافق المثبت، وهو موافق لما في «المغازي».

(٤) في (أ) و(ف): «بها».

لا والله حتى أثار^(١) محمداً وأصحابه، فلم تمسّ دهنًا ولم تقرب فراش أبي سفيان حتى كانت وقعة أحد^(٢).

(٧) - ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾: أصل (إحدى): وِحْدَى، قلب واؤه همزةً لوقوعها طرفاً، والأصل في أحدٍ: وَحَدٌ على هذا، والطائفتان: الجماعتان، وهما عيرٌ قريش تغمونها أو الجيش تقتلونهم.

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾: أي: تحبون بالطباع الطائفة غير ذات الشوكة، وهي السلاح، ورجلٌ شاكي السلاح؛ أي: تائه، وأصله^(٣) الحدة، مأخوذة من الشوكة المعروفة، وهي التي تنبت في المفازة، وأراد بهذه الطائفة العير، وإنما كان كذلك لخروجهم من غير عدةٍ فخافوا الطائفة ذات الشوكة.

وقوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَتِهِ﴾: أي: يظهر الدين الحق بمواعيده في نصرته ونصرة أهله.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾: أي: يستأصلهم، ودابرُ القوم: آخرهم والآتي بعدهم، وقد دبرهم يدبرهم - من حدّ دخل -؛ أي: أتى بعدهم، وإذا قطع آخرهم لم يبقَ منهم أحدٌ.

وقيل: هو قطع المدد عنهم.

(١) في (ف): «اتبع آثار»، والمثبت من (أ) و(ف) و«المغازي».

(٢) انظر: «مغازي الواقدي» (١/ ٥٣ - ١٢٤)، وما سلف بين معكوفتين منه. وكل ما ذكر في هذه القصة

مختصر من المصدر المذكور.

(٣) في (أ) و(ر): «وأصل».

(٨) - ﴿لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ﴾: أي: يأمرهم^(١) بالقتال ليُحَقِّقَ الحقَّ؛ أي: هذا مضمَر.

﴿وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾: عطف عليه، ومعناه: ليُظْهِرَ حَقِّيَّةَ^(٢) الحقِّ وبطلانَ الباطل.

وقيل: أي: ليُثَبِّتَ الحقَّ ويزيلَ الباطل.

﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾: قال الكلبي: أي: كفار مكة.

وقال الحسن: نزلت هذه الآية قبل قوله: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾ الآية وهي في

القراءة بعدها^(٣).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: أبى الله تعالى أن يصلَ أحدٌ إلى جلائلِ النعم إلا بتجرُّعِ كاساتِ الشدائد، والانسلاخِ عن مألوفِ الحظوظِ والفوائد، وإذا أراد الله تخصيصَ عبدٍ بولايته قضى لطوارقِ نفسه بالأفول، وحكم لغصنِ شهواته بالذُّبول، وأبى لطوابعِ الحقائق إلا إشراقها، ولجوامع^(٤) الموانع إلا امتحاقها^(٥).

(٩) - ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِنْ الْمَلَكِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾: أي: واذكروا إذ كنتم تَسْتَصْرِخُونَ رَبَّكُمْ وتسالونه تفريجَ ما بكم من الخوف عند التيقن بوقوع القتال ولا عُدَّةَ لكم، وتدعونه أن ينصركم عليهم.

(١) في (ف): «يأمر».

(٢) في (أ): «حقيقته».

(٣) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٢/٢٩٧).

(٤) في (أ): «وجوامع»، وفي (ر): «وجوامع».

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» (١/٦٠٥).

ثم معنى الاستغاثة - مع سبق الوعد بإحدى الطائفتين، وكذا الكراهة الطبيعية الشديدة حتى شُبِّهَتْ بالسَّوقِ إلى الموت - ما ذكره الإمام أبو منصور رحمه الله: أن الآية تحتمل وجوهاً:

أحدها: أن الله وعد نبيّه عليه الصلاة والسلام، وهو لم يبيّن لهم بعد.

والثاني: أنه يبيّن لهم لكن لم يعرفوا وقته، فلم يأمنوهم للحال^(١).

والثالث: أنهم علموا ذلك بالوعد، لكن هذا كراهة طبع لا تخلو النفس عنه مع تيقن القلب بالوعد.

والرابع: أن يكون النصر موعوداً لهم بالتضرع والاستغاثة، فكان خوفهم من التقصير في ذلك الشرط

والخامس: أنه محنة امتحنهم الله تعالى بها ليثابوا عليها؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ﴾ الآية [البقرة: ١٥٥]^(٢).

وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ﴾: قرأ نافع وعاصم في رواية أبي بكر بفتح الدال، وقرأ^(٣) الباقون بكسرها^(٤).

وقد ردّفه أي: جاء بعده، وأردفه^(٥) غيره، وقد يجيء أردف بمعنى ردّف لازماً، قال الشاعر:

إذا الجوزاءُ أرْدَفَتِ الثُّريّا ظننتُ بآلِ فاطمةَ الظُّنونا^(٦)

(١) في (ر): «في الحال».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (١٥٩/٥).

(٣) في (أ) و(ف): «وقراها».

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٣٠٤)، و«التيسير» (ص: ١١٦)، والقراءة بفتح الدال فيهما عن نافع فقط.

(٥) في (ف): «وردفه».

(٦) البيت لخزيمة بن نهد كما في «الأغاني» (٨٥/١٣)، و«جمهرة الأمثال» للعسكري (١/١٢٣)، =

ثم تفسيره هاهنا: قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿مُرْدِفِينَ﴾؛ أي: مردفٌ كُلُّ مَلِكٍ مَلِكًا^(١)، فعلى هذا هم ألفان.
وقال قتادة والسُّدِّي: متتابعين^(٢).
وقال مجاهد: أي: مُمِدِّينَ لِلْمُؤْمِنِينَ^(٣).

وقيل: لاجقين المشركين في انهزامهم، وقد مر وجه الجمع بين ذكر الألف في هذه الآية، وثلاثة آلف في قوله تعالى: ﴿ثَلَاثَةَ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤]، وخمسة آلف في قوله: ﴿بِخَمْسَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥] في آل عمران في هذه الآية.

(١٠) - ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾: ولم يجعل الله إمدادكم بالملائكة إلا بشارة لكم وطمأنينة لقلوبكم.

ثم قوله: ﴿بُشْرَىٰ﴾ اسمٌ، وقوله: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ﴾ فعلٌ، والتقدير: إلا بشرى لكم وطمأنينة لقلوبكم، أو: إلا ليبشركم ولتطمئن به قلوبكم، فيُجعلان فعلين أو مصدرين ليتفقا.

= و«مجمع الأمثال» للميداني (٧٥/١)، وجاء في «الصحيح» (مادة: ردف): خزيمة بن مالك بن نهد، وفي «الأمثال» لأبي عبيد (ص: ٣٤٥): خزيمة بن نهد، بالحاء، وأشار إليه الميداني حيث قال: ويروى: خزيمة، كذا قال أبو الندى في «أمثاله». وفاطمة هي بنت يذكر بن عتره، وكان الشاعر يهواها.

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٥٤/١١).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٥٥/١١)، ورواه عن ابن عباس أيضاً.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٥٥/١١).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾: أي: ليس ذلك بالملائكة بأنفسهم. وقول مَنْ قال: إن الملائكة لم يقاتلوا يومئذ وإنما نزلوا تسكيناً للقلوب، ليس يستقيم، فقد قال نصًّا^(١): ﴿فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢] وكذا ما ذكر الصحابة في رؤيتهم ضاربين لم يعرفوهم، وقول المشركين: ما قهرتمونا وإنما قهرنا قومٌ لا نراهم الآن.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾: أي: منيعٌ لا يغالب ﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله وأقواله^(٢)، ينصر أوليائه ويقهر أعداءه.

وقال القشيري رحمه الله: بشرهم بالإمداد بالملك، ثم^(٣) رَقَّاهم عن هذه الحالة بإشهادهم العون^(٤) من الملك، فلم يقرّرهم إلى المساكنة إلى الإمداد، وقرّر عندهم أن النصر من عنده والإنجاد، ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾؛ أي: النجاة من البلاء حاصلة، وفنون اللطائف متواصلة، والدعوات مسموعة والإجابة [غير] ممنوعة، ولكن الله تعالى عزيزٌ، والطالب واجدٌ لكن لعطائه، والراغب واصلٌ لكن إلى مَبَارَّه، والسبيل سهلٌ لكن إلى وجدان لطفه، فأما الحقُّ فهو عزيز وراء كلِّ فصل ووصل وقرب وبعد، وما وصل أحدٌ إلا إلى نصيبه، ولا بقي أحدٌ إلا عن حظّه، وأنشدوا:

وَقَلْنَ لَنَا نَحْنُ الْأَهْلَةُ إِنَّمَا نُضِيءُ لِمَنْ يَسْرِي بَلِيلٌ وَلَا نَقْرِي
فَلَا بَذْلَ إِلَّا مَا تَزَوَّدَ نَاطِرٌ وَلَا وَصْلَ إِلَّا بِالْخِيَالِ الَّذِي يَسْرِي^(٥)

(١) في (ف): «تعالى».

(٢) في (ر): «وأحواله».

(٣) في (ف): «حتى».

(٤) في (ف): «بإشهادهم بالغوث»، وفي «اللطائف»: «بإشهادهم أن الإنجاز».

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٦٠٥ - ٦٠٦)، وما بين معكوفتين منه.

(١١) - ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمْنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمْنَةً﴾ قرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي بضم الياء وتشديد الشين ونصب سين ﴿النُّعَاسُ﴾ من التغشية وهي تعدية الغشيان.

وقرأ نافع بضم الياء وتخفيف الشين من الإغشاء، وهو للتعدية أيضاً، ولذلك نصب هو ﴿النُّعَاسُ﴾ أيضاً.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿يغشاكم﴾ بفتح الياء والتخفيف وضم سين ﴿النُّعَاسُ﴾^(١) من الغشيان وهو لازم^(٢)، و﴿النُّعَاسُ﴾ فاعل.

والنُّعَاسُ: ابتداءً حال النوم قبل الاستئقال، يقول: فاطمأنتم إذا أتاكم النومُ وغطى عيونكم، فأمنتم تلك الليلة مع علمكم بقتال العدو.

وقوله تعالى: ﴿أَمْنَةً مِنْهُ﴾: أي: أماناً^(٣) من الله تعالى مما^(٤) خفتم.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: النُّعَاسُ في القتال أمانة من الله، وهو في الصلاة من الشيطان^(٥).

(١) انظر هذه القراءات في «السبعة» (ص: ٢٨٢)، و«التيسير» (ص: ١١٦)، و«جامع البيان في القراءات

السبع» للداني (٣/ ١١٣٥)، و«النشر» (٢/ ٢٧٦)، وسقطت قراءة نافع من مطبوع «التيسير».

(٢) بل متعد، ومفعوله مذكور معه، وهو الكاف في (يغشاكم)، لكن الفرق عن القراءتين الآخرين أنه فيهما متعد لاثنتين، وهنا في (يغشاكم) تعدى الفعل لواحد.

(٣) في (ر): «أمناً».

(٤) في (ف): «فما».

(٥) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٠٠٠)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٩).

وقال الكلبي: ونزل النبي ﷺ والمسلمون على غير ماء بجانب الوادي الأدنى، ونزل المشركون بجانبه الأقصى على الماء، والوادي بينهما ذو رملٍ تغيب فيه الأقدام، ثم باتوا ليلتهم تلك وناموا، ثم استيقظوا وقد أجنبوا وليس معهم ماء، فأتاهم الشيطان عند ذلك فوسوس إليهم وقال: تزعمون أنكم على دين الله وإنكم تصلُّون محدثين مجنَّبين والمشركون على الماء، فأمر الله تعالى السماء على الوادي حتى سال الماء فيه واشتد الرمل، فاغتسل المسلمون وتوضَّؤوا وشربوا وسقوا دوابَّهم، وبنوا على عدوته حياضاً، فنزل: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّطَهْرِكُمْ بِهِ﴾: أي: من الحدث والجنابة ﴿وَيَذْهَبَ عَنْكُمُ رَجَزُ الشَّيْطَانِ﴾؛ أي: وسوسته، وحقيقة اللفظ: إيذاءه وتعذيبه، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾ [الأعراف: ١٣٣] إلى قوله: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾ إلى قوله: ﴿لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ﴾ [الأعراف: ١٣٤] هو الإيذاء والتعذيب.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾: أي: يشدُّها ويقوِّيها بالسكون، وحسن الظنِّ، وزوالِ الاضطراب والارتباب.

وقوله تعالى: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾: أي: في مواقف الالتقاء للقتال.

وقال ابن عباس ومجاهد والضحاك وجماعة من المفسرين؛ أي: لبد الأرض بالماء فصارت الأقدام تثبت فيها^(٢).

(١) رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٥ و ٦٧) عن ابن عباس والضحاك، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٦٥ - ١٦٦٦) عن قتادة.

(٢) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٥ - ٦٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٦٥ - ١٦٦٦) عن قتادة.

(١٢) - ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْي مَعَكُمْ﴾: أي: كان غشيان النعاس وما بعده حين يُوحى الله تعالى إلى الملائكة أني حافظكم وناصركم ومُعِينكم.

وقوله تعالى: ﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: أي: احملوهم على الثبات بحسن الكلام، وكانوا يفعلون كذلك على ما كُتبتا في القصة: سمعتهم يقولون: لو حملوا علينا لانصرفنا.

وقال مقاتل: كان الملك يمشي أمام الصف^(١) في صورة الرجل ويقول: أبشروا فإنكم كثيرٌ وعدوكم قليل، والله ناصرُكم، ويرى الناس أنه منهم.

وقوله تعالى: ﴿سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾: أي: ثَبَّتُوا أَنْتُمْ بالكلام قلوب المؤمنين، وأنا أخوِّف قلوب المشركين.

والرعب: الخوف الذي يقطع القلب، من ترعب السَّنام: وهو تقطيعه، والذي يملأ القلب أيضاً، من قولهم: رَعِبَ السَّيْلُ الوادي: إذا ملأه.

وقوله تعالى: ﴿فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾: جمع بَنَانَةٍ، قال السدِّي والضَّحَّاك وابن جُرَيْج: هي أطراف اليدين والرجلين^(٢)، ومعناه: أنه أمر الملائكة بأن يقتلوه أو^(٣) يخرجوهم على وجه لا يمتنعون على مَنْ قَصَدَ أسرهم. وقال الزجاج: أباح الله تعالى قتلهم بكلِّ نوع يكون في الحرب^(٤).

(١) في (ف): «بين الصَّفين» بدل من «أمام الصف». وفي هامش (ف) ما يوافق المتن.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١ / ٧٢ - ٧٣) عن ابن عباس والضَّحَّاك وعكرمة وابن جريج.

(٣) في (أ) و(ف): «أو».

(٤) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢ / ٤٠٥).

وقال المبرّد: فوق العنق^(١) هو العنق وهو كقولك رأيت نفس زيد هو زيد.

وقال قطرب: هو ما فوق العنق، وهو الرأس.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: اضربوا الأعناق فما فوقها^(٢)، كما^(٣) قال

تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾ [النساء: ١١] أي: اثنتين فما فوقهما.

وقال يمان بن رثاب: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾؛ أي^(٤): الصناديد، كما قال تعالى:

﴿فَطَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤] ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾؛ أي: السفلة^(٥).

(١٣) - ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَكَابَ اللَّهُ شَدِيدُ

الْعِقَابِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾؛ أي: ذلك الذي تقدّم ذكره من

الضرب فوق الأعناق وضرب كل بنانٍ بأنهم^(٦) خالفوا وعادوا الله ورسوله.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَكَابَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾؛ أي: هذا

حكمي على العموم في حق من خالفني وعاداني، وأنا شديد العقاب.

(١) في (ف): «الأعناق».

(٢) انظر: «تفسير السمعاني» (١/٤٠٢).

(٣) «كما»: ليست في (ف).

(٤) في (أ) و(ف): «يعني».

(٥) في (أ): «السفل».

(٦) في (أ): «أن»، وفي (ف): «بأن».

(١٤) - ﴿ذَلِكُمْ فَذَوْقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ فَذَوْقُوهُ﴾: أي: قاسوا ذلك، مفعولٌ مقدّمٌ في الذكر.

وقيل: أي: ذلكم حكمُ الله، أو: ذلكم عذابُ الله فذوقوه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾: أي: هذا الذي أعددتُ لكم في

الدنيا من القتل والجرح والأسر على أيدي أوليائي، ثم لكم في الآخرة مع سائر الكفار عذابُ النار الذي لا ينقطع.

ثم عطفَ بالواو الخبرَ على الأمر - ولا يتفقان - لأن هذا الأمرَ في معنى الخبر؛ أي: تذوقونه.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: ذلكم العذابُ فذوقوه معجلاً، واعلموا أن للكافرين عذابَ النار مؤجلاً، فللعصيان عقوبتان: معجلاً بنقد، ومؤجلاً بوعد^(١).

(١٥) - ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا﴾: أي: إذا وقع الالتقاء مع الكفار في حين المزاخفة، وهي إذا سوّيت^(٢) الصفوف، وزحف بعضهم إلى بعض؛ أي: سار سيراً ثقیلاً يَدْنُو به قليلاً قليلاً على زحمة من الجانبين.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾: أي: فلا تجعلوا أدباركم تلي أعداءكم^(٣) وذاك يكون بتحويل الوجوه عنهم، وهو كنايةٌ عن الانهزام.

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (١/٦٠٨). ووقع في (أ): «معجل ينفذ ومؤخر بوعد» وفي «اللطائف»:

(محصل بنقد ومؤخر بوعد).

(٢) في (ف): «استوت».

(٣) في (ر): «أدباركم إلى أعدائكم».

وقوله: ﴿زَحَفًا﴾ مصدرٌ بمعنى النعت، وهو للجمع، ونصبه على الحال، وتقديره: متزاحفين.

(١٦) - ﴿وَمَنْ يُؤَلِّهْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِنَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤَلِّهْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ﴾: أي: ومن ارتكب هذا النهي حينئذٍ، واليوم: اسم لبياض النهار إذا أطلق، فإذا قرن به فعل لا يمتدُّ يراد به مُطلق الوقت، فصار قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بمنزلة قوله: حينئذٍ. والتولية تتعدى إلى مفعولين.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِنَالٍ﴾: أي: مائلًا، يقال: تحرَّف وانحرف؛ أي: مال إلى جانبٍ، والحرف: الجانب؛ أي: ينتقل من مكانٍ إلى مكانٍ آخر^(١) للقتال أيضاً. وقال السدِّي: هو الاستطراد يريد العودة^(٢)؛ أي: يطردُ فرسه يطلبُ موضع إصابه للعدو.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ﴾: أي: منضمًّا إلى جماعة، يعني: إذا كثر العدوُّ ولم يكن له بهم طاقة، فانصرف إلى إمامه أو إلى جماعةٍ منهم يمتنعُ بهم ثم يقاتل هو وهم العدو، لم يكن من أهل الوعيد. والتحيزُ: تَفْعِيلٌ^(٣)، ولو كان تَفْعُلًا لكان: تحوُّزًا بالواو؛ لأن أصله الواو، ويقال:

(١) «آخر»: ليست في (ف).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٧٦/١١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٦٧٠/٥).

(٣) في النسخ: «تفعيل»، والصواب المثبت. انظر: «غريب الحديث» لأبي عبيد (١٠٧/٣)، و«تهذيب اللغة» (١١٥/٥)، و«البحر المحيط» (٤٨/١١)، و«تفسير ابن كمال باشا» عند هذه الآية.

حاز الشيء؛ أي: ضمه وجمعه، والحيِّز: مجتمعُ القوم، فَيَعِلُّ من الحَوَز، ولذلك صارت يَأْوُه مشدَّدة، كما في: الجيِّد والسَيِّد.

والتحيزُ: الانضمام إليهم والدخولُ في جملتهم، وهو تفعيل من الحيز^(١).

والفئة: الجماعة المنقطعة عن غيرها، من الفأو: وهو قطع الرأس بالسيف.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ بَاءَ بِعَصَبِ مَوْلَاكَ اللَّهُ﴾: أي: استوجبه ﴿وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَيَسْكُنُ الْمَصِيرُ﴾؛ أي: المسكن والملجأ؛ أي: لا ملجأ له إلا النار وبئس الملجأ.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: كان هذا الوعيدُ مع كثرة الكفار وقلة المؤمنين في الابتداء، حيث كان يجب للعشرين أن يصبروا للمئتين، وللمئة أن يصبروا للألف، ثم خفف الله تعالى ذلك، فكان الجهادُ يومئذٍ لبذل النفس^(٢) للهلاك، فيجوز أن يكون ذلك مشروعاً، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كُنَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٦٦] فجاز الأمر به امتحاناً، وليس في وسع الواحد القيامُ لعشرة إذا أحاطوا به، ثم خفف ذلك وصار لا يجوز للواحد أن يولِّي عن اثنين، فأما في هذه الآية فهو على العموم، وكان في الابتداء كان الأمر^(٣) بالقتال لبذل النفس للهلاك على ما قلنا.

ويحتمل أن الله تعالى أمر بذلك ليكون آيةً، ويعرف كل واحد^(٤) أنه إنما قام بالله تعالى لا بقوة نفسه^(٥).

(١) قوله: «وهو تفعيل من الحيز»: كذا في النسخ، وفيه تحريف وتكرار. انظر التعليق السابق.

(٢) في (ر): «النفس».

(٣) في (ر): «أمرأ».

(٤) في (ف): «أحد».

(٥) انظر: «تأويلات أهل السنة» (١٦٥/٥).

(١٧) - ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِئُبْلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾: ووجه الفاء والوصل بها: فلا تولّوهم الأدبار شكراً لما أنعم الله عليكم من إطفاركم عليهم، فإنكم لم تقتلوهم ولكن الله قتلهم.

قال مجاهد: كان يقول كل إنسان: أنا قتلت فلاناً، أنا قتلت فلاناً^(١)، فنزلت الآية صيانة لهم عن الإعجاب، وتنبيهاً لهم أن الله هو الذي هيأ^(٢) لهم هذه الأسباب، وكذا قوله في خطاب نبيه ﷺ:

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾: قال عكرمة: رمى رسول الله ﷺ كفاً من ترابٍ إليهم، فما وقع منها شيءٌ إلا في عين رجل^(٣). وقال محمد بن كعب القرظي: انهزموا بتلك الرمية.

وقال قتادة: أخذ ثلاثة أحجار، فرمى بها وجوه الكفار فانهزموا^(٤) عند الثالثة. وقال عبد الرحمن بن زيد: أخذ ثلاث حصيات، فرمى بحصاة في مِئْنة القوم، وحصاة في ميسرتهم، وحصاة بين أظهرهم، ثم قال: «شاهت الوجوه» فانهزموا^(٥).

(١) «أنا قتلت فلاناً»: من (ف). والخبر رواه الطبري في «تفسيره» (٨٣/١١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٦٧٢/٥).

(٢) في (ف): «سبب».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٨٤/١١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٦٧٤/٥).

(٤) في (أ) و(ف): «فهزموا».

(٥) روى هذه الأخبار الثلاثة الطبري في «تفسيره» (٨٥-٨٦/١١).

ثم ليس في الآية نفْيٌ وجود الفعل من العبد كما توهمت^(١) الجبرية، بل أثبت الله تعالى الرمي فعلاً لنبيه ﷺ في الآية إذ قال: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾، وأثبت القتل من المجاهدين في آيات، منها قوله: ﴿يَقْتُلُونَكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ﴾ [التوبة: ١١١]، لكن معناه: إنكم ما أمّتم وما أقتّم الحياة، وما أزهقتم الأرواح، بل الله تعالى فعل ذلك، وإنما جرّحتم وقطعتم وطعتم، وهي مباشرة أفعال من العباد يسمّون بها قاتلين؛ لزهوق الروح عقيبتها بإزهاق الله تعالى.

وكذا قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَنْ يَكُنَّ اللَّهُ رَمِيًّا﴾؛ أي: ما بلغت ذلك^(٢) إلى حيث بلغ، بل الله تعالى بلغه ذلك.

وفائدته: قطع دعواها، والإعجاب بها، والنظر إليها، والاعتماد عليها، والتفاخر بها، وإثبات النظر إلى إنعام الله تعالى بها.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ويحتمل ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾: لم تكن جراحاتكم بحيث يغلب^(٣) عقيبتها خروج الروح، ولكن الله تعالى جعلها قاتلة مع أنها لم تكن مصيبة للمقتل.

ويحتمل: فلم تطمعوا بخروجكم إليهم قدرتكم على قتلهم، لكن الله تعالى بلغ ذلك، وكذا الرمي، لا يطمع إنسان يرمي كفاً من تراب النكبة بكل أعدائه.

ويحتمل: ما قتلتم بانفرادكم بل بمعونتي، كما تقول: ما أنت فعلت ذلك ولكن فعله فلان؛ أي: بمعونته فعلت أنت ذلك.

(١) في (ف): «توهمه».

(٢) في (ف): «وما رميت ذلك»، بدل: «أي: ما بلغت ذلك».

(٣) في (أ) و(ف): «يلغ».

ويَحْتَمِلُ أَنَّهُ جَعَلَ قَتْلَهُمْ قَتْلًا مِنْ نَفْسِهِ، وَرَمَى النَّبِيَّ ﷺ رَمِيًّا مِنْ عِنْدِ^(١) نَفْسِهِ؛ تَشْرِيفًا لِأَفْعَالِهِمْ بِإِضَافَتِهَا إِلَى نَفْسِهِ؛ لَوْ قَوْعُهَا لَهُ عَلَى الْخُلُوصِ مِنْهُمْ فِي ابْتِغَاءِ وَجْهِهِ^(٢).
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِيُسَبِّحَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلََاءٌ حَسَنًا﴾: أَي: وَفَعَلَ ذَلِكَ لِيُنْعِمَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِنْعَامًا حَسَنًا بِذَلِكَ، هَذَا مُضْمَرٌ.

وَقِيلَ: الْإِضْمَارُ فِي آخِرِهِ: ﴿وَلِيُسَبِّحَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلََاءٌ حَسَنًا﴾ أَمْرُهُمْ بِالْقِتَالِ. وَالبَلَاءُ يَقَعُ عَلَى النِّعْمَةِ وَعَلَى^(٣) الْمِحْنَةِ؛ لِأَنَّهُ أَصْلُهُ الْإِخْتِبَارُ، وَذَلِكَ يَقَعُ بِالْمِحْنَةِ لِإِظْهَارِ الصَّبْرِ، وَبِالنِّعْمَةِ لِإِظْهَارِ الشُّكْرِ.

وَالْإِخْتِبَارُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى: إِظْهَارُ مَا عَلِمَ كَمَا عَلِمَ، لَا تَحْصِيلُ عِلْمٍ مَا لَا^(٤) يَعْلَمُ. وَقِيلَ: الْبَلَاءُ الْحَسَنُ: تَوْفِيقُ الشُّكْرِ فِي النِّعْمَةِ، وَتَحْقِيقُ الصَّبْرِ فِي الْمِحْنَةِ. وَقَالَ الْإِمَامُ الْقَشِيرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: يَحْسُنُ الْبَلَاءُ لِأَنَّهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَيَطِيبُ لِأَنَّهُ فِي اللَّهِ.

قَالَ: وَحَسَنُ الْبَلَاءِ هُوَ أَنْ تَشْهَدَ الْمُبْلَى فِي عَيْنِ الْبَلَاءِ.
 قَالَ: وَقِيلَ: الْبَلَاءُ الْحَسَنُ: مَا لَا دَعْوَى فِيهِ لِصَاحِبِهِ إِنْ كَانَ مُحِبُّوْبًا، وَلَا شَكْوَى إِنْ كَانَ مُكْرُوْهًا.

قَالَ: وَيُقَالُ: الْبَلَاءُ الْحَسَنُ: مَا لَا ضَجَرَ فِيهِ إِنْ كَانَ عُسْرًا، وَلَا بَطَرَ فِيهِ إِنْ كَانَ يُسْرًا.

(١) «عند»: ليس من (أ) و(ف).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ١٧٠ - ١٧١).

(٣) «على»: من (أ).

(٤) في (أ) و(ف): «لم».

قال: وقيل: بلاءٌ كلُّ أحدٍ على حسب حاله، فأصفاهم ولأءٌ أوفاهم بلاءً، قال ﷺ: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأولياء، ثم الأمثل فالأمثل»^(١).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾: أي: لدعواتكم ﴿عَلِيمٌ﴾: أي: بحاجاتكم^(٢)، ينصرف إلى قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: هذا ترويحٌ لقومٍ وتبريحٌ لقومٍ، ترويحٌ للضعيف اللهيف؛ أي: أسمعُ أنينك وأعلمُ حنينك^(٣)، وتبريحٌ للعارف العاكف؛ أي: أسمعُ قالك^(٤) وأعلمُ حالتك، فاسكت واثبت^(٥).

(١٨) - ﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾: قيل: أي: اعلموا ذلكم، وقيل: أي: اشكروا ذلكم.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُعْطوفٌ عَلَى ذَلِكُمْ﴾ بما ذكرنا من الفعلين.

و﴿مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ قرأ ابن عامرٍ وحمزةٌ والكسائي وعاصمٌ في رواية أبي بكرٍ مخففاً ومنوناً^(٦) ونصبوا ﴿كَيْدٌ﴾.

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٦١١). والحديث رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ١٧٢)، والترمذي (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٢٣)، عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه. قال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) في (أ): «ما حاجتكم».

(٣) في (أ): «خفيك».

(٤) في (ف): «مقالتك».

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٦١١)، والكلام فيه بنحوه.

(٦) «ومنوناً»: ليس من (ف).

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو مشدداً متوناً.

وروى حفص عن عاصم مخففاً مضافاً^(١)، والمخفف من الإيهان، والمشدد من التوهين، وكلاهما تعديّة الوهن وهو الضعف، والإضافة للحال، والتنوين للإخبار عن الاستقبال.

وإيهان كيدهم بأمور؛ منها: الإطلاع على عوراتهم، ومنها: إبطال حيلهم، ومنها: إلقاء الرعب في قلوبهم، ومنها: تفريق كلمتهم، ومنها: نقض ما أبرموا من عزائمهم.

(١٩) - ﴿إِنْ تَسْتَفْهِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَفْهِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾: أي: إن تستنصروا فقد جاءكم النصر.

وقيل: إن تستكشفوا فقد جاءكم الكشف.

وقيل: إن تستقضوا فقد جاءكم القضاء.

ونزوله في أبي جهل لعنه الله، فإنه قال: اللهم اقض بيننا وبين محمد، وانصر أحبّ الدينين إليك، وأهلك أقطعنا للرحم وآتانا بما لا نعرف^(٢)، قال ذلك يوم بدر.

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٠٤-٣٠٥)، و«التيسير» (ص: ١١٦).

(٢) رواه الواقدي في «المغازي» (١/ ٧٠)، وابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٦٢٨)، ومن طريقه ابن أبي شيبه في «المصنف» (٣٦٦٧٤)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٦٣١)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ٩٤)، ومن غير طريقه رواه الطبري أيضاً في الموضع نفسه، جميعهم عن عبد الله بن ثعلبة بن صعيّر حليف بني زهرة قال: (كان المستفتح يوم بدر أبا جهل، قال: اللهم أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا نعرف، فأجبه الغداة)، فأنزل الله: ﴿إِنْ تَسْتَفْهِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾. =

وفي رواية: قال: اللهم أَهِنْ أَفْجَرَنَا وَأَقْطَعْنَا لِلرَّحِمِ^(١).

وقال السَّدي: لَمَّا أَرَادُوا الْخُرُوجَ إِلَى بَدْرٍ أَخَذُوا بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ وَقَالُوا^(٢): اللَّهُمَّ انْصِرْ أَعَزَّ^(٣) الْحَزْبِينَ عَلَيْكَ، فَنَزَلَتِ الْآيَةُ: ﴿إِنْ تَسْتَفِئُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾^(٤)؛ أي: إِنْ تَسْتَنْصِرُوا أَحَبَّ الدِّينِينَ فَقَدْ جَاءَ نَصْرُ الْإِسْلَامِ، وَإِنْ تَسْتَكْشِفُوا فَقَدْ تَمَّ الْكُشْفُ وَالْإِعْلَامُ، وَإِنْ تَسْتَقْضُوا فَقَدْ ظَهَرَ الْحُكْمُ بِحَقِيقَةِ^(٥) مُحَمَّدٍ ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾: أي: عَنِ الْكُفْرِ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ فِي الدَّارَيْنِ. وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نَعْدًا﴾: قِيلَ: وَإِنْ تَعُودُوا إِلَى الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ نَعْدُ إِلَى الْإِنْتِقَامِ وَالتَّعْذِيبِ.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: وَإِنْ تَعُودُوا لِقِتَالِ مُحَمَّدٍ نَعْدُ عَلَيْكُمْ بِالْقِتْلِ وَالْأَخْذِ وَالْأَسْرِ كَمَا فِي يَوْمِ بَدْرٍ^(٦).

وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئًا﴾: أي: لَنْ تَنْفَعَكُمْ جَمَاعَتُكُمْ وَكَثْرَتُكُمْ شَيْئًا ﴿وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ فِي الْعِدَدِ.

= وروى الطبري أيضاً عن يزيد بن رومان وغيره: (قال أبو جهل يوم بدر: اللهم انصر أحب الدينين إليك، ديننا العتيق، أم دينهم الحديث) فأنزل الله: ﴿إِنْ تَسْتَفِئُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٩٣/١١) عن الزهري.

(٢) في (ف): «أخذ... وقال».

(٣) في (ر): «أحب».

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٩٢/١١).

(٥) في (ر): «بحقيقة».

(٦) رواه بنحوه أبو صالح عن ابن عباس كما في «زاد المسير» (٣/٣٣٦).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: في النصر لهم.

وقال عبد الرحمن بن زيد: استفتحوا بالعذاب فعذبوا يوم بدر، وكان استفتاحهم بمكة: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَاهُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنْ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، فجاءهم العذاب يوم بدر^(١).

(٢٠) - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: دعا في الآية الأولى الكفار إلى الإيمان، ودعا في هذه الآية المؤمنين عامة إلى ما يُبقيهم على الإيمان، وهو طاعة الله وطاعةُ رسوله.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾: أصله: ولا تتولوا عنه، فحُذفت إحدى التاءين^(٢) تخفيفاً؛ أي: ولا تُعرضوا عنه، ولم يقل: عنهما؛ لأنه صرفه إلى الرسول خاصة؛ لأن التوليَّ عنه تولُّ عن الله^(٣)، وهو كقوله في هذه السورة: ﴿أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ [التوبة: ٦٢].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾: أي: أمره ونهيهِ. وقيل: تلاوته كتاب الله عليكم.

وقيل: أي: تَقْبَلون وتَتَأَمَّلون ما يُورده عليكم؛ أي: هذه صفتكم فلا تعملوا بخلاف ما تقتضيه حالتكم.

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٩٢/١١).

(٢) في (أ) و(ف): «إحداهما».

(٣) في (ف): «لأن التولي عن الله تعالى تول عن رسوله».

(٢١) - ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾: أي: كالذين قالوا سمعنا القرآن وأمر الله والرسول، ثم هم لا يعلمون به كأنهم لم يكن لهم إسماع، أو لم يقع لهم سماع.

وقيل: أي: لم ينتفعوا بما سمعوا فكانهم لم يسمعوا.

وقيل: أي: وهم لا يقبلون، وقد سمع فلان كلام فلان؛ أي: قبله.

وقيل: هذا^(١) تحذير للمؤمنين أن يكونوا كاليهود والمشركين والمنافقين، فإن اليهود قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣]، والمشركون قالوا: ﴿لَا سَمْعَوا هَذَا الْقُرْآنَ﴾ [فصلت: ٢٦] وقالوا: ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ [الأنفال: ٣١]، وقال: ﴿وَإِذَا نُثِّلَ عَلَيْهِ آيَاتُنَا لَنُؤَسِّسَنَّ لَهُ أَكْثَرًا مِمَّا كَانَتْ يَدُكَ يُسَمِّعُهَا كَأَن فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ [القمان: ٧]، وقال في حق المنافقين: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا﴾ [محمد: ٢١]؛ أي: لم يصدقوا.

(٢٢) - ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾: هي جمع دابة، وهي كل حيوان دب على وجه الأرض؛ أي: شر الخلق عند الله منزلة هم الذين لا ينتفعون بما يسمعون ولا يعملون به، كأنهم صم بكم لا عقول لهم يتأملون بها ما يسمعون.

(١) في (ف): «هو».

واختلف في المرادين به، والصحيح قول ابن عباس رضي الله عنهما: أنهم مشركو قريش، فإن السورة في ذكرهم^(١).

وقال محمد بن إسحاق: هم المنافقون^(٢).

وقيل: هم بنو عبد الدار قُتلوا بأحد، وهم: النَّضْر بن الحارث وابناه، والحارث بن علقمة، وطلحة بن عثمان، ومسافع وأبو الجلاس وأبو سعد والحارث، والقاسط بن شريح، وأرطاة بن شُرَّحِيل.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: دواعي الحقِّ بحسن البيان ناطقة، وألسنة البرهان فيما ورد به التكليف صادقة، وخواطِر الغيب بكشف ظلم الريب مُفَصِّحة، وزواجر التحقيق عن متابعة التَّوَمِيهِ للقلوب مُلَازِمة، فَمَنْ صُمَّ عن إدراك ما حُوطِبَ به سرُّه، وعَمِيَ عن شهود ما^(٣) كُوشِفَ به قلبه، وخَرِسَ عن إجابة ما أُرشِدَ [إليه] من مناجحة^(٤) عقله وفهمه، فدون رتبة البهائم قدره، وفوق كلِّ خسيسٍ من خَلَقِ الله صُغْرُه^(٥).

(٢٣) - ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾: أي: لو كان في علم الله منهم اختيار فهم لكلام الله تعالى لأسمعهم إسماع تفهيم.

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٠١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٧٧)، بلفظ: (هم نفر من بني عبد الدار).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٠١). ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٧٨) من طريق ابن إسحاق عن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير.

(٣) في (أ): «وعمي عما».

(٤) في: «اللطائف»: (من حجة).

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٦١٤)، وما بين معكوفتين منه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَسْمَعْتَهُمْ﴾: أي: إسماعَ تفهيمٍ دون توفيقٍ^(١) ﴿لَتَوَلَّوْا﴾ عنه فلم يعملوا به؛ إذ لم يوفقهم الله لِمَا عَلِمَ من اختيارهم تركَ العمل به.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾: أي: للحال، فلا تكرار في الكلمتين؛ إذ قوله: ﴿لَتَوَلَّوْا﴾ هو عند الإسماع، ﴿وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ للحال.

وقال الزجاج: ﴿لَأَسْمَعْتَهُمْ﴾ جوابَ كُلِّ ما يسألونه، ﴿وَلَوْ أَسْمَعْتَهُمْ﴾ ذلك لم يعملوا به ولأعرضوا عنه^(٢).

(٢٤) - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾: ﴿دَعَاكُمْ﴾ فعلٌ رسول الله ﷺ، وهو موحدٌ ولم يثنَّ مع سبقِ ذكرِ الله ورسوله؛ لأن دعاء الرسول بأمرِ الله، فهو دعاءُ الله تعالى، ودل الموحدُ لذلك على المشئى.

﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾؛ أي: إلى ما^(٣) يفيدكم الحياةَ الأبدية، وهو دعاءٌ إلى الجهاد فإنه^(٤) سببُ الشهادة، والشهداءُ أحياءٌ غيرُ أموات، واتصالها من هذا الوجه بما قبلها: لا تخرجوا إلى الجهاد^(٥) كارهين، وأجيبوا الله ورسوله في الدعوة إلى قتال المشركين، فإنه حياةٌ لكم أبدَ الأبدِين.

(١) «دون توفيق»: من (أ) و(ف).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/٤٠٩).

(٣) في (ف): «أي لما».

(٤) في (ف): «فهو».

(٥) في (أ): «للجهاد».

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه: أنه كان يصلي، فدعاه رسول الله ﷺ فأتهم الصلاة ثم جاء، فقال ﷺ: «هلا جئتني»^(١) إذ دعوتك؟ فقال: كنت في الصلاة، فقال: «أما سمعت قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾»^(٢)، وهذا يدل على العموم أي^(٣): عموم الآية.

وقيل: قوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ إعلام منه جلّ جلاله أن دعاءه إلى كل شيء فيه حياة الدين وهو العلم، فإن الجهل موت والعلم حياة. وفي الخبر: إن الله تعالى ليحيي القلب الميت بالعلم كما يحيي الأرض الميتة بوابل المطر^(٤).

وفي غير هذه الآية ذكرت الحياة للإيمان والموت للكفر؛ قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢]؛ أي: كافرًا فهديناه، فيجوز أن يكون قوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾؛ أي: ييقظكم على الإيمان الذي هو الحياة العظمى.

وقيل: أي: لما يفيدكم الحياة الطيبة في الدارين؛ قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، وحياة الكافر غير طيبة بحال، فإنه بها في الدنيا يستفيد زوائد عقوبات العقبي، وإذا صار في النار فهو لا يموت فيها ولا يحيى، فإذا ليست الحياة الطيبة إلا لمن آمن واتقى.

(١) في (ف): «أجبتني».

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٩٣٤٥)، والترمذي (٢٨٧٥)، والنسائي في «الكبرى» (١١١٤١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. قال الترمذي: حسن صحيح.

(٣) «العموم أي»: من (ف).

(٤) رواه الطبراني في «الكبير» (٧٨١٠) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وفيه: «بنور الحكمة» بدل: «بالعلم»، وإسناده ضعيف، قال في «مجمع الزوائد» (١/ ١٢٥): فيه عبد الله بن زحر عن علي بن يزيد، وكلاهما ضعيف لا يحتج به.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾؛ أي: إلى عمل الآخرة التي هي دارُ الحياة؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُ الدَّارُ الْآخِرَةُ لِهَيِّ الْحَيَوَانِ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

وقيل: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾؛ أي: إلى الأعمال التي يُحْيِي بها شرفكم، ويُبْقِي حمدكم وذكركم، ويطيّب بها أيضاً في الجنة حياتكم^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾؛ أي: القلوب بيد الله، فيمنع المرء عن قلبه فيما يشاء^(٢)، وهذا على اتصاله بأول هذه الآية؛ لأنه^(٣) تعجيلٌ للعبد إلى الاستجابة قبل أن يحدث الله له أسباباً لا يتمكن العبد معها من تصريف القلب فيما يشاؤه من إصلاح أمره، فيموت غير مستجيبٍ لله ورسوله لم يدرك ما يحييه، ولذلك ذكر الحشر إليه بعده، وهو قوله تعالى:

﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾؛ أي: تُبعثون وتُجمعون إليه للجزاء.

وقال قتادة: أي: هو أقرب إلى قلبه منه، وهو كقوله: ﴿وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَيْمِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]^(٤)؛ لأن ما حال بينك وبين الشيء فهو أقرب إلى الشيء منك، واتصاله بما قبله وما بعده: استجيبوا لله فإن الله^(٥) لا يخفى عليه ما في قلوبكم وإليه حشركم.

وقال الضحاك: يحول بين المؤمن والمعصية، وبين الكافر والطاعة^(٦)؛

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» (١٧٧/٥).

(٢) في (ر): «يشاؤه».

(٣) «لأنه»: ليست في (أ) و(ف).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١١٢/١١)، وذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٣٠٨/٢).

(٥) في (أ) و(ف): «فإنه» بدل: «فإن الله».

(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (١١٠/١١). وذكره الواحدي في «البيسط» (٨٩/١٠) عن ابن عباس والضحاك.

أي: لا يُخْلِي الْمُؤْمِنَ التَّامَّ فِي الْأَفْعَالِ وَقَصْدِ^(١) الْمَعْصِيَةِ بَلْ يَعْصِمُهُ، وَالْكَافِرَ عَلَى^(٢) عَكْسِهِ.

وقال مجاهد: يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَعَقْلِهِ فَلَا يَدْرِي مَا يَعْمَلُ بِهِ^(٣).

وقال القشيري رحمه الله: أي: يَصُونُ الْقُلُوبَ عَنْ تَقْلِبِ أَرْبَابِهَا بِمَا شَاءَ مِنْ أَسْبَابِهَا، فَيَصُونُ قُلُوبَ الْعِبَادِ عَنِ الْجُنُوحِ إِلَى الْكُسَلِ فَيَجِدُّونَ فِي مَعَامِلَتِهِمْ، وَيَصُونُ قُلُوبَ الْمُرِيدِينَ عَنِ التَّعْرِيجِ فِي أَوْطَانِ الْفُشْلِ فَيَصْدُقُونَ فِي مَنَازِلَتِهِمْ^(٤)، وَيَصُونُ قُلُوبَ الْعَارِفِينَ عَلَى حُدِّ الْإِسْتِقَامَةِ عَنِ الْمِيلِ^(٥) فَيَتَحَقَّقُونَ بِدَوَامِ مَوَاصِلَتِهِمْ.

قال: ويقال: حال بينهم وبين قلوبهم لئلا يكون لهم رجوعٌ إلا إلى الله، فإذا سَنَحَ لهم أمر فليس لهم إلى الأغيار سبيل، ولا على قلوبهم تعويل، وكم فرق بين مَنْ يَرْجِعُ عِنْدَ سَوَاحِجِهِ إِلَى قَلْبِهِ وَبَيْنَ مَنْ لَا يَهْتَدِي إِلَى شَيْءٍ إِلَّا إِلَى رَبِّهِ، وَقِيلَ فِي مَعْنَاهُ^(٦):

لَا يَهْتَدِي قَلْبِي إِلَى غَيْرِكُمْ لَأَنَّهُ سُدَّ عَلَيْهِ الطَّرِيقُ

قال: ويقال: العلماء هم الذين وجدوا قلوبهم؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]، والعارفون هم الذين فَقَدُوا قُلُوبَهُمْ؛ قال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾^(٧).

(١) في (ف): «بقصد».

(٢) في (ر) و(ف): «وعلى قياسه»، بدل: «والكافر على».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١١١)، وذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٢/ ٣٠٨).

(٤) في (ف): «منازلتهم»، وفي (أ) و(ر): «منازلهم»، والمثبت من «اللطائف».

(٥) في (أ): «المثل».

(٦) في (أ): «وهو كما قيل».

(٧) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٦١٥-٦١٦).

(٢٥) - ﴿وَأَتَقُوا فِتْنَةَ لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ

الْعِقَابِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا فِتْنَةَ لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾: النون لتأكيد

الجزاء.

وقيل: لتحقيق القسم، ومعناه: واحذروا عذاباً ينزل بكم بظلمكم - وهو ترككم
الإجابة إلى الجهاد^(١) وغير ذلك - لا يصيب الظلمة خاصة، بل يعم الكل ثم يكون
للظلمة عقوبة ولغير الظلمة كفارة.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هذا في ترك الأمر بالمعروف عند غلبة
المنكر، فيصيب الفسقة بفسقهم وغير الفسقة بتركهم الأمر بالمعروف^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾: أي: إذا نزل عقابه فهو
شديد لا يطاق، ويجوز أن يراد بها فتنة الدنيا؛ كما قال: ﴿يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ

عَامٍ﴾ [التوبة: ١٢٦]، ويجوز أن يراد بها فتنة الآخرة؛ كما قال: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ

يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات: ١٣].

وقال الحسن: الآية في حق الصحابة - رضي الله عنهم أجمعين - عليّ وطلحة
والزبير وعمرار^(٣).

(١) في (ر): «القتال».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/١١٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/١٦٨٢)، بلفظ:

﴿وَأَتَقُوا فِتْنَةَ لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ قال: أمر الله المؤمنين أن لا يُقرُّوا المنكر بين

أظهرهم، فيعمهم الله بالعذاب.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/١١٣).

وقال الزبير بن العوام: نزلت هذه الآية وما ندري زماناً^(١) أنا من أهلها، ونحن عُنيّا بها^(٢).

وقال السدي: نزلت في أهل بدرٍ خاصةً، وأصابتهم يوم الجمل^(٣).

وقال الكلبي رحمه الله: نزلت في رجلين من قريش أخبر الله تعالى نبيّه ﷺ أنها ستكون بعده في أصحابه، وقد كانت تلك الواقعة بعد وفاته^(٤) ومضت^(٥).

وقرأ ابن الزبير: (لَتُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا)^(٦).

وقيل: ﴿لَا﴾ زائدة كما في قوله: ﴿وَمَا يَشْعُرْكُمْ أَنَّهُآ إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩]، ومعناه: اتَّقُوا عقوبةً في الآخرة تكون للظلمة خاصةً.

(١) في (ف): «زمانها».

(٢) بعدها في (ف): «أم لا»، وليست في المصادر. والخبر رواه بنحوه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٠٠٦)، والطبري في «تفسيره» (١١٤/١١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٦٨٢/٥)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٣٤٤/٤)، والواحدي في «السيط» (٩٨/١٠)، ولفظه عند ابن أبي حاتم: لقد قرأناها زماناً وما نرى أنا من أهلها، فإذا نحن المعنيون بها: ﴿وَأَتَقُوا فِتْنَةَ لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١١٥/١١) وزاد: (فاقتلوا).

(٤) في (أ): «الوقعة بعد وفاته»، وفي (ر): «الوقعة بعده في أصحابه».

(٥) رواه أبو صالح عن ابن عباس مختصراً بلفظ: نزلت في رجلين من قريش، ولم يسمهما. انظر: زاد المسير (١١٣/١١).

(٦) ذكرها النقاش كما في «المحرر الوجيز» (٥١٦/٢)، و«البحر المحيط» (٧٣/١١ - ٧٤) عن الزبير بن العوام رضي الله عنه، ونسبت أيضاً لابن مسعود وزيد بن ثابت رضي الله عنهما وأبي العالية. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٤٩)، و«الكشاف» (٢/٢١٢).

(٢٦) - ﴿وَاذْكُرُوا اِذْ اَنْتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْاَرْضِ تَخَافُونَ اَنْ يَنْخَطِفَكُمْ النَّاسُ فَتَاوِنُكُمْ وَيَاْئِدُكُمْ بِنَصْرِهِ وَرِزْقِكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اِذْ اَنْتُمْ قَلِيلٌ﴾: أي: وتذكروا وأخطروا ببالكم أول حالكم يا معشر^(١) المهاجرين إذ أنتم^(٢) قليل في العدد.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: أي: إذ كنتم قليلاً، ودلّ هذا على صحة قول أبي حنيفة رحمه الله فيمن قال: هذا الشيء لفلان اشتريته منه، أنه يصدق ويصير كأنه قال: هذا كان لفلان^(٣).

وقوله تعالى: ﴿مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْاَرْضِ﴾: أي: مقهورون في أرض مكة.
قال عبد العزيز بن يحيى: أي: في أول الإسلام قبل أن يكملوا أربعين^(٤).
وقال الآخرون: قبل الهجرة.

وقوله تعالى: ﴿تَخَافُونَ اَنْ يَنْخَطِفَكُمْ النَّاسُ﴾: التخطف: الأخذ والانتزاع بسرعة؛ أي: يأخذونكم ليتحكموا^(٥) فيكم بما شاؤوا من القتل والأسر.
وقوله: ﴿يَنْخَطِفَكُمْ النَّاسُ﴾ قال الكلبي: أي: أهل مكة^(٦).
وقيل: أي: من حولكم من العرب خارج مكة.
وقال وهب: أي: فارس والروم.

(١) في (ف): «معشر».

(٢) في (ف): «كنتم».

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ١٨٢).

(٤) انظر: «البيسط» (١٠/ ١٠٣).

(٥) في (أ): «فيحكموا»، وفي (ف): «فيتحكموا».

(٦) وروي عن ابن عباس. انظر: «زاد المسير» (١١/ ١١٣).

وقوله تعالى: ﴿فَتَاوَنَكُمُ﴾: أي: في المدينة^(١) بالهجرة ﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ﴾: أي: بأيدي الأنصار ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾: أي: بما وسَّع بها^(٢) من المطاعم.

وقيل: أي: بما أحلَّ من الغنائم.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: أي: لتشكروا نعمة الله عليكم، فتبدلوا أنفسكم في إحياء دينه والجهاد مع رسوله، والخروج إلى القتال من غير كراهية ولا استئصال.

وقال الكلبي وفتادة: نزلت الآية في يوم^(٣) بدر حثَّ لهم على الجهاد^(٤).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: ذكَّروهم ما كانوا فيه من القلَّة والذلَّة وصنوف الخلة^(٥)، وما نقلهم إليه من الإمكان والبسطة، ووجوه الإحسان والحيطة^(٦)، وندبهم إلى الشكر على هذه النعم، وحقيقة الشكر: الغيبة عن النعم بالاستغراق في شهود المنعم^(٧).

(٢٧) - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

(١) في (أ) و(ف): «بالمدينة».

(٢) في (ف): «فيها».

(٣) في (ر): «أهل»، والمثبت من باقي النسخ والمصادر.

(٤) رواه عنهما عبد الرزاق في «تفسيره» (١٠٠٧)، والطبري في «تفسيره» (١١٨/١١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٦٨٢/٥).

(٥) الخلة: الحاجة والفقر.

(٦) في (أ): «والغبطة».

(٧) انظر: «لطائف الإشارات» (٦١٧-٦١٨).

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾: متصل بقوله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وقوله: ﴿أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾.

والخيانة: خلاف الأمانة.

وقيل: أصلها الإخفاء، من قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

وقيل: هي منع حقٍّ ضَمِنَ أدائه.

وقال محمد ابن إسحاق: أي: لا تُظهروا للرسول ما يُرضيه منكم ثم تخالفونه في السر^(١).

ومن ذلك: إظهارُ الطاعة في كلِّ شيء ثم المجادلةُ في أمر الغنيمة، أو الخروجُ إلى القتال المأمور به مع الكراهة أو تسخُّطٍ قَدَرٍ ما يعطي عند القسمة.

وقوله تعالى: ﴿وَتَخُونُوا أَمْنَكُمْ﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: ولا تخونوا أماناتكم^(٢)، وهو معطوف على الأول، وجزمه بالنهي، وعلامة الجزم حذف النون.

وقال السدي رحمه الله: أي: إذا ختُمَ الرسول فقد ختُمَ أماناتكم^(٣). وهو على هذا أو الصَّرف، وهي ناصبةٌ، وعلامة نصبه حذفُ النون، ومعناه: أن حقوق الشرع

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢٤/١١) بلفظ: (لا تظهروا لله من الحق ما يرضى به منكم ثم...)، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٦٨٤/٥) من طريق ابن إسحاق، عن محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير بلفظ: (لا تظهروا له من الحق...) وبهذا اللفظ ذكره ابن هشام في «السيرة النبوية» (٦٦٩/١) عن ابن إسحاق. فكلمة: (له) تحتمل الله سبحانه وتحتمل الرسول ﷺ، ومحصل الكل واحد.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢٤/١١).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢٣/١١).

أماناتٌ عنده قد قبلها وضمن أداءها، فإذا خان الرسول فقد خان هذه^(١) الأمانات.
وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: أي: أنها أمانة، وما فعلتمُ خيانة؛ أي: وأنتم تعلمون إثم الخيانة وعقوبة الخيانة.

(٢٨) - ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَدُكُمْ فَتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.
وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَدُكُمْ فَتْنَةٌ﴾: أي: محنة يظهر بها مؤثر حق الله من مؤثر حق نفسه.

والحامل على الخيانة في الغالب: حبُّ الأموال والأولاد، وترك الخروج إلى الجهاد طوعاً وطبعاً كذلك، فبين الله تعالى أنها فتنة وداعية إلى الخيانة ومُخللة بالأمانة.
وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ﴿لَا تَخَوُّنُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾؛ أي: إن أموالكم وأنفسكم لله، وهي عندكم أمانة است حفظكم فيها، فلا تستعملوها في غير ما أذن لكم فيه لأنه خيانة، ﴿وَتَخَوُّنُوا أَمْنَتَكُمْ﴾؛ أي: ولا تخونوا أماناتكم التي فيما بينكم.

ومعنى آخر: أن الله تعالى تعبدهم بما يرجع إلى منافعهم، فإذا خالفوا فقد خانوا أنفسهم فضرُّوا أنفسهم^(٢)؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(٣) [النحل: ٣٣]، وقال: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧]، وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦]^(٤).

(١) «هذه» ليست في (ف).

(٢) «فضرُّوا أنفسهم» ليس من (ف). ولفظ «التأويلات»: (خانوا أنفسهم وخانوا أماناتهم).

(٣) في «التأويلات»: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧].

(٤) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ١٨٣ - ١٨٥).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾: لمن تركها ولم يَخُنْ لأجلها، وراعى الأمانة^(١) بشرطها.

وقيل: أي: يا أيها الذين آمنوا صدّقوا الله ورسوله و^(٢) لا تخونوا الله ورسوله، والخيانة: إظهار الإيمان والنصح، وإبطان الكفر والغش، ودلالة المشركين على عورات المسلمين، وإطلاعهم على خفيات أمور المسلمين.

وقال جابر: إن أبا سفيان خرج من مكة، فجاء جبريل النبي ﷺ فقال: إن أبا سفيان في مكان كذا، فأخبر النبي ﷺ أصحابه بذلك فقال: «فاخرجوا إليه واكتموا»، فكتب رجل من المنافقين إليه: إن محمداً يريدكم فخذوا حذرکم فأنزل الله هذه الآية^(٣).

وقال الزهري والكلبي: نزلت في أبي لبابة مروان بن عبد المنذر من الأنصار من بني عوف بن مالك^(٤) حين حاصر النبي ﷺ قري يهود قريظة إحدى وعشرين ليلة، فسألوا رسول الله ﷺ الصلح على ما صالح عليه إخوانهم من بني النضير على أن يسيروا إلى إخوانهم بأذرعات وأريحا من أرض الشام، فأبى أن يعطيهم ذلك إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، فأبوا وقالوا: أرسل إلينا أبا لبابة، وكان مناصحاً لهم لأن أهله وولده كانوا عندهم، فبعثه النبي ﷺ إليهم فقالوا له: ما ترى؟ فأشار إلى حلقه أنه الذبح، قال: وما زالت قدمي في مكانهما حتى علمتُ أنني خُنتُ الله ورسوله، فنزلت هذه الآية والتي بعدها: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾.

(١) في (ف): «الأمانات».

(٢) في (ف): «أي»، وليست في (أ).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١١ / ١٢١). قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: حديث غريب جداً،

وفي سنده وسياقه نظر.

(٤) «بن مالك» ليس من (ف).

وقال الزهري: قال أبو لبابة: والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتاب عليّ، فمكث سبعة أيام لا يذوق طعاماً ولا شراباً حتى خَرَّ مغشياً عليه، ثم قيل له: تاب الله عليك، قال: لا والله لا أحلُّ نفسي حتى يكون رسولُ الله ﷺ يحلُّني، فجاءه فحله بيده، ثم قال أبو لبابة: تمام توبتي أن أهجرَ دار قومي التي أصبْتُ فيها الذنبَ، وأن أنخلع من مالي، فقال النبي ﷺ: يَجْزِيكَ الثُلُثُ أن تتصدق به^(١).

وقال السدي: كانوا يسمعون من النبي ﷺ فيُفسُونه حتى يبلغ المشركين^(٢).
وقال الكلبي: كلُّ أحدٍ مؤتمنٌ على ما افترض الله عليه، إن شاء خانها^(٣) وإن شاء أداها، لا يطلع عليه أحدٌ إلا الله تعالى^(٤).

(١) ذكره عنهما بهذا السياق الثعلبي في «تفسيره» (٣٤٦/٤)، ودون نسبة الزمخشري في «الكشاف» (٢/٢١٣-٢١٤). وخبر الزهري رواه الطبري في «تفسيره» (١١/١٢١)، وخبر الكلبي رواه عبد بن حميد كما في «الدر المنثور» (٤/٤٨). وذكره مطولاً ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/٢٣٦-٢٣٨)، ورواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٤/١٥) من طريق ابن إسحاق عن أبيه عن معبد بن كعب بن مالك، ثم قال: هكذا قال ابن إسحاق بإسناده، وزعم سعيد بن المسيّب أن ارتباطه بسارية التوبة كان بعد تخلّفه عن غزوة تبوك، حين أعرض عنه رسولُ الله ﷺ، وهو عليه عاتبٌ بما فعل يوم قريظة، ثم تخلّف عن غزوة تبوك فيمن تخلّف، والله أعلم. وفي رواية علي بن أبي طلحة، وعطيّة بن سعد، عن ابن عباس في ارتباطه حين تخلّف عن غزوة تبوك، ما يؤكّد قول ابن المسيّب. اهـ. وروايتي علي بن أبي طلحة وعطيّة عن ابن عباس رواهما الطبري في «تفسيره» (١١/٦٥١-٦٥٢). وأبو لبابة مختلف في اسمه، فقليل: مروان، كما ذكر المؤلف، وقيل: بشير، وقيل غير ذلك. انظر ترجمته في «الإصابة» في الكنى. وانظر ما سيأتي في قصة تبوك والمخلفين في سورة التوبة.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/١٢٣).

(٣) في (ر): «خالفها».

(٤) ذكره الواحدي في «البيسط» (١٠/١١٠).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: خيانة كلِّ أحدٍ على حَسَبِ ما وُضع عنده من الأمانة، فَمَنْ أوْتُمِنَ في مالٍ فتَصَرَّفَهُ فيه بغيرِ إذنِ صاحبه خيانةٌ، وَمَنْ أوْتُمِنَ على الحَرَمِ فملاحظته إياهم خيانةٌ، فعلى هذا الخيانةُ في الأعمال: الدعوى فيها بأنها من قبلك دون التحقيق بأن منشئها الله تعالى، والخيانة في الأحوال: ملاحظتك لها دون غيبتك عن شهودها باستغراقك في شهود الحق، فإذا أَخَلَّتْ بَسَنَةً من السُّننِ، أو أدبٍ من آداب الشرع، فتلك خيانةُ الرسول، والخيانة في الأمانات بينك وبين الخلق بإيثارك نصيبَ نفسك على نصيب المسلمين بإرادة القلبِ فضلاً من المعاملة بالفعل^(١).

(٢٩) - ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنفَوُا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنفَوُا اللَّهَ﴾: فخرجتم إلى الجهاد كما أمركم ﴿يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾: نصراً يفرِّق به بين الحق والباطل^(٢)، والمحق والمبطل، كما وعد: ﴿لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٨].

وقيل: أي: ﴿إِن تَنفَوُا اللَّهَ﴾ في التزام جميع ما ألزمنكم من أول السورة إلى هاهنا، وجملته: طاعة الله وطاعة رسوله ﴿يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾.

قال ابن زيد وابن إسحاق: أي: هداية في قلوبكم تفرِّقون بها بين الحق والباطل^(٣).

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (١/٦١٨).

(٢) «الحق والباطل» ليس في (أ).

(٣) ذكره عنهما الماوردي في «النكت والعيون» (٢/٣١١)، ورواه عن ابن إسحاق الطبري في «تفسيره» (١١/١٣١).

وقال مجاهد: أي: مخرجاً في الدنيا والآخرة^(١).

وقيل: مخرجاً عن الشبهات^(٢).

وقال السدي: نجاه^(٣).

وقال الفراء: فتحاً ونصراً، كما قال: ﴿يَوْمَ الْقُرْآنِ يَوْمَ الْتَفَى الْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: ٤١]^(٤).

وقيل: نصراً وعزاً وثوباً لكم، وخذلاناً وإذلالاً^(٥) وعقاباً على أعدائكم، وكلُّ ذلك يفرق بينكم وبينهم في الدنيا والآخرة.

وقوله تعالى: ﴿وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾: وهذا في الآخرة، والأول في الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾: يجزي بالعمل المنقطع ثواباً غير منقطع.

(٣٠) - ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: أي: واذكر إذ كان ذلك، ذكر الله

(١) ذكره عنه الماوردي في «النكت والعيون» (٣١١/٢)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٢٨/١١-١٢٩) عن مجاهد والضحاك وابن عباس.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٣٤٧/٤) عن مقاتل.

(٣) ذكره عنه الماوردي في «النكت والعيون» (٣١١/٢)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٣٠/١١) عنه وعن مجاهد وعكرمة وقتادة، ورواه أيضاً عن ابن عباس لكن بسند ضعيف جداً.

(٤) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٤٠٨/١)، و«النكت والعيون» (٣١١/٢).

(٥) في (ر) و(ف): «وذلاً».

في هذه الآية من معاملة المشركين وجرأتهم على الله تعالى ما يدعو المؤمنين إلى جهادهم وردّهم عن سَفَههم وعنادهم، إما بقتلهم أو إدخالهم في الإسلام، فقال: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: كفار قريش، ومكرهم: تديبرهم في إهلاكه أو إفساد^(١) أمره على جهة^(٢) الاستسرار، بحيث لا يُعلم إلا عند وقوعه.

وجاء أن أوّل ما وقع من التدبير هو الحبسُ إليه إلى أن يموت، ثم انتقلوا عنه إلى إخراجهم من البلد ونَفْيهِ، ثم استقرّ تديبرهم على قتله، فنزل جبريل عليه السلام فأخبره^(٣)، ففارق منزله وبطل تديبرهم أصلاً.

وقوله تعالى: ﴿لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ فيه أقاويل:

قال ابن عباس رضي الله عنهما والحسن ومجاهد وقتادة: أي: ليُوثقوك بوثق^(٤).

وقال عطاء وعبد الله بن كثير والسدي: أي: ليحبسوك^(٥).

وقيل: أي: لِيَسْحَرُوكَ^(٦)، فيجعلوك ثابتاً في مكان.

وقيل: ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾؛ أي: ليُخرجوك، كما يقال: أثبتته في الحرب، إذا جرحه جراحةً متلفّةً.

(١) في (ف): «هلاكه وفساد».

(٢) في (ف): «وجه».

(٣) في (أ): «وأخبر به»، وفي (ف): «فأخبرهم به».

(٤) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١١/١٣٢).

(٥) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١١/١٣٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/١٦٨٨). وقول

السدي عند الطبري: (الإثبات: الحبس والوثاق)، وعند ابن أبي حاتم: (يحبسوك ويوثقوك)، وهما

متقاربان، وفيهما الجمع بين هذا القول وسابقه.

(٦) في (ر): «ليسجروك». والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما ذكره الطبري في «تفسيره»

(١١/١٣٣)، واستدل عليه بقصة أبي طالب الآتية.

وقال أبو طالب: يا محمد! ما يَأْتُرُ بك قومك؟ قال: «يريدون أن يسحروني ويخرجوني ويقتلونني»، قال: مَنْ خبرك بهذا؟ قال: «ربي»، قال: نِعَمَ الرَّبُّ رَبُّكَ وذلك قوله جل جلاله: ﴿لِيُثَبِّتُكَ أَوْ يَقْتُلُكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾^(١).

﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾: أي: من مكة.

وقوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾: أي: يجازيهم جزاء مكرهم، ويصنعُ بهم ما هوَ وَفْقُ قَصْدِهِمْ ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ لأنه بحقٍّ، ولأنه ماضٍ لا محالة.

وقصته: ما قاله الكلبي ومقاتل: أن نفرًا من قریش منهم أبو جهل، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وهشام بن عمرو، وأبو البختری بن هشام من بني أسد، وأبو سفيان، وطُعَيْمَةُ بن عَدِيٍّ، والنضر بن الحارث، وزَمْعَةُ بن أسود، وحكيم بن حزام، ونبيه ومُنَبِّه^(٢) ابنا الحجاج، وأمّية بن خلف، اجتمعوا في دار الندوة يريدون المكر بالنبي ﷺ فأتاهم إبليس في صورة شيخ فجلس معهم، فقالوا: ما أدخلك علينا بغير إذننا؟! فقال: أنا رجل من نجد لستُ من أهل مكة، رأيتمكم حسنَةً وجوهكم طيبةً ریحكم فأحببتُ أن أسمع حديثكم وأشيرَ عليكم، فإن كرهتم مجلسي خرجتُ عنكم.

وفي رواية: قال: أنا شيخ من الماضينَ أحياني اللاتُ لأعينكم في تدبيركم. فقالوا: هذا رجل من نجد وليس من أهل تِهَامَةٍ فتكلّموا فلا بأس عليكم منه، فقال أبو البختری لعنه الله: أما أنا فأرى أن تأخذوا محمداً فتجعلوه في بيت وتسدّوا بابه غيرَ كوةٍ تلقون إليه فيها طعامه وشرابه، وتذروه فيه حتى يموت كما مات مَنْ قبله

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/١٣٣) عن المطلب بن أبي وداعة.

(٢) في (أ): «وملبه».

من الشعراء زهيرٍ والنابعة، إنما هو رجل^(١) كأحدهم فترَبَّصُوا به رَبِّ الْمُنُونِ، فقال إبليس لعنه الله: بئس الرأي رأيك^(٢)، تَعْمَدُونَ إِلَى رَجُلٍ لَهُ فِيكُمْ آصْرَةٌ^(٣) قد سمع به مَنْ حَوْلَكُمْ تحبسونه فيوشكُ قَوْمُهُ أَنْ يقاتلوكم عنه؟! قالوا: صدق الشيخ.

وقال هشام بن عمرو من بني عامر بن لؤي: أمّا أنا فأرى أَنْ تَحْمِلُوهُ عَلَى بَعِيرٍ فتخرجوه حيث شاء ويليهِ غيرُكم، قال إبليس لعنه الله: بئس الرأي رأيك، تَعْمَدُونَ إِلَى رَجُلٍ قَدْ أَفْسَدَ جَمَاعَتَكُمْ وَتَبِعَهُ مِنْكُمْ طَائِفَةٌ فَتُخْرِجُوهُ إِلَى غَيْرِكُمْ لِيُفْسِدَهُمْ كَمَا أَفْسَدَكُمْ.

وفي رواية: قال: ألم تروا حلاوةَ قوله وطلاقةَ لسانه، والله لَيَسْتَجْمِعَنَّ عَلَيْهِ خَلْقٌ^(٤) ثُمَّ لِيَأْتِيَنَكُمْ.

فقال أبو جهل بن هشام لعنه الله: أمّا أنا فأرى لكم أَنْ تَعْمَدُوا إِلَى كُلِّ بَطْنٍ مِنْ قُرَيْشٍ فَتَأْخُذُوا رَجُلًا مِنْهُمْ، ثُمَّ تَعْطُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ سِيفًا، فَيَأْتُونَهُ فَيَضْرِبُونَهُ بِأَسْيَافِهِمْ فَلَا يَدْرِي قَوْمُهُ مَنْ يَأْخُذُونَ بِهِ، وَتَوَدِّي قُرَيْشٌ دِيَّتَهُ، فقال إبليس لعنه الله: صدق والله الشابُّ أَنْ الْأَمْرَ لَكُمْ قَال.

فتفرقوا على قول أبي جهل لعنة الله عليه، فنزل جبريل عليه السلام فأخبر النبي ﷺ بأمرهم، وأمره بالخروج، فخرج النبي ﷺ مِنْ لَيْلَتِهِ تِلْكَ إِلَى الْغَارِ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ^(٥).

(١) «رجل» ليست في (أ) و(ف).

(٢) في (ف) و(أ): «رأيت».

(٣) الأصرة: الرحم والقراية. انظر: «القاموس» (مادة: أصر).

(٤) في (ف) و(أ): «خلق».

(٥) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٨٠٤ - ٨٠٥)، وفيه: أَنْ الَّذِي نَزَلَ هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ =

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزل عليه هذا بعد قدومه المدينة، ونزل أيضاً: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّبَرَّصَ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾^(١).

وقال عكرمة: لما خرج النبي ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه إلى الغار أمر علي بن أبي طالب رضي الله عنه فنام في مضجعه، فبات المشركون يحرسونه فإذا رأوه حَسَبُوهُ النبي ﷺ وتركوه، فلما أصبحوا ثاروا^(٢) إليه فرأوا علياً، فقالوا: أين صاحبك؟ قال: لا أدري، فركبوا الصعبَ والدَّلُولَ في طلبه فاقْتَصَوْا أثره، فمَرُّوا بالغار فرأوا على بابه نَسَجَ العنكبوت، فقالوا: لو دخل لم يكن هذا فمكث فيه ثلاثة أيام^(٣).

وفي رواية الكلبي رحمه الله: ثم قال لعلي رضي الله عنه: نم في مضجعي وَتَسَجَّ^(٤) بِيُرْدِي فإنه لن يَخْلُصَ إليك منهم^(٥) شيء تكرهه، ثم خرج النبي ﷺ فأخذ قبضةً من تراب فأخذ الله أبصارهم عنه فلا يرونه، وجعل يثر التراب على رؤوسهم وهو يقرأ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾ [يس: ٨] إلى قوله: ﴿فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ﴾ [يس: ٩]، ثم انصرف حيث أراد، فأتاهم رجل حين أصبحوا فقال: ما تنتظرون هاهنا؟ قالوا:

= ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ إِنَّهُمْ يَأْتُونَ كُنُوزَهُمْ﴾ [الزخرف: ٧٩]، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٣٣/١١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٦٨٨/٥)، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه عندهما أن آية الأنفال نزلت عليه بعد قدومه المدينة، وسينبه المؤلف على هذا لاحقاً.

(١) رواه الطبري وابن أبي حاتم. انظر التعليق السابق.

(٢) في (ر): «بادروا».

(٣) رواه عن عكرمة الطبري في «تفسيره» (١٣٦/١١)، لكن السياق المذكور رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٠١١)، والإمام أحمد في «المسند» (٣٢٥١)، والطبري في «تفسيره» (١٣٦/١١)،

عن ابن عباس رضي الله عنهما. وإسناده ضعيف، انظر الكلام عليه في حاشية «المسند».

(٤) في (ف): «واتشح».

(٥) «منهم» ليست في (أ) و(ف).

محمدًا، قال: خيَّبكُم الله، قد والله خرج عليكم وما ترك رجلاً منكم إلا وضع على رأسه التراب وانطلق لحاجته^(١).

ومضى رسول الله ﷺ إلى الغار فدخله وأبو بكر معه، وخلف علياً بمكة حتى يؤدِّي عنه الودائع التي قبلها، وكانت الودائع توضع عنده لصدقه وأمانته.

وقال الحسين بن الفضل رحمه الله: السورة مدنية، والله تعالى ذكر مكر المشركين به بمكة، وهو معطوف على قوله عز وجل: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ﴾ ﴿وَأِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ﴾ الآية.

وقال القشيري رحمه الله: ﴿وَيْمَكُرُ اللَّهُ﴾ إن مكر الله تعالى مع العوام: شغلهم بالدنيا وصرف همهم إليها حتى ينسوا أمر الآخرة، [إذ] يوطنون أنفسهم عليها إلى أن يأتيهم من مأمهم فيأخذهم بغتة، ومكره بالخواص اغترارهم بما يظهر لهم من الصَّيت الجميل بين الناس، وما يظهر على ظواهرهم من صنوف الطاعات، مع ملاحظتهم لها وسكونهم إلى قبول الناس إياهم، فلا تزال أسرارهم بالأغيار منوطة، وهي عن الله في الحقيقة محجوبة، وعند الناس أنهم من أهل الكرامة، وفي معناه أنشدوا:

وقد^(٢) حسدوني قرب داري منكم وكم من قريب الدار وهو بعيد^(٣)

(٣١) - ﴿وَإِذْ أَنْتَ عَلَىٰ عِلِّيِّهِمْ ؕ ائْتِنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ؕ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

(١) رواه ابن إسحاق عن يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي. انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٤٨٣/١)، و«تاريخ الطبري» (٥٦٧/١).

(٢) في (ف): «وهم».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (٦٢٠/١).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ۖ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾: أي: وإذا يُقرأ عليهم القرآن المعجز الذي لا يخفى إعجازه على عاقلٍ متأملٍ قالوا: قد سمعنا ما تلوتم ولو شئنا لقلنا مثل هذا، إنما هو حديثٌ كأحاديث كسرى وقيصر والملوك الماضين، هذه غاية جرائهم على الله ونهاية وقاحة وجوهم ومكابرتهم، فإن النبي ﷺ تحدّاهم به سنين كثيرة لمعارضة سورة منه، فلم يكن عندهم إلا بذل النفوس والأموال والأولاد، فهم - في زعمهم - أسفه الناس وأجهلهم، وقدّموا النفوس^(١) والأموال مع إمكانهم بزعمهم تكذيبه بمعارضة سورة منه، فإمّا أن يكونوا بهذا القول مكابرين لعقولهم، أو جاهلين بإدعائهم بما يظهر فيه افتراؤهم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما قصّ رسول الله ﷺ شأن القرون الماضية قال النضر بن الحارث بن علقمة أخو بني عبد الدار: لو شئت لقلت مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين، - أي: إلا^(٢) ما سطر الأولون في كتبهم - فقال له عثمان بن مظعون: إن محمداً يقول الحق، قال: وأنا أقول الحق، قال عثمان: فإن محمداً يقول: لا إله إلا الله، قال: وأنا أقول: لا إله إلا الله، لكن هؤلاء بنات الله، - يعني: اللات والعزى - فقال رسول الله ﷺ: ﴿إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١] قال النضر: ألا ترون أن محمداً قد صدّقني فيما أقول، - يعني قوله: ﴿إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ - قال له المغيرة ابن الوليد^(٣): والله ما صدّقك، ولكنه يقول: ما كان للرحمن ولد، ففطن لذلك النضر

(١) في (ر): «إذ بذل النفس»، بدل: «وقدموا النفوس».

(٢) «أي» ليست في (أ)، و«إلا» ليست في (ر).

(٣) كذا وقع عند المؤلف والثعلبي على القلب، وصوابه: الوليد بن المغيرة، وكذا جاء في

«تفسير مقاتل».

فقال: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَاهُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ الآية [الأنفال: ٣٢]، وأنزل الله تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١] (١).

فوقع به العذاب يوم بدر وقتل صبراً، لم يُقتل من الأسرى يومئذ غيره وغير عقبة بن أبي معيط (٢)، وقد مر في القصة.

وفيه نزلت: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦] (٣).

قال عطاء: لقد نزلت فيه بضع عشرة آية من كتاب الله تعالى (٤).

وقال سعيد بن جبير: لما أمر النبي ﷺ بقتل النضر يوم بدر - وكان المقداد أسره - قال: يا رسول الله أسيري، قال: «إنه كان [يقول] في كتاب الله ما يقول»، فقال المقداد: أسيري يا رسول الله، فقال النبي ﷺ: «اللهم أغنِ المقداد من فضلك»، فقال المقداد: هذا الذي أردت (٥).

وقال القشيري رحمه الله: فرطُ جهلهم ستر على قلوبهم قُبِحَ دعواهم في القدرة على معارضة القرآن (٦)، فافتضحوا عند الامتحان لعدم (٧) البرهان، والعجز عما وصفوا من أنفسهم من الفصاحة والبيان.

(١) ذكره عن ابن عباس الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٣٥١)، وهو في «تفسير مقاتل» (٢/ ١١٢ - ١١٣).

(٢) كذا قال، وروى ابن أبي شيبه في «المصنف» (٣٦٦٩٢)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ١٤٣)، عن سعيد بن جبير زيادة ثالث، وهو: طعيمة بن عدي. ووصله الطبراني في «الأوسط» (٣٨٠١) فرواه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٤٥) عن عطاء، وسماه: النضر بن كلدة. وهو النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف بن عبد الدار. انظر: «الاستيعاب» لابن عبد البر (٤/ ١٩٠٤).

(٤) قطعة من الخبر السابق.

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٤٣)، وما بين معكوفتين منه.

(٦) في (ر): «المعارضة للقرآن».

(٧) في: «اللطائف»: (بعدم).

وقيل: لَمَّا لاحظوا القرآن بعين الاستصغار حُرِّموا بركاتِ الفهم فعُدُّوه من جملة أساطير الأولين، وكذلك مَنْ لا يراعي حرمة أوليائه يعاقبُ بأن تُسْتَر عليه أحوالهم فيظنَّهم مثله فيُطلق فيهم لسانَ الوقعة وهو بذلك أحقُّ^(١).

(٣٢) - ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذَاهُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذَاهُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: أي: واذكر إذ قال النضر بن الحارث، وإنما جُمع لأنه أرادَه وأتباعه، وكذا في الآية الأولى جُمع حيث قال: ﴿قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ لهذا^(٢) اللهم إن كان ما أتى به محمدٌ حقاً من عندك وقد جحدناه ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ ومَطَرٌ في الرحمة وأَمْطَرٌ في العذاب ﴿أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ غير الحجارة من السماء كقوله: ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٥٠]؛ أي: من غير الماء.

قال محمد بن إسحاق: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ كما أَمْطَرَتْهَا على قوم لوط ﴿أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أو ببعض ما عَذَّبْتَ به الأمم^(٣).

(٣٣) - ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٦٢٠).

(٢) «لهذا» ليست في (ف)، واستدركت في هامش (ر) وعليها علامة التصحيح.

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٦٧٠).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ أخبر أن تأخير العذاب عنهم مع استيجابهم ذلك أن الله تعالى لا ينزل عذاب الاستئصال بقوم إلا بعد خروج نبيهم من بينهم، فقال: ﴿وَمَا كَانُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾؛ أي: هذا الطاعني وأشياعه ﴿وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾: أي: يتوبون من كفرهم ويستغفرون منه.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان فيهم أمانان: نبي الله والاستغفار، فخرج النبي ﷺ وبقي الاستغفار^(١).

وقال الكلبي: ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾؛ أي: يصلُّون الخمس.

وقال عكرمة: الاستغفار هاهنا هو الإسلام^(٢).

وقال أبو مالك وابن أبي أبزى والضحاك وعطية وعبد الرحمن بن زيد: ﴿وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ أي: وأنت مقيم بين أظهرهم، نزلت إليه هذه الآية وهو بمكة، ثم خرج من بين أظهرهم فاستغفر من بها من المسلمين وأنزلت عليه حينئذ: ﴿وَمَا كَانُ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي: فيهم واحد^(٣) من المسلمين من النسوان والولدان، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٌ﴾ الآية [الفتح: ٢٥]، فخرج المستغفرون من مكة فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ فأذن الله تعالى في فتح مكة، وهو العذاب الأليم الذي توعدهم به^(٤).

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٥٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٩١).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٥٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٩٢).

(٣) في (ف): «أحد».

(٤) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٤٨ - ١٥٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٩٢ -

١٦٩٣)، والسياق المذكور هو لخبر ابن أبي أبزى.

وقال محمد بن إسحاق: كان المشركون يقولون: إن الله لا يعذبنا ونحن نستغفر، ولا يعذب أمة ونبيها معها حتى يخرج فقال الله تعالى لنبيه: يذكرُ جهالتهم فقال: يقولون: ﴿إِنْ كَانَتْ هَذَاهُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ ويقولون: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ ويقولون: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾^(١)، وردَّ عليهم كل ذلك بقوله:

(٣٤) - ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُنَافِقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾: أي: وأي سبب يوجب ترك تعذيبهم بالسيف، وهو حكم الله في المشركين حتى يسلموا، وهم غير مستغفرين بل يصدون المؤمنين^(٢) عن المسجد الحرام إذا أتوه حاجين أو معتبرين أو مصلين، مع إظهار المشركين تعظيمه وتعزُّزهم به، وهذا تعجبٌ منهم في تعظيم المسجد الحرام وهم يمنعون المؤمنين عن الحج إليه والصلاة فيه^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾: أي: وليسوا أولياء الله، وتأخير العذاب عنهم ليس لولا أنهم^(٤).

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُنَافِقُونَ﴾: أي: ما أولياء الله سوى المتقين ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

وقيل: وما كانوا أولياء المسجد الحرام وإن سَعَوْا في عمارته وسقي الحجاج وإطعامهم فيه، وكانوا يرون أنفسهم ولاية البيت لذلك، وبذلك كانوا^(٥) يصدون

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٦٧٠)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٥١).

(٢) «المؤمنين» ليست في (أ) و(ف).

(٣) «فيه» ليست في (أ).

(٤) «أي: وليسوا أولياء الله وتأخير العذاب عنهم ليس لولا أنهم» ليس من (ف).

(٥) «كانوا» ليست في (أ) و(ف).

عنه مَنْ شَاؤُوا وَيَأْذَنُونَ فِيهِ لِمَنْ شَاءُوا، فأبطل الله تعالى أن تكون لهم تلك الولاية وأثبتها للمتقين.

وقيل: أي: وما لهم أن لا يعذبهم الله في الآخرة، أثبت للمشركين العذاب بنفي الولاية، وأثبت للمؤمنين الولاية بقوله عز وجل: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧] وبقوله: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ﴾ [يونس: ٦٢] فأشار بذلك إلى أنه لا يعذبهم، ثم^(١) ولئن ثبت تعذيب مدة فإنه إذا لم يتأبد خفَّ على الجسد^(٢)، وفي ذلك ينشد:

إِذَا سَلِمَ الْعَهْدُ الَّذِي كَانَ بَيْنَنَا فَوُدِّي وَإِنْ شَطَّ الْمَزَارُ سَلِيمٌ^(٣)

(٣٥) - ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً﴾: أي: إلا صفيراً بالأفواه كصفير الأطيوار، وقد مكأ يمكو مكاءً.

﴿وَتَصْدِيَةً﴾: أي: تصفيقاً بالأيدي كفعل الصبيان، وإظهاراً للصدى؛ أي: للصوت، وقد صدى يصدي تصدية.

وفسرهما كذلك ابن عباس رضي الله عنهما وابن عمر وعطية ومجاهد والضحاك رضي الله عنهم^(٤).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت قریش يطوفون بالبيت وهم

(١) «ثم» ليس من (أ) و(ف).

(٢) في (أ): «الحد».

(٣) البيت في «لطائف الإشارات» (١/٦٢٢).

(٤) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١١/١٦٢ - ١٦٦).

عِزَّةٌ يَصْفُقُونَ وَيَصْفُقُونَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي﴾ الآية [الأعراف: ٣٢]، فَأَمَرُوا بِالثِيَابِ^(١).

وكانوا يعارضون النبي ﷺ في الطواف يستهزؤون به يَصْفُقُونَ وَيَصْفُقُونَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ^(٢).

وقال سعيد بن جبير: التصدية صُدُّهُمْ عَنِ الْبَيْتِ وَعَنِ الصَّلَاةِ^(٣)، وَأَصْلُهُ: التَّصْدِيدُ، وَقَدْ صَدَّدَهُ وَصَدَّهُ^(٤)، قُلْتُ إِحْدَى الدَّالَيْنِ^(٥) يَاءٌ تَخْفِيفاً كَمَا فِي قَوْلِهِمْ: تَمَطَّطٌ وَتَمَطَّى، وَتَطَنَّ وَتَطَنَّي، وَتَقَضَّضٌ وَتَقَضَّى.

وقال بعضهم: كَانَ الْمَكَاءُ أَذَانًا لَهُمْ وَالتَّصْفِيقُ^(٦) إِقَامَةٌ.

وقال مقاتل: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا صَلَّى بِمَكَّةَ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ قَامَ مُشْرِكًا عَنْ يَمِينِهِ وَآخِرَانِ عَنْ يَسَارِهِ يَمْكُونَ وَيَصْفُقُونَ لِيَخْلُطُوا عَلَيْهِ صَلَاتُهُ، وَهُمْ مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ، فَقَتَلَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِدَرٍ^(٧).

وقوله تعالى: ﴿فَذَوْقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾: قِيلَ: قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ لَهُمْ ذَلِكَ يَوْمَ بَدْرٍ.

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/١٦٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/١٤٦٦)، من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/١٦٤) من قول سعيد بن جبير.

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/٣٥٤) من قول سعيد بن جبير وابن إسحاق. وذكره الطبري في «تفسيره» (١١/١٦٧) دون عزو، ويظهر من كلامه أنه مرجوح عنده.

(٤) في (أ): «وصد»، وفي (ر): «وصداه».

(٥) في (ف) و(أ): «الدالات».

(٦) في (ف): «والتصدية».

(٧) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/١١٤).

وقيل: يقولون لهم^(١) في جهنم.

وقيل هو صيغة أمر في معنى الخبر؛ أي: ذاقوا ذلك؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرُسِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ [سبأ: ١٨]، أي^(٢): كانوا يسيرون فيها كذلك

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: كان أحسن حالهم التي هم عليها هي حالة الصلاة، فإذا كانت صلاتهم مكاءً وتصديّةً فكيف سائر الأحوال^(٣)؟!

ثم ذكر صلاتهم على هذا الوجه، وبيان ما قالوه على السفاهة: ﴿لَوْ شَاءَ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾، ودعائهم بامطار الحجارة عليهم، وجعل ذلك كتاباً يتلى في الصلاة، له أوجه^(٤) ثلاثة من الحكمة:

أحدها: تعليم الحِلْم عن السفهاء.

والثاني: تعريف المعاملة مع السفهاء عند ارتكاب المناكير من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أنهم إذا تمادوا في غيِّهم، واستقبلوه^(٥) بالمكروه والأذى، أن لا يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يؤيس من خيرهم؛ اقتداءً بالنبي ﷺ.

والثالث: إعلامُ الخلق أن حجة الله تلزمُ العبادَ وإن كانوا قد جهلواها، إذا كان التضييع جاء من قبلهم في ترك النظر والتفكير؛ إذ لو علموا حقيقة العلم أنه الحق لم يكونوا ليدعوا على أنفسهم بالهلاك.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: وما كان الله ليعذب أسلافهم وأنت في

(١) «لهم» من (ف).

(٢) في (ر): «قيل».

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» (١٩٤/٥).

(٤) في (ر): «وجوه».

(٥) في (ف): «غيهم واستقبلوا»، وفي (ر): «عتوهم واستقبلوا».

أصلاً بهم، وليس يعذبهم اليوم وأنت فيما بينهم؛ إجلالاً لقدرك، وإكراماً لمحلّك، وإذا خرجت من بينهم فلا يعذبهم وفيهم خدمك الذين يستغفرون.

ويقال^(١): للجوار حرمة، فجار الكرام في ظلّ إنعامهم، والكفار وإن لم يمتّعوا بقرب الرسول، فقد اندفع^(٢) العذاب عنهم بمجاورته فيهم^(٣)، وفي معناه أشدوا: وأحبّها وأحبّ منزلها الذي نزلت به وأحبّ أهل المنزل^(٤)

(٣٦) - ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾: نزلت الآية في إنفاق الكفار يوم بدر.

وقال الكلبي رحمه الله: إن الذين كفروا بالله ورسوله ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله؛ أي: دين الله لأنه طريق ثوابه والخلود في جنته لمن سلكه على ما أمر به.

وقوله تعالى: ﴿فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾: أي: فسيقع إنفاقهم حسرة^(٥)؛ أي: ندامةً وغيظاً.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾: أي: يوم بدر.

(١) في (ف): «ويقولون».

(٢) في (ف) و(أ): «اندفع».

(٣) «فيهم» ليس من (أ).

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٦٢١).

(٥) قوله: «أي: فسيقع إنفاقهم حسرة» ليس في (ف).

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ يبعثون ويجمعون بعد القتل.

قال الكلبي: نزلت في المطعمين يوم بدر، وكانوا اثني عشر رجلاً أطلعوا الناس الطعام كل واحد يطعم مئة^(١)، منهم: أبو جهل وأخوه الحارث بن هشام، وعُتبَةُ وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس، ومنبّه ونبيه ابنا الحجاج، وأبو البختري بن هشام، والنضر بن الحارث، وحكيم بن حزام وأبي بن خلف، وزمعة بن الأسود، والحارث بن عامر بن نوفل، والعباس بن عبد المطلب، كلهم من قريش^(٢).

وقال مقاتل: إن رؤوس كفار قريش استأجروا أعواناً على قتال رسول الله ﷺ، فأطعموا أصحابهم في كل يوم عشر جزر^(٣).

وقيل: هو إنفاق الأموال التي كانت في العير في حرب أحد، وقد بينّا ذلك في أول قصة حرب أحد في أول سورة آل عمران^(٤).

وقال سعيد بن جبير: نزلت الآية في أبي سفيان، استأجر يوم أحد ألفين من أحابيش كنانة سوى من استجاش من العرب، فقاتل بهم رسول الله ﷺ، وهم الذين يقول فيهم كعب بن مالك:

فجئنا إلى موجٍ من البحر وسطه
أحابيش منهم حاسرٌ ومقنعٌ

(١) في (أ): «كل رجل يطعم فئة»، وفي (ر): «كل رجل منهم يطعم فئة».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤ / ٣٥٥). وانظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١ / ٦٦٤ - ٦٦٦)، و«المغازي» للواقدي (١ / ١٤٤).

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٢ / ١١٤).

(٤) والقول بنزول الآية في المطعمين يوم بدر أولى من القول بنزولها في المنفيين يوم أحد؛ لأن السياق قبلها في غزوة بدر، وقد سئل ابن عباس رضي الله عنهما فيما رواه البخاري (٤٦٤٥) عن سورة الأنفال فقال: (نزلت في بدر)، وإن كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ثلاثة آلاف ونحن بقية ثلاث مئين إن كثرنا فأربع^(١)

وقال سفيان بن عيينة: قال قريش: لا تنفقوا هذا المال الذي أفلت إلا في حرب محمد، فنزلت الآية.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: دلّت الآية على صدق نبوة محمد ﷺ، حيث أخبر عن عاقبة أمرهم فكان كما أخبر به، وهو غيب، فثبت أنه عرف ذلك بالله^(٢).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: إنهم وإن ألّتهم أموالهم فإلى الخيبة والذلة^(٣) مألهم، لن تغني عنهم أموالهم، ولن تنفعهم عند الحاجة أعمالهم، بل ختم بالشقاوة أحوالهم^(٤).

(٣٧) - ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَيْثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَيْثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَسِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَيْثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾: أي: يجعل نفقاتهم حشرات عليهم، ويغلبهم وإلى جهنم يحشرهم؛ ليفترق^(٥) الكافر الخبيث الذي نجست

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ١٧٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٩٧)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٣/ ٩٤) (ط: دار التفسير)، والماوردي في «النكت والعيون» (٢/ ٣١٧)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٣٧). والبيتان من قصيدة لكعب في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ١٣٤). وفي جميع المصادر بدل «بقية»: «نصيّة»، والنصيّة: الخيار من القوم.

(٢) لم أجده في «تأويلات أهل السنة».

(٣) في (ر): «والذل»، وفي «اللطائف»: «فإلى الهوان والذلة».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٦٢١).

(٥) في (أ): «ليفرق».

عقيدته وأعماله من المؤمن الطيب الذي طابت عقيدته وأعماله.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لِيَمِيزَ اللَّهُ أَهْلَ الشَّقَاوَةِ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ^(١).

وقيل: الخبيث: ما لا يصلح لله، والطيب: ما يصلح لله.

وقيل: الخبيث: ما حَكَمَ الشَّرْعُ بقبحه وفساده، والطيب: ما شهد العلم بحُسْنِهِ وصلاحه.

وقيل: الخبيث: ما يَشْغُلُ صاحبه عن الله.

وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ﴾:

رَكَمَ الشَّيْءَ: رَاكَبَ^(٢) بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، ومنه: السحاب المركوم.

قال الحسن: أي: يركمهم مع ما أنفقوا. فيَحْتَمِلُ أن يكون الخبيث والطيب اسمين للكافر والمؤمن والركم للكَفَارِ والجمعُ لهم، ويَحْتَمِلُ أن يكون اسماً للمال الخبيث والطيب والركم لنفقاتهم معهم كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ الآية [التوبة: ٣٥]، وإن حُمِلَ^(٣) على الكافر فقوله تعالى: ﴿فَيَرْكُمُهُ... فَيَجْعَلُهُ﴾^(٤) على التوحيد يرجع على ظاهر اللفظ لأنه فردٌ.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ويَحْتَمِلُ هذا أن يكون معناه: يجعلهم في دركاتٍ بعضها أسفل من بعض، ويَحْتَمِلُ جَعَلَ بعضهم على بعضٍ مَقَرَّينِ في الأصفاد، ويَحْتَمِلُ جَعَلَ بعضهم على بعضٍ على التضييق، قال تعالى: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا﴾ [الفرقان: ١٣].

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/١٧٥).

(٢) في (ف): «ركب».

(٣) في (ر): «فإن حمل الآية».

(٤) في (ر) و(ف): «فيركمه جميعاً».

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾: يرجع إلى المعنى لأنه جمع، أو إلى أول^(١) الآيتين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

وقال عبد الرحمن بن زيد: ﴿فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ﴾: أن تجعل نفقاتهم في قعر جهنم، ثم يقال لهم: اَحْضُوا بها^(٢). والآية في الذين قُتِلوا يوم بدر، وما بعدها في حق مَنْ بقي منهم.

(٣٨) - ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَّا قَدْ سَلَفَ﴾: أي: قل يا محمد لمن بقي من كفار قريش بعد قتل^(٣) مَنْ قُتِلَ منهم يوم بدر: إِنْ تَقْلَعُوا عَمَّا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الشَّرِكِ غَفَرَ اللَّهُ لَكُمْ مَا مَضَى مِنَ الشَّرِكِ وَالْمَعَاصِي.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ﴾^(٤): أي: وإن يرجعوا إلى قتال المؤمنين فإنَّ الله يفعل بهم ما هو سنة في^(٥) الأولين بنصر الأولياء وقهر الأعداء، فأضاف السنة إليهم في هذه الآية لأنها مجعولة لهم، وأضافها إلى نفسه في قوله: ﴿وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣] لأنه هو الذي جعلها، وهو كالأجل: أضافه

(١) «أو إلى أول» من (أ)، ووقع بدلاً منها في (ر): «وأول»، وفي (ف): «أول».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٣٥٥/٤)، والواحدي في «البيسط» (١٠/١٤٦).

(٣) «قتل» ليست في (أ).

(٤) في (ف) و(أ): «وإن تَعُودُوا فَقَدْ...» بالتاء، وقد جاء في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٦)

عن ابن مسعود أنه قرأ: (إن تنتهوا يغفر لكم)، فلعل في قراءته: (وإن تَعُودُوا) ليتجانس الفعلان.

(٥) «في» زيادة من (أ).

تارةً إلى نفسه بقوله عز وجل: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [نوح: ٤]، وإلى الخلق أخرى بقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾ [الأعراف: ٣٤] لهذا^(١).

وقال ﷺ: «الإسلام يُجِبُّ ما قبله»^(٢).

وقال الكلبي: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: أبا سفيان وأصحابه ﴿إِنْ يَنْتَهُوا﴾؛ أي^(٣): يُسَلِّمُوا ﴿يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾: يُتَجَاوَزَ عنهم من الذنوب ما كان قبل الإسلام ﴿وَأِنْ يَعْذِبُوا﴾ لِقَتَالِهِ ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ بنصر الله رسله، وَمَنْ آمَنَ عَلَى مَنْ كَفَرَ، بقتلهم في الدنيا ولهم العذاب في العقبى^(٤).

وقيل: نزلت في عكرمة بن أبي جهل وعمر بن العاص، فإن النبي ﷺ لَمَّا فَتَحَ مكة هرب عكرمة إلى الجُدَّة، وركب البحر فهاجت الأمواج وخيف الغرق، فقال الملاحون: لن ينجيكم إلا الإخلاص ودين محمد، قال عكرمة: فإن كان لا يُنَجِّيني في البحر إلا هذا لا يُنَجِّيني في البر إلا هذا، فعزم على أن يرجع إلى رسول الله ﷺ فيسلم، فلمَّا خرج من البحر سالماً أتى المدينة فدخلها بغلَسٍ، فرأى عمرو بن العاصي قد جاء لذلك، فقال: ما جاء بك يا داهية العرب؟ فقال: ما بقي من مكرٍ إلا عَمَلْتُهُ فلم يَنْفَدْ، فعلمتُ أنه الحق، فجئت لأبائع النبي ﷺ، فاجتمعوا على إتيان رسول الله ﷺ والإسلام وأقبلوا^(٥)، فلمَّا قُرْبًا من الباب كان يُقَدِّمُ كُلُّ واحد منهما

(١) «لهذا» ليست في (ف)، وكتبت في (ر) فوق السطر.

(٢) قطعة من حديث رواه مسلم (١٢١) عن عمرو بن العاص رضي الله عنه، وفيه أن النبي ﷺ قال له: «أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ».

(٣) في (أ): «إِنْ».

(٤) في (ف) و(أ): «الْآخِرَةُ».

(٥) «وأقبلوا» ليست في (ف).

صاحبه ويتأخر حياءً، فلما دخلا بكيا، فقال ﷺ: «ما يبكيكما؟» قالا: كثرة جفائنا، فقال: «أبشرا فإن الله يقبلكما» ونزلت الآية.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: قل لهم: إن حلوا نطاق العناد أطلقنا عنهم عقال البعاد، وإن أبصروا قبح أفعالهم جُذنا عليهم بإصلاح أعمالهم، وإن جَنَحُوا للاعتذار خلعنا عليهم خلع الغفارة^(١).

(٣٩) - ﴿وَقَلِّبُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنَّ آنتَهُوَ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَلِّبُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾: أي: شرك ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾؛ أي: حتى يخلص دين الإسلام فلا يعبد إلا الله، ويجتمع الناس كلهم على الطاعة والعبادة لله تعالى.

قال ابن عباس والحسن وقتادة والسدي وابن إسحاق وابن زيد: ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾: أي: شرك^(٢).

وقيل: أي: لا يبقى مشرك يُفْتَنُ به الجاهلون.

وقال الربيع بن أنس: حتى لا يُفْتَنَ مؤمن عن دينه^(٣).

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ آنتَهُوَ﴾: أي: عن الفتنة والشرك وصاروا إلى دين الحق معكم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يعني: بما يعملون من ترك الكفر

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (١/٦٢٤).

(٢) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١١/١٧٨ - ١٨٠).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/٣٥٦)، والواحدي في «السيط» (١٠/١٥١).

والمعصية وفعل الإيمان والطاعة، يرى أعمالهم فيجزئهم على وفق أعمالهم^(١).

(٤٠) - ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعَمَ النَّصِيرِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾: أي: أعرضوا عما أذرتهم فلم يتدبروا فيه ولم يقبلوه^(٢).

وقوله تعالى: ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَكُمْ﴾: متولي أموركم ونصركم وإعلائكم فقاتلوهم.

وقوله تعالى: ﴿نِعَمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعَمَ النَّصِيرِ﴾: على العدو فثقوا به.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: إن لم تكونوا له بحيث يقال: نعم العبيد أنتم، فنعم المولى ونعم الناصر هو لكم^(٣).

ويقال: نعم المولى كان لكم يوم قسمة العرفان، ونعم الناصر لكم يوم نعمة الغفران^(٤).

ويقال: نعم المولى هو لك حين لم تكن، ونعم الناصر هو لك حين كنت.

وقيل: نعم المولى بالتعريف قبل التكليف، ونعم الناصر لك بالتخفيف والتضعيف، يخفف عنك الطاعات، ويضاعف لك الحسنات، ويكفر عنك السيئات^(٥).

(١) في (ف) و(أ): «عملهم».

(٢) في (ف): «فلم يتدبروا ولم يقبلوا».

(٣) في (ف): «نعم المولى ونعم النصير على العدو فثقوا به فهو لكم»، والمثبت من باقي النسخ و«اللطائف».

(٤) في (أ): «الفرقان»، والمثبت من باقي النسخ و«اللطائف».

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٦٢٥).

(٤١) - ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآبِئِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَفَىٰ أَجْمَعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾: أي: إذا قاتلتم المشركين وقهرتموهم وأخذتم أموالهم، فإنها ما كانت تحلُّ للأُمم السالفة، وقد أحلت لكم أربعة أخماسها، وليس هذا في هذه الآية، بل فيها ^(١) بيان خُمسها، فأما أربعة أخماسها فحلُّها لنا بما ذكر في آخر هذه السورة: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٩].

وما ذكر في هذه الآية فقد بيَّنَّا أنه ناسخٌ لِمَا ذكر في أول هذه السورة: ﴿قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ وقال هاهنا: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾.

قيل: هو على تحقيق جعلِ سدسِ الخمس لله، وهذا يُصرف إلى ستر الكعبة. وقيل: إلى أسلحة الغزاة.

وقيل: بل قوله: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ سهمُ الله وسهمُ الرسول سهمٌ واحد، وهو سهمُ الرسول، وأضافه إلى نفسه تشريفاً له، فإنه ﷺ كان بالله والله، فكان سهمُ سهمِ الله وهو خمسُ الخمس.

واختلف في سهمه ﷺ أنه: هل بقي بعد وفاته أو سقط؟

قيل: سقط؛ لأنه لم يخلفه أحد في الرسالة، فلا يخلفه في سهمه.

وقيل: هو باقٍ، وهو لأُمير المؤمنين في كلِّ عصرٍ؛ لأنه والي المسلمين كما كان رسول الله ﷺ والي المسلمين.

(١) في (ف): «بل هو في».

وقوله تعالى: ﴿وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾: هو القريب، وليس فيه أنه قريبٌ مَنْ؟ لكن^(١) اجتمعت الأمة أنه أريد به قريبٌ رسول الله ﷺ، وهو واحدٌ بمعنى الجمع لأنه جنس، فكان سهمٌ من الغنيمة لأقرباء رسول الله ﷺ حال حياته، وكان النبي ﷺ يُعطيهم، وعُرف بفعل^(٢) رسول الله ﷺ أن المراد به أقرباؤه، وما كان يعطيهم كلهم.

روي عن جبير بن مطعم قال: لما قسم رسول الله ﷺ سهمَ ذي القربى بين بني هاشم وبني المطلب أتيتُ أنا وعثمان رسولَ الله ﷺ فقلنا: يا رسول الله! هؤلاء بنو هاشم لا ننكر فضلهم لمكانك الذي وضعك الله فيهم، أرأيت بني المطلب، أعطيتهم وحرمتنا - يعني: بني عبد شمس وبني نوفل - وإنما نحن وهم منك بمنزلة واحدة؟ فقال: «إنهم لم يفارقوني في جاهلية ولا إسلام»؛ أي: في حال جاهليتهم وبعد إسلامهم «وإنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد»، وشبك بين أصابعه^(٣).

وسقط سهم ذوي القربى بوفاة رسول الله ﷺ؛ أجمع عليه الصحابة رضي الله عنهم؛ لما أشار في هذا الحديث أن الإعطاء كان معلولاً بالنصرة، وقد سقطت^(٤) العلة فسقط^(٥) معلولها، وعمل به الخلفاء الراشدون، وأتبعهم عليه الآخرون، وهو قول علمائنا رضي الله عنهم أجمعين. وقال الشافعي رحمه الله: هو باقٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾: وسهمٌ كان لليتامى، وهو

(١) في (ف): «وليس قريبٌ ما ولكن»، في (أ): «وليس فيه أنه قريب من ذلك».

(٢) «بفعل» ليس من (ف).

(٣) رواه البخاري (٣١٤٠)، والإمام أحمد في «المسند» (١٦٧٤١)، والنسائي (٤١٣٧)، ولم يرد في رواية البخاري: «إنهم لم يفارقوني في جاهلية ولا إسلام»، وليس عنده: (وشبك بين أصابعه).

(٤) في (ف): «وإن».

(٥) في (ر): «فيسقط».

جمع يتيم، وهو الصغير الذي مات أبوه، وسهمٌ كان للمساكين، وهو جمعٌ مسكين، وهو الذي أسكتته الحاجة، وسهمٌ كان لابن السبيل، وهو الغريب البعيد عن ماله، واحدٌ أريد به الجمع لأنه جنس.

وهؤلاء مصارفُ هذا المال بصفة الحاجة، فلا يحلُّ للغنيّ منهم، ويجوز الصرفُ إلى صنفٍ واحدٍ منهم^(١)، وهو بيانُ الصرف دون الاستحقاق كما عُرف في مصارف الصدقات، وهذا عندنا.

وأربعة أخماسه يقسم بين الغزاة: للفارسِ سهمان وللراجلِ سهمٌ عند أبي حنيفة، وهو قول أكثر الصحابة رضي الله عنهم، وفيه أكثر الأحاديث^(٢)، وعند أبي يوسف ومحمد رحمهم الله: للفارس ثلاثة أسهم سهمٌ له وسهمان لفرسه، وهو قول بعض الصحابة^(٣)، وفيه بعض الأحاديث^(٤).

(١) «منهم» ليس من (أ).

(٢) منها حديث مجمع بن جارية رضي الله عنه عند الإمام أحمد في «المسند» (١٥٤٧٠)، وأبي داود (٢٧٣٦)، وحديث المقداد بن عمرو عند الطبراني في «الكبير» (٢٠ / ٢٦١)، وحديث الزبير بن العوام في «مغازي الواقدي» (٥٢٤ / ٢)، وحديث عائشة في «تفسير ابن مردويه»، ولا يخلو كل منها من مقال. انظر: «نصب الراية» (٤١٦ / ٣)، و«الدراية» (١٢٣ / ٢).

(٣) وهو قول أكثر أهل العلم كما ذكر ابن المنذر والقرطبي، قال القرطبي: الذي عليه عامة أهل العلم فيما ذكر ابن المنذر أنه يسهم للفارس سهمان وللراجل سهم، وممن قال ذلك مالك بن أنس ومن تبعه من أهل المدينة، وكذلك قال الأوزاعي ومن وافقه من أهل الشام، وكذلك قال الثوري ومن وافقه من أهل العراق، وهو قول الليث بن سعد ومن تبعه من أهل مصر، وكذلك قال الشافعي رضي الله عنه وأصحابه، وبه قال أحمد بن حنبل وإسحاق وأبو ثور ويعقوب ومحمد. قال ابن المنذر: ولا نعلم أحداً خالف في ذلك إلا النعمان، فإنه خالف فيه السنن وما عليه جل أهل العلم في القديم والحديث. قال: لا يسهم للفارس إلا سهم واحد. انظر: «الأوسط» لابن المنذر (١١ / ١٥٥ - ١٥٦)، و«تفسير القرطبي» (١٠ / ٢٦).

(٤) منها حديث ابن عمر عند البخاري (٢٨٦٣)، ومسلم (١٧٦٢)، ولفظه: قسم رسول الله ﷺ يوم =

ثم فيمن شهد الأمر من لا يستحق السهم ويرضخ له، ومنهم من لا يرضخ^(١)، وفي موضع الرضخ ومقدار الرضخ والمال الذي منه الرضخ كلام، وشرحه في الفقهيات، وقد أشبعنا^(٢) الكلام فيه على التهذيب والترتيب في «حصائل مسائل الفقه».

وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ﴾: يعني: فاعملوا به وارضوا بهذه القسمة إن أنتم بالله، فإن الإيمان يوجب الرضا بالحكم والعمل بالعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾: أي: وصدقتُم بما أنزلنا على عبدنا ورسولنا محمد ﷺ من الملائكة.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾: يوم حرب بدر، وهو يوم النصر، ويوم وقوع الفرقان بين الحق والباطل.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾: المؤمنون والمشركون ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من إدامة علوكم ونصركم ما دمتُم على طاعاتكم وبرِّكم.

وقال جعفر بن برقان: هو يوم ستة عشر أو سبعة عشر^(٣) من شهر رمضان^(٤).

وقال عروة بن الزبير: هو يوم سبعة عشر أو تسعة عشر، وهو أول مشهدٍ شهدته رسول الله ﷺ من قتال المشركين لإعلاء الحق والدين^(٥).

= خبير للفرس سهمين وللرجل سهماً.

(١) «ومنهم من لا يرضخ» ليس في (ف). وانظر الخلاف في الرضخ وعدمه، وفيمن يرضخ له ومن لا يرضخ، مع أدلته وأقوال العلماء فيه في «تفسير القرطبي» (١٠/ ٢٩ - ٣١) بتحقيقنا.

(٢) في (ر): «اتسعنا»، وفي (ف): «استغنى».

(٣) بعدها في (ر): «أو تسعة عشر»، وليست في مصدر التخريج.

(٤) رواه الحارث بن أبي أسامة في «مسنده» (٣٣٢ - زوائد).

(٥) رواه بنحوه مطولا الطبري في «تفسيره» (١١/ ٢٠١)، وليس فيه: (سبعة عشر).

(٤٢) - ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَا خْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَدِ وَلَكِنَّ لَيْقِظَى اللَّهُ أَمْرًا كَأَن مَفْعُولًا لَيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنِ بَيْنَتِهِ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيْنَتِهِ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بكسر العين والباقون بضمها^(١)، وهما لغتان، وهي شفير الوادي. والدنيا: القربى، تأنيث الأدنى، والقصوى: البعدى، تأنيث الأقصى.

يقول: واذكروا إذ كنتم أنتم يا معشر المؤمنين^(٢) من جانب شفير الوادي الأدنى إلى المدينة، ﴿وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾؛ أي: الكفار بالجانب الأقصى منها إلى جهة مكة.

وقوله تعالى: ﴿وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾: أي: العير، جمع راكب؛ كالصَّحْب جمعُ صاحبٍ في مكان أسفل منكم، على^(٣) الظرف لا على النعت؛ أي: بقرب ساحل البحر بينكم وبينهم ثلاثة أميال، فلم يمكن للمشركين أن يمضوا إلى عيرهم فيحتموها إذ كنتم^(٤) في وجوههم، ولم يمكنكم أن تمضوا إلى العير فتستولوا عليها إذ كان المشركون في وجوهكم، فتخلصت^(٥) العير وتجرد الفريقان للقتال، فنصركم الله وأهلك صناديدهم وأوهن كيدهم، وأعز الإسلام وأظهر أهله.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَا خْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَدِ﴾: أي: ولو كان بينكم وبينهم تواعدٌ لاجتماعكم في موضع معين ثم علمتم بكثرة عددهم وقوتهم وقلة عددكم وضعفكم لدعاكم الضعف إلى التخلف.

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٠٦)، و«التيسير» (ص: ١١٦).

(٢) في (ف): «المسلمين».

(٣) في (ر): «نصب على».

(٤) في (ف) و(أ): «أنتم».

(٥) في (ف): «فتخلص».

وقيل: ولو تواعدتم ثم لم يُمددكم بلطفه لاختلفتم بالعوائق والقواطع.
 وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾: أي: ولكن وقع ذلك
 من غير ميعاد^(١) ليُتمَّ الله أمراً كان قد أراده، وما أراد كونه فهو مفعول لا محالة، وهو
 عز الإسلام وعلو أهله، وذلل الكفر وقهر أهله.

وقوله تعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾: أي: صار
 الأمر فيما أراده إلى أن اتضح العذر ولزمت الحجة، وظهر الحق والباطل، فيضل
 من ضلَّ عن^(٢) تمام البيان ويهتدي من اهتدى^(٣) على كمال البرهان، فالهلاك
 الكفر والحيأة الإيمان؛ قال تعالى: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ [النحل: ٢١]، وقال: ﴿أَوْمَنَ
 كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: أي: قول الفريقين ﴿عَلِيمٌ﴾؛ أي:
 قصد الفريقين.

وقرأ عاصم في رواية أبي بكرٍ ونافع: ﴿مَنْ حَيٍّ﴾ بإظهار الياءين لامتناع
 الإدغام في مستقبله: يحيى، وقرأ الباقون: ﴿مَنْ حَيَّ﴾ على الإدغام^(٤)؛ للزوم
 الحركة في الثاني فجرى مجرى: ردَّ.

(٤٣) - ﴿إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَادَ كُفَّهَمْ كَثِيرًا لَّفَسَلَتُمْ وَلَنَنْزَعَنَّهُمْ
 فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

(١) في (ف): «ميعاده».

(٢) في (ف) و(أ): «عن».

(٣) في (ف) و(أ): «اهتدى».

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٣٠٦)، و«التيسير» (ص: ١١٦).

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا﴾: أي: وإن الله سميعٌ عليهم بما قالوا وأضمرُوا فأراك يا محمد في نومك قلة عدد المشركين.

ويحتمل أنه رأى في منامه ما كان تأويله ضَعْفُ أمر العدو^(١)، كأنه رآهم قليل العدد، وتأويله ضعفُ أمرهم، ورؤيا الأنبياء وحي، فأخبر أصحابه به، وقد قال: «إني أريتُ مصارعَ القوم غداً»^(٢) فقَوِيَتْ نفوسُهم، وكانوا يخافون ويتحدثون بقلّة عددِ أنفسهم وكثرة عددهم، فأراه الله تعالى ذلك، ولا يكون هذا إراءة الشيء على غير^(٣) ما هو به؛ لأن الرؤيا تخيلٌ وتنبيةٌ على شيء بتمثيل^(٤)، وقد صوّرنا نوعَ تأويل.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَدْنَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشَلْنَا﴾: أي: ولو رأيت في منامك ما يكون تأويله قوة أمرهم ثم أخبرت أصحابك بذلك لفشلوا؛ أي: جبنوا وانصرفوا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنَنْزِعَنَّ فِي الْأَمْرِ﴾: أي: ولا تختلفتم فلم تتفقوا على قتالهم ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَكَمٌ﴾: أي: من الفشل والتنازع بما أراك.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾: أي: بسرائر القلوب؛ أي: فعل ذلك لِمَا عَلِمَ من حُسْن نِّيَّاتِكُمْ^(٥).

(١) في (ف) و(أ): «العدد».

(٢) رواه بنحوه مسلم (٢٨٧٣) من حديث أنس عن عمر رضي الله عنه أنه قال: إن رسول الله ﷺ، كان يُرِينَا مَصَارِعَ أَهْلِ بَدْرٍ بِالْأَمْسِ، يقول: «هَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ غَدًا، إِنْ شَاءَ اللَّهُ»، قال: فقال عمر: فوالذي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ مَا أَخْطَأُوا الْحُدُودَ الَّتِي حَدَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. وقد تقدم عند تفسير قوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾.

(٣) «غير» ليست في (ف).

(٤) في (ر): «يتمثل».

(٥) في (أ): «من جبن ينالك».

(٤٤) - ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّقَيْتُمْ فِي آعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي آعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أُمُورَآكَاتٍ مَّفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّقَيْتُمْ فِي آعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي آعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أُمُورَآكَاتٍ مَّفْعُولًا﴾: وهذا لطف آخر؛ قلل المشركين في أعين المؤمنين حين التقوا حتى قال ابن مسعود رضي الله عنه: لقد قللوا في أعيننا يوم بدر حتى قلت لصاحب لي إلى جنبي: كم تراهم^(١) سبعين؟ قال: أراهم مئة، حتى أخذنا رجلاً منهم فسألناه، قال: كنا ألفاً^(٢).

وقلّل المؤمنين في أعين المشركين، فهان أمرهم عليهم حتى قال أبو جهل لعنه الله: خذوهم بالأيدي أخذاً ولا تقاتلوهم بالسلاح، وكان ذلك سبباً لحرص الفريقين على الملاقاة، فقضى الله تعالى أمره فيهم إذ^(٣) كان أمره مفعولاً، ومعناه: يكون، لكن لما كان مما يكون لا محالة أخبر عنه بـ﴿كَاتٍ﴾ كأنه قد كان.

وقال الكلبي: استقلّ المؤمنون المشركين والمشركون المؤمنين؛ ليجترأ بعضهم على بعض.

وقوله: ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أُمُورَآكَاتٍ مَّفْعُولًا﴾ كأننا في علمه بنصر الإسلام وأهله وذلّ الشرك وأهله.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ويحتمل التقليل من الجانبين: أن المسلمين رأوا الملائكة معهم فكان المشركون في مقابلة المسلمين والملائكة

(١) في (ف): «ترى القوم».

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٧٨٣٣)، والطبري في «تفسيره» (١١ / ٢١١)، وابن أبي حاتم

في «تفسيره» (٥ / ١٧١٠).

(٣) في (ف): «إنه».

قليلاً، ولم يرَ المشركون الملائكة فكان المسلمون في مقابلة المشركين قليلاً^(١).
وقوله تعالى: ﴿وَالِىَ اللَّهُ تَرْجِعُ الْأُمُورُ﴾: فيحكم فيها بما يريد.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: وإذا أراد الله نصره عبداً فلو كاده جميع البشر أو أرادوه بكل ضررٍ لم يَنْفَلْ من شفا^(٢) نُجحه حدّ، ولم يحصل بينه وبين متاح لطفه له سدّ، وإذا أراد الله بعبداً سوءاً فليس له ردّ، ولا ينفعه حدّ، ولا يُعْشيه بعد ما أسقطه حكمه جهد^(٣).

(٤٥) - ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾: أي: لا قِيتُمْ جماعةً من المشركين يقصدونكم فاثبتوا ولا تنهزوا.

وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: أي: ادعوا في تلك الحالة ربكم، واسألوه الثبات والصبر والعلو والنصر؛ كالذين قالوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠] فإنكم إذا فعلتم ذلك كان فيه فلاحكم وهو الظفر بالعدو.

وقال النبي ﷺ: «لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية، وإن لقيتموهم فاثبتوا وأكثروا ذكر الله، وإن أجلبوا وصيخوا فعليكم بالصمت»^(٤).

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٢٢٩/٥).

(٢) في (ر): «سنا».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (٦٢٨/١). وكلمة «جهد» تحرفت في النسخ إلى: «حد».

(٤) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٩٥١٨)، والدارمي في «سننه» (٢٤٤٠)، وعبد بن حميد في «مسنده»

وقال سعيد بن جبير: ﴿فَاتَّبِعُوا﴾ فإني معكم ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ فإنهما خصلتان: الغنيمة أو الشهادة^(١)، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَاءِ آلِ أَحَدٍ الْحُسَيْنَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٢].

وقيل: أمر الله تعالى بكثرة الذكر بكل حال وإن غلب الهمُّ والشغل بالنفس والمال، فقال في حق النفس في هذه الآية: ﴿فَاتَّبِعُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ الآية، وقال في حق المال: ﴿فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ الآية [الجمعة: ١٠].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ذكر هاهنا: ﴿فَاتَّبِعُوا﴾ وذكر قبل هذا: ﴿فَلَا تُؤَلُّوهُمْ أَذْذَبَارَ﴾، فدلَّ أن الأمر بالشيء نهْيٌ عن ضده، والنهي عن الشيء أمرٌ بضده^(٢). وقال الإمام القشيري رحمه الله: جميع الخيرات في ثبات القلب، وبه يتبين أقدار الرجال^(٣)؛ كما قال الصديق رضي الله عنه حين صدمته الفجعة بوفاة رسول الله ﷺ حتى^(٤) قال: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ رَبَّ مُحَمَّدٍ فَإِنَّهُ حَيٌّ لَا يَمُوت^(٥).

(٣٣٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٧١١/٥)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما. وروى البخاري (٣٠٢٤) من حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه مرفوعاً: «أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تَمْنُوا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُّوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَعَلِمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ».

(١) ذكره الواحدي في «البيسط» (١٨٢/١٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٢٣٠/٥).

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (٦٢٨/١).

(٤) في (ف): «حين».

(٥) رواه بنحوه البخاري (٣٦٦٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤٦) - ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَنفَشَلُوا وَيَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصِيرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: أي: في التآلف على نصرة الدين.
وقيل: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ﴾ في الأمر بالقتال ﴿وَرَسُولَهُ﴾ فيما يأمركم به حالة الالتقاء من تقدم أو تأخر أو كف أو إقدام^(١)، أو نحو هذا مما يؤجبه تدبير قادة الجيوش.
وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا﴾: أي: لا تختلفوا، والتنازع: طلب كل واحد من صاحبه أن ينزع عما هو عليه.

وقوله تعالى: ﴿فَنَفْشَلُوا﴾: أي: فتجنبوا، نصب بالفاء في جواب النهي؛ أي: في التنازع قلة الأعوان^(٢) وفيها الجبن، وفي الجبن غلبة العدو.

وقوله تعالى: ﴿وَيَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾: هي ريح النصر، قال ﷺ: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا وَأُهْلِكْتُ عَادٌ بِالدَّبُورِ»^(٣)، وقال الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩].

وقال مجاهد وقتادة: ويذهب نصركم^(٤).

وقال السدي: جرأتكم وحدتكم^(٥).

(١) في (ف): «بكف أو قدم» بدل: «أو كف أو أقدام».

(٢) في (أ): «الإخوان».

(٣) رواه البخاري (١٠٣٥)، ومسلم (٩٠٠)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١١ / ١١) عن مجاهد.

(٥) في (أ): «أي جرأتكم وحدكم» وفي (ف): «جرأتكم وجدكم»، وبهذا اللفظ ذكره البغوي في

«تفسيره» (٣ / ٣٦٤)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٣ / ٥٧٦) (تحقيق محمود شاكر) بلفظ:

(حدكم وجدكم)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤ / ٣٦٣) بلفظ: (جماعتكم وحدتكم)، وقال

الواحدي في «البيسط» (١٠ / ١٨٢): قال السدي: (جرأتكم)، وقال مقاتل: (حدتكم).

وقال عطاء: جَلَدُكُمْ^(١).

وقال النَّضْرُ بنُ شُمَيْلٍ: قَوَّتُكُمْ.

وقال الأَخْفَشُ: دولتُكُمْ.

وقال يمان بن رثاب: غَلَبْتُكُمْ^(٢).

وقال ابن كيسان: ظَفَرُكُمْ ورعْبُ عدوِّكم منكم.

ويعبر عن الدولة بالريح؛ يقال: هبت لفلانٍ ريحٌ، إذا جاءت دولته.

وقال بعض المتأخرين:

إذا هَبَّتْ رياحك فاغتنمها فعُتِبَى كُلُّ خافِقةٍ سَكُونُ

ولا تَغْفُلْ عن الإحسانِ فيها فلا تدري الركونُ متى يكونُ^(٣)

وقوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾: أي: هو مُعِينُهُمْ وحافظُهُمْ.

(٤٧) - ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِشَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ

سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/٣٦٣)، وذكره الواحدي في «البيسط» (١٠/١٨٢) عن ابن عباس بلفظ: (جلدكم وجدكم).

(٢) ذكر الأقوال الثلاثة الثعلبي في «تفسيره» (٤/٣٦٣).

(٣) انظر: «التمثيل والمحاضرة» (ص: ٢٤١)، و«أساس البلاغة» (مادة: روح)، وعزاها برهان الدين الوطواط في «غرر الخصائص الواضحة» (ص: ٤٠) لابن هندو، وقال الثعلبي: أنشدني أبو القاسم المذكر قال: أنشدني أبو نصر بن محمد بن الحسين الكرخي الكاتب، فذكرهما. انظر: «تفسير الثعلبي» (١٣/١١٣).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾: أي: اشتغالا عن شكر النعمة بإظهار التطاول على الناس بإسراف نفقة في غير رضى الله عز وجل ونحوه، وقد بَطِرَ من حَدِّ عِلْمٍ؛ قال تعالى: ﴿بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ [القصص: ٥٨].

وقيل: البَطَرُ: سوء احتمال الغنى، وهو قريب من الطغيان، قال الشاعر:

وَإِذَا غَنِيَتْ فَلَا تَكُنْ بَطِرًا وَإِذَا افْتَقَرَتْ فَتُهُ عَلَى الدَّهْرِ^(١)

وقوله: ﴿وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾؛ أي: مراة لهم؛ أي: اخرجوا إلى الجهاد محتسبين، لا بطرين ولا مُرائين كالمشركين، فإنهم خرجوا يفعلون ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾: أي: دين الله ﴿وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾؛ أي: عالم، وهو وعيد وتهديد.

قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وعروة بن الزبير ومحمد بن إسحاق: خرج أهل مكة لحماية العير التي كانت مع أبي سفيان، وأخرجوا المعازف والقِيَان، فلما نجا أبو سفيان أرسل إليهم: أن ارجعوا فقد سلمت عيركم، وهم بالجحفة، فقال أبو جهل لعنه الله: والله لا نرجع حتى نرد بدرًا وننحر جُزْرًا ونشرب خمرًا، وتعزف علينا القِيَان، ويرانا من غشينا من أهل الحجاز، وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابونا^(٢).

وروي أنه قيل: يا رسول الله! الرجل يقاتل لِيَغْنَمَ، ويقاتل لِيُذْكَرَ، ويقاتل لِيُرى مكانه، فَمَنْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ فقال ﷺ: «مَنْ قَاتِلٌ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا»^(٣).

(١) البيت لمحمد بن جرير الطبري. انظر: «تاريخ بغداد» (٢/ ١٦٦)، و«شعب الإيمان» (٤٦٣١)،

و«معجم لأدباء» (٥/ ٢٤٤)، و«سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٢٧٦)

(٢) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١١/ ٢١٧ - ٢٢٠).

(٣) رواه البخاري (٣١٢٦)، ومسلم (١٩٠٤)، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٤٨) - ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَآتِ الْفِتْنَانَ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ﴾: أي: محيطٌ بهم إذ زَيْنَ لهم الشيطان أعمالهم^(١)؛ أي: حَسَّنَ في قلوبهم ثباتهم على قتال المسلمين، وأوهمهم القوة والغلبة وانتشار الصيت في العرب بالجلادة والمنعة، وقال: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ﴾؛ أي: من جيش محمد ﴿وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ﴾؛ أي: مجيرٌ لكم وضامنٌ لكم السلامة من اعتراض المعترضين.

والجار: هو المجير الذي يعطي الخائف الأمان، وقد استجاره فأجاره؛ أي: استأمنه فأمنه.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَآتِ الْفِتْنَانَ﴾: أي: تلاقت ورأى بعضهم بعضاً، و﴿الْفِتْنَانَ﴾: جماعة المؤمنين وجماعة المشركين.

وقوله تعالى: ﴿نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾: النكوص: رجوعُ القَهْقَرَى خوفاً مما يرى؛ أي: ولَّى مدبراً حين نظر إلى الملائكة مردفين زائدين على عدد المشركين ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ﴾؛ أي: رجعتُ عما كنتُ ضمنْتُ لكم من الأمان ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾؛ أي: لأنني أرى الملائكة ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾؛ أي: أخاف عقابه على أيدي من أراهم ولا ترونهم أنتم ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لا يردُّ عقابه بشيء ولا يقاوم.

وقصته: ما ذكرنا: أن إبليس تصوّر لهم بصورة سُراقَة بن مالك بن جُعْشَم^(٢)

(١) «أعمالهم» ليست في (أ) و(ف).

(٢) في (ف): «وحثهم» بدل: «بن جعشم».

وشَجَّعَهُمْ وَضَمِنَ لَهُمْ، ثُمَّ انْهَزَمَ حِينَ نَزَلَتِ الْمَلَائِكَةُ، وَكَانَ هَؤُلَاءِ الْمَشْرُكُونَ تَخَوَّفُوا مِنْ بَنِي بَكْرٍ بَنِي كِنَانَةَ إِذْ كَانُوا قَتَلُوا مِنْهُمْ قَتِيلًا، فَلَمْ يَأْمَنُوا يَوْمَ خُرُوجِهِمْ إِلَى بَدْرٍ أَنْ يَأْتُوهُمْ مِنْ وَرَائِهِمْ، فَتَصَوَّرَ لَهُمْ إِبْلِيسُ بِصُورَةِ سَرَّاقَةٍ - وَهُوَ مِنْ بَنِي بَكْرٍ بَنِي كِنَانَةَ - وَقَالَ: إِنِّي جَارٌ لَكُمْ مِنْ بَنِي بَكْرٍ، فَرَكَّنُوا إِلَى قَوْلِهِ وَسَارُوا وَهُوَ مَعَهُمْ إِلَى أَنْ كَانَ مَا قَلْنَا، وَهَذَا جَائِزٌ فِي زَمَنِ النَّبُوَّةِ، وَيَكُونُ عَلَمًا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيُخْبِرَ أَصْحَابَهُ بِذَلِكَ، وَيُخْبِرَ بِهِ مَنْ أَفْلَتَ مِنَ الْقَتْلِ مِنْ قَرِيشٍ، فَيَكُونُ ذَلِكَ دَلَالَةً عَلَى نُبُوَّتِهِ، قَالَ ذَلِكَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالشَّعْبِيُّ وَقَتَادَةُ وَابْنُ إِسْحَاقَ^(١).

وقال قتادة: قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ كَذَبَ وَاللَّهُ، مَا بِهِ مَخَافَةُ اللَّهِ، وَلَكِنَّهُ عِلْمٌ أَنَّهُ لَا قُوَّةَ لَهُ وَلَا مَنَعَةَ، وَتِلْكَ عَادَةُ عَدُوِّ اللَّهِ لِمَنْ أَطَاعَهُ، حَتَّى إِذَا اتَّقَى الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ أَسْلَمَهُمْ شَرٌّ مُسْلِمٍ وَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ^(٢).

وقال الكلبي رحمه الله: خَافَ اللَّعِينُ أَنْ يَأْخُذَهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَيَعْرِفَهُمْ حَالَهُ، وَلَمَّا نَكَصَ عَلَى عَقْبِيهِ أَخَذَ الْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ بِيَدِهِ فَقَالَ: أَعَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ تَخَذَلْنَا؟! قَالَ: إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، قَالَ: وَاللَّهِ مَا نَرَى إِلَّا جَعَّاسِيْسَ يَثْرِبُ! قَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، قَالَ الْحَارِثُ: فَهَلَا كَانَ أَمْسٌ؟ فَدَفَعَ فِي صَدْرِ الْحَارِثِ وَانْطَلَقَ، وَانْهَزَمَ النَّاسُ، فَلَمَّا قَدَمُوا مَكَةَ قَالُوا: هَزَمَ النَّاسَ سَرَّاقَةُ بْنُ مَالِكٍ، فَبَلَغَ ذَلِكَ سَرَّاقَةَ، فَقَالَ: بَلَّغْنِي أَنْكُمْ تَقُولُونَ: إِنِّي هَزَمْتُ النَّاسَ، فَوَاللَّهِ مَا شَعَرْتُ بِمُسِيرِكُمْ حَتَّى بَلَّغْنِي هَزِيمَتَكُمْ، فَقَالُوا: مَا أَتَيْتَنَا يَوْمَ كَذَا؟ فَحَلَفَ لَهُمْ، فَلَمَّا أَسْلَمُوا عَلِمُوا أَنَّ ذَلِكَ كَانَ الشَّيْطَانُ^(٣).

(١) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١١ / ٢٢١ - ٢٢٣).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١ / ٢٢٣).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤ / ٣٦٥)، والبغوي في «تفسيره» (٣ / ٣٦٦).

(٤٩) - ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾: أي: واذكروا إذ كان يقول المنافقون، أو: قال إبليس ذلك إذ يقول المنافقون، وهم المعلنون للنفاق، المترسّون على طبقتهم^(١) ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ ممن دخل في الإسلام حديثاً وفي قلبه بقية شك لا يعادي المسلمين ولا يعين عليهم: ﴿غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ توهّموا أن دينهم يقيهم ونيهم يحميهم وهم بهذه القلة والمشركون بهذه الكثرة والعدة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾: أي: يثق بالله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يغالب ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يسوّي بين وليّه وعدوّه.

وقال مجاهد: نزلت الآية في قوم كانوا مستضعفين بمكة، فلما خرجت قريش أخرجوهم كرهاً، فلما نظروا إلى قلة المسلمين ارتدّوا وقتلوا جميعاً، منهم: قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة، والحارث بن زَمْعَةَ، وعلي بن أمية بن خلف، والعاص بن منبّه بن الحجاج، خرجوا من مكة وهم على الارتياب^(٢). وقال محمد بن إسحاق: هم ثمانية نفر، من قريش خمسة كانوا أقروا بالإسلام فاحتبسهم آبائهم عن الهجرة، فخرجوا إلى بدر معهم على الارتياب، فلما رأوا قلة

(١) في (ر) و(ف): «طبقاتهم».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٢٢٧)، ورواه الطبري أيضاً (٧/ ٣٨٣) عن قتادة في سبب نزول قوله

تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ لَكُلِّ طَائِفَةٍ لَّيِّنٍ أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧]،

وكذا قال ابن إسحاق كما سيأتي.

أصحاب النبي ﷺ قالوا: غرَّ هؤلاء دينهم حتى أقدموا^(١) عليه مع قتلهم وكثرة عدوهم، وأسماء الخمسة: قيس بن الوليد بن المغيرة وأبو قيس المخزوميان، والحارث بن زَمْعَةَ بن الأسود بن المطلب، وعلي بن أمية، والعاص بن منبه بن الحجاج^(٢).

وزاد فيهم مقاتل: والوليد بن الوليد بن المغيرة، والوليد بن عتبة، وعمرو بن أمية ابن سفيان بن أمية، كان هؤلاء أسلموا بمكة ثم أقاموا بها مع المشركين ولم يهاجروا، فقتل هؤلاء مع المشركين، فضربت الملائكة وجوههم وأدبارهم، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ﴾^(٣): قَدَّم المفعول وهو ﴿الَّذِينَ﴾، وهو منصوب بوقوع التوفي عليهم، و﴿الْمَلَائِكَةُ﴾ رفعٌ لأن فعل التوفي منهم وهو قبض أرواحهم.

يقول: ولو ترى يا محمد إذ كان يتوفى الملائكة أرواح الكفار ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾: أي: يضربون بآلات الحرب كل أجسادهم ما أقبل منها وما أدبر، لرأيت أمراً عظيماً، جواب (لو) هذا، وهو محذوف، وهذا أبلغ من الذكر؛ لأن النفس تذهب فيه كل مذهب. وتم الكلام هاهنا.

وقوله تعالى: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ هذا في الآخرة؛ أي: يقول الملائكة لهم: ذوقوا عذاب الإحراق.

(١) في (ف): «قدموا على ما قدموا».

(٢) قاله ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٦٤١) لكن في سبب نزول قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ الآية.

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ١٢٠ - ١٢١).

وقيل: أي: عذاب النار؛ لأن الحريق اسم للنار.

وقيل: كان مع الملائكة مقامع من حديد كلما ضربوا التهبّت النار في الجراحات، فذلك قوله: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾؛ أي: قاسوا وجربوا.

وقيل: يجوز أن تكون هذه الآية في الذين لم يقتلوا ببدر، وأخبر الله تعالى عن أحوالهم عند حضور آجالهم: أن الملائكة تقبض أرواحهم بالضرب على وجوههم وأدبارهم، فيكون قبض أرواحهم مشاكلاً بقبض أرواح الذين قُتلوا ببدر ضرباً وطعنًا، ومن خلفٍ وقَدَّامٍ، وفوق الأعناق وعلى كلِّ بنان، ويكون جوابُ (لو): لعلمتُ أنَّ مَنْ مات حتفَ أنفه ومَنْ مات في الحرب يتقاربان في العذاب الشديد.

(٥١) - ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾: أي: وتقول الملائكة لهم في النار: ذلك الإحراق والتعذيب جزاؤكم بما قدمتم^(١) من الكفر والمعاصي بأنفسكم مباشرة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ لا يعاقبهم بغير ذنب منهم^(٢).

(٥٢) - ﴿كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ^١ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾: أي: عادة هؤلاء المشركين بالنبِيِّ ﷺ كعادة فرعون وآله بالنبِيِّ موسى عليه السلام.

(١) في (ر): «قدمت أيديكم».

(٢) «منهم» ليست في (أ)، وسقطت الجملة كلها من (ف).

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الكفار ﴿كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾؛ أي: بما أنزل على نبيه ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾: أي: عاقبهم بها، فأهلكهم بيدٍ كما أهلك أولئك بالإغراق في البحر.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ﴾: لا يغلبه شيء ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لا يطاق عقابه ولا يردّه شيء.

(٥٣) - ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُ أَمَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُ أَمَّا بِأَنْفُسِهِمْ﴾: حذف حرف^(١) النون من (يكن) تخفيفاً لكثرة الاستعمال؛ لأن (كان) و(يكون) أمّ الأفعال؛ لأن (ضرب) في معنى: كان ضرب، و(يضرب) في معنى: يكون يضرب^(٢)، فلما كانت أمّ الأفعال وكثر استعمالها للحاجة إليها احتملت هذا الحذف، ولم^(٣) يحتمله نظائرها من: لم يضمن ولم يخن.

يقول: إن الله جلّ جلاله بكرمه لا يبتدئ قوماً بإنزال هذا العذاب عليهم حتى يسبق منهم ما يستحقّون به العذاب، فيوقع بهم حينئذ، كذا كانت سنته في الأمم الماضية كما هي الآن في مشركي العرب، غيروا ما أنعم الله عليهم من ابتعاث محمد ﷺ فكذبوه وأخرجوه، فغيرنا نعمنا عليهم فأنزلنا بأسنا بهم.

(١) «حرف» زيادة من (ف).

(٢) «يضرب» ليست في (أ).

(٣) في (ف): «ولا».

وقال السدي: أي: النعمة محمد ﷺ، أنعم الله تعالى به على قريش فكفروا به وكذبوه فنقله إلى الأنصار^(١).

وقال الكلبي: أنعم الله على أهل مكة فأطعمهم من جوع وآمنهم من خوف، وبعث محمداً ﷺ إليهم، ولم يكن يعدّ بهم حتى يغيروا ما بأنفسهم من النعم كفرأ بها وتركاً لشكرها، فغيروا ذلك فغيّر الله تعالى ما بهم، قال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً﴾ الآية [النحل: ١١٢]^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: أي: وبأن الله سميع لا يخفى عليه من كلام خلقه شيء، عليم بما في صدورهم.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: إذا أنعم الله على قوم وأراد دوامها لهم أكرمهم بتوفيق الشكر، فإذا شكروا نعمته قيّدوها فدامت لهم، وإذا أراد الله إزالة نعمة من عبد أذلّه^(٣) بخذلان الكفران، فإذا حاد عن طريق الشكر فقد عرض النعمة للزوال، وما دام العبد لشكر النعمة مقيماً كان الله تعالى لإنعامه عليه مديماً، فإذا قابل النعمة بالكفران ابتتر سلك نظامه، فبقدر ما يزيد في إصراره يزول الأمر عن قراره^(٤).

(٥٤) - ﴿كَذَابٍ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ ۖ وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿كَذَابٍ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾: أي: صنع هؤلاء بك كصنيع آل

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٣٣ / ١١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٧١٨ / ٥).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٣٦٨ / ٤).

(٣) في (أ): «أزاله».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (٦٣٣ / ١).

فرعون بموسى عليه السلام ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ بأنبيائنا، وليس هذا بتكرار، فإن الأولى في الكفر والمخالفة والمؤاخذه بالمعاقبة، وهذا في كفران النعمة والابتلاء بزوال النعمة.

وقوله تعالى: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾: على العموم ﴿وَأَعْرَفْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ على الخصوص ﴿وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ قال الله تعالى: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

(٥٥) - ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: أي: شرّ الخلائق الدائنين على وجه الأرض هم أهل الكتاب الذين ألفوا الكفر، فهم لإلفهم ذلك لا يؤمنون بك.

قال مقاتل: هم يهود بني قريظة، وذلك أن اليهود لعنهم الله نقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ، وأعانوا مشركي مكة بالسلاح على قتال محمد ﷺ وأصحابه، وقالوا: نسينا وأخطأنا، ثم عاهدهم الثانية فنقضوا العهد، فذلك قوله تعالى:

(٥٦) - ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾.

﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾^(١): ﴿عَاهَدْتَ مِنْهُمْ﴾؛ أي: أخذت العهد منهم.

وقيل: أي: الذي عاهدتهم منهم؛ أي: من الذين كفروا من أهل الكتاب.

قال الكلبي: نزلت في بني قريظة من اليهود؛ منهم كعب بن الأشرف وأصحابه

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ١٢٠ - ١٢١).

الذين ينقضون العهد ﴿فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾؛ أي: في كل حينٍ وعامٍ، فنقضوا العهد يوم الخندق حين ركب كعبٌ إلى أهل مكة فوافقهم على مخالفة رسول الله ﷺ^(١). وكذلك قال مجاهد^(٢).

وكان السبب في نقضهم العهد: أنهم كانوا سكان المدينة، فلما رأوا علوَّ أمر رسول الله ﷺ حسدوه، فطابقوا المشركين وأظهروا لهم المظاهرة إن احتج إليهم.

(٥٧) - ﴿فَإِذَا تَقَفَّيْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَدَبُهُمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا تَقَفَّيْنَهُمْ﴾: (إِذَا) كلمتان: (إِنْ) التي هي للشرط، و(مَا) التي هي للتأكيد، ولذلك أدخل نون التأكيد في ﴿تَقَفَّيْنَهُمْ﴾ كما تكون في القسم؛ لأن كل واحد منهما للتأكيد.

والتَّكْفُفُ: الأخذ بسرعة، يقول: فإن أظهروا نقضَ عهذك وكاشفوك وبادوك بالمحاربة فظفرت بهم ﴿فِي الْحَرْبِ فَشَرَدَبُهُمْ مَنْ خَلْفَهُمْ﴾: أي: نكّل هؤلاء تنكيلاً يكون سبباً لشرودهم من خلفهم؛ أي: نفورهم وهربهم وخوفهم.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ﴾: أي: يتعظون فيمتنعون لهذا الخوف عن نقض العهد.

قال عطاء: أئخُنْ فيهم القتلَ حتى يخافَكَ غيرهم من أهل مكة وأهل اليمن^(٣).

(١) انظر: «تفسير البغوي» (٣/ ٣٦٩).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٢٣٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٧١٩).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٣٦٨)، والواحدي في «البيضا» (١٠/ ٢٠٧).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قرأ: (فَشَرُُّ بِهِمْ) بالذال^(١)، قيل: هو في معناه.
وقال قطرب: بالذال: التنكيل، وبالذال المعجمة: التفريق.

(٥٨) - ﴿وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأِمَّا تَخَافَنَّ﴾: هي كقوله: ﴿فَأِمَّا تَنْقُضْهُمْ﴾ في أنها^(٢) كلمتان والنون للتأكيد، وهذا حكمٌ مَنْ ظهرت منه دلالةٌ خيانيةٌ لا كشفُ خيانة، والآية الأولى في كشف الخيانة، ونقض العهد على الإبانة^(٣).

والخوف: العلم؛ أي: وإن علمت ﴿مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ وهماً بنقض العهد ﴿فَأَنْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾؛ أي: أَلْقِ إِلَيْهِمُ الْخَبَرَ أنك نقضت العهد الذي بينك وبينهم لتكونوا أنتم وهم في العلم بالنقض على سواء؛ أي: على استواء^(٤)؛ أي: مستويين فيه، ولا تحاربهم قبل الإعلام لأنه خيانة والله لا يحب ذلك، وذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾: وقد كان بنو قينقاع لما انصرف رسول الله ﷺ من غزوة بدرٍ أظهروا ما يدلُّ على إضمارهم الخيانة إلى أن انكشف أمرهم بما فعلوه، فسار إليهم رسول الله ﷺ وحاصرهم وأنزلهم على حكمه، فكتفهم ليقتلهم، فكلَّمه ابن أبي في أمرهم وألحَّ عليه، فأخذ رسول الله ﷺ من أموالهم ما أحبَّ ونفاهم، فخرجوا إلى أذرعات، ولما كان يومُ الأحزاب وظهر من بني قريظة مظاهرةُ أبي سفيان على حرب رسول الله ﷺ، فعل بهم ما فعل من قتلِ المقاتلة وسبي الذرية

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٥)، و«المحتسب» (١/ ٢٨٠).

(٢) في (ف): «فإنها» بدل: «في أنها».

(٣) في (ف) و(أ): «الأمانة».

(٤) «أي: على استواء» ليست في (ف).

وأخذ الأموال، ثم كان من بني النضير ما كان، وأجلاهم بعد أن خرَّب ديارهم وقطع نخيلهم وأخذ من أموالهم ما أحبَّ، وكلُّ هذا عقوبةٌ غليظةٌ تردع السامعين من فعل ما أوجبها، ويقع بها الاتِّعاض والتذكُّر لمن عقل.

(٥٩) - ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِلَيْهِمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾^(١): قرأ عاصم في رواية حفص وابن عامرٍ وحمزة: ﴿يَحْسَبَنَّ﴾ بياء المغايبة وفتح السين، والباقون بتاء المخاطبة وكسر السين^(٢)؛ أي: يا محمد لا تظنَّ الكافرين السابقين.

و﴿سَبَقُوا﴾ في معنى الحال، وعلى ياء المغايبة لا بد من إضمار اسم قبل الذين كفروا أو بعد ذلك، وتقديره: ولا يحسبنَّ أحدٌ أو حاسبٌ الذين كفروا سبقوا، أو: ولا يحسبن الذين كفروا أنفسهم أو قومهم أو سلفهم سبقوا.

وقال الزجاج رحمه الله: لا يحسبن المؤمنون الذين كفروا سبقوا^(٣).

ومعنى الآية: ولا تحسبن من بقي من المشركين بعد وقعة بدرٍ ممن كان شهداها فأفلت أو لم يكن شهداها سبقوا؛ أي: فاتوا فلا يلحقهم عذاب الله.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾: أي: لا يفوتون، وقرأ ابن عامر: ﴿أَنَّهُمْ﴾ بفتح الألف^(٤)، ومعناه: لأنهم، يقال: طلبت فلاناً فأعجزني؛ أي: فاتني فعجزت عن إدراكه.

(١) في (ف) و(أ): «ولا تحسبن...»، وهما قراءتان كما سيأتي.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٠٧)، و«التيسير» (ص: ١١٧).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٤٢١).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٣٠٧)، و«التيسير» (ص: ١١٧).

وقال الحسن: لا يعجزون الله؛ أي: لا يفوتونه حتى لا يبعثهم الله يوم القيامة.
وقيل: أي: لا يعجزونك يا محمد حتى يُظْفَرَكَ الله بهم.
وقال الإمام القشيري رحمه الله: كيف يعارض الحقَّ أو ينازعه مَنْ في قبضته
تقلُّبه، وبقدرته تَصَرُّفه، وبتصرفه إياه عدمه وثبوته^(١).

(٦٠) - ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ
اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا نَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
يُوفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾: أي: هيئوا للكفار ما قدرتم
عليه، ﴿مَا﴾ نصبٌ لأنه مفعولٌ به بقوله: ﴿وَأَعِدُّوا﴾.
﴿مِنْ قُوَّةٍ﴾: أي: من الأشياء التي تكون قوةً لكم عليهم من الرجال والكرام
والسلاح.

وروى عقبه بن عامر عن النبي ﷺ: أن القوة هي الرمي^(٢)، وهو لا ينفي^(٣) غيره،
لكنه من جليل ما يُعدُّ لذلك.

وروى ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «ما مدَّ الناس أيديهم
إلى شيء من السلاح إلا وللقوس عليه فضل»^(٤).
وقال عمر رضي الله عنه: نِعَمَ السلاحُ القوسُ^(٥).

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٦٣٥).

(٢) رواه مسلم (١٩١٧).

(٣) في (ر) و(ف): «وهي لا تنفي».

(٤) ذكره الديلمي في «الفردوس» (٦٣١٣).

(٥) قوله: «وقال عمر رضي الله عنه: نعم السلاح القوس» زيادة من (أ) و(ف). ولم أقف عليه.

وروى مكحول عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ رَمَى بِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بَلْغَ أَوْ قَصَرَ كَانَ لَهُ عَدْلُ رَقَبَةٍ»^(١).

وقال مكحول رضي الله عنه: تَعَلَّمُوا الرَّمِيَّ فَإِنْ مَا بَيْنَ الْهَدَفَيْنِ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ»^(٢).

وروى عقبة^(٣) عن النبي ﷺ أنه قال: «كُلُّ شَيْءٍ يَلْهُو بِهِ ابْنُ آدَمَ بَاطِلٌ إِلَّا ثَلَاثًا: رَمِيَهُ بِقَوْسِهِ، وَتَأْدِيَتَهُ فَرَسَهُ، وَمَلَاعِبَتَهُ امْرَأَتَهُ» ثم قال: «ارْمُوا وَارْكَبُوا، وَالرَّمِيُّ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الرُّكُوبِ، وَمَنْ تَرَكَ الرَّمِيَّ بَعْدَ مَا عَلِمَهُ فَقَدْ كَفَرَ مِنْ عِلْمِهِ»^(٤).

وعن أبي المعتمر قال: قال رسول الله ﷺ: «عَلِّمُوا أَبْنَاءَكُمْ السَّبَاحَةَ وَالرَّمِيَّ، وَنَعَمَ الْمَلْتَهَى الْمَغْزُولُ»^(٥) للمرأة المؤمنة»^(٦).

- (١) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٩٥٣٩) من طريق مكحول عن بعض الصحابة عن النبي ﷺ. ورواه الطبراني في «الكبير» (٧٦١٠) من طريق مكحول عن أبي أمامة عن النبي ﷺ. ورواه الإمام أحمد في «المسند» (١٧٠٢٠)، والنسائي (٣١٤٢)، من حديث عمرو بن عبسة رضي الله عنه. وهو حديث صحيح.
- (٢) رواه ابن المنذر كما في «الدر المنثور» (٨٣/٤). وروى مرفوعاً من طريق مكحول عن أبي هريرة، لكن في إسناده ضعف وانقطاع. انظر: «التلخيص الحبير» (١٦٤/٤).
- (٣) «عقبة» ليس من (أ) و(ف).

- (٤) رواه أبو داود (٢٥١٣)، والترمذي (١٦٣٧)، والنسائي (٣٥٧٨)، وابن ماجه (٢٨١١)، من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه. قال الترمذي: حسن صحيح. وقوله: «وَمَنْ تَرَكَ الرَّمِيَّ بَعْدَ مَا عَلِمَهُ فَقَدْ كَفَرَ مِنْ عِلْمِهِ» كذا في النسخ، والذي في المصادر: «وَمَنْ تَرَكَ الرَّمِيَّ بَعْدَ مَا عَلِمَهُ رَغْبَةً عَنْهُ، فَإِنَّهَا نِعْمَةٌ تَرَكَهَا» أو قال: «كَفَرَهَا». وأخرج نحو هذه القطعة الأخيرة مسلم (١٩١٩) عن عقبة بن عامر مرفوعاً، ولفظه: «مَنْ عَلِمَ الرَّمِيَّ ثُمَّ تَرَكَهُ فَلَيْسَ مِنَّا، أَوْ قَدْ عَصَى».

- (٥) في (ف): «الغزل».

- (٦) رواه بنحوه البيهقي في «الشعب» (٨٦٦٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما وقال: عبيد العطار منكر الحديث.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾: هو مصدر رابطت العدوَّ مرابطةً ورباطاً، وهو أن يربط المسلمون خيولهم في الثَّغَرِ بمقابلةٍ ربطِ الكفار خيولهم لقصد المسلمين، والمفاعلة بين اثنين أو حزين، وهو عطف على قوله: ﴿مَنْ قُوَّةٍ﴾؛ أي: وأعدوا ما قدرتم عليه من رمي ورباط الخيل.

وقوله تعالى: ﴿تُرْهَبُونَ بِهِ﴾: أي: تخيفون بسبب الرباط الكفار، وهم ﴿عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ وهو واحدٌ أريد به الجمع؛ كما في قوله: ﴿هُرَّ الْعَدُوَّ﴾ [المنافقون: ٤]، وهم الكفار من المشركين واليهود الذين هم بقرب المسلمين ويعرفونهم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ﴾: أي: وتُرهبون أعداء آخرين من دونهم؛ أي: سوى هؤلاء.

قال مجاهد: هم بنو قريظة.

وقال السدي: هم أهل فارس.

وقال الحسن وابن زيد: هم المنافقون^(١).

وقيل: هم كفرة الجن، وهم يَفْزَعُونَ من سهيل الخيل.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّهُمْ الْجَنُّ» ثم قال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يُخْبِلُ أَحَدًا فِي دَارٍ فِيهَا فَرَسٌ عَتِيقٌ»^(٢).

(١) ذكره عنهم الماوردي في «النكت والعيون» (٢/ ٣٣٠) ورواه عنهم - عدا الحسن - الطبري في «تفسيره» (١١ / ٢٤٨ - ٢٤٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥ / ١٧٢٣ - ١٧٢٤).

(٢) رواه الحارث بن أبي أسامة في «مسنده» (٦٥٢ - زوائد)، والطبراني في «الكبير» (١٧ / ١٨٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥ / ١٧٢٣)، وابن عدي في «الكامل» (٣ / ٣٦٠)، من حديث عريب المليكي. وذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية وقال: هذا الحديث منكر، لا يصح إسناده ولا متنه.

وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧ / ٢٧): فيه مجاهيل.

وقيل: كلُّ عدوٍّ خافٍ.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾: أي: قد أعدَّ لهم جزاء عملهم^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾: (ما) كلمة شرط، ولذلك جَزَمَ فحذف النون في ﴿تُنْفِقُوا﴾ وحذف الياء في ﴿يُوَفَّ﴾. أي: وكلُّ نفقة قلَّتْ أو كثُرَتْ تنفقونها في طاعة الله وخصوصاً في الجهاد فأجره موقَّرٌ عليكم بالواحد سبعُ مئة إلى ما فوق ذلك، وأنتم لا تُنقصون من أجورِ أعمالكم شيئاً.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾؛ أي: لا تخرجوا إلى الحروب كما خرجتم إلى بدرٍ بغير السلاح؛ لأن حرب بدر كانت آيةً، فأمركم بالخروج إليها بغير سلاح ليميزَ بين الحقِّ والباطل بهذه الآية، وفي غيرها أمر بالاستعداد تعلُّقاً بالأسباب التي دبرَ بها أمورَ العباد^(٢).

قوله: ﴿مِنْ قُوَّةٍ﴾ هي الاستطاعة التي هي سلامة الآلات، ولذلك كانت قبل الفعل، فأما القوة التي هي علَّةُ الفعل فإنها تكون مع الفعل.

وقوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ قيل: هم الشياطين، وهو كما قال: ﴿إِنَّهُمْ يَرْتَبِكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧] ويقع الإرهابُ بالخيال في حقِّهم بما فيه من قمع أوليائهم، أو يكون فيه إرهاب أوليائهم وينسب إليهم. ويجوز أن يراد به كلُّ عدوٍّ يظهر من بعد ذلك إلى يوم القيامة، ودلَّ ذلك على قيام فرض الجهاد إلى يوم القيامة.

(١) في (ر) و(ف): «مثلهم».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٢٤٧).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: الناس مختلفون في قوة القلب على حسب اختلاف أحوالهم^(١)، فواحد يقوى قلبه بموعود^(٢) نصره، وآخر يقوى قلبه بأن الحق عالم بحاله، وآخر يقوى قلبه بتحقيقه بأنه بمشهد من ربه، قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

وآخر يقوى قلبه بإيثار رضى الله تعالى على مراد نفسه.

وآخر يقوى قلبه برضاه بما يفعله مولاه.

وقيل: أقوى جنة العبد في مجاهدة العدو تبرؤه من حوله وقوته^(٣).

وقد قال النبي ﷺ: «بك أقاتل وبك أحاول»^(٤).

(٦١) - ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾: أي: مالوا إلى الصلح فمل إليها، جنحت السفينة: إذا^(٥) مالت، وجناح الطائر يقع به الميل في أحد شقيه، والجناح: الميل إلى المأثم.

وقرأ عاصم في رواية أبي بكر: ﴿للسلم﴾ بكسر السين، والباقون بفتحها^(٦)،

(١) في (ف): «حالاتهم».

(٢) في (ف): «بم وعد».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (١/ ٦٣٥).

(٤) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٨٩٣٧)، والنسائي في «الكبرى» (٨٥٧٩)، وابن حبان في «صحيحه» (١٩٧٥)، من حديث صهيب رضي الله عنه. وهو حديث صحيح.

(٥) في (ف): «أي».

(٦) انظر: «السبعة» (ص: ٣٠٨)، و«التيسير» (ص: ١١٧).

وهما لغتان، وهي مؤنثة - أي: سماعاً - أي^(١): استعدّ لقتالهم وقَاتِلْهُمْ، وإذا مالوا إلى الصلح فصالحهم.

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾: أي: في خيانه^(٢) يُضْمِرُونَهَا، أو كيدٍ يريدونه. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾: لِمَا يجري بينك وبينهم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما يضمرونه من كيد وهو كافيك.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ ولا تَخَفْ خيانتهم ونَقْضَهم العهد فإن الله يُطْلِعُكَ عليه ويكفيك.

قال: وقال الحسن رحمه الله: نسخها: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ الآية [التوبة: ٢٩].

قال: وقال بعضهم: نسخها قوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾.

قال: وقال بعضهم: نسخها ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ [محمد: ٣٥].

قال: والوجه فيه: أن الإمام إذا رأى الصلح والموادعة للمسلمين أنفع، وهم طلبوا ذلك، أجابهم إليه، وإذا طلبوا هم منه الصلح وبالمسلمين قوة للقتال والحرب معهم لم يُجبهم إلى ذلك، وكذا قوله: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ﴾ هو نهْيٌ أن ندعوهم نحن إلى السَّلَام ونحن الأعْلَوْنَ وبنا قوة، وما ذكر هؤلاء من نسخه فذلك لا نعرفه^(٣)، والله أعلم.

(١) «سماعاً أي» من (ر).

(٢) في (ف): «جناية».

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٢٥١-٢٥٢).

(٦٢) - ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾: أي: إن يريدوا بجنوحهم للسلم أن يخدعوك لضعف يكون فيهم في ذلك الوقت فيلتمسوا السلم ليسلموا إلى أن يفتوا ويمكنهم انتهاز الفرصة منك ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾؛ أي: كافيك خداعهم وناصرك عليهم.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ﴾: بمدد الملائكة يوم بدر ﴿وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين أَلَّفَ بين قلوبهم على نصرتك، ومجاهدة الكفار على طاعتك، بعد تباين وتباغضٍ كان بينهم.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَبَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾: هم الأوس والخزرج، ما كان يطمع في تألفهم بإنفاق الكثير من الأموال.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾: بفضلته ولطفه ﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ﴾ لا يرد ما يفعله ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يتقصص تدبيره ولا يختل سلطانه.

قال الكلبي: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ﴾ يعني: يهود بني قريظة يخدعوك بالصلح لتكف عنهم، فالله حسبك، هو الذي أعانك وقواك ﴿بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ - يعني: الأوس والخزرج - يوم بدر، وألف وجمع بين قلوبهم بالإسلام.

وقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾: وليس بتكرار؛ لأن قوله: ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ معناه: فإنه يكفيك خداعهم، وهذا الثاني عام في كل كفاية يحتاج إليها. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: له وجوه:

أحدها: النصب، بمعنى: يكفيك ويكفي من أتبعك؛ كما قال: ﴿إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ﴾ [العنكبوت: ٣٣]، وقال الشاعر:

إذا كانت الهيجاء^(١) وانشقت العصا فحسبك والضحأك سيفٌ مهتدٌ^(٢) وهذا معنى قول الشعبي وابن زيد^(٣).

والثاني: الرفع بالعطف على اسم الله عز وجل، وهو معنى قول الحسن^(٤)، ومعناه: كافيك الله وكافيك أيضاً مَنْ اتبعك من المؤمنين.

وأجاز الوجهين الكسائي والفراء والزجاج^(٥)، ويجوز أن يكونا مرادين^(٦) بالآية. و(مَنْ أَتَبَعَكَ) على قول أكثرهم للجمع؛ أي: ومتبعونك من المؤمنين يكفونك أيضاً، وعلى القول الأول: الله يكفيك ويكفي متبعيك من المؤمنين.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت هذه الآية بالبيداء في غزوة بدر قبل القتال^(٧). قال: وسورة الأنفال كلها مدنية إلا هذه الآية فإنها نزلت بالبيداء^(٨).

(١) في (أ): «إذا كنت في الهيجاء».

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٤١٧)، و«الصحاح» (مادة: عصا)، و«شرح المفصل» لابن يعيش (٢/ ٤٨)، وعزاه في «ذيل الأمالي» (ص: ١٤٠) لجبرير، وليس في ديوانه.

(٣) بل هو صريح قولهما كما رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (١١/ ٢٦٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٧٢٧/ ٥).

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٠/ ٦٨).

(٥) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٤١٧)، و«معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٤٢٣).

(٦) في (ف): «ويجوز أن المرادين»، وفي (أ): «ويجوز أن يكونوا مرادين».

(٧) ذكره عنه الواحدي في «البيسط» (١٠/ ٢٣١)، وذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٢/ ٣٣١) عن الكلبي، فلعله مما رواه الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. وذكر هذا القول أيضاً ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢/ ٥٤٩) عن النقاش. وقد سئل ابن عباس رضي الله عنهما فيما رواه البخاري (٤٦٤٥) عن سورة الأنفال فقال: (نزلت في بدر).

(٨) ذكره عنه الواحدي في «البيسط» (١٠/ ٢٣١).

وقال مقاتل: ﴿وَمَنْ أَتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: الأنصار^(١).

وقال عطاء: المهاجرون والأنصار^(٢).

ومنه من جعل ﴿وَمَنْ أَتَّبَعَكَ﴾ للواحد (ومن) للتبعيض، وهو ما روى الكلبي^(٣) عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الآية نزلت في إسلام عمر رضي الله عنه^(٤)، فإن صح فالآية مكية في السورة المدنية.

(٦٤) - ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ حَرِصُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَدْرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ حَرِصُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾: أي: حُثُّهم ورغبتهم في القتال بذكر ثواب الآخرة، ووجود النصر والظفر في العاقبة.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَدْرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾: ﴿يَكُنْ﴾ هاهنا تام؛ له اسم ولا خبر له^(٥)، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ دُورُ عُسْرٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠]،

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (١٢٤/٢)، و«البيسط» (٢٣٢/١٠). والذي في «تفسير مقاتل» أنه في الآية التي قبلها، وهو قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾.

(٢) ذكره الواحدي في «البيسط» (٢٣٢/١٠) من طريق عطاء عن ابن عباس.

(٣) «الكلبي» ليست في (ف).

(٤) رواه الطبراني في «الكبير» (١٢٤٧٠)، والواحدي في «الوسيط» (٤٦٩/٢ - ٤٧٠). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٨/٧): (فيه إسحاق بن بشر الكاهلي، وهو كذاب). قلت: وليست طريق الكلبي بأصلح من هذه، وقد رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٧٢٨/٥) عن سعيد بن جبير، لكن قال القرطبي في «تفسيره» (٦٧/١٠): (وقع في السيرة خلافه.. وانظر باقي كلامه ثمة، وانظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٣٤٢/١)).

(٥) «له» ليس من (أ) و(ف).

وتقديره: إن يحضر منكم القتال عشرون، وقوله: ﴿صَبِرُوا﴾ نعت للعشرين، وهو خبر بمعنى الأمر؛ أي: ليثبت العشرون للمثنين ولا يؤثوا، فأمر بمقاومة الواحد العشرة، وكان هذا في الابتداء.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: هو كذلك؛ قال ابن عباس رضي الله عنهما: كتب عليهم ألا يفر الواحد من العشرة ثم خفف^(١) عنهم وأمروا ألا يفر الواحد من الاثنين^(٢)، وطريق إثبات الأمر بهذا الخبر: أن ظاهره: إن يصبر العشرون يغلبوا متنين، وتقديره: فاصبروا تغلبوا.

وقوله تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾: الفقه: هو إخراج ما لم يذكر مما ذكر، يعني: أن الكفار إنما يقاتلون على الدنيا لا علم لهم بما وعد الله عليه إذا كان على الحق من الجزاء والعطاء، وأنتم أيها المؤمنون تفقهون وقد سمعتم أئمة المجاهدين وأجزية المقاتلين، فهذا يشجعكم ويثبتكم ويصبر قليلكم على قتال كثير المشركين. وقال محمد ابن إسحاق رحمه الله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾؛ أي: لا يقاتلون على^(٣) بينة وحق، ولا معرفة لخير ولا شر^(٤).

وقال مقاتل بن حيان: لما نزل ﴿حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ قام النبي ﷺ فقال: «من قتل قتيلاً فله كذا ومن أسر أسيراً فله كذا»، وبعث حمزة في ثلاثين راكباً، فلقي أبا جهل لعنه الله في ثلاث مئة راكب، ونزلت هذه الآية، ولما كان يوم بدر خفف الله عنهم^(٥). فذلك قوله تعالى:

(١) في (ف) و(أ): «خففت».

(٢) رواه البخاري (٤٦٥٣).

(٣) في (ف): «عن».

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٦٧٥).

(٥) انظر: «البيضا» (١٠/ ٢٤٤) وعزاه للمفسرين، و«الكشاف» (٢/ ٢٣٥) وعزاه لابن جريج. وانظر =

(٦٦) - ﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾: قرأ عاصم وحمة: ﴿ضَعْفًا﴾ بفتح الضاد، والباقون بضمها^(١)، وهما لغتان كالمكث والمكث.

أي: كان الله عليم منكم في الأزل أنكم تضعفون في هذه الحالة عن مقاومة الواحد العشرة، وكان في أول الأمر لخواص أصحاب النبي ﷺ زيادة استبصار وقوة قلب، فلما اختلط بهم سائر الناس وفيهم من يكون به حبُّ الأهل والولد والمال، وأنه يضعف القلب عن مقاومة الكثير من الكفار، خفف عنهم وفرض أن يقاوم الواحد الاثنين.

وقيل: أي: عليم الآن ضعفكم قد وجد كما كان عليم في الأزل أنه يوجد فخفف عنكم.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ﴾: هذا تقرير^(٢) مقاومة الواحد الاثنين.

قوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: أي: بحكم الله وعلم الله.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾: أي: وإنما يقاوم الواحد الاثنين إذا صبر، والله معين الصابرين وحافظهم.

= قصة سرية حمزة في «مغازي الواقي» (٩/١)، و«السيرة النبوية» لابن هشام (١/٥٩٥).

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٠٨-٣٠٩)، و«التيسير» (ص: ١١٧).

(٢) في (ر) و(ف): «تقدير».

(٦٧) - ﴿ مَا كَانَتْ لِيَنِّي أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يَشِخَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ مَا كَانَتْ لِيَنِّي أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يَشِخَ فِي الْأَرْضِ ﴾:

قال الواقدي: ولما حبس الأسرى بيد استعمل عليهم شقران، فقالوا: لو بعثنا إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه فإنه أوصل قريش لأرحامنا، ولا نعلم أحداً أعظم عند محمد منزلةً منه، فبعثوا إلى أبي بكر رضي الله عنه فأتاهم، فقالوا: يا أبا بكر، إن فينا الآباء والأبناء والأخوال والعمومة وبنى العم، وأبعدنا قريباً، فكلم صاحبك فيمن علينا أو ليفادينا، فقال: نعم إن شاء الله تعالى، لا آلوكم خيراً إن شاء الله، ثم انصرف إلى رسول الله ﷺ.

قالوا: وابعثوا إلى عمر - رضي الله عنه - فإنه من قد علمتم، ولا نأمن أن يفسد عليكم، لعله يكف عنكم، فأرسلوا إليه فجاءهم، فقالوا له مثل ما قالوا لأبي بكر، فقال: لا آلوكم شراً، ثم انصرف إلى النبي ﷺ فوجد أبا بكر والناس حوله، وأبو بكر يلينه ويفقهه^(١) ويقول: يا رسول الله، بأبي وأمي، قومك فيهم الآباء والأبناء والعمومة والأخوال، وأبعدهم منك قريباً فأمّن عليهم من الله عليك، أو فادهم يستنقذهم الله بك من النار فتأخذ منهم ما أخذت قوة للمسلمين.

ثم قام فتنحى ناحيةً، وسكت رسول الله ﷺ فلم يجبه، ثم جاء عمر رضي الله عنه فجلس^(٢) مجلس أبي بكر فقال: يا رسول الله، هم أعداء الله كذبوك وقتلوك،

(١) في (أ): «ويعثاه»، وفي (ر): «ويفقهه»، وليست من (ف). والمثبت من «المغازي»، ومعناه: يسكن

غضبه. انظر: «القاموس» (مادة: فتأ).

(٢) بعدها في (ف): «في»، وليست في «المغازي».

اضرب رقابهم هم رؤوس الكفر وأئمة الضلالة، يوطئ الله بهم الإسلام ويذل بهم أهل الشرك.

فسكت رسول الله ﷺ فلم يُجبه، وعاد أبو بكر رضي الله عنه إلى مجلسه الأول وقال: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، قومك فيهم الآباء والأبناء والأحوال والعمومة، وأبعدهم منك قريب فامنن عليهم أو فادهم، هم عترتك^(١) وقومك، لا تكن^(٢) أول من يستأصلهم، يهديهم الله خير من أن تهلكهم.

فسكت عنه رسول الله ﷺ ولم يرد عليه شيئاً، وقام أبو بكر ناحية وعاد عمر فجلس مجلسه فقال: يا رسول الله، ما تنتظر بهم، اضرب رقابهم^(٣) يوطئ الله بهم الإسلام ويذل أهل الشرك، اشف صدور المسلمين.

فسكت رسول الله ﷺ فلم يجبه، وقام ناحية وجلس، وعاد أبو بكر رضي الله عنه وكلمه بمثل كلامه فلم يجبه، فتنحى ناحية، ثم قام عمر فكلمه بمثل كلامه فلم يجبه.

ثم قام رسول الله ﷺ فدخل قبة فمكث فيها ساعة، ثم خرج والناس يخوضون في شأنهم، يقول بعضهم: القول ما قال أبو بكر، وآخرون يقولون: القول ما قال^(٤) عمر، فلما خرج رسول الله ﷺ قال: «ما تقولون في صاحبيكم هذين؟ دعوهما فإن لهما مثلاً، مثل أبي بكر في الملائكة مثل ميكائيل ينزل بالرحمة، ومثله في الأنبياء كمثله إبراهيم عليه السلام، كان ألين على قومه من العسل، أوقد له قومه النار فطرحوه فيها، فما زاد على أن قال: ﴿أَفِي لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا

(١) قوله: «هم عترتك» من «المغازي»، ووقع بدلاً منها في (أ): «عزتك»، وفي (ر) و(ف): «هم عترتك».

(٢) في النسخ: «تكون»، والمثبت من «المغازي».

(٣) في (ف) و(أ): «أعناقهم».

(٤) في (ف): «قاله».

تَقُولُونَ ﴿[الأنبياء: ٦٧] وقال: ﴿فَمَنْ تَعْبَعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، ومثله ^(١) مثل عيسى إذ يقول: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلَا تُفْسِدْ أَرْضَهُمْ وَإِنْ تُغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، ومثل عمر في الملائكة كمثّل جبريل ينزل بالسخطة من الله والنقمة على أعداء الله، ومثله في الأنبياء كمثّل نوح عليه السلام كان أشدّ على قومه من الحجارة إذ يقول: ﴿لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، فدعا عليهم دعوة أغرق الله بها الأرض جميعاً، وكمثّل موسى إذ يقول: ﴿رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالَهُمْ وَاشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]، وإن بكم عيلة فلا يفوتنكم رجل من هؤلاء إلا بفداء أو ضربة عنق، فقال عبد الله بن مسعود: يا رسول الله، إلا سهيل بن بيضاء فإني رأيتُه يُظهر الإسلام بمكة ^(٢)، فسكت النبي ﷺ، قال عبد الله بن مسعود: فما مرّت عليّ ساعة قطّ كانت أشدّ عليّ ^(٣) من تلك الساعة، فجعلت أنظر إلى السماء أتخوّف أن تسقط عليّ الحجارة لتقدّمي بين يدي الله عز وجل ورسوله بالكلام، فرفع رسول الله ﷺ رأسه فقال: «إلا سهيل بن بيضاء»، فما مرت عليّ ساعة قطّ أقرّ لعيني منها، ثم قال رسول الله ﷺ: «إن الله يشدّد ^(٤) القلب

(١) بعدها في (ف): «أيضاً» وليست في «المغازي».

(٢) جاء في «المغازي» هنا: (قال ابنُ واقدٍ: هذا وهم، سهيل بن بيضاء من مهاجرة الحبشة، ما شهد بدرًا، إنما هو أخ له يقال له سهيل). قلت: وكذا قال ابن سعد في «الطبقات» (٢١٣/٥): (والذي روى هذه القصة في سهيل ابن بيضاء قد أخطأ، سهيل ابن بيضاء أسلم قبل عبد الله بن مسعود ولم يستخف بإسلامه، وهاجر إلى المدينة وشهد بدرًا مع رسول الله ﷺ - مسلمًا لا شك فيه، فغلط من روى ذلك الحديث ما بينه وبين أخيه؛ لأن سهيلًا أشهر من أخيه سهل، والقصة في سهل، وأقام سهل بالمدينة بعد ذلك وشهد مع النبي ﷺ - بعض المشاهد، وبقي بعد النبي ﷺ). قلت: وقد ورد

الاسم على الصواب في رواية الحديث عند الإمام أحمد برقم (٣٦٣٤).

(٣) في (ر): «فما مرّت ساعة عليّ قطّ أشدّ».

(٤) في (ف): «ليشدّد».

فيه حتى يكون أشدَّ من الحجارة، ويلين القلب فيه حتى يكون ألين من الزُّبد»، فقبل رسول الله ﷺ الفداء^(١).

وفي رواية: قال عمر: أرى أن تمكَّنَّا منهم، فتمكَّنَ عليًّا من عقيل حتى يضرب عنقه، وتمكَّنَ حمزة من أخيه العباس حتى يضرب عنقه، حتى يعلم ربُّنا أنه ليس في قلوبنا للكفار هوادة، قال عمر رضي الله عنه: فرضي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر رضي الله عنه، فلما كان من الغد أتيت رسول الله ﷺ فإذا هو وأبو بكر رضي الله عنه يبيكان، فقلت: يا رسول الله! أخبرني من أي شيء تبكيان؟ فإن وجدتُ^(٢) بكاءً بكيتُ، وإن لم أجد بكاءً تباكيتُ، فقال رسول الله ﷺ: «أبكي للذي كان من أصحابك في أخذهم الفداء، ولقد عرض عليَّ عذابكم أدنى من هذه الشجرة» وهي قريبة من رسول الله ﷺ «ولو نجا منه أحدٌ لنجا منه ابنُ الخطاب» فأنزل الله تعالى قوله: ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُنْخَبَ فِي الْأَرْضِ﴾^(٣)؛ أي: يُكثِرُ القتل ويَغلب ويَقهر في أرض العرب.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: أي: وما كان لنبيٍّ أن يأخذ من الأسرى الفداء حتى يغلب في الأرض، حتى إذا أخذ الفداء أو أطلقهم بعدما غلب في

(١) انظر: «مغازي الواقدي» (١/١٠٧ - ١١٠)، ورواه بنحوه دون قوله: «إن الله يشدد...» الإمام أحمد في «المسند» (٣٦٣٢) من طريق أبي عبيدة عن أبيه عبد الله بن مسعود، ورواه أيضاً (٣٦٣٤) ولم يسق لفظه، بل اقتصر على بيان الاختلاف في ابن بيضاء، فجاء فيه: (سهل بن بيضاء) على الصواب، وقد نهينا إليه قريباً. ورواه الترمذي (١٧١٤) و(٣٠٨٤) مختصراً، وقال: حديث حسن وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه.

(٢) في (ر): «أجد».

(٣) رواه مسلم (١٧٦٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. دون قوله: «ولو نجا منه أحدٌ لنجا منه ابن الخطاب». وفيه: «... عرض عليَّ عذابهم...».

الأرض يكون رجوعهم إلى غير منعة وشوكة، وإذا لم يَغلب في الأرض ثم أخذ الفداء يكون رجوعهم إلى منعة، وذلك لا يحل^(١).

وقالوا: هذا عتابٌ للنبي ﷺ بِالطَّفِّ وجهه، فإنه لم يقل له: ما كان لك أن تفعل، بل أخبره أنه لم يجعل لأحد من الأنبياء ذلك؛ أي: لم يشرع لهم، وفي هذا من التعظيم لنبيه ﷺ ما لا خفاء به.

وقوله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾: ولم يقل: تريد - خطاباً للنبي ﷺ -، بل مخاطب الناس.

وقيل: ليس بخطابٍ أيضاً للكل، فإن أبا بكر ومن كان بمثل^(٢) حاله ما أشاروا^(٣) إلى أخذ الفداء رغبةً في المال، بل رجاءً لإسلام الكفار، والأقلُّون منهم رغبوا في المال، فعاتبهم الله تعالى بقوله: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾؛ أي: تختارون المال الذي هو شيءٌ قليلٌ عارضٌ يزول.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾: أي: يختار لكم ثواب الآخرة دون عرض الدنيا.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: إن الله تعالى أراد لأهل بدرٍ الآخرة وثوابها، وهم أرادوا العير وعرض الدنيا، فكان ما أراد الله تعالى لهم لا ما أرادوا^(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾: أي: فأريدوا الآخرة يعزِّكم، ولا تخافوا العدو فإن الله يقهرهم، وهو حكيمٌ فيما يأمر به ويختاره.

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٢٥٨/٥).

(٢) في (أ): «مثل» وفي (ف): «بمثل» بدل: «كان بمثل».

(٣) في (ف): «أشار».

(٤) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٢٦٠/٥)، وفي قوله: (وهم أرادوا العير وعرض الدنيا) نظر، فقد نسب ذلك للجميع دون أن يستثني، وقد ذكر المؤلف الجواب عنه قريباً.

(٦٨) - ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾: قيل: لولا حكم الله في المجتهدين أنه لا يعاقبهم فيما يجوز فيه الاجتهاد لأصابكم فيما أخذتم من الفداء عذاب عظيم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لولا كتاب من الله سبق في تحليل الغنائم لكم لأصابكم العذاب^(١).

وقال الحسن: إن الله تعالى أطعم هذه الأمة الغنيمة، وإنهم أخذوا الفداء من أسارى بدر قبل أن يؤمروا به، فعاب^(٢) الله ذلك عليهم ثم أحله لهم^(٣).

وقال محمد بن إسحاق: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ أني لا أعذب إلا بعد النهي - ولم يكن نهاهم - لعذبتمكم فيما صنعتم^(٤).

وقال سعيد بن المسيب: لولا كتاب من الله سبق لأهل بدر بالسعادة^(٥).

وقال عبد الرحمن بن زيد: سبق من الله العفو عنهم والرحمة لهم^(٦).

(٦٩) - ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٧٧/١١).

(٢) في (أ): «فعاتب»، والمثبت من باقي النسخ و«البيسط».

(٣) انظر: «البيسط» (٢٥٨/١٠)، ورواه الطبري في «تفسيره» (٢٧٦/١١) دون قوله: «فعباب...».

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٦٧٦/١).

(٥) ورواه الطبري في «تفسيره» (٢٨٠/١١).

(٦) ورواه الطبري في «تفسيره» (٢٨١/١١).

وقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾: أي: فقد أحللت لكم الغنائم التي كانت محرمة على الأمم قبلكم فكلوها حلالاً طيباً؛ أي: محللة قد زالت عنكم التبعة والإثم فيه.

وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ما أحلت الغنائم لأحد من سود الرؤوس قبلكم، كانت النار تنزل من السماء فتأكلها»^(١).

وقال علي بن أبي طلحة: كان الله كتب في أم الكتاب: إن الغنائم والأسارى حلال لأمة محمد ﷺ، فأخذوا الغنائم وأسروا الأسارى قبل أن ينزل في ذلك شيء، فأنزل الله تعالى: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فلما نزلت هذه الآية أمسكوا عن مد أيديهم إلى شيء من الغنائم، فنزل: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: في الائتمار بأوامره والانتهاز بنواحيه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ﴾: لما كان منكم قبل هذا ﴿رَحِيمٌ﴾ لم يعاجلكم بالعقوبة، ولا يعذبكم بعد التوبة.

(٧٠) - ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُومٌ لِّمَنِ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرِىءِ إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

(١) ورواه الترمذي (٣٠٨٥) وقال: حسن صحيح.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٧٣٤ / ٥) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس دون قوله:

«فلما نزلت هذه الآية أمسكوا...»، وهذه القطعة ذكرها الواحدي في «البيسط» (٢٦٠ / ١٠) عن

وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُومًا لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى﴾^(١) قرأ أبو عمرو:
﴿من الأسارى﴾ وقرأ الباقون: ﴿مِنَ الْأَسْرَى﴾^(٢).

أمر النبي ﷺ باستمالة الأسارى الذين أخذ منهم الفداء ترغيباً لهم في الإسلام،
فقال: قل يا محمد للأسارى الذين في أيديكم:

﴿إِن يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾: أي: إن يعلم اعتقاد الإيمان والتصديق في قلوبكم
موجوداً كما علمه قبل وجوده أنه يوجد ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ﴾؛ أي: يُعْطِيكُمْ
في الدنيا والآخرة أكثر مما أخذ منكم، وهو قوله تعالى^(٣): ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ذنوبكم^(٤)
﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قال عكرمة: وكان العباس ممن أخذ في الأسارى، فأوثقوه ورسول الله ﷺ
يسمع أنيه، فأمره الله تعالى أن يأخذ منهم الفداء، فأنزل الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُومًا
لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى﴾^(٥) قال رسول الله ﷺ للعباس: «افتد» قال: وبم أفتدي
ولست أملك شيئاً؟ فقال رسول الله ﷺ: «الأربعون ديناراً التي دفعت إلى أم الفضل
يوم خرجت» قال العباس: ومن أخبرك بهذا؟ فوالذي لا يُحلف بأعظم منه ما علم
به^(٦) أحد، فقال رسول الله ﷺ: «أخبرني به ربي» فقال العباس: وربك يعلم ما

(١) في (ف) و(أ): «الأسارى»، بدل: «الأسرى»، وهما قراءتان كما سيرد.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٠٩)، و«التيسير» (ص: ١١٧).

(٣) «وهو قوله تعالى» ليست في (أ).

(٤) «ذنوبكم» ليست في (أ) و(ف).

(٥) في (أ): «الأسارى».

(٦) في (ف): «بها».

تُخْفِيهِ؟ قَالَ: «نعم» فَأَقْرَّ الْعَبَّاسُ وَقَالَ: مَا اسْتَيْقَنْتُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَّا السَّاعَةَ^(١).
 وروي أن فداء كلِّ أسير كان عشرين أوقيةً، وفدى العباس بأربعين أوقيةً عن نفسه وعن ابن أخيه عقيلٍ، قال العباس رضي الله عنه: فأبدلني الله تعالى خيراً منه، ولي اليوم عشرون عبداً إن أدناهم ليضرب بعشرين ألفاً، وأعطاني زمزم ما أحبُّ أن^(٢) لي بها جميع أموال مكة، وإني لأنتظر المغفرة وليس شيء أفضل منها^(٣).

(٧١) - ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا إِخْيَانَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.
 وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا إِخْيَانَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾: قال الحسن: وإن يريدوا خيانتك مرةً أخرى فيرجعوا إلى الكفر بعدما مننت عليهم وأطلقتهم من أسرهم، فخانوك بالقتال لك^(٤) والعون عليك ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾؛ أي: خانوا أوليائه ونقضوا العهد وقاتلوك ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾؛ أي: أمكنك الله منهم؛ أي: أقدرك عليهم^(٥).
 وقال ابن كيسان: ﴿خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾؛ أي: نكثوا ما أعطوا من أنفسهم عند

(١) روى نحوه الإمام أحمد في «المسند» (٣٣١٠) من طريق ابن إسحاق قال: حدثني من لا أتهم عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما، والحاكم في «المستدرک» (٥٤٠٩) - وصححه - من حديث عائشة رضي الله عنها، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ١٤٢) من طريق ابن إسحاق، عن يزيد بن رومان، عن عروة، عن الزهري وجماعة سماهم. ورواه ابن سعد في «الطبقات» (٤/ ١٥) من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

(٢) في (ر): «أن يكون».

(٣) قطعة من خبر الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس عند ابن سعد (٤/ ١٥)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٢٨٤ - ٢٨٧) من طرق أخرى عن ابن عباس دون ذكر إعطائه زمزم.

(٤) «لك» ليس من (أ) و(ف).

(٥) ذكره الواحدي في «البيسط» (١٠/ ٢٦٣).

البلاء من العهد: ﴿لَئِنْ أَجِئْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢] ﴿فَأَمَّا كَنْ مِنْهُمْ﴾^(١) أي: انتقم منهم فعذبهم بك وبالمؤمنين وهم مع صناديدهم ورؤسائهم، فكيف بعد ذهابهم بالقتل؟

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾: بخلقه ما يستحقونه من عقابه ﴿حَكِيمٌ﴾ في حكمه وأمره.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَلِإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾ يعني: العباس وأصحابه في قولهم: نشهد أنك لرسول الله، ولتَنصَحَنَّ لك على قومنا، يقول: إن كان هذا خيانةً فقد خانوا الله من قبل فأمكنك منهم^(٢).

وهذه الآية والتي قبلها في العباس وعقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث، وكان العباس أحد العشرة الذين ضمّنوا إطعام أهل بدر، ولم يكن بلغته النوبة حتى أُسر وأخذت منه عشرون أوقيةً من ذهب كان خرج بها ليطعم الناس، وأُسر قبل الإنفاق وأُخذ منه ذلك المال، فكلم رسول الله ﷺ أن يجعل تلك العشرين أوقيةً من الفداء فلم يفعل، وقال له^(٣): «أما شيء خرجت به تستعين به علينا فلا أتركه لك»، وأضعف عليه الفداء وكلفه فداء عقيل ونوفل، فقال العباس: يا محمد! تركتني أسأل قريشاً الدهر في كفي، فقال رسول الله ﷺ: «فأين الذهب الذي دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك من مكة، فقلت لها: إني لا أدري ماذا^(٤) يصيبني في وجهي هذا، فإن حدث لي حدث فهذا لك ولعبد الله ولعبيد الله وللفضل وقثم؟» يعني: بنيه، فقال له

(١) المصدر السابق.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/٢٨٧).

(٣) «له» زيادة من (ف).

(٤) في (ف) و(أ): «ما».

العباس: وما يدريك؟ قال: «أخبرني به ربي» فقال له العباس: فأنا أشهد أنك صادق، وأشهد^(١) أن لا إله إلا الله وأنت عبده ورسوله، ولم يَطْلُع عليه أحد إلا الله^(٢).

(٧٢) - ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّنَ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾: لما ذمَّ الخائنين الناقضين العهد مدح بعدهم المهاجرين والأنصار الموفين بالعهد فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا﴾ مع رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة ﴿وَجَاهَدُوا﴾ بعد ذلك الكفار ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ مخلصين طالبيين رضا الله، ﴿و﴾ أهل المدينة ﴿الذين آوَوْا﴾ رسول الله ﷺ وأصحابه ونصروهم على أعداء الله^(٣)، فهم طبقة واحدة يجب على كل واحد من الصنفين موالاة الآخر ومواتاته ومواساته ومؤاخاته، وكذا فعل رسول الله ﷺ حين قدم المدينة آخى بين المهاجرين والأنصار، فجعل لكل مهاجريٍّ أخاً أنصارياً، فجَروا على ذلك حتى شاطروا المهاجرين أموالهم ودورهم، وكان يكون لرجل من الأنصار داران فيعرضهما على أخيه من المهاجرين على أن ينزل له عن أيتهما شاء. وابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي وعبد الرحمن بن زيد وجماعة^(٤) حملوا

(١) «أشهد» زيادة من (ف).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (١٢٧/٢)، و«تفسير الثعلبي» (٣٧٤/٤)، و«تفسير البغوي» (٣/٣٧٨).

(٣) في (ف) و(أ): «على أعدائهم».

(٤) «وجماعة» ليس من (ف).

هذه الولاية على الورثة، وقالوا: كان التوارث في الابتداء بهذه المؤاخاة دون القرابة إذا لم يكن معها هجرة، فكان لا يرث المهاجر من^(١) غير المهاجر ولا غير المهاجر من المهاجر وإن كانا قرييين، حتى كان يوم فتح مكة فسقطت فريضة^(٢) الهجرة ونزلت آية الموارث بالقرابات^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾: أي: لا يلزمكم موالاتهم، ولا يجري التوارث بينكم وبينهم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَسْنَصِرْكُمْ فِي الَّذِينَ فَعَلْتُمْ النَّصْرُ﴾: أي: الذين آمنوا وأقاموا في بلدهم أو باديتهم ولم يهاجروا إليكم فقصدهم عدو من الكفار فطلبوا منكم النصر فانصروهم.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَى قَوْمٍ مَبْثُوثٍ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾: أي: قوم من الكفار بينكم وبينهم مودة، فعليكم في هؤلاء الوفاء بالعهد وترك الحرب، ولم يلزمكم نصره الذين آمنوا ولم يهاجروا على هؤلاء.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: أي: بما تعملون من موالاته من يجب موالاته وترك موالاته من لا يجوز موالاته، وهو تحذير عن تعدي حد الشرع في الموالات وتركها.

(٧٣) - ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾.

(١) «من» ليس من (ف).

(٢) في (ف) و(أ): «فريضة».

(٣) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١١ / ٢٨٩ - ٢٩٣)، وقول ابن عباس رواه أبو داود (٢٩٢٤).

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾: أي: لا تتولّوا الكفار فليسوا بأوليائكم بل بعضهم أولياء بعض، وليس معناه أنه يلزمهم أن يتولّى بعضهم بعضاً كما في المسلمين، لكن أريد به نفى الولاية بين الكفار والمسلمين.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾: (إلا) كلمتان: (إن) التي هي للشرط و(لا) التي هي للنفي، وحذفت النون في آخر الفعل للجزم بالشرط.

وقيل: هو متصل بقوله: ﴿فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ... إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: كفر ﴿وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾: تسافك دماء؛ لأن ترك التناصر في الدين يورث ذلك.

وقيل: هو مقرر في موضعه، ويرجع إلى كل ما سبق ذكره، ومعناه: إن خالفتم ما أمرناكم به من التولّي للمؤمنين والتبرّي من الكافرين، ظهر الكفر وترك العمل بالشرائع والتهارج وفساد الدين والدنيا.

وقال عبد الرحمن بن زيد: كان المهاجر المؤمن والمؤمن الذي لم يهاجر لا يتوارثان وإن كانا أخوين مؤمنين، فلما كان يوم فتح مكة وانقطعت الهجرة توارثوا حيثما كانوا بالأرحام، وقال النبي ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح» وقرأ: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾^(١).

(٧٤) - ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٩٦/١١)، وقوله: «لا هجرة بعد الفتح» رواه البخاري (٢٧٨٣)، ومسلم (١٣٥٣)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجْهَهُدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا﴾^(١) أعاد ذكر وصفهم^(١) ليني عليه بيان مدحهم وجزاء فعلهم، وهو قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾: قال ابن كيسان: أي: الذين حققوا إيمانهم بالهجرة والجهاد وبذل الأموال في دين الله.

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾: كما بين في أول هذه السورة الثناء والجزاء لهذه الطائفة، ثم بين الذين يؤمنون ويهاجرون من بعد، وهو قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجْهَهُدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجْهَهُدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾: أي: اللاحقين بحكم^(٢) السابقين، وهم من جملتكم وداخلون في ولايتكم.

وقوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾: أي: بالتوارث، وانتسخ به ما كان من المؤاخاة بين الذين هاجروا والذين آووا ونصروا، وهو نص على توريث ذوي الأرحام عند عدم أصحاب الفرائض والعصابات، وهو حجة لنا على الشافعي رحمه الله فإنه لا يورثهم.

وقوله تعالى: ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾: قال الزجاج: في حكم الله^(٣).

وقيل: في اللوح المحفوظ، وقيل: أي: في القرآن.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾: فيقضي بين عباده بما شاء من أحكامه.

(١) بعدها في (ف): «للني عليه الصلاة والسلام».

(٢) في (ف) و(أ): «حكم».

(٣) ذكره الواحدي في «البيسط» (١٠ / ٢٧٢)، ولم أجده في «معاني القرآن» للزجاج.

وقال الإمام القشيري رحمه الله في قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا﴾ يريد: مَنْ سَلَكَ مَسْلَكَهُمْ فِي الْحَالِ، وَمَنْ سَيَلَحَقَ بِهِمْ فِي الْاِسْتِقْبَالِ، فَالْأُلْفَةُ تَجْمَعُهُمْ، وَالْوَلَايَةُ تَشْمَلُهُمْ، فَلَهُمْ مِنَ اللَّهِ فِي الْعُقْبَى جَزِيلُ الثَّوَابِ، وَالنَّجَاةُ مِنَ الْعَذَابِ، وَفِي الدُّنْيَا الْوَلَايَةُ وَالتَّنَاصُرُ وَالْمُودَّةُ وَالتَّقَارُبُ.

وقال: المؤمن للأجانب مُجَانِبٌ، وَلِلْأَقَارِبِ مُقَارِبٌ، وَالْكَفَّارَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٌ، وَقَدْ قِيلَ:

طِيرُ السَّمَاءِ إِلَى أَلْفِهَا تَقَعُ^(١)

وبالله العون^(٢) والتوفيق.

اللهم بك أَسْتَعِينُ عَلَى الطَّاعَاتِ وَالْقُرْبِ، وَإِلَيْكَ أَلْتَجِيءُ عَلَى تَحْصِيلِ الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ، فَجُزْئِي حَبِيبُكَ وَنَبِيِّكَ الْمُصْطَفَى، وَابْنِ عَمِّهِ وَحَبِيبِهِ الْمُرْتَضَى، أَجْنِي يَا رَبِّ كَمَا تَحِبُّ وَتَرْضَى، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (١/٦٤١). والمذكور عجز بيت كما في «العقد» لابن عبدربه (١٧٩/٢)، وصدره:

وَالْإِلْفُ يَنْزَعُ نَحْوَ الْآلِفَيْنِ كَمَا

(٢) في (ف): «الغوث».

سُورَةُ التَّوْبَةِ

سُورَةُ التَّوْبَةِ

روي ^(١) عن أبي بن كعب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ قرأ سورة الأنفال وبراءة فأنا شفيعٌ له يوم القيامة، وشاهدٌ أنه بريءٌ من النفاق، وأُعطي عشرَ حسناتٍ بعددِ كُلِّ منافقٍ ومنافقةٍ، وكان العرشُ وحملَةُ العرشِ يستغفرون له أيامَ حياته» ^(٢).

وهي مدنية، وآياتها مئة وتسعٌ وعشرون آيةً، وقيل: مئةٌ وثلاثون آيةً، والاختلاف في آيتين: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٣]، ﴿يُعَذِّبُكُم عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [التوبة: ٣٩].

وكلماتها ألفان وأربع مئة وثمان وتسعون، وحروفها عشرة آلاف وتسع مئة وسبعة عشر.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: قلتُ لعثمان بن عفان: ما حملكم على أن عمدتُم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما، ولم تكتبوا بينهما سطر: بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتموها في السبع الطَّوَال؟ فقال عثمان رضي الله عنه: كان النبي ﷺ يأتي عليه الزمان ينزل عليه السورُ ذواتُ العدد، فكان إذا نزل عليه شيءٌ يدعو بعض من يكتب له فيقول له: «ضعوا هذه الآيات في

(١) في (ر) و(ف): «روينا».

(٢) قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور، وقد تقدم الكلام عليه مراراً.

السورة التي يُذكر فيها كذا وكذا»، وكانت الأنفال مما أنزل عليه بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن، وكانت قصتها شبيهة بقصة الأنفال فظننا أنها منها، وقُبض النبي ﷺ ولم يبين لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرئاً بينهما ولم نكتب بينهما بسم الله الرحمن الرحيم، وكانا تُدعيان: القرينتين، فوضعناهما^(١) في السبع الطوال^(٢).

وقال سفيان بن عيينة وقد سئل: لم لم يكتب في صدر براءة بسم الله الرحمن الرحيم؟ قال: إن التسمية رحمة، والرحمة أمان، وهذه السورة نزلت في المنافقين بالسيف ولا أمان للمنافقين^(٣).

وسئل علي بن محمد العلوي الكوفي^(٤) عن ذلك فقال: لأن بسم الله الرحمن الرحيم مفتاح^(٥) سِلم وبركة، وبراءة مفتاح حرب وهلكة، فلم يَجْزِ افتتاح السِّلم والبركة بافتتاح الحرب والهلكة.

وقال ابن كيسان: نزلت براءة على تسع من هجرة النبي ﷺ.

(١) في (ف): «عرضناهم».

(٢) رواه أبو داود (٧٨٦)، والترمذي (٣٠٨٦). وهو حديث تفرد بروايته يزيد الفارسي، ويكاد يكون مجهولاً كما ذكر الشيخ أحمد شاکر في «المسند» (٣٩٩) وقال: فلا يقبل منه مثل هذا الحديث ينفرد به، وفيه تشكيك في معرفة سور القرآن الثابتة بالتواتر القطعي قراءة وسماعاً وكتابة في المصاحف، وفيه تشكيك في إثبات البسملة في أوائل السور، كأن عثمان كان يثبتها برأيه وينفيها برأيه، وحاشاه من ذلك، فلا علينا إذا قلنا: إنه حديث لا أصل له، تطبيقاً للقواعد الصحيحة التي لا خلاف فيها بين أئمة الحديث.

(٣) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١٦٤/١٣).

(٤) لعله علي بن محمد بن جعفر، أبو الحسين العلوي الكوفي الحماني، شاعر من أهل الكوفة، وكان وجه الكوفة في عصره، وبها وفاته، وكان يقول: أنا شاعر وأبي شاعر، إلى أبي طالب، كلهم شعراء. توفي سنة (٣٠١هـ). انظر: «الأعلام» (٤/٣٢٤).

(٥) «مفتاح» من (أ).

وقال الزهري: كان سعيد بن المسيّب يقول: الأنفال وبراءة سورة واحدة^(١).

وقال أبو عطية: كتب إلينا عمر رضي الله عنه: تعلّموا سورة براءة، وعلموا نساءكم سورة النور^(٢).

وقال البراء بن عازب: آخر سورة أنزلت كاملة سورة براءة^(٣).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كانت براءة تسمّى: الفاضحة، على عهد رسول الله ﷺ، فضحت أقواماً يومَ النحر - وهو الحجُّ الأكبر - بما أنزل الله من شؤونهم^(٤)، وما كانوا يكتُمون من غشِّ النبي ﷺ^(٥).

ومن المفسرين من سماها بسبعة أسماء: سورة التوبة، والمبعثرة؛ أي: المظهرة لأسرار المنافقين، من قوله: ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ [العايات: ٩]، والفاضحة، والمنكّلة، والمشرّدة، والمخزّية من قوله تعالى: ﴿وَيُخْزِيهِمْ﴾ [التوبة: ١٤]، والمدمّمة وهي المهلكة.

(١) ذكره الواحدي في «البيسط» (١٠/ ٢٧٩ - ٢٨٠).

(٢) رواه سعيد بن منصور في «سننه» (١٠٠٤ - تفسير)، والبيهقي في «الشعب» (٢٤٣٧).

(٣) رواه البخاري (٤٣٦٤)، ومسلم (١٦١٨).

(٤) في (ف) و(أ): «سواتهم».

(٥) لم أجده بهذا اللفظ، وروى البخاري (٤٨٨٢)، ومسلم (٣٠٣١) عن سعيد بن جبير، قال: قلتُ

لابن عباس: سورة التوبة، قال: التوبة؟ هي الفاضحة، ما زالت تنزل: ومنهم ومنهم، حتى ظنّوا أنّها لن تبقى أحداً منهم إلّا ذكّر فيها.

سُورَةُ التَّوْبَةِ

(١) - ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: أي: هذه براءة؛ أي: انقطاع عصمة من الله ورسوله ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾؛ أي: ملقاة إلى المشركين الذين عاهدتموهم.

(٢) - ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾: أي: قل لهم: ﴿فَسِيحُوا﴾؛ أي: سيروا على مهل على الأمان من القتال أربعة أشهر من هذا الوقت إلى تمام هذه المدة، وكان الذين لهم عهد مع رسول الله ﷺ على أنواع: منهم: مَنْ بَقِيَ مِنْ مَدَّتِهِ أَكْثَرُ مِنْ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ.

ومِنْهُمْ: مَنْ بَقِيَ قَدْرُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ.

ومِنْهُمْ: مَنْ بَقِيَ أَقَلُّ مِنْ ذَلِكَ.

فجعل الكل على مدة أربعة أشهر، وكان هذا فضلاً من الله جلَّ جلاله حيث لم يأمر بمباغتهم^(١) بالحرب ليُنْظَرُوا ولا يَحْتَجُّوا بشيء.

(١) في (ر): «بمباغتهم».

وقال محمد بن إسحاق: هم صنفان من المشركين:

أحدهما: كليب، كانت مدة عهدهم أقل من أربعة أشهر، فأمهلوا بالسياحة تمام أربعة أشهر.

والآخر: خزاعة، وكان مدة عهدهم سنتين، فقصّر على أربعة أشهر، وهم حرب بعد ذلك يُقتلون حيثما أدركوا، ويؤسرون إلى أن يؤمنوا.

وقال الكلبي: إنما كانت أربعة الأشهر^(١) لمن كان عهده دون أربعة الأشهر، فأتم له أربعة الأشهر، ومن كان عهده أكثر من ذلك بقي حقهم بقوله: ﴿فَاتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مَدَّتِهِمْ﴾^(٢).

وقيل: التأجيل^(٣) بأربعة الأشهر^(٤) لمن نقض العهد، فأما الذي لم ينقض ولم يظهر أحداً على المؤمنين فقد أمر بإتمام العهد بينه وبينهم إلى مدته بقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾.

وقال محمد بن كعب: بعث رسول الله ﷺ أبا بكر رضي الله عنه أميراً على الموسم سنة تسع بالبراءة، ثم أتبعه علياً رضي الله عنه^(٥).

قال جابر رضي الله عنه: كنت مع علي رضي الله عنه حين أتبعه رسول الله ﷺ

(١) في (ر): «الأربعة أشهر» وفي (ف): «أربعة أشهر».

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٠٤٣)، والطبري في «تفسيره» (٣١١ / ١١)، والثعلبي في «تفسيره» (٦ / ٥).

(٣) من قوله: «فأتم له أربعة الأشهر...» إلى هنا من (أ).

(٤) في (ر): «أربعة أشهر»، وفي (ف): «دون الأربعة أشهر».

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (٣٠٩ / ١١).

أبا بكرٍ، فلما كان بالعَرَجِ^(١) ثَوَّبَ لصلاة الصُّبح، فلَمَّا استوى أبو بكرٍ رضي الله عنه ليكبَّرَ سمع الرِّغاء، فوقف وقال: هذا رُغاءُ ناقةِ رسول الله ﷺ الجدعاء، لقد بدا لرسول الله ﷺ في الحجِّ، فإذا عليها عليُّ رضي الله عنه، فقال أبو بكرٍ رضي الله عنه: أميرُ أم رسول؟ قال: لا بل رسول^(٢) أرسلني رسول الله ﷺ براءةً أقرؤها على الناس في مواقف الحج، فقَدِمَا مكة، فلما كان قبلَ التروية بيوم قام أبو بكرٍ رضي الله عنه فخطب الناس وحدثهم عن مناسكهم، ثم قام عليٌّ فقرأ ثلاثين أو أربعين آيةً من براءة^(٣). وأَجَّلَ المشركين أربعةَ أشهر.

وفي رواية: كان ذلك يومَ عرفة، وأَجَّلَ المشركين عشرين من ذي الحجة والمحرمَ وصفرًا وشهرَ ربيع الأول وعشرًا من شهر ربيع الآخر^(٤)، ونادى الناس في منازلهم: لا يدخل الحرم إلا مؤمنٌ، ويُنْتَمُ إلى كل ذي عهدٍ عهدُهُ، ولا يحج بعد العام مشركٌ، ولا يطوف بالبيت عُرْيَان^(٥).

وقال الزهري: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ نزلت في شوال، فهي أربعة الأشهر: شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم^(٦).

(١) في هامش (أ): «العرج بسكون الراء من مراحل طريق مكة».

(٢) «لا بل رسول» من مصادر التخريج، ووقع في النسخ بدلًا منه: «بلى».

(٣) رواه الدارمي في «سننه» (١٩١٥)، والنسائي (٢٩٩٣)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٦٤٥). وتكرر في الحديث ذكر خطبة أبي بكرٍ وقيام عليٍّ بقراءة براءة أربع مرات: قبل يوم التروية بيوم، ويوم عرفة، ويوم النحر، ويوم النفر الأول.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٣٠٩/١١) عن محمد بن كعب القرظي، ورواه بنحوه أبو عبيد في «الأموال» (٤٤٩)، والطبري في «تفسيره» (٣١٠/١١)، عن مجاهد.

(٥) رواه الإمام أحمد في «مسنده» (٧٩٧٧)، والنسائي (٢٩٥٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٠٤١)، والطبري في «تفسيره» (٣١٠/١١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٧٤٧/٦).

وعلى هذا التخريج يكون هذا قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾^(١).

وقال مقاتل: نزلت في ثلاثة أحياء من العرب: خزاعة ومنهم هلال بن عويمر، وبنو مدلج منهم سراقبة بن مالك بن جُعْشُم الكنانيّ، وفي بني خزيمة بن عامر^(٢)، وهما حيّان من كنانة كان النبي عليه السلام عاهدهم عشر سنين بالحديبية، فجعل الله عز وجل أجلّ الذين كانوا في العهد أربعة أشهر من يوم النحر إلى عشر من شهر ربيع الآخر^(٣). وقيل: ولمّا ضربت لهم مدّة قالوا: نسيح في الأرض^(٤) في المدة على أمان ثم نحتال فممتنع. [فتزل]^(٥) قوله تعالى:

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّهُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾: أي: فائتي الله؛ أي: لا تقدرون أن تغتوا فتخرجوا عن قبضة قدرته تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾: أي: واعلموا أن الله يخزيكم فيذلّكم ويفضّحكم.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: وإن قطع عنهم [الوصلة فقد] ضرب لهم مدّة على وجه المهلة، على أنهم إن أقبلوا عن الضلال وجدوا في المال ما فقدوا من الوصال، وإن أبوا إلا التماسي في ترك الخدمة والحرمة انقطع ما بينه وبينهم من العصمة.

(١) بعدها في (أ): «واحدًا». وانظر ما سيأتي عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾.

(٢) قوله: «وفي بني خزيمة بن عامر» من «تفسير مقاتل»، ووقعت العبارة في النسخ: «ومن بني خزيمة وعامر».

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (١٥٦/٢).

(٤) «في الأرض» من (ف).

(٥) ما بين معكوفتين من «تفسير ابن كمال باشا» عند هذه الآية.

ثم ختم الآية بما معناه: إن أصررتم على قبيح آثاركم مشيتم إلى هلاككم
بقدمكم، وسعيتم في عاجلكم في إراقة دمكم، وحصلتم في أجلكم على ندمكم،
فما خسرتم إلا في صفقتكم، وما جرّ حينكم^(١) سواكم:

تبدلت وتبدلنا وأخسرنا من ابتغى عوضاً يسلي فلم يجد^(٢)

(٣) - ﴿وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ
وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ حَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ
كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: قال ابن زيد والزهج: أي: إعلام من الله
لكم يا معشر المسلمين^(٣)، فليؤذن به بعضكم بعضاً فقد أمرت رسولي بإعلامكم.
﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ هو ﴿وَرَسُولُهُ﴾: ورفع ﴿وَرَسُولُهُ﴾
بإضمار هو، وقرأ عيسى بن عمر: (ورسوله) نصباً عطفاً على قوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾^(٤)،
وقرأ الحسن: (ورسوله) بالخفض على معنى القسم^(٥).

وقيل: إن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ بالخفض فقال: إن كان الله بريئاً من رسوله فأنا

(١) في (أ): «حن حينكم»، وفي (ف): «جر حينكم».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (٦/٢). والبيت لأبي الفرج عبد الواحد بن نصر بن محمد المعروف
بالبيغاء. انظر: «تاريخ دمشق» (٣٧/٢٨٨).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/٣٢١) عن ابن زيد، وانظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/٤٢٩).

(٤) انظر: «تفسير الثعلبي» (٥/١١)، و«المحرر الوجيز» (٣/٧)، و«زاد المسير» (٣/٣٩٧).

(٥) انظر: «تفسير الثعلبي» (٥/١١). قال السمين في «الدر المصون» (٩/٦): هذه القراءة يبعد صحتها
عن الحسن للإبهام.

بريء منه أيضاً، فأخذ الرجل بتبليبه وجاء به إلى عمر رضي الله عنه، فقصّ الأعرابي قراءته، فعند ذلك أمر عمر بتعليم العربية^(١).

يقول: أَعْلِمُوا هَذَا، فَقَدْ أَعْلَمْتُ الْمَشْرُكِينَ ذَلِكَ بِقَوْلِي: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: وإعلامٌ لأهل العهد من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء ممن يعدل به غيره ورسوله أيضاً بريء منه^(٢).

وقال القشيري رحمه الله: بَرِحَ الْخِفَاءُ^(٣) فليس لهم ولاء، إذ لم يكن منهم [بما عقدوا] وفاء، فليعلم^(٤) الكافة أنهم أعداء:

أشاعوا لنا في الحي أشنع قصة وكانوا لنا سلماً فصاروا لنا حرباً^(٥)

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ بُشِّئْتُمْ﴾: أي: رجعتُم يا أهل مكة من الكفر ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في الدنيا والآخرة، تنجون به من السيف في الدنيا ومن العذاب في العقبى.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾: أي: أبيتُم إلا عبادة الأوثان، وأعرضتُم عن الإيمان، ودمتُم على هذا التولي والخذلان^(٦) ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾: أي: غير فائتيه.

وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: أي: أعلمهم بذلك، فكان بشارَةً للمؤمنين والمطيعين بالثواب، والكافرين بالعذاب^(٧).

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٥ / ١١).

(٢) «منه» ليست في (أ) و(ف).

(٣) أي: وضع الأمر وزالت خفيته. انظر: «أساس البلاغة» (مادة: برح).

(٤) في (أ) و(ر): «فَاعْلَمَ»، والمثبت من (ف) و«اللطائف».

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» (٧ / ٢)، وما بين معكوفتين منه.

(٦) «والخذلان» ليست في (أ) و(ف).

(٧) «والكافرين بالعذاب» ليس في (أ) و(ف).

والحج الأكبر هو الحج، والحج الأصغر هو العمرة.

وفي يوم الحج الأكبر اختلاف:

قال عليّ وابن عباس وأبو هريرة وعبد الله بن عمر وابن أبي أوفى والمغيرة بن شعبة وابن مسعود وجماعة من التابعين رضوان الله عليهم أجمعين: هو يوم النحر^(١)، وابن عمر والمغيرة رضي الله عنهما رَوَيَا ذلك عن النبي ﷺ؛ لأن الركن في باب الحج الوقوف بعرفة وطواف الزيارة، ويجوز الوقوف بعرفة في ليله، ويجب طواف الزيارة في نهاره، ويقع أعمال كثيرة فيه من إراقة الدماء والحلق والرمي، وفيه يحلّ المحرم.

وقال عمر، وابن عباس في رواية، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر، وجماعة من التابعين: هو يومُ عرفة^(٢)؛ لقول النبي ﷺ: «الحجُّ عرفة»^(٤)، وبفوات الوقوف بعرفة فوات^(٥) الحج.

وقال مجاهد: هو أيام الحج كلها^(٦)؛ لأن أفعال الحج تؤدّى فيها، ويطلق اليوم على الأيام لأنه جنس.

(١) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١١/ ٣٢٤ - ٣٣٥). ورواه عن علي والمغيرة وابن أبي أوفى أيضاً سعيد بن منصور في «سننه» - التفسير - (١٠٠٧) و(١٠٠٨) و(١٠٠٩).

(٢) رواه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أبو داود (١٩٥٤)، وابن ماجه (٣٠٥٨)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ٣٢٤ - ٣٣٥)، وعلقه البخاري عقب الحديث (١٧٤٢). ولم أجده مرفوعاً عن المغيرة.

(٣) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١١/ ٣٢١ - ٣٢٤).

(٤) رواه أبو داود (١٩٤٩)، والترمذي (٩٠٤)، وابن ماجه (٣٠١٥)، من حديث عبد الرحمن بن يعمر الديلي رضي الله عنه.

(٥) في (أ): «فوت».

(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٣٣٥ - ٣٣٦).

وقال محمد بن سيرين: الحج الأكبر: العام الذي حج فيه رسول الله ﷺ، اتفق فيه حج الملل^(١).

(٤) - ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: قيل: الاستثناء من الأمر بسياسة أربعة^(٢) أشهر، ولهم تمام مدتهم.

وقال الزجاج: الاستثناء من براءة الله ورسوله إلى المشركين^(٣).

وقيل: من قوله: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

والصحيح: أنه استثناء منقطع بمعنى: لكن، والبراءة والإنذار بالعذاب في حق كل الكفار، وتقديره: لكن الذين عاهدتم من المشركين ﴿ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا﴾؛ أي: لم يطعنوا في دينكم ولم يدلُّوا على عوراتكم ولم يسعوا في نقيصة أمركم ﴿يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾؛ أي: لم يعاونوا عليكم عدوًّا ﴿فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ فَإِنَّ حِفْظَ الْعَهْدِ تَقْوَىٰ، قال الله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾: أي: الحافظين العهد.

(١) ذكره عن ابن سيرين النحاس في «معاني القرآن» (٣/ ١٨٣)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ١٢).

ورواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٣٣٧) عن الحارث بن نوفل.

(٢) «أربعة» ليس من (أ) و(ف).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٤٣٠).

والآية نزلت في بني ضَمْرَةَ وبني كنانة، وكان بقي لهم من مدتهم تسعة أشهر. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: مدة مَنْ كان له عهدٌ من المشركين قبل أن تنزل براءةُ أربعة أشهر من يوم أُذِنَ بالبراءة إلى العاشر من شهر ربيع الآخر، فذلك أربعة أشهر، فإن نقض المشركون عهدهم وظاهروا عدوًّا فلا عهدَ لهم، وإن وفوا بعهدهم الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ ولم يظاهروا عليه عدوًّا فقد أمر بأن يفِي عهدهم^(١).

(٥) - ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمَ﴾: قال الحسن: أي: خرجت ومضت هذه أربعة الأشهر^(٢) التي قال: ﴿فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ لسائر المعاهدين، وتسعة أشهر لبني كنانة، وخمسون يوماً من يوم النحر إلى آخر المحرم لمن لم يكن له عهد، وهو قول مجاهد وعمر بن عبد العزيز ومحمد بن إسحاق وجماعة، وسميت حرماً لأنهم حرّم قتلهم فيها بحكم الأمان^(٣).

وقيل: الأشهر الحرم: رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم. وقد روينا عن الزهري أن نزول براءة كان في أول شوال، فكان يمضي الأربعة الأشهر بمضي شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم، فيكون الأمر بقتلهم عند انسلاخ الأشهر الحرم الثلاثة بعد شوال.

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/٣٤٢).

(٢) في (ر): «الأربعة أشهر».

(٣) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١١/٣٤٥-٣٤٦).

وقوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾: أي: في الحلّ والحرم.

وقوله تعالى: ﴿وَخُذُوهُمْ وَأَخْصِرُوهُمْ﴾: أي: ضيقوا عليهم المسالك، ولا تدعوهم يضربون في البلاد بالتجارة وغيرها.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾: أي: على كلّ مرصد، وفي كلّ مرصد؛ أي: مَرَقِبٍ، والمرصد: الطريق الذي يُرَقَّب فيه العدو؛ أي: في كلّ طريق يُظَنُّ مرورهم فيه ليأخذوهم.

و﴿كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ على هذا منصوبٌ بنزع الخافض.

وقيل: هو نصبٌ على الظرف؛ لأنه مكان القعود.

وهذا كله تبعيد^(١) لهم عن مكة، ومنع لهم عن دخولها والاجتماع مع المسلمين في الحج، وهو تحقيقٌ لِمَا نودي فيهم: لا يحجّ بعد العام مشركٌ.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾: أي: رجعوا عن الكفر^(٢) ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ﴾؛ أي: التزموا هما ﴿فَخَلَّوْا سَبِيلَهُمْ﴾؛ أي: لا تقتلوهم ولا تأسروهم ولا تضيقوا عليهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: غفر لهم كفرهم ومعاصيهم بالإيمان به، ويرحمهم فلا يعدّبهم.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: إذا أسلم الكافر بعد شركه، ولم يقصّر فيما^(٣) وجب عليه من قسَمي فعله وتركه، حصل الإذن في تخلية سبيله وفكّه، قال الشاعر:

(١) في (ف) و(أ): «بتبعيد».

(٢) في (ف): «أي عن الكفر»، وليست في (أ).

(٣) في (ف): «ولم يعص فيما»، وفي (ر): «ولم ينقض مما».

إِنْ وَجَدْنَا لِمَا ادَّعَيْتَ شُهوداً^(١) لَمْ تَجِدْ عِنْدَنَا لِحَقِّ جُحُوداً^(٢)
وَلَمَّا قَرَأَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هَذِهِ الْآيَاتِ قَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: أَرَأَيْتَ لَوْ جَاءَ رَجُلٌ
مُسْتَأْمِنٌ لِيَسْتَمَعَ^(٣) الْقُرْآنَ، أَتَقْتُلُونَهُ؟ قَالَ: لَوْ صَبَرْتُ لَبَيَّنْتُ لَكَ حُكْمَهُ فِيمَا أَنْزَلَ اللَّهُ
تَعَالَى فَإِنَّهُ مَذْكُورٌ فِيمَا أَقْرَأَ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى:

(٦) - ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَا مَنَّهُ
ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾: تقديره: وَإِنْ
اسْتَجَارَكَ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴿فَأَجِرْهُ﴾؛ أَي: إِنْ جَاءَكَ أَحَدٌ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا عَهْدَ لَهُمْ يَسْأَلُكَ أَنْ تُؤْمِنَهُ وَتَكُونَ جَاراً لَهُ مِنْ وَثُوبِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ
حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ وَيَتَأَمَّلَهُ، فَأَجِبْهُ إِلَى ذَلِكَ وَأَجِرْهُ، وَإِنْ جَاءَ وَسَمِعَ وَتَدَبَّرَ وَلَمْ يَوْفِرْ
فَلَا تَقْتُلْهُ فَقَدْ أَمَّنَّهُ، وَلَكِنْ أَوْصِلْهُ إِلَى حَيْثُ يَأْمَنُ عَلَى نَفْسِهِ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿ثُمَّ ابْلِغْهُ مَا مَنَّهُ﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾: أَي: الْكَفَّارُ جَاهِلُونَ مَقْلَّدُونَ
جَارُونَ عَلَى الْإِلْفِ، فَإِذَا التَّمَسَّ سَمَاعَ كَلَامِ اللَّهِ فَأَجِبْهُ فَقَدْ يَكُونُ مُسْتَرْشِداً، فَإِذَا
سَمِعَ وَتَأَمَّلَ زَالَتْ عَنْهُ الشَّبَهَةُ فَأَسْلَمَ، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ وَرَجَعَ إِلَى مَوْضِعِهِ فَلَكُمْ بَعْدَ
ذَلِكَ إِذَا^(٤) وَجَدْتُمُوهُمْ قَتَلْتُمُوهُمْ وَأَخَذْتُمُوهُمْ لِأَنَّكُمْ قَدْ أَعْذَرْتُمْ إِلَيْهِمْ.

وَقَالَ عَطَاءٌ: ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ يَعْنِي: مَا أَعَدَّ اللَّهُ تَعَالَى لِأَوْلِيَائِهِ مِنَ الثَّوَابِ وَلِأَعْدَائِهِ

(١) فِي (ر): «الشُّهُودَا».

(٢) انْظُرْ: «لَطَائِفُ الْإِشَارَاتِ» (٨/٢).

(٣) فِي (أ): «يَسْتَأْمِنُ يَسْتَمَعُ»، وَفِي (ف): «يَسْتَأْمِنُ لِيَسْمَعَ».

(٤) فِي (ف): «إِنْ».

من العقاب، وما افترض الله عز وجل في دينه من الصلاة والزكاة والصوم والحج^(١).

قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فأسمعوهم^(٢) حتى يعلموا.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: إذا استجارك المشرك اليوم لا يُردُّ حتى يسمع كلام الله، فإذا استعاذ المؤمن طول عمره من الفراق متى يُمنع عن سماع كلام الله؟ ومتى يكون في زمرة من يقول لهم: ﴿أَخْشَوْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوا﴾ [المؤمنون: ١٠٨]^(٣)؟

(٧) - ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ﴾ كيف استفهام بمعنى الإنكار؛ أي: لا يكون للمشركين عهد عند الله يأمنون به من عذابه في الآخرة وعهد عند رسوله يأمنون به على أنفسهم عذاب الدنيا من القتل والأخذ.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾: يجوز أن يكون استثناء من المشركين الذين لا عهد لهم، وتقديره: إلا الذين عاهدتم، ويجوز أن يكون بمعنى: لكن؛ أي: لكن الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فلا تنقضوا عهدهم ولا تتعرضوا لهم.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ﴾: أي: على عهدهم ﴿فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾؛ أي: على عهدكم ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: الذين لا ينقضون العهد.

(١) ذكره الواحدي في «البيوط» (٢٩٩/١٠).

(٢) في (أ): «فأسمعهم».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (٩/٢).

وقال السدِّيُّ وابن جريج: هم بنو جذيمة^(١).

وقال محمد بن إسحاق: هم قبائل من بني بكر^(٢) عاهدوا يوم الحديبية^(٣).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هم قريش^(٤).

وقال عبد الرحمن بن زيد: هؤلاء قريش لم يستقيموا، فُضِرَ لهم بعد الفتح أربعة أشهر لِيُسَلِّمُوا أو لِيَلْحَقُوا بأيِّ البلاد شاؤوا، فأسلموا قبل أربعة أشهر^(٥).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في رواية: أنهم بنو ضَمْرَةَ^(٦).

وقال الحسين بن الفضل: هم بنو جذيمة^(٧) وكنانة.

وقال مقاتل: هم خزاعة وبنو مدلج وبنو جذيمة^(٨).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: أي: كيف يستحقُّون أن يُعْطُوا العهدَ وقد نقضوا العهود التي^(٩) بينهم وبين ربهم، وهو عهد الخلقة؛ إذ في خلقة كلِّ أحدٍ الشهادة على وحدانية الله تعالى وألوهيته، ونقضوا ما عهد إليهم في كتبهم من إظهار

(١) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (١١/ ٣٥٠).

(٢) في (ر) و(ف): «كنانة»، والمثبت من (أ) والمصادر.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٣٥١)، وهو في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٥٤٤).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٣٥١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٤٩).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٣٥٢).

(٦) ذكره عن ابن عباس ابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٤٠٠)، وذكره الماوردي في «النكت

والعيون» (٢/ ٣٤٢) عن الكلبي، فلعل خبر ابن عباس من طريق الكلبي عن أبي صالح عنه.

(٧) في (ر): «خزيمة».

(٨) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ١٥٨).

(٩) في (ف): «العهد الذي».

صفة محمد ونعته^(١) للخلق، ونقضوا العهود التي بينهم وبين رسول الله ﷺ ولم يحفظوها، فكيف يستحقون أن يعطوا عهداً مع هذا، إلا أن الله عز وجل بفضلِه أذن أن يُعطوا العهود، وما استقاموا لكم بالوفاء بالعهد فاستقيموا لهم بذلك^(٢).

وقال القشيري رحمه الله: كيف يكون المفلس في عرفانه كالمخلص في إيمانه؟ وكيف يكون المحجوب عن شهوده كالمستهلك في وجوده؟ ﴿فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾: إن تمسكوا بحبل وفائنا أحللتناهم في ظلٍّ ولأئنا، وإن زاغوا عن عهدنا ابتليناهم بصدتنا، ثم لم يبرحوا على بُعدنا^(٣).

وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾: فيه إضمار؛ أي: كيف يكون لهم عهدٌ وهم إن يظفروا بكم ويغلبوكم، وهو كقوله عز وجل: ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

وقوله تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ﴾: أي: لا يحفظوا ﴿الْأَوَّلَ ذِمَّةً﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: الإل: القرابة، والذمة: العهد^(٤).
وقال عبد الرحمن بن زيد: كلاهما العهد^(٥).
وقال مجاهد: الإل القرابة، والذمة الميثاق^(٦).

(١) في (ر) و(ف): «وبعته»، والمثبت من (أ) و«اللطائف».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٣٠٤/٥).

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (١٠/٢)، وفيه: «ثم لم يربحوا في بعدنا»، وفي (أ): «ثم لم يربحوا على بعدنا».

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٣٥٥/١١-٣٥٦).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (٣٥٧/١١).

(٦) لم أجده عن مجاهد، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٧٥٨/٦) عن السدي بلفظ: ﴿الْأَوَّلَ ذِمَّةً﴾: عهداً ولا قرابة ولا ميثاقاً.

وقال قتادة: الإل: الحلف، والذمة: العهد^(١).

وقال الحسن: الإل: الجوار^(٢).

وقال أبو عبيدة: الإل: اليمين^(٣)، وهو مأخوذ من الأليل وهو البريق^(٤) واللمعان.

وقال الزجاج: أصله التحديد، من الآلة؛ أي: الحربة^(٥).

وقال المبرّد: كرّر لَمَّا اختلف اللفظان وإن كان معناهما واحداً، وهو كقوله:

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾، وكما قال الشاعر:

وَأَلْفَى قَوْلَهَا كَذِباً وَمِيناً^(٦)

وقوله تعالى: ﴿يَرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾: بحسن القول ﴿وَتَأْتِي قُلُوبُهُمْ﴾ التصديق

﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾: عاصون ناقضون العهد.

(٩) - ﴿أَشْتَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٣٥٧/١١).

(٢) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٣٤٣/٢)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٤٠٢/٣).

(٣) انظر: «مجاز القرآن» (٢٥٣/١).

(٤) في (ر): «البرق».

(٥) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤٣٤/٢).

(٦) عجز بيت لعدي بن زيد، وهو في «ديوانه» (ص: ١٨٣)، وصدره:

وَقَدَّمَتِ الْأَدِيمَ لِرَاهِشِيهِ

وهذا القول ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٤/٥) وعزاه للسدي وابن زيد وأحد قولين عن مجاهد،

ولم يرتضه الآلوسي فقال: ويأباه إعادة (لا) ظاهراً فليس هو نظير: فألفى قولها كذباً وميناً، فالحقُّ

المغايرة بينهما. انظر: «روح المعاني» (٢٣٧/١٠).

وقوله تعالى: ﴿أَشْرَوْا بِعَايَةِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَفَضَّدُوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾: قال عطاء: كان أبو سفيان يعطي الناقة والطعام ليصد الناس بذلك عن متابعة النبي ﷺ^(١). وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: أي: أعمالهم هذه في نهاية السوء. وقال القشيري رحمه الله: مَنْ رضي من الله بغير الله أرخص في صفقته فخير في تجارته، فلا له بما أثر على الله استمتاع، ولا فيما دونه له إقناع، بقي عن الله ولم يستمتع بغير الله، ألا ذلك هو الخسران المبين^(٢).

(١٠) - ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وِلَادَةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾. وقوله تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وِلَادَةً﴾: قد فسرناه، والأول في صفة^(٣) ناقضي العهد، والثاني في صفة المشتريين بآيات الله ثمناً قليلاً. وقيل: الأول على الخصوص لأنه قال: ﴿فِيكُمْ﴾، والثاني على العموم لأنه قال: ﴿فِي مُؤْمِنٍ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾: أي: المجاوزون حدود الله تعالى، وهذا حث على قتالهم لسوء أعمالهم، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَعَدَّيْ عَلَيْكُمْ فَأَعِدُّوا عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٩٤].

(١١) - ﴿إِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخِذْوا مِنْهُمْ فِي الدِّينِ وَنَفَصِلْ أَلَايَتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٥/٥)، والواحدي في «البيوط» (١٠/٣١٠).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (١١/٢).

(٣) «صفة» ليس من (أ) و(ف).

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾: أي: من الشرك ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾؛ أي: قبلوهما ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾؛ أي: فهم إخوانكم في الإسلام، وقد زالت المعادة، وارتفعت المقاتلة والمباراة.

وقوله تعالى: ﴿وَنُفِصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾: أي: نبينها للذين يعملون بعلومهم.

(١٢) - ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَنَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَتَلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَنَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾: أي: نقضوا ﴿وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾؛ أي: عابوه ﴿فَقَتَلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ﴾ ونقض العهد كافٍ لإباحة القتل، ولكن ذكر الطعن في الدين لزيادة تحريك المؤمنين على قتالهم.

وقيل: معناه: وإن نكثوا أيمانهم بطعنهم في دينكم، ويذكر الفعلان بواو بينهما والثاني تفسير^(١) الأول، كقولك: استخف فلان بحقي وردني عما طلبت إليه.

وقوله تعالى: ﴿فَقَتَلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ﴾: أي: قاتلوهم فإنهم أئمة الكفر؛ أي: المقتدى بهم والمتبعون^(٢)؛ لأنه قيل: أريد به بنو بكر الذين عدوا على خزاعة فأعانتهم قريش فانتقض عهدهم وغزاهم لذلك رسول الله ﷺ، وهم كلهم قريش وأشياعهم، وبهم كان يقتدي سائر المشركين.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ﴾: أي: لأنهم^(٣)، وقرأ ابن عامر: ﴿لا إيمان لهم﴾ بكسر الألف، وله وجهان:

(١) في (أ) و(ر): «غير»، والمثبت من (ف) وهو الصواب.

(٢) في (أ): «والمتبعون».

(٣) «أي: لأنهم» ليس في (ف).

- أحدهما: إنهم لا إيمان لهم بالله بل هم كفار.
- والثاني: أنه إعطاء الأمان^(١)؛ أي: لا تُعطوهم الأمان فإنهم لا يستحقون ذلك.
- وقرأ الباقون بفتح الألف وهي جمع اليمين^(٢)؛ أي: لا عهود لهم ولا أقسام.
- وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾: أي: قاتلوهم لينتَهُوا عن الطعن في دينكم،
 و(لعل) كلمة ترجّح؛ أي: قاتلوهم مؤمّلين انتهاءهم، ناوين بقتالكم ردّهم عن الكفر.
- وقيل: أي: لا تستنكروا نكثهم فلا ثقة بأيمانهم.
- وقال ابن جريج: أئمة الكفر: رؤساء^(٣) قريش - وكذا قال الضحّاك والسدي^(٤) -
 نكثوا^(٥) العهد وعملوا في إخراج الرسول.
- وقال مقاتل: أئمة الكفر: أبو سفيان والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو
 وعكرمة بن أبي جهل، نقضوا العهد الذي كان بينهم بالحديبية^(٦).
- ولا يصح ما روي عن الكلبي عن ابن عباس رضي الله عنهم: أنهم أبو جهل وعتبة
 وشيبة وأمّية بن خلف ونظراؤهم^(٧) = لأنهم قتلوا يوم بدر، وهذه الآيات نزلت في فتح مكة.
-
- (١) أي: يراد المصدر من قولك: آمنته فأنا أومنه إيماناً، تريد: أماناً. انظر: «معاني القرآن» للفراء (٤٢٥/١)، و«تفسير الطبري» (٣٦٦/١١).
- (٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣١٢)، و«التيسير» (ص: ١١٧).
- (٣) في (ف): «رؤساء».
- (٤) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (٣٦٤/١١).
- (٥) في (أ): «ونقضوا».
- (٦) انظر: «تفسير مقاتل» (١٥٩/٢).
- (٧) لم أجد، وقد روي أيضاً عن غير ابن عباس، رواه الطبري في «تفسيره» (٣٦٣/١١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٧٦١/٦)، عن قتادة. وذكره أبو حيان في «البحر» (٢٠٧/١١) ثم تعقبه =

(١٣) - ﴿أَلَا تَقُولُونَ قَوْمًا نَزَكُوا أَيْمَنَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُكُمْ أُولَئِكَ مَرَّةً أَخَشَوْهُمْ فَاَللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا تَقُولُونَ قَوْمًا نَزَكُوا أَيْمَنَهُمْ﴾: وهذا تحريك لهم على قتال هؤلاء، وهو استفهام بمعنى الإغراء، وهؤلاء القوم هم قريش؛ أي: نقضوا أيمانهم التي كانت بالحديبية وأعانوا أعداءكم بني بكر على حلفائكم خزاعة.

﴿وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ من مكة، وهو قوله تعالى: ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠] وقوله: ﴿مَنْ قَرِينِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ﴾ [محمد: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ [الإسراء: ٧٦].

وقوله عز وجل: ﴿وَهُمْ بَدَءُكُمْ أُولَئِكَ مَرَّةً﴾ قال مجاهد: نقضوا العهد بإعانة بني بكر على خزاعة^(١).

وقال آخرون: بدؤوكم بقتال بدر؛ لأن النبي ﷺ خرج للغير، والكفار بعد إحراز^(٢) الغير لم ينصرفوا وقالوا: نخرج إلى بدر فنشرب بها الخمر وتعزف علينا القينات^(٣) وتهابنا العرب، فكانوا هم البادئين.

وقوله تعالى: ﴿أَخْشَوْهُمْ﴾: استفهام بمعنى النهي ﴿فَاَللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: الإيمان يوجب الخشية من الله تعالى في مخالفة أمره، فلا مدفع لحكمه ولا مرد لقضائه، وأنتم مؤمنون فحققوا شرط إيمانكم، وهذا أبلغ تحريك وتشجيع.

= بقوله: وهذا ضعيف إن لم يؤخذ على جهة المثل، لأن الآية نزلت بعد بدر بكثير. وقد ذكر الثعلبي في «تفسيره» (١٦/٥) عن ابن عباس نحو قول مقاتل الذي تقدم قريباً.

(١) رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (٣٦٨/١١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٧٦١/٦).

(٢) في (ر): «أخذ».

(٣) في (أ): «القنان»، وفي (ف): «القيان».

(١٤ - ١٥) - ﴿فَتَلَوُهمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَصْرِكُمْ عَلَيْهِمْ وَيُشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيَذْهَبُ غِيْظُ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَتَلَوُهمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَصْرِكُمْ عَلَيْهِمْ وَيُشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيَذْهَبُ غِيْظُ قُلُوبِهِمْ﴾: أمرهم بقتال المشركين، ووعد عليه هذه الأشياء، وجزم كلها لأنه جزاء عليه.

وقوله تعالى: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾: رفع؛ لأنه مبتدأ غير معطوف، ولكنه متصل بالأول معنى؛ أي: ومن فوائد القتال أنه يتوب بسببه بعض من تأمل فيه.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾: لا يكون عليه خفاء ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يلحقه خطأ، ﴿عَلِيمٌ﴾ بما كان منهم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما ^(١) أمر فيهم.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: شفى ^(٢) صدور المؤمنين على حسب مراتبهم في الدرجات والمقامات، فمنهم من شفاء صدره في قهر عدوه، ومنهم من شفاء صدره في نيل مرجوّه، ومنهم من شفاء صدره في الظفر بمطلوبه، ومنهم من شفاء صدره في لقاء محبوبه، ومنهم من شفاء صدره في درك مقصوده، ومنهم من شفاء صدره في البقاء بمعبوده ^(٣)، وكذلك ذهاب غيظ قلوبهم تختلف أسبابه وتنوع أبوابه، ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ حتى يكون استقلاله بمحوّل الأحوال لا بصفاء الأحوال ^(٤).

(١) في (ف) و(أ): «بما».

(٢) في (ف) و(أ): «شفاء».

(٣) في (أ): «بقاء معبوده» وفي (ر) و(ف): «في لقاء معبوده»، والمثبت من «اللطائف».

(٤) في (أ): «لا بصفات الأحوال»، وهذه الجملة ليست في «اللطائف». انظر: «لطائف الإشارات»

(١٦) - ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَةً وَاللَّهُ خَيْرُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا﴾: أي: أظننتُمْ أن تُتركوا على ما أظهرتُم من الإيمان باللسان^(١) ولا تُبْتَلَوْنَ بالقتال.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾: أي: لم يوجد منكم جهادُ المشركين، ولو وُجد لعلمه الله تعالى موجوداً؛ لأن الله يعلم في الأزل ما يوجد أنه يوجد، ويعلمه موجوداً حين يوجد، لأنه جل وعلا يعلم كل شيء على ما هو به، وقد قرَّناه في سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وفي سورة آل عمران في قوله: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَةً﴾: عطف على ﴿جَاهَدُوا﴾؛ أي: ولم يعلم الله الذين جاهدوا منكم ووالوا الله ورسوله والمؤمنين ولم يتولوا غير الله ورسوله والمؤمنين ولم يتَّخذوا من دون الله أولياء و^(٢) خواصَّ. والوليعة: البطانة الخاصة، من الولوج وهو الدخول، وَلِيَجُتَّكَ: صديقك الذي تُطْلعه على ما في داخل قلبك.

وصفة المؤمن المخلص ألا يتَّخذ بطانةً من الكفار، ولا يتولَّى غير الرسول والمؤمنين الأبرار.

وذكر الله هاهنا لتأكيد الأمر في موالاة الرسول والمؤمنين، ومعنى ذكره: أن هذه الموالاة مع الرسول والمؤمنين^(٣) بأمره وشرعه، وما ينبغي للمؤمن أن يتولَّى

(١) «باللسان» ليست في (أ).

(٢) الواو ليست في (أ).

(٣) «ومعنى ذكره أن هذه الموالاة مع الرسول والمؤمنين» من (أ).

الكفار، قال جل جلاله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤٤]، وقال تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ﴾ [آل عمران: ١١٨] وقال: ﴿لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [المتحنة: ١٣].

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾: من الموافقة والمخالفة، وهو وعد ووعيد.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يَكْتَفِي مِنْهُ بِالِدَعْوَى دُونَ تَحْقِيقِ الْمَعْنَى فَهُوَ عَلَى غَلَطٍ مِنْ حِسَابِهِ، وَفِي غَلَبٍ مِنْ حِسَابِهِ، بَلِ الْمَطْلُوبُ صَدْقُ الْمَجَاهِدَةِ فِي اللَّهِ، وَتَرْكُ الرُّكُونِ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ، وَإِذَا اتَّخَذَ وَلِيَّةً مِنَ الْكَافِرِ فَشَا فِي الْأَعْدَاءِ الْأَسْرَارَ، وَأَوَّلَى مَنْ يَهْجُرُهُ الْمَرْءُ لَثَلَا تَطَّلَعَ عَلَى الْأَسْرَارِ نَفْسُهُ الَّتِي هِيَ أَعْدَى عَدُوِّهِ.

حُكِيَ عَنْ أَبِي يَزِيدَ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ قَالَ فِي بَعْضِ أَوْقَاتِ مَكَاشِفَاتِهِ: كَيْفَ أَطْلُبُكَ؟ فَقِيلَ لَهُ: فَارِقْ نَفْسَكَ وَتَعَالَ.

والحرية عزيزة، قال قائلهم:

أَتَمَنَّى عَلَى الزَّمَانِ مُحَالَا أَنْ تَرَى مَقْلَتَايَ طَلْعَةَ حَرٍّ^(١)

(١٧) - ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ﴾: واتصالها بما قبلها: أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَعَلَا حَرَّضَ عَلَى قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ وَجْهِهِ، وَهَذَا وَجْهُ آخِرٌ مِنْ ذَلِكَ،

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (١٣/٢).

وهو أن مكة مولدكم ومنشؤكم، وفيها قبلتكم، وبها مفاخرتكم، وقد استولى المشركون عليها وأخرجوكم منها، وقاموا بعمارة المسجد الحرام الذي فيها وليسوا بأهل ذلك، فقاتلوهم وأخرجوا ذلك من أيديهم، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ﴾؛ أي: أن يلوا عمارتها.

وقيل: كان فيما نودي فيهم مع البراءة: ألا يحجّ بعد العام مشرك^(١)، وفي هذه الآية إشارة إلى منعهم عن قصدها والطواف بها وعمارتها بالصلاة.

ومعنى الآية على هذا: ليس في حكم الله تعالى أن يعمر المشركون مساجد الله بالصلاة فيها وحجّها والطواف بها وعمارتها وهم غير مؤمنين، وذلك قوله تعالى: ﴿شَهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ﴾؛ وقيل: هو اعترافهم بعبادة الأوثان وإن لم يصرّحوا بالاعتراف بلفظ الكفر والشرك.

وقيل: هو قولهم في التلبية: لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك؛ أي: ليس لهم أن يحجّوها^(٢) وهم قائلون في الحج هذا.

وقيل: أي: ما يدينون به دليل على كفرهم، لا أنهم يقولون: نحن كفار، وهو كقولك للرجل: إن^(٣) كلامك ليشهد أنك ظالم؛ قاله الحسن^(٤).

وقال السدي: إن النصراني إذا قيل له: من أنت؟ قال: نصراني، وكذلك اليهودي والمشرک والوثني^(٥).

(١) رواه البخاري (٣٦٩)، ومسلم (١٣٤٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في (ف): «يحجوا».

(٣) في (ر): «إذا كان»، وفي (ف): «إذا كان»، بدل: «إن».

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٢٨/١٣) (ط: دار التفسير)، والواحدي في «البيسط» (٣٣١/١٠)، والبغوي في «تفسيره» (٢٠/٤).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (٣٧٤/١١ و ٣٧٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٧٦٥/٦). وذكره =

ثم قوله: ﴿مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ يجوز أن يكون المراد به حقيقة الجمع؛ أي: في كل المساجد الحكم هذا.

وقال الحسن: هو المسجد الحرام، وإنما جُمع لأنه قبله المساجد كلها وإمامها، يقول: ما كان للمشركين أن يتركوا فيكونوا من أهل المسجد الحرام^(١)، وطريقه طريق قولهم: خرج فلان إلى الحج على البغال، أو: على الإبل، ويراد به الجنس لا الجمع.

قال ابن إسحاق: وقالت قريش: إنا أهل الحرم وسُقاة الحجيج وعمّار هذا البيت، لا أحد أفضل منا، فقال الله جلّ جلاله ذلك^(٢).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لما أسر العباس يوم بدرٍ أقبل عليه المسلمون فعيرّوه بكفره بالله تعالى وقطيعة الرّحم، وأغلظَ عليّ للعباس القول، فقال العباس: ما لكم تذكرون مساوئنا ولا تذكرون محاسننا؟! فقال له عليّ رضي الله عنه: ألكم محاسن؟ قال: نعم، إنا لنعمّر المسجد الحرام، ونحجب الكعبة، ونسقي الحاج، ونفكّ العاني، فأنزل الله جلّ جلاله ردّا على العباس: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿الْفَائِزُونَ﴾^(٣).

= الثعلبي في «تفسيره» (١٨/٥)، والواحي في «البيسط» (٣٣١/١٠)، والبغوي في «تفسيره» (٢٠/٤).

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٨/٥)، والواحي في «البيسط» (٣٢٩/١٠)، والبغوي في «تفسيره» (٢٠/٤).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٥٤٧/٢).

(٣) ذكره بهذا اللفظ الثعلبي في «تفسيره» (١٨/٥)، والواحي في «البيسط» (٣٢٨/١٠) وفي

«أسباب النزول» (ص: ٢٤٣)، والبغوي في «تفسيره» (١٩/٤). ورواه بنحوه الطبري في «تفسيره»

(٣٧٨/١١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٧٦٨/٦)، ولم يذكر فيه عليّاً.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾: ما ذكروه من محاسنهم بطل ثوابها لشركهم.

وقوله تعالى: ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾: لكفرهم، أخبر الله تعالى أنهم ليسوا بأهلٍ لعمارتها، ولا في قيامهم ما يوجب الكفَّ عن قتلهم؛ لأنهم مشركون حَبِطَتْ أعمالهم واستحقوا الخلود في النار.

(١٨) - ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾: أي: إنما يستحق القيام بعمارتها مَنْ كان بهذه الصفة، فهو يعظم البيت حقَّ تعظيمه.

وقوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾؛ أي: لم يعمل ذلك كله إلا لخشية الله.

وقيل: أي: لم يخش إلا الله فلم يتخلف عن قتال المشركين لخشيته، وهو إشارة^(١) إلى ما قال: ﴿اتَّخِذُونَهُمْ قُلُوبَهُمْ قُلُوبَهُمْ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ﴾ [التوبة: ١٣]، وقال: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وقوله: ﴿فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ و(عسى) من الله إطماع، وإطماع الكريم إيجاب؛ أي: المستكملون هذه الخصال ثابتون على الهداية خارجون عن الضلالة.

وروى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «إذا رأيتم الرجل يعتادُ

(١) في (أ): «بخشيتهم وهو إشارتهم»، وفي (ر): «لخشيهم وهو إشارة».

المسجد فاشهدوا له بالإيمان، قال الله تعالى في كتابه: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾^(١).

وقال القشيري رحمه الله: عمارة المساجد التي هي مواقف العبودية لا تتأتى إلا بتخريب أوطان البشرية، فالعارفُ يَعْمُرُ المسجد بتخريب أوطان شهوته، والزاهد يَعْمُرُهُ بتخريب أوطان مُنْيَتِهِ، والعارف يَعْمُرُهُ بتخريب أوطان علاقته، والموحد يَعْمُرُهُ بتخريب أوطان ملاحظته، ولكلٌّ منهم صنفٌ مخصوص^(٢)، وكذلك رتبُهم في الإيمان مختلفة، فإيمانٌ من حيث البرهان، وإيمانٌ من حيث البيان، وإيمانٌ من حيث العيان، وشتان ما هم^(٣).

(١٩) - ﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: الحاجُّ أريد به الجمعُ لأنه جنس^(٤)، وتقدير الآية: أجعلْتُهم

(١) رواه الترمذي (٢٦١٧) و(٣٠٩٣) وحسنه، وابن ماجه (٨٠٢)، وابن خزيمة في «صحيحه»

(١٥٠٢)، وابن حبان في «صحيحه» (١٧٢١)، والحاكم في «المستدرک» (٧٧٠) وصححه، وهو

من طريق دراج بن سمعان عن أبي الهيثم (وهو سليمان بن عمرو العتواري) عن أبي سعيد

رضي الله عنه. ودراج قال عنه الحافظ في «التقريب»: صدوق وفي حديثه عن أبي الهيثم ضعف.

(٢) في (أ): «صنف مخصوص». وعبارة «اللطف»: (وكل واحد منهم واقف في صفته، فلصاحب كل

موقف منهم وصف مخصوص).

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (١٤/٢).

(٤) «لأنه جنس» ليس في (أ) و(ف).

صاحب سقاية الحاجّ وعمارة المسجد الحرام كَمَنْ آمَنَ بالله واليوم الآخر، أو: أ جعلتُمْ سقاية الحجّاج وعمارة المسجد الحرام كإيمان مَنْ آمَنَ بالله واليوم الآخر وجهاد مَنْ جاهد في سبيل الله؛ لأن الصحيح مقابلة الفعل بالفعل أو الفاعل بالفاعل، ويصير كذلك بهذا الإضمار، وله طريق آخر: أن يُجعل السّقاية والعمارة وهما مصدران كالنعتين، وتقديره: أ جعلتُمْ ساقِي الحاجّ وعامرَ المسجد الحرام كَمَنْ آمَنَ، وهو كالعدل يراد به العادل، وتحقيق هذا قراءةُ عبد الله بن الزبير وأبي وجزة السعدي: (أ جعلتُمْ سقاة الحاج وعمرة المسجد الحرام)^(١).

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾: أي: في الدرجة.

﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾: قال مقاتل أي: المشركين إلى الحجة^(٢).

وقيل: إلى الجنة.

وقيل: إلى الإسلام مع اختيارهم الكفر.

روي أن علياً والعباس وشيبة بن عثمان - وقيل: طلحة بن شيبة - تفاخروا، فقال العباس: أنا أسقي الحجيج، وقال شيبة: أنا أعمّرُ مسجد^(٣) الله، وقال علي: ما أدري ما تقولان! لقد صليت إلى القبلة ستة أشهر قبل الناس، وأنا صاحب الجهاد مع رسول الله ﷺ، فنزلت الآية^(٤)، وعرفوا أن سقي الحجيج وعمارة البيت لا يعدلان الإيمان والجهاد، وكان العباس وشيبة غير مسلمين يومئذ.

(١) انظر: «المحتسب» (٢٨٦/١). وهي رواية ابن وردان عن أبي جعفر من العشرة. انظر: «النشر»

(٢/٢٧٨). واسم أبي وجزة: يزيد بن عبيد السعدي المدني الشاعر، من رجال «التهذيب».

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (١٦٣/٢).

(٣) في (أ): «مساجد».

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٣٨٠/١١).

وقال النعمان بن بشير: كنت عند منبر رسول الله ﷺ في نفرٍ من أصحابه، فقال رجل منهم: ما أبالي ألا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج، وقال آخر: بل عمارة المسجد الحرام أحب إليّ، وقال آخر: بل الجهاد في سبيل الله خير مما قُلتُم، فزجرهم عمر رضي الله عنه وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ - وذلك يوم الجمعة - فإذا صلى الجمعة دخلتُ إليه^(١) فاستفتيته عما اختلفتُم فيه، ففعلوا فأنزل الله هذه الآية^(٢).

وقال مرة الهمداني: قال عليّ للعباس: يا عم! ألا تهاجر؟ قال: ألسْتُ في أفضل من الهجرة؟ ألسْتُ أسقي الحجاج وأعمُر المسجد الحرام؟ فنزلت الآية^(٣). وقال مجاهد: أمروا بالهجرة، فقال العباس: أنا أسقي الحاج، وقال طلحة: أنا حاجب^(٤) الكعبة، لا نهاجر، فنزلت الآية^(٥).

وقال القشيري رحمه الله: ليس من قام بمعاملة ظاهره كمن استقام في تصحيح سرائره، ولا من استضاء بسراج علومه كمن استبصر بشموس معارفه، ولا من نصب بالباب من حيث الخدمة كمن مكن من البساط من حيث القربة، وليس نعت من تكلف نفاقاً كوصف من تحقق وفاقاً، بينهما بون بعيد^(٦).

(١) في (أ): «عليه».

(٢) رواه مسلم (١٨٧٩).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٠/٥)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٤٥)، عن ابن سيرين ومرة الهمداني. ورواه من طريق آخر ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٧٦٩/٦).

(٤) في (أ): «صاحب».

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (٣٨٤/١١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٧٦٨/٦ و ١٧٧٠).

(٦) انظر: «لطائف الإشارات» (١٥/٢).

(٢٠) - ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾: أي: من سقاية الحاجّ وعمارة المسجد الحرام بلا إيمانٍ، وليس لأولئك درجة في الفضل، لكن معناه: أنهم يعتقدون لأنفسهم درجة، فقال: هؤلاء أعظم درجة على الحقيقة من أولئك على ما يتوهمونه لأنفسهم.

وقيل: معناه: أعظم درجة من المؤمنين الذين لم يهاجروا ولم يجاهدوا.
وقوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾: أي: الناجون.

(٢١) - ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾.
وقوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتٍ﴾: أي: عند الموت على السنة الملائكة، وفي الجنة بلا واسطة.
وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾: أي: في جنات^(١).

(٢٢) - ﴿خَلِيدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.
وقوله تعالى: ﴿خَلِيدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾: هذا كله ظاهر.
وقال القشيري رحمه الله: بشارة العُصاة بالرحمة، وبشارة المطيعين بالجنة والنعمة، وبشارة العصاة بالنجاة، وبشارة المطيعين بالدرجات، وبشارة العصاة بالخلاص، وبشارة المطيعين بالاختصاص.

(١) في (ر) و(ف): «أي وبجنات».

ويقال: بَشَّرَ العصاة بالرحمة، والمطيعين بالرضوان، والكافة بالجنة، وقَدَّمَ العاصي في الذكر، وقدم المطيع بالبرِّ، والذكرُ قولُهُ وهو قديم، والبرُّ طَوْلُهُ وهو عميم. وقيل: بَشَّرَ بنفسه ليزيد في محبة عبده؛ لأن القلوب مجبولةٌ على حبِّ المَبَشِّرِ، يقول قائلهم:

لولا تَمَتُّعُ مُقَلَّتِي بِلِقَائِهِ لو هَبْتُها لمَبَشَّرِي بِأَيَّابِهِ^(١)

وقوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ عَرَّفَهُمْ أَنَّهُمْ بِرَحْمَتِهِ وصلوا إلى طاعته، لا بطاعتهم وصلوا إلى نعمته.

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ قَوْمٌ نَعِيمُهُمْ عَطَاءُ رَبِّهِمْ على وصف التمام، وقَوْمٌ نَعِيمُهُمْ لِقَاءُ رَبِّهِمْ على نعت الدَّوام، فالعابدون لهم تمامُ عطائه، والعارفون لهم دوام لِقائه^(٢).

(٢٣) - ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءِآبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءِآبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: ولَمَّا أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بالهجرة إلى المدينة جعل الرجل يقول لأبيه وأخيه وامرأته وقرباته: إِنَّا قَدْ أَمَرْنَا بِالْهَجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَأَخْرَجُوا مَعَنَا، فَمِنْهُمْ مَنْ يَعْجِبُهُ ذَلِكَ وَيَتَسَارَعُ فِيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْبَى ذَلِكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَعَلَّقُ بِهِ زَوْجَتَهُ وَعِيَالَهُ وَوَلَدَهُ

(١) في (ف): «بلقائه».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (١٦/٢ - ١٧).

فيقولون له: نَشُدُّكَ اللهَ أَلَا تَضِيعُنَا، فَيَرِقُّ وَيَجْلِسُ وَيَدْعُ الْهَجْرَةَ، فنزل: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ﴾^(١) الذين بمكة ﴿أَوَلَيْسَ﴾ في الدين والعون والنصرة ﴿إِنْ أَسْتَحَبُّوا﴾؛ أي: اختاروا ﴿الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ﴾ بعد نزول هذه الآية في الإقامة ﴿فَإِنَّهُمْ مِنْهُمْ﴾ على الكفر ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٢).

وقال مقاتل: نزلت في السبعة الذين ارتدوا عن الإسلام ولحقوا بمكة، فنهى الله عن ولايتهم فقال: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ﴾ يا معشر المؤمنين ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٣).

وقال القشيري رحمه الله: علامة الصدق في التوحيد قطع العلاقات، ومفارقة العادات، وهجران المعارف والقرابات، والاكتفاء بالله على دوام الحالات^(٤).

(٢٤) - ﴿قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢١)، والواحدي في «السيط» (١٠/ ٣٤٠) والبغوي في «تفسيره»

(٤/ ٢٤)، جميعهم من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. والكلبي متروك، وأبو صالح لم

يسمع من ابن عباس.

(٢) في (ف): «وأولئك».

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ١٦٤).

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ١٨).

أَقْتَرَفْتُمُوهَا ﴿١﴾: أي: اكتسبتموها ^(١) ﴿وَتَجَرَّةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾: قال مقاتل: قل يا محمد للمتخلفين عن الهجرة: إن كان المقام مع آبائكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم ^(٢) وعشيرتكم، وأموالٍ اكتسبتموها، وتجارةٍ ترجون حصولَ أرباحها وتخشون كسادها، ومسكنَ رضيتموها، أحبَّ إليكم من الهجرة إلى الله ورسوله ومن جهادٍ في نصرة دينه فانظروا حتى يأتي الله بأمره بفتح مكة ^(٣).

وقال عطاء: ﴿بِأَمْرٍ﴾؛ أي: بقضائه ^(٤).

وقال الحسن: ﴿بِأَمْرٍ﴾ من عقوبة عاجلةٍ أو آجلة ^(٥).

وقيل: أي: بعذابه، كما قال ﴿أَتْلَهَا أَمْرُنَا﴾ [يونس: ٢٤].

وقال القفال: قطع وجوه العُذر بهذا التعديد والبسط من الكلام، فلم يُجزَ تركُ الهجرة والجهاد في سبيل الله للميل إلى الشيء من الأسباب ^(٦) المميلة، ولم يجعل ما يثقل على الإنسان فراقه من أبٍ برٍّ وابنٍ يترزئ به، وأخٍ يعتضد بمعونته، وزوجةٍ يسكن إلى صحبتها وإلفها وخدمتها، وعشيرةٍ يتعزز بهم ويستعين على دفع الملمات بنصرتهم، وأموالٍ مكتسبةٍ قد استنفذ في تحصيلها الوُسع، وأنفق على جمعها العُمر،

(١) «أي: اكتسبتموها» ليست في (ف).

(٢) «وأزواجكم» زيادة من (أ).

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ١٦٤).

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٢)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٢٥).

(٥) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٢/ ٣٤٩)، والواحدي في «البيضا» (١٠/ ٣٤٣).

(٦) في (أ): «الأشياء».

وتجشَّم على حملها الأسفار، وخاف عليها الصَّيَّاع بالغيبة عنها، وتجارة قائمة يرجو حصول أرباحها، ومنازل قائمة^(١) عامرة نزهة^(٢) مألوفة يتحصَّن فيها من أذى البرد والحر، وأعدَّ فيها مواضع للشتاء والصيف، حجةً في مخالفة ما أمر الله تعالى من الهجرة وجهاد الكفار، وأخبر أنَّ من أثر طاعة الشيطان على طاعة الرحمن فليستعدَّ لنزول أمر الله، فإنه ينزل به ما لا مدفع له ولا اعتصام منه بنصرة قرابة أو عشيرة، ولا يتحصَّن بمساكن حريزة، وليعلم أن الله لا يرشد الفاسقين المستخفين بدينه إلى صواب في تدبيره، ولا يهديهم إلى طريق رضوانه ورحمته ما داموا^(٣) على اختيار مخالفته.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: مَنْ نَفَقَتْ أَسْوَاقُ دِينِهِ^(٤) كَسَدَتْ أَسْوَاقُ حَظُوظِهِ، وَمَا لَمْ تَخُلْ مِنْكَ مَنَازِلَ الْحَظُوظِ لَا تَعْمُرُ بِكَ مَشَاهِدُ الْحَقُوقِ^(٥).

(٢٥) - ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾: قال قتادة: هو وادٍ بين مكة والطائف^(٦).

(١) «قائمة» ليست في (أ) و(ف).

(٢) بسكون الزاي وتكسر؛ أي: بعيدة عن دَبَّانِ القرى وومد البحار وفساد الهواء. انظر: «القاموس» (مادة: نزه).

(٣) في (ف): «كانوا».

(٤) في (ف): «من نفقت سوق ذنبه» وفي مطبوع «اللطائف»: (من كسدت سوق دينه).

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» (١٨/٢).

(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (٣٨٧/١١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٧٧٢/٦).

وقال عروة: هو وادٍ إلى جنب ذي المجاز^(١).

يقول: لقد نصركم الله في مواطن كثيرة مثل بدرٍ والأحزاب، وأعلاكم على عدوكم مع ضعفكم وقلة عددكم في مقامات كثيرة من بين غزوةٍ وسرية، ويوم حنين^(٢)، فليهنّ عليكم أمرُ الآباء والأبناء والإخوان والعشيرة والأموال، وأسباب المنعة^(٣) الدنيوية، ولا تظنّوا النصر بها، فانقطعوا إلى الله بالكلية واطلبوا من عنده النصر والمعونة.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ حين كان فرعكم إلى الله ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ بعدما وليتمّ فرعتم إلى الله أيضاً، فنصركم أيضاً^(٤). وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمُ كَثْرَتُكُمْ﴾: أي: أعجبكم كثرة عددكم ووفور عددكم ﴿فَلَمْ تَغْنِ عَنْكُمْ﴾ الكثرة^(٥) ﴿شَيْئاً﴾: أي: لم تنفعكم الكثرة شيئاً.

﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾: (ما) مع الفعل مصدر، وتقديره: برُحْبها؛ أي: مع رُحْبها^(٦)؛ أي: سَعَتها؛ لطلب العدو إياكم، قال الشاعر:

كَأَنَّ بِلَادَ اللَّهِ وَهِيَ عَرِيضَةٌ عَلَى الْخَائِفِ الْمَطْلُوبِ كُفَّةٌ حَابِلٌ^(٧)

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٣٨٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٧٧٣).

(٢) بعدها في (ر): «إِذَا».

(٣) في (ر) و(ف): «المنعة».

(٤) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٣٢٣ - ٣٢٤).

(٥) «الكثرة» ليست في (أ) و(ف).

(٦) في (أ): «رحبتها».

(٧) نسب البيت لكثيرين؛ لعبد الله بن الحجاج كما في «أنساب الأشراف» للبلاذري (١٣/ ١٥١)،

و«الأغاني» للأصفهاني (١٣/ ١٨٢)، و«تاريخ دمشق» لابن عساكر (٧/ ٣٦٥). ولليد كما في

«محاضرات الأدباء» (٢/ ٢٠٧). ولرزين العروضي كما في «معجم الأدباء» (٣/ ٣٣٥). ولعبيد =

أي: حِبَالَةَ صَيَّادٍ^(١).

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾: أي: منهزمين ابتليْتُمْ في أول^(٢) الالتقاء بالهزيمة لإعجابكم بكثرتكم دون اعتمادكم على نصره الله، وعلى إلقائه الرعب في قلوب الأعداء، فلم ينفعكم العدُّ والعدُّ التي لم تكونوا على مثلها في الوقائع التي نُصِرْتُمْ فيها مثل بدر والأحزاب، وكانوا اثني عشر ألفاً حتى قالوا: لن نُغْلِبَ اليوم عن قِلَّةٍ، وضائق عليكم الأرض فلم تجدوا طريقاً إلى الخلاص إلا بالهزيمة، وذلك أن مَنْ أَعْجَبَ بَعْدَتَهُ^(٣) اعْتَمَدَ عَلَيْهَا فلم يتضرَّع إلى الله تعالى ولم يسأله النصر، فحُرِمَ ذلك بتركِ التضرُّع والدعاء.

وقال الواقدي^(٤): لما فَتَحَ اللهُ تعالى على رسوله ﷺ مكة مشى أشرف هوازن بعضُهم إلى بعضٍ، وكذا ثَقِيفٌ بعضها إلى بعضٍ، وحَسَدُوا^(٥) وبَغَوْا وقالوا: والله ما

= ابن أيوب بن ضرار العنبري كما في «الحماسة البصرية» (١/ ٢٩). وللطرماع كما في «ديوانه» (ص: ١٦٩)، و«التذكرة الحمدونية» (٥/ ٤٣٠). وهو بلا نسبة في «معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٧٧).

(١) في (ف): «صيد».

(٢) في (ف): «في الأول عند».

(٣) بعدها في (ف): «التي».

(٤) قال الواقدي في روايته لهذه الواقعة: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ جَعْفَرٍ، وَابْنُ أَبِي سَبْرَةَ، وَمُحَمَّدُ بْنُ صَالِحٍ، وَأَبُو مَعْشَرٍ، وَابْنُ أَبِي حَبِيبَةَ، وَمُحَمَّدُ بْنُ يُحْيَى بْنِ سَهْلٍ، وَعَبْدُ الصَّمَدِ بْنُ مُحَمَّدٍ السَّعْدِيُّ، وَمَعَاذُ بْنُ مُحَمَّدٍ، وَبُكَيْرُ بْنُ مِسْمَارٍ، وَيَحْيَى بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي قَتَادَةَ، فَكُلُّ قَدْ حَدَّثَنَا بِطَائِفَةٍ، وَغَيْرُ هَؤُلَاءِ حَدَّثَنَا مِمَّنْ لَمْ أَسْمِ أَهْلَ ثَقَةٍ، فَكُلُّ قَدْ حَدَّثَنَا بِطَائِفَةٍ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ، وَبَعْضُهُمْ أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْضٍ، وَقَدْ جَمَعْتُ كُلَّ مَا قَدْ حَدَّثَنِي بِهِ، قَالُوا...، فَذَكَرَهُ. انظر: «المغازي» (٣/ ٨٨٥). وقد نقل المؤلف عنه ما سيأتي بشيء من الاختصار.

(٥) في (أ) و(ر): «وحسدوا»، والمثبت من (ف) و«المغازي».

لاقى محمدٌ قوماً^(١) يُحْسِنُونَ الْقِتَالَ، فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ فَسِيرُوا إِلَيْهِ قَبْلَ أَنْ يَسِيرَ إِلَيْكُمْ. فَأَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، وَسِيدُ هَوَازِنَ مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ النَّصْرِيُّ، وَسِيدُ ثَقِيفٍ عَبْدِ يَالِيلِ بْنِ عَمْرِو الثَّقَفِيُّ، فَأَجْمَعُوا الْمَسِيرَ بِالنَّاسِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَجَاؤُوا وَمَعَهُمْ نِسَاؤُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ حَتَّى نَزَلُوا بِأَوْطَاسٍ، فَعَسَكُوا وَدَرِيْدُ بْنُ الصَّمَّةِ مَعَهُمْ، وَهُوَ يَوْمُئِذٍ شَيْخٌ كَبِيرٌ ابْنُ مِئَةٍ وَسَتِينَ سَنَةً، لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ إِلَّا التَّيْمُنُ بِهِ وَمَعْرِفَتُهُ^(٢) بِالْحَرْبِ، فَلَمَّا نَزَلَ الشَّيْخُ مَسَّ الْأَرْضَ بِيَدِهِ فَقَالَ: بَأَيِّ وَادٍ أَنْتُمْ؟ قَالُوا: بِأَوْطَاسٍ، قَالَ: نِعَمَ مَجَالُ الْخَيْلِ، لَا حَرْنَ ضَرِسٍ وَلَا سَهْلَ دَهْسٍ^(٣)، مَا لِي أَسْمَعُ رِغَاءَ الْبَعِيرِ وَنَهَاقَ الْحَمِيرِ، وَثُغَاءَ الشَّاةِ وَخَوَارِ الْبَقَرِ وَبِكَاءَ الصَّغِيرِ؟ فَقَالُوا: سَاقَ مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ مَعَ النَّاسِ أَبْنَاءَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، فَقَالَ: أَيْنَ مَالِكُ؟ فَقَالُوا: هَذَا مَالِكُ، فُدْعِي لَهُ مَالِكُ، فَقَالَ: مَالِكُ إِنَّكَ لَمْ تَصْنَعْ بِتَقْدِيمِ بَيْضَةِ هَوَازِنَ إِلَى نَحْوِ الْخَيْلِ شَيْئًا، فَاَنْقُضْ هَذَا الرَّأْيَ، فَغَضِبَ مَالِكُ وَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَفْعَلُ وَلَا أَغَيِّرُ أَمْرًا صَنَعْتُهُ، إِنَّكَ قَدْ كَبِرْتَ وَكَبِرَ عِلْمُكَ، وَحَدَّثَ بَعْدَكَ مَنْ هُوَ أَبْصَرُ بِالْحَرْبِ مِنْكَ، هَلْ مِنْ رَأْيٍ غَيْرِ هَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ، نَجْعَلُ كَمِينًا يَكُونُ لَكَ عَوْنًا، إِنْ حَمَلَ الْقَوْمُ عَلَيْكَ جَاءَهُمُ الْكَمِينُ مِنْ خَلْفِهِمْ، فَقَالَ مَالِكُ: هَذَا الرَّأْيُ وَأَنَا أَقْبَلُهُ.

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَفْتَتَحَ مَكَّةَ لثَلَاثَ عَشْرَةَ لَيْلَةً مَضَتْ مِنْ رَمَضَانَ، وَغَزَا يَوْمَ السَّبْتِ السَّادِسِ مِنْ شَوَالٍ، وَاسْتَعْمَلَ عَلَى مَكَّةَ عَتَّابَ بْنَ أُسَيْدٍ يَصْلِي بِهِمْ، وَمَعَاذُ بَنِ جَبَلٍ يَعْلَمُهُمُ الشُّنَنُ وَالْفَقْهُ، وَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ فِي اثْنِي عَشَرَ أَلْفًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، عَشْرَةُ آلَافٍ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَالْفَنِينِ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ.

(١) فِي (ف): «أَقْوَامًا».

(٢) فِي (أ): «فِي مَعْرِفَتِهِ».

(٣) الْحَزَنُ: الْمَرْتَفِعُ مِنَ الْأَرْضِ، وَالضَّرْسُ: الَّذِي فِيهِ حَجَارَةٌ مُحَدَّدَةٌ، وَالْدَّهْسُ: اللَّيْنُ الْكَثِيرُ التَّرَابِ.

انظر: «الإملاء المختصر» لأبي ذر الخشني (ص: ٣٨٤).

وقال الحسن: كانوا ثمانية آلاف.

وقال عطاء: كانوا ستة عشر ألفاً^(١).

فلما فصل^(٢) قال رجل من الصحابة - قال السدي: هو سلمة بن سلامة^(٣) -: لا نُغَلِبُ اليومَ عن قلة، وكان النبي ﷺ قال: «خيرُ الأصحاب أربعة، وخير السرايا أربع مئة، وخير الجيوش أربعة آلاف، ولا يغلب اثنا عشر ألفاً عن قلة كلمتهم واحدة»^(٤).

(١) ذكره البغوي في «تفسيره» (٢٦/٤).

(٢) في (ر): «فلما وصل»، وليست في (ف).

(٣) ذكره الواحدي في «البيسط» (٣٤٦/١٠)، وفي «الوسيط» (٤٨٧/٢)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٤١٣/٣)، عن ابن عباس رضي الله عنهما. ولم أجده عن السدي، بل روى الطبري في «تفسيره» (٣٨٩/١١) عن السدي: أن القاتل هو رجل من أصحاب رسول الله ﷺ ولم يعينه، وعن قتادة أنه قال: (وذكر لنا أن رجلاً قال...)، ومثله روى البيهقي في «الدلائل» (١٢٣/٥) عن الربيع. وكذا رواه دون تعيين البزار في «مسنده» (١٨٢٧ - كشف) من حديث أنس رضي الله عنه، وفيه: (قال غلام منا من الأنصار...). فإن كان كذلك فيستبعد أن يكون القاتل سلمة بن سلامة؛ لأن هذا صحابي كبير شهد العقبتين ويدراً وأحدًا والمشاهد، فلا يخبر عنه بلفظ: (غلام من الأنصار)، لكن الحديث فيه علي بن عاصم بن صهيب، قال عنه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٧٨/٦): (وهو ضعيف لكثرة غلظه وتمادييه فيه). ومع ذلك فليس خبر ابن عباس بأصلح منه؛ لأنه قد ذكر بلا سند، بل ذكره الواحدي في تفسيره من طريق عطاء عن ابن عباس، وهذا الطريق قد كثر وروده عند الواحدي دون سند يعرف، مع وقوعه عند غيره في الغالب من قول عطاء، وقد نبهنا لهذا في المقدمة وسقنا عليه الأمثلة الكثيرة.

(٤) رواه أبو داود (٢٦١١)، والترمذي (١٥٥٥)، والواقدي في «المغازي» (٨٩٠/٣)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال الترمذي: إنما روي هذا الحديث عن النبي ﷺ مرسلًا. وقال أبو داود: والصحيح أنه مرسل. وقال أبو حاتم كما في «العلل» لابنه (٣٤٧/١): مرسل أشبه، لا يحتمل هذا الكلام أن يكون كلام النبي ﷺ.

فسمع رسول الله ﷺ قول هذا الرجل فسأه كلامه، فوكلوا إلى كلمة الرجل، وانتهى النبي ﷺ إلى حنين مساء يوم الثلاثاء، وأمر أنيس بن مَرْثَدِ الغَنَوِيِّ أن يحرسهم الليلة على فرسه على جبل، وقال له حين أصبح: «ما على هذا ألا يعمل عملاً بعد هذا».

وخرج رجال من أهل مكة من أشرافهم وهم كفارُ قريش ينظرون لمن تكون الدَّبرَةُ، منهم صفوان بن أمية، وفيها كانت استعارةُ دروعه، وقوله^(١): «أغضباً يا محمد؟! وقوله عليه السلام: «بل عاريةٌ مؤدَّاةٌ»، ولما وقعت الهزيمة أولاً على المسلمين مرَّ رجل بصفوان فقال: أبشر فقد هُزم محمد وأصحابه! فقال صفوان: فُضَّ الله فاك، قال^(٢): «رَبُّ من قريش أحبُّ إلي من ربِّ من هوازن إن كنت مربوباً».

وانحدر رسول الله ﷺ بأصحابه في وادي حنين - وهو [وادي] حدود - وقد مضت مقدمته على تعبته، وركب النبي ﷺ بغلته البيضاء دُلْدُلًا، ولبس درعه والمغفرَ والبيضة، فاستقبل الصفوف وطاف عليها بعضاً خلفَ بعضٍ، فحَضَّهم^(٣) على القتال وبشَّهم بالفتح إن صدَّقوا وصبروا.

وقال أنس رضي الله عنه: ولَمَّا انتهينا إلى وادي حنين - وله مضائقٌ وشعبٌ - استقبلنا من هوازن شيءٌ لا والله ما^(٤) رأيتُ مثله في ذلك الزمان قطُّ من السَّواد والكثرة، قد ساقوا نساءهم وأبناءهم وأموالهم، فبينما نحن في غلس^(٥) الصبح إنَّ شعرنا إلا بالكتائب قد خرجت علينا من مضيق الوادي فحملوا حملةً واحدةً وهم

(١) في (ف): «وفيها قال».

(٢) «قال» ليست في (أ).

(٣) في (ر): «فحثهم».

(٤) بعدها في (أ) و(ف): «إن»، والمثبت من (ر) و«المغازي».

(٥) في (ر): «غبش»، والمثبت من (أ) و(ف) و«المغازي».

أربعة آلاف قد جرّدوا سيوفهم وكسروا غمودها^(١) - وقيل: أحرّقوها - فانكشفت^(٢) أول الخيول موليّة، وتبعهم الناس مولّين منهزمين لا يلوون على شيء، فالتفت النبي ﷺ عن يمينه ويساره والناس منهزمون وقال: «يا أنصار الله وأنصار رسوله، أنا عبد الله ورسوله» ولم يكن مع النبي ﷺ إلا العباس بن عبد المطلب وهو أخذ بلجام بغلة النبي ﷺ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب أخذ بفقر^(٣) بغلة النبي ﷺ، وكان العباس صبيّاً، فقال له عليه السلام: «اصرخ: يا معشر الأنصار، يا أصحاب السّمرّة، يا أصحاب الشجرة، يا أصحاب سورة البقرة»، فأقبلوا كأنهم الإبل إذا حنّت^(٤) إلى أولادها، يقولون^(٥): الكرّة بعد الفرّة^(٦)، قد أشرعوا الرماح - قال العباس رضي الله عنه: حتى إني لأخاف على رسول الله ﷺ رماحهم أشدّ من خوف رماح المشركين - يؤمّون الصوت يقولون: لبيك لبيك، فلما اختلطوا واجتلدوا ورسول الله ﷺ قائم على بغلته البيضاء يقول: «أَنشُدْكَ وعدك، لا ينبغي لهم أن يظهرُوا»، ثم قال للعباس: «ناولني حصيات^(٧)»، فناوله حصيات من الأرض ثم قال: «شاهت الوجوه»، ورمى بها وجوه المشركين وقال: «انهزموا وربّ الكعبة»^(٨)، وأخبروا بعد ذلك أنه لم يبق منهم أحد إلا أمتلأت عيناه من التراب.

(١) في (ر): «غمودهم»، وفي (ف): «أغمادها».

(٢) في (ف): «فانكسرت»، والمثبت من (أ) و(ر) و«المغازي».

(٣) الثفر بالتحريك: السير في مؤخر السرج. انظر: «القاموس» (مادة: ثفر).

(٤) في (أ): «أخنت» والمثبت من (ف) و(ر) و«المغازي».

(٥) في (ر) و(ف): «وهم يقولون»، والمثبت من (أ) و«المغازي».

(٦) في (أ): «الفر». وفي (ر): «النفرة»، والمثبت من (ف) و«المغازي».

(٧) في (ر) و(ف): «ناولني حصاة من الأرض»، والمثبت من (أ) و«المغازي».

(٨) روى نحوه مسلم (١٧٧٥) و(١٧٧٧)، من حديث ابن عباس وسلمة بن الأكوع رضي الله عنهم.

وكان من دعائه يومئذ: «اللهم لك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان»، فقال له جبريل صلوات الله عليه: لقد لُقِّنْتَ الكلمات التي لَقَّنَ الله تعالى موسى يوم فُلِّقَ له البحر.

وكان النبي ﷺ في مئة صابرة: ثلاثة وثلاثون من المهاجرين، وسبعة وستون من الأنصار، وكان النبي ﷺ يقول: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب»^(١)، وهذا غاية شجاعته حيث لم يُخَفِ^(٢) اسمه في تلك الحالة، ولم يَخَفِ الكفار على نفسه.

وكان عثمان وعليُّ وأبو دجانة وأيمنُ بن عبيد رضي الله عنهم يقاتلون بين يدي النبي ﷺ، وكَرَّتْ الأنصار ووقفت هوازنُ قَدَرَ حَلَبٍ نَاقَةٍ ثم كانت الهزيمة، وكان سعد بن عبادَةَ يصيح بالخزرج، وأسيد بن حضيرٍ بالأوس، فثابوا - أي: رجعوا^(٣) - من كل ناحية كأنهم النحل قد أشرعوا في قتل الذرية، فنهاهم عن ذلك.

قال أنس: وتقدَّم رسول الله ﷺ بحَرْبته أمام الناس، وهزمهم الله تعالى، وأمر رسول الله ﷺ أن يُقتل كُلُّ مَنْ قُدِّرَ عليه ففعلوا، وبعث أبا عامرٍ^(٤) الأشعريَّ في آثار مَنْ توجَّهَ إلى أوطاسٍ وعقدَ له اللواء، فقتل منهم كثيراً ثم استشهد^(٥)، وغنموا كلَّ أموالهم. وأمر النبي ﷺ بالغنائم فجمعت، ونادى مناديه: مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يَغْلُ، وردَّ عقيل بن أبي طالب إبرةً كان أخذها^(٦).

(١) رواه البخاري (٢٨٦٤)، ومسلم (١٧٧٦)، من حديث البراء رضي الله عنه.

(٢) في (ر): «يمح».

(٣) «أي: رجعوا» من (ف).

(٤) في (ف) و(أ): «عامر».

(٥) في (ف): «استشهد».

(٦) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٤٧٧) عن زيد بن أسلم قال: جاء عقيل بن أبي طالب بمِخِيطٍ، فقال =

وجاء رجل بحبل فطلب من النبي ﷺ أن يجعله له، فقال: «نصيبي منه لك، فكيف تصنعُ بأنصباء المسلمين؟».

وفي سبايا أوطاس قال عليه الصلاة والسلام: «ألا لا تُوطأ الحَبَالَى حتى يَضَعْنَ حملهنَّ، ولا الحَيَالَى حتى يَسْتَبْرِئْنَ بحِيضَةٍ»^(١).

وفيها أتت الشَّيماء أختُ النبي ﷺ من الرضاعة فبسط لها رداءه وأكرمها وحيهاها. وقال سعيد بن جبير رضي الله عنه: أمدَّ^(٢) الله نبيَّه بخمسة آلاف ملك^(٣).

وقال رجل من الأعداء بعد تقضي القتال: أين الخيلُ البُلُقُ والرجالُ عليهم الثيابُ البيض، ما كنَّا نراكم فيهم إلا كهَيْئَةِ الشَّامة، وما قُتِلنا إلا بأيديهم؟ فأخبروا بذلك النبي ﷺ فقال: «تلك الملائكة»^(٤).

وقال الزهريُّ: وبلغني أن شيبَةَ بن عثمان قال: استدَّبرْتُ النبي ﷺ يومَ حنينٍ وأنا أريد أن أقتله بطلحة بن عثمان وعثمان بن طلحة وقد قُتِلَا يومَ أحدٍ، فأطلع الله رسوله على ما في نفسي، فالتفتَ إليَّ وضرب في صدري وقال: «أعيذك بالله يا شيبَةُ»، فأرعدتُ فرائصي، فنظرت إليه وهو أحبُّ إليَّ من

= لا مرأته: خِيطِي بهذه ثيابكِ، قال: فبعثَ النبي ﷺ منادياً: «ألا لا يَغْلَنَ رجلٌ إبرةً فما دُونُها»، فقال عقيلٌ لا مرأته: ما أرى إبرتكِ إلا قد فاتتكِ.

(١) ذكره بهذا اللفظ الشافعي في «الأم» (٣٤٦/٧) عن أبي يوسف قال: بلغنا... وذكره. ورواه بنحوه أبو داود (٢١٥٧) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. والحيالي: جمع حائل، وهي التي لا حبل بها.

(٢) في (ف): «أيد».

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٧٧٤/٦).

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٤/٥)، والبعوي في «تفسيره» (٢٨/٤).

سمعي وبصري، فقلت: أشهد أنك رسول الله، وأن الله أطلعك على ما في نفسي^(١). ولما انهزموا أتوا أوطاس وبها أموالهم وعمالهم، وبعث رسول الله ﷺ على إثرهم فقتلوا منهم مقتلةً عظيمة، وهرب أميرهم مالك بن عوف فأتى الطائف وتحصن بها وأخذ ماله وأهله فيمن أخذ، وحاصروهم بقية الشهر، فلما دخل ذو القعدة وهو شهرٌ حرام لا يحلُّ به القتال انصرف عنهم فأتى الجعرانة وأحرم منها بعمره، وقسم بها السبيَ والمال، وكانوا أصابوا يومئذ ستة آلاف سبي، ثم جاء قومهم وأسلموا وقالوا: في السبي عماتك وخالاتك، ولو كنّا^(٢) أرضعنا النعمان بن المنذر لكنّا نرجو عائدته اليوم، وأنت خير الناس وأبرهم وأرحمهم وأوصلهم للرحم، فقال عليه السلام: «أيا أحبُّ إليكم أنسابكم أو أموالكم؟» فقالوا: أنسابنا، فقام عليه السلام خطيباً وقال: «إن هؤلاء جاؤونا مسلمين، وقد خيرناهم فاخترنا أنسابهم، فمن كان بيده شيء وطابت نفسه أن يردّ فشاؤه، ومن لا تطب نفسه^(٣) فليعطنا وليكن قرضاً علينا حتى نصيب شيئاً فنعطيه مكانه»، فقالوا: رضينا وسلّمنا، فردّوا^(٤).

وأخذ أميرهم^(٥) مالك بن عوف فأتى به النبي ﷺ، فقال له: «ما تريد، أقتلك أم أفاديك أم أؤمنُ عليك أم تُسلم؟» فقال: أما الإسلام فلا أسلم أبداً، وأما القتل فإن قتلتي قتلت عظيمًا، فإن مننت عليّ فأعتقتني مننت على عظيم، فقال: «أؤمنُ عليك

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٤/٥)، والبغوي في «تفسيره» (٢٨/٤).

(٢) في (ف) و(أ): «أنا».

(٣) «تطب نفسه» من (ف).

(٤) رواه بنحوه البخاري (٤٣١٨ - ٤٣١٩)، والإمام أحمد في «المسند» (١٨٩١٤)، من حديث

مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة رضي الله عنهما. وبنحوه أيضاً رواه النسائي (٣٦٨٨)،

والإمام أحمد في «المسند» (٦٧٢٩) و(٧٠٣٧)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٥) في (أ): «منهم».

وأطلقك»، ففعل فقال: تعجبتُ من حُسن خُلقك^(١)، ولا يكون هذا إلا من نبيٍّ حقٍّ، فأسلم وحسن إسلامه^(٢).

وقسم بالجعرانة غنائم حنين، وتآلف أناساً منهم أبو سفيان بن حرب والحارث ابن هشام وسهيل بن عمرو والأقرع بن حابس، فقالت الأنصار: أمن الرجل وآثر قومه، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ وهو في قبة آدم، فقال: «يا معاشر الأنصار، ما هذا الذي بلغني عنكم، ألم تكونوا ضلّالاً فهداكم الله، ألم تكونوا أذلةً فأعزكم الله، ألم ألق سعد بن عبادَةَ: ائذن لي أتكلّم، فقال: «تكلّم»، فقال: أمّا قولك: كنتم ضلّالاً فهداكم الله، فكنا كذلك، وأمّا قولك: كنتم أذلةً فأعزكم الله، فقد علمتِ العرب أنه ما كان حيٍّ من أحياء العرب أَمْنَعَ لِمَا وراءَ ظهورهم منّا، فقال عمر: يا سعد، أتدري مَنْ تكلّم؟ فقال: يا عمر، أكلم رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو سلكتِ الأنصار وادياً والناسُ وادياً لسلكتُ وادي الأنصار، ولولا الهجرةُ لكنت امرءاً من الأنصار» ثم قال: «يا معاشر الأنصار، أمّا ترضون أن ينقلبَ الناس بالإبل والشاة وتقلّبون أنتم برسول الله إلى بيوتكم؟» فقالت الأنصار: رضينا بالله ورسوله، ما قلنا ذلك إلا ضناً بالله ورسوله، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله ورسوله يصدّقانكم ويعذرانكم»^(٣).

فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة قام خطيباً فقال: «أما إن خطيب الأنصار لو

(١) في (أ): «تخلّقتك».

(٢) انظر قصة إسلام مالك بن عوف في «السيرة النبوية» (٢/ ٤٩١)، و«طبقات ابن سعد» (١/ ٣١٢)، عن محمد بن سلام الجمحي، وفي «دلائل النبوة» للبيهقي (٥/ ١٩٣) عن سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير، وفيه أنه أعطاه مئة من الإبل واستعمله على من أسلم من قومه.

(٣) قطعة من خبر رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٢٨٧-٢٨٩) عن قتادة، وإسناده ضعيف لإرساله.

قال: كنت طريداً فأويناك، وكنت خائفاً فأمنّاك، وكنت مخذولاً فنصرناك، وكنت وكنت، لكان قد صدق»، فبكت الأنصار وقالت: يد الله أعظم علينا منّا^(١).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: المنصور من الله مَنْ عصمه عن التوهّمات، ولم يَكِلْهُ إلى تدبيره في الأمور، بل أقامه مقام الافتقار متبرئاً من الحول والقوة، متحققاً بتصاريف القدرة، ولَمَّا أعجبته كثرتهم تفرق عن رسول الله ﷺ في الحال أكثر الأصحاب، وكُشف عن القوم جلايب السر، واضطربت القلوب، وخانت القوى أصحابها فلم تُغنِ عنهم كثرتهم، فاستخلص الله أسرارهم بصدق الرجوع إليه، فأُنزل سكينته عليهم وقلّب الأمر على الأعداء، وخفقت رايات النصر^(٢)، ووقعت الدّبرة على الأعداء فانقلبوا صاغرين^(٣).

(٢٦) - ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾: أي: الرحمة التي^(٤) يسكن إليها القلب.

وقيل: هي الأمانة والطمأنينة.

وقيل: هي زوال الاضطراب الذي يعتري القلب، وثبات القلب للحرب.

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٥).

(٢) في (ف) و(أ): «وحققت آيات النصر».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ١٨ - ١٩).

(٤) «التي» ليس في (أ) و(ف).

وفي هذه الآية نقض قول المعتزلة؛ لأنه سماهم مؤمنين بعد التوَّلي؛ قاله الإمام أبو منصور رحمه الله^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾: أي: من الملائكة ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالهزيمة والقتل والسبي.

قوله تعالى: ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾: إذا لاقوا المؤمنين أن يكون الدِّبْرَة على الكافرين والنصرة للمؤمنين.

قال القشيري رحمه الله: السكينة ثلج القلب عند جريان حكم الربّ وخمود آثار^(٢) البشرية بالكلية، والرضا بما يبدو من الغيب من غير معارضة القضية، والسكينة المنزلة على المؤمنين اختطاف الحق إياهم [عنهم] حتى لم تستفزهم رهبة من مخلوق، وسكن عنهم كل إرادة واختيار.

﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ من وفور اليقين وزوائد الاستبصار ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بتطويحهم في متاهات التغير^(٣)، والسقوط في وهدة [ضيق] التدبير، والغية عن شهود التقدير^(٤).

(٢٧) - ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: ثم

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٣٢٦/٥).

(٢) في (ر): «نار».

(٣) في (ف): «التعزير». وعبرة «التأويلات»: (بالتطوح في متاهات التفرقة).

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (١٩/٢)، وما بين معكوفتين منه.

يُوفِّقُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْإِيمَانِ بَعْدَ ذَلِكَ مَنْ يَشَاءُ فَيَقْبَلُهُ وَيَغْفِرُ لَهُ، وَهُوَ الْغَفُورُ لِلْمُؤْمِنِينَ الرَّحِيمُ بِهِمْ أَجْمَعِينَ.

وقيل: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ﴾؛ أي: يقبل توبة المنهزمين إذا علم منهم الصدق والندم، وهم المهاجرون والأنصار دون مَنْ رجعوا إلى الحرب في الظاهر ولهم نفاق وكفرٌ في الباطن.

(٢٨) - ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾: أي: أنجاس، وإنما وحّد لأنه في الأصل مصدر فلا يُشْنَى ولا يُجمع ولا يُؤنَّث، يقال: رجل نجس، ورجلان وامرأتان نجس، ورجال ونساء نجس، ومعناه: أنهم أنجاس في اعتقادهم وأحوالهم وأفعالهم وأقوالهم؛ لأنهم يشركون بالله غيره ويريدون بأعمالهم سواء، فهم مستقدرون يجب اجتنباهم.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾: وهذا من جملة ما وقع به الأذان يوم الحج الأكبر مع البراءة من العهود وبه الانتظام؛ أي: فامنعوهم من الحج بعد هذا العام، وكذا من دخول الحرم للتجارة وغير ذلك.

وقال الإمام مالك رحمه الله: لا يُترك الذَّمُّي يدخل مسجداً؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾.

وقال الشافعي رحمه الله: يمنع عن دخول المسجد الحرام فحسبُ لهذه الآية.

وعندنا لا يُمنع عن دخول المسجد الحرام أيضاً، والآية في دخولهم للحج؛ لأنهم كانوا يعملون في الحج أعمال المشركين، فأمر الله تعالى بتنزيه المسجد الحرام والحرّم عن ذلك أيضاً، فأما نفس الدخول فغير ممنوع عنها.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عِيْلَةً﴾: أي: فقراً قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾

[الضحى: ٨]، قال الشاعر:

ولا يدري الفقير متى غناه ولا يدري الغني متى يعول^(١)

وقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ﴾: قيل: إنهم كانوا يرذون بمكة تجاراً فترفق أهلها بهم في معاشهم، فلما أمروا بمنعهم منها أشفقوا من ضيق المعاش وانقطاع التجارات، فوعدهم الله تعالى الغنى من وجه آخر من فضله وأمنهم من الفقر.

قال مقاتل: أغناهم الله من فضله فأسلم أهل صنعاء وجدة وجرش، وحملوا الطعام إلى مكة على ظهور الدواب، فكفاهم^(٢) ما كانوا يتخوفون^(٣).

وقوله تعالى: ﴿إِنْ شَاءَ﴾ علق بالمشيئة قطعاً للأمال عن الأسباب، وصرفاً لها إلى الله تعالى؛ كما قال الله تعالى: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَمِينٌ﴾ [الفتح: ٢٧].

(١) البيت لأحيحة بن الجلاح، وهو في «ديوانه» (ص: ٧٤)، و«جمهرة أشعار العرب» (ص: ٢٧ و ٥١٨)، و«معاني القرآن» للفراء (١/ ٢٥٥)، و«مجاز القرآن» (١/ ٢٥٥) و(٢/ ٣٠٢)، و«تفسير الطبري» (٦/ ٣٧٥) و(١١/ ٣٩٩)، و«معاني القرآن» للزجاج (١/ ٣٦٨) و(٢/ ٤٤١)، و«جمهرة اللغة» (١/ ٥٩ و ٥٧١)، و«الزاهر» لابن الأنباري (١/ ١٤١)، و«غريب الحديث» للخطابي (١/ ٩٨)، و«الصحيح» (مادة: عيل). وفي جميع هذه المصادر: (متى يعيل).

(٢) في (ر): «فأمنهم».

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ١٦٦).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾: أي: بمصالح العباد ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما حكم^(١) وأراد.

وقال الكلبي: ولما قال علي بن أبي طالب: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ قال له أناس من بكر بن وائل من التجار: يا أهل مكة، ستعلمون إذا فعلتُم هذا ماذا تلقون من الشدة، ومن أين تأكلون، فشق ذلك عليهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: فأمرهم الله تعالى بقتال أهل الكتاب وأغناهم من فضله^(٢).

وقال عطاء: أغناهم الله تعالى بالجزية الجارية شهراً فشهرًا عاماً فعاماً^(٣).

وقال القشيري رحمه الله: مَنْ أناخ بعقوة^(٤) كرم مولاه، واستمطر من سحائب جدواه^(٥)، أغناه عن كل سبب، وكفاه كل تعب، وقضى له كل أرب، وأعطاه^(٦) من غير طلب^(٧).

(١) في (ر) و(ف): «فعل».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١ / ٤٠٠).

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٠٧١)، والطبري في «تفسيره» (١١ / ٤٠٤)، لكن عن قتادة.

(٤) في (ر): «باب»، وفي (ف): «بعقوة»، والمثبت من (أ) و«اللطف». والعقوة: شجر، وما حول الدار والمحلة. انظر: «القاموس» (مادة: عقى).

(٥) في «لطائف الإشارات»: (جوده).

(٦) في (أ): «وأغناه»، والمثبت من (ر) و(ف) و«اللطف».

(٧) انظر: «لطائف الإشارات» (٢ / ١٩)، وما بين معكوفتين منه.

(٢٩) - ﴿ قَنِِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ قَنِِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾: بَيِّنَ فِي الْآيِ الْأَوَّلِ قِتَالَ الْمُشْرِكِينَ، وَبَيِّنَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ قِتَالَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى.

ولو قال: (قاتلوا أهل الكتاب) لكفى، وإنما جَمَعَ هَذِهِ الْأَوْصَافَ الذَّمِيمَةَ تَحْرِيسًا لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى قِتَالِهِمْ؛ لِأَنَّهَا صِفَاتٌ تَوْجِبُ الْبَرَاءَةَ مِنْهُمْ وَالْعَدَاوَةَ لَهُمْ.

وإنما قال لهم: ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ وهم يَدْعُونَ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ؛ لِأَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ الَّذِي لَهُ الْوَلَدُ وَهُوَ شَبِيهُ بِالْخَلْقِ، وَهَذَا لَيْسَ بِإِيمَانٍ بِاللَّهِ، وَكَذَا يَصَدِّقُونَ اللَّهَ بِإِرْسَالِ بَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ وَلَا يَصَدِّقُونَهُ فِي إِرْسَالِ بَعْضِ وَهُوَ يَبْطُلُ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ.

وَكَذَا قَالَ: ﴿ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ وهم يَدْعُونَ الْإِيمَانَ بِهِ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَصَدِّقُونَ بِمَا فِيهِ مِنَ الْوَعْدِ وَالْوَعْدِ، فَيَقُولُونَ: لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً، وَيَقُولُونَ: لَيْسَ فِي الْجَنَّةِ مَطَاعِمٌ وَمَشَارِبٌ وَمَنَاحِكُ، وَلَا يَكُونُ هَذَا إِيمَانًا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ.

﴿ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾: مِنَ الْخَمْرِ وَالْخَنْزِيرِ، وَتَحْرِيفِ الْكِتَابِ، وَكُتْمَانِ نَعْتِ النَّبِيِّ ﷺ.

﴿ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ ﴾ وهو الإسلام؛ فَإِنَّ الْيَهُودِيَّةَ وَالنَّصْرَانِيَّةَ دِينٌ بَاطِلٌ، فَإِنَّهُ نَسَخَ بَعْضَ أَحْكَامِ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، وَهُمْ قَدْ حَرَّفُوا الْبَعْضَ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقوله تعالى: ﴿ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ ﴾: أَي: إِلَى أَنْ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ؛ كَمَا قَالَ: ﴿ فَإِنْ

تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ ﴿[التوبة: ٥]﴾ أي: قبلوهما، مَدَّ وجوب القتال إلى هذه الغاية وهي قبول الجزية، وهذا حكم أهل الكتاب بالنص، وحكم المجوس كذلك بالخبر، وهو قوله عليه السلام: «سُنُّوا في المجوس سُنَّةَ أهل الكتاب غير ناكحي نسائهم ولا آكلي ذبائحهم»^(١)، ولا يجوز هذا في مشركي العرب؛ لقوله عليه السلام: «لا يُقبل منهم إلا الإسلام أو السيف»^(٢) ويجوز في الهند والأترار والديلم عندنا خلافاً للشافعي رحمه الله تعالى، وهي تعرف في الفقهيات.

وقوله تعالى: ﴿عَنْ يَدٍ﴾: قيل: عن نقدٍ، فلا تؤخَّر عن وقتها، من قوله: يداً بيد.

(١) رواه دون قوله: «غير ناكحي...» مالك في «الموطأ» (١/٢٧٨) عن جعفر بن محمد بن علي عن أبيه: أن عمر بن الخطاب ذكر المجوس فقال: ما أدري كيف أصنع في أمرهم؟ فقال عبد الرحمن بن عوف: أشهدُ لسمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «سُنُّوا بهم سُنَّةَ أهل الكتاب». قال ابن عبد البر في «التمهيد» (٢/١١٤-١١٦): هذا حديث منقطع لأن محمد بن علي لم يلق عمر ولا عبد الرحمن بن عوف... ولكن معناه متصل من وجوه حسان.

وقوله: «غير ناكحي...» لم يرد في هذا الخبر، وإنما هو مدرج فيه كما قال ابن حجر في «التلخيص الحبير» (٣/١٧٢)، قال: لكن روى عبد الرزاق وابن أبي شيبة والبيهقي من طريق الحسن بن محمد ابن علي قال: (كتب رسول الله ﷺ إلى مجوس هجر يعرض عليهم الإسلام، فمن أسلم قبل، ومن أصر ضربت عليه الجزية، على ألا تؤكل لهم ذبيحة، ولا تنكح لهم امرأة)، وفي رواية عبد الرزاق: (غير ناكحي نسائهم، ولا آكلي ذبائحهم)، وهو مرسل، وفي إسناده قيس بن الربيع وهو ضعيف، قال البيهقي: وإجماع أكثر المسلمين عليه يؤكد.

ثم قال الحافظ: تنبيه: تبين أن الاستثناء في حديث عبد الرحمن مدرج، ونقل الحربي الإجماع على المنع إلا عن أبي ثور، ورده ابن حزم بأن الجواز ثبت عن سعيد بن المسيب أيضاً، وأخرج ابن أبي شيبة، من طريقه جواز التسري من المجوس بإسناد صحيح، وعن عطاء وطاوس وعمر بن دينار كذلك.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/١١٧-١١٨) من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

وقيل: عن يد مَنْ عليه، فيُحضره^(١) بنفسه ويؤدِّي، ولا يُرسل به رسولاً، ولا يبعثه على يد ولده أو وكيله أو عبده.

وقيل: عن طيبِ نفسه، فيعطي بيده من غير أن يُكره عليه؛ أي: دليل^(٢) قبوله طوعه دون أن يُكره عليه، فإنه إذا احتاج إلى ذلك بقي القتل والقتال والسبي ولا يثبت عقد الذمة.

وقيل: عن انقياد، يقال: أعطى فلان بيده، إذا استسلم وانقاد.

وقيل: أي: عن رؤيتهم ذلك إنعاماً منكم عليهم بترك القتال^(٣) بهذا، من قولك: اصطنعتُ إلى فلان يداً.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ صَغُورُونَ﴾: أي: أذلاءً مقهورين يأتون للأداء مشاةً لا ركباً، ويؤدون قياماً والآخذ قاعدٌ ويده تحت يد الآخر، ويؤخذ بتليبيه^(٤) عند الأخذ ويحرَّك ويقال: أذَّ الجزية يا يهودي، أو: يا نصراني.

وقيل: أي: تصاغرت إليهم أنفسهم بما احتاجوا إليه من بذل الجزية لحقن دمائهم.

وقال الكلبي: نزلت في بني قريظة وبني النضير.

والجزية على ثلاث مراتب: على المعتمِل في السَّنة اثنا عشر درهماً، وعلى وسط الحال أربعة وعشرون درهماً، وعلى كامل الغنى ثمانية وأربعون درهماً،

(١) في (ر) و(ف): «فيحضر».

(٢) في (أ): «أي ذلك».

(٣) في (أ): «القتل».

(٤) في (أ): «ويدخله بتليبيه»، وفي (ر): «ويدخله بتليبيه».

كذلك وظَّفها عمر رضي الله عنه^(١)، وبهذه الجزية أغناهم عن العيلة، وهو وجه اتصال هذه الآية بالأولى.

(٣٠) - ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَنَلَهُمُ اللَّهُ أَنْ يُوَفَّكَونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾: قرأ عاصم والكسائي وسهل ويعقوب في رواية: ﴿عُزَيْرٌ﴾ بالتنوين؛ لأنه اسم مصغر فهو مصروف، ولأنه اسم خفيف فيصرف وإن كان أعجمياً كنوح ولوط، ولأنه اسم مبتدأ وهو مفرد غير منسوب و﴿ابْنُ اللَّهِ﴾ خبره، وقرأ الباقر وغير تنوين^(٢)؛ لأنه اسم أعجمي مفرد، ولأن ﴿ابْنُ﴾ صفة له وتقديره عزير ابن الله معبودنا، أو: نبينا، على هذه القراءة.

ثم هذا بيان قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ مع دعواهم؛ لأن هذا قولهم في الله. وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾: أي: هو قول^(٣) يقولونه بألسنتهم لا حجة لهم على صحته.

وذكر الإمام أبو منصور رحمه الله هذا ثم قال: أو قالوا ذلك بأفواههم من^(٤) غير شبهة اعترضت لهم تحمّلهم على ذلك^(٥).

(١) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٤ / ٢٩٠)، و«شرح صحيح البخاري» لابن بطال (٥ / ٣٣١)، و«المبسوط» للسرخسي (١٠ / ٧٨).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣١٣)، و«التيسير» (ص: ١١٨). وقراءة يعقوب في «النشر» (٢ / ٢٧٩).

(٣) في (ف): «أي هم».

(٤) في (أ): «على».

(٥) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥ / ٣٥٧).

وقوله تعالى: ﴿يُضَاهِيُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾^(١): قرأ عاصم بالهمزة والباقون بغير همزة^(٢)، وهما لغتان: ضَاهَيْتُهُ وضَاهَاتُهُ؛ أي: شَابَهَتْهُ، ومعناه عند ابن عباس رضي الله عنهما: شَابَهُوا عبدة الأوثان في هذا القول^(٣).

وقيل: في قولهم: الملائكة بنات الله.

وقال الزجاج: أي: في تقليدهم أسلافهم في هذا القول^(٤).

وقيل: أي: المشركين في إثبات الشركاء لله.

وقوله تعالى: ﴿قَتَلَهُمُ اللَّهُ﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: لعنهم الله^(٥).

وقيل: أي: قَتَلَهُمُ الله، وقيل: أي: عَادَاهُمُ الله، وقيل، أي: أَهْلَكَهُمُ الله.

وقوله تعالى: ﴿أَنْتَ يُؤْفِكُوكَ﴾: أي: من أين يصرفون عن الحق، والصرفُ عن الحق ضلال.

قال مقاتل: إن اليهود لعنهم الله قتلوا أنبياءهم، فرفع الله عنهم التوراة ومحأها من قلوبهم، فخرج عزيزٌ يسبح في الأرض، فأتاه جبريل عليه السلام فقال: أين تذهب؟ قال أطلب العلم، فعَلَّمَهُ جبريل صلوات الله عليه التوراة كُلَّهَا، فجاء عزيز بالتوراة إلى بني إسرائيل فعَلَّمَهُمُ، فقالوا: لم يَعْلَمْ عزيز هذا

(١) في (ف): «يضاهون قول...».

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣١٤)، و«التيسير» (ص: ١١٨).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٤١٤/١١).

(٤) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤٤٣/٢).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (٤١٥/١١)، وابن أبي حاتم (١٧٨٣/٦).

العلم إلا لأنه ابن الله^(١). وله طرق أخرى ذكرنا بعضها في سورة البقرة.

وقال السدي: إن العمالة ظهرت عليهم فقتلوهم وأخذوا التوراة، وهرب علماءهم الذين بقوا ودفنوا كتب التوراة في الجبال، وكان عزيز غلاماً يتعبد في رؤوس الجبال لا ينزل إلا يوم عيد، فجعل يبكي ويقول: يا رب، تركت بني إسرائيل بغير عالم؟ فجعل يبكي حتى سقطت أشفار عينيه، فنزل مرة إلى العيد فلماً رجع إذا بامرأة قد مثّلت له عند قبر تبكي وتقول: يا مطعماه يا كاسياه، فقال لها: ويحك! من كان يطعمك ويكسوك؟ قالت: هذا الرجل، يعني: زوجها، قال: فمن كان يطعمك ويكسوك قبله؟ قالت: الله، قال: فإن الله حي لا يموت، قالت: يا عزيز، فمن كان يعلم العلماء قبل بني إسرائيل؟ قال: الله، قالت: فلم تبكي عليهم؟! فلما علم^(٢) أنه خصم - أي: غلب^(٣) - ولّى مديراً فقالت: يا عزيز، إذا أصبحت غداً فأنت نهر كذا فاغتسل فيه ثم اخرج فصل ركعتين، فإنه يأتيك شيخ فما أعطاك فخذ منه، فلما أصبح انطلق إلى ذلك النهر فاغتسل ثم صلى ركعتين، فجاءه الشيخ فقال: افتح فاك، ففتح فاه فألقى فيه شيئاً كههيئة الجمرة العظيمة مجتمعاً [كههيئة القوارير] ثلاث مرات، فرجع عزيز وهو من أعلم الناس بالتوراة، فقال: يا بني إسرائيل، قد جئكم بالتوراة، فقالوا: يا عزيز! ما كنت كذاباً، فعمد فربط على كل أصبع له قلماً، وكتب بأصابعه كلها حتى كتب التوراة، فلما رجع العلماء استخرجوا كتبهم التي دفنوها في خوابٍ، فعارضوها بتوراة عزيز فوجدوها مثلها، فقالوا: ما أعطاك الله هذا إلا لأنك ابنه^(٤).

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (١٦٧/٢). ورواه بنحوه ابن أبي حاتم (١٧٨١/٦) عن ابن عباس، لكن إسناده ضعيف.

(٢) في (أ): «عرف».

(٣) «أي: غلب» ليس من (أ) و(ف).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٤١٠/١١)، وما بين معكوفتين منه. ولعله أخذه من الإسرائيليات.

وأما النصارى فقد قال الكلبي: كان شرُّهم أنهم كانوا على الحق إحدى وثمانين سنةً بعد ما رُفع عيسى عليه السلام إلى السماء يصلُّون إلى القبلة ويصومون، حتى وقع فيما بينهم وبين اليهود حربٌ، وكان في اليهود رجلٌ شجاع يقال له: بولس، قتل جماعةً من أصحاب عيسى ثم قال لليهود: كان الحق مع عيسى فكفرنا وجحدنا، والنار مصيرُنا، فنحن مغبونون إن دخلوا الجنة ودخلنا النار، وإنِّي أحتال فأضلُّهم حتى يدخلوا معنا النار، وكان له فرسٌ يقال له: العُقاب، يقاتل عليه، فعَرَب فرسه وأظهر الندامة ووضع على رأسه التراب، فقالت له النصارى: مَنْ أنت؟ قال: أنا بولسُ عدوكم فنوديت من السماء: ليست لك توبةٌ إلا أن تنصّر، وقد تُبْتُ. فأدخلوه في الكنيسة فدخل فيها سنةً لا يخرج ليلاً ولا نهاراً حتى تعلَّم الإنجيل، ثم خرج وقال: نوديت: إن الله تعالى قَبِلَ توبتك، فصَدَّقوه وأحبُّوه، ثم مضى إلى بيت المقدس واستخلف عليهم نسطور، وعَلَّمه أن عيسى ومريم والإله كانوا ثلاثةً، ثم توجَّه إلى الروم وعَلَّمهم اللاهوت والناسوت، وقال: لم يكن عيسى بإنسٍ فتأنَّس، ولا بجسمٍ فتجسَّم [ولكنه ابن الله]، وعَلَّم رجلاً يقال له: يعقوب، ذلك ثم دعا رجلاً يقال: مَلَكَا، فقال له: إن الله لم يَزَلْ ولا يزال كان عيسى. ولمَّا استمكن منهم دعا هؤلاء الثلاثة واحداً واحداً، وقال لكل واحد منهم: أنت خالصتي، ولقد رأيت عيسى في المنام فرضي عني، وقال لكل واحد منهم: إني غداً أذبح نفسي فادعُ الناس إلى نحلتي، ثم دخل المذبح [فذبح نفسه] وقال: إنما أفعل ذلك لمرضاة عيسى، فلما كان يوم ثالثة دعا كل واحد منهم الناس إلى نحلته، فبيع كل واحد منهم طائفةً من الناس، فافْتَنُّوا واختلَفوا إلى يومنا هذا، فجميع النصارى من الفرق الثلاث^(١).

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٣٣/٥)، والواحيدي في «البيسط» (٣٧٦/١٠)، والبغوي في «تفسيره»

(٣٨/٤)، وما بين معكوفتين من هذه المصادر.

(٣١) - ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا إِلَّا إِلَهُهُ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾: أي: أطاعوا علماءهم وعُبادهم فيما أمروهم به من الاعتقاد والعمل طاعة العبيد الأرباب. وقوله تعالى: ﴿ أَرْبَابًا ﴾؛ أي: كالأرباب، وهو كقوله: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا ﴾ [الكهف: ٩٦] أي: كالنار.

وعن عدي بن حاتم قال: أتيتُ النبي ﷺ وكنتُ نصرانيًّا، فوافقتُه يقرأ سورة براءة، فبلغ قوله: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ فقلت: يا رسول الله! ما نعبدُهم من دون الله، قال: «أليس يحلُّون لكم ما حَرَّمَ الله عليكم فتستحلُّونه، ويحرِّمون عليكم ما أحلَّ الله لكم فتحرمُّونه؟» فقلت: بلى، فقال: «تلك عبادتهم»^(١).

وقال أبو البخترى: أمَّا إنهم لو أمروهم أن يعبدوهم من دون الله ما أطاعوهم، ولكن كفروهم فجعلوا حلال الله حراماً وحرامه حلالاً، فأطاعوهم فكانت تلك الربوبية.

وقوله تعالى: ﴿ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴾: أي: اتَّخذوه إلهاً معبوداً.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ﴾: أي: إلا أن يعبدوا إلهاً واحداً؛ كما في قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّيسَةَ ﴾ [النساء: ٢٦]، وقد كشفنا عن حقيقته.

(١) رواه الترمذي (٣٠٩٥)، وقال: حديث غريب... وغطيف بن أعين (أحد رواة) ليس بمعروف في الحديث.

ثم بذلك أمرهم الله تعالى في كتابه، وبذلك أمرهم عيسى عليه السلام بقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ﴾ [مريم: ٣٦].

وقوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: أي: تنزيهاً له عن إشراكهم به غيره.

(٣٢) - ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾: أي: يريد أهل الكتاب أن يُبطلوا^(١) حجج الله جلّ جلاله بجدالٍ منهم بالسنتهم من غير حجة. وقال الحسن والسدي: نور الله تعالى: القرآن والإسلام^(٢). وقيل: الدلالة والبرهان.

وقال الضحاك: يريدون أن يهلك محمدٌ وأصحابه ولا يُعبد الله بالإسلام^(٣). وقال: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَتِمَّ نُورُهُ﴾: أي: لا يريد الله إلا تمام هذا النور، وهو إبقاء الإسلام والإيمان^(٤) والقرآن، وإيضاح الحجة والبرهان، وفيه تخبّيئهم وقطعُ أطماعهم.

(١) بعدها في (ف): «نور الله».

(٢) رواه عن السديّ الطبريّ في «تفسيره» (١١/٤٢٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/١٧٨٥)، وذكره عن الحسن ابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/٤٢٦)، وزاد معه قتادة.

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/١٧٨٥).

(٤) «والإيمان» ليست في (أ).

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾: أي: على كراهية اليهود والنصارى؛ إذلالاً^(١) لهم وكتباً وغيظاً.

وقال القشيري رحمه الله: مَنْ رام أن يستر شعاع الشمس بدخان نيرانه، أو عالَج أن يدفع حكم السماء بحيلته وتدييره^(٢)، أو يُسقط نجوم الفلك بسهام تقديره، أظهر رعونته ثم لم يحظْ بمراده، كذلك مَنْ توهم أن حُجج التوحيد يعلوها رهجُ الشُّبه فقد أحوال في ظنِّه وافتضح في وهمه^(٣).

(٣٣) - ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾: أي: محمداً ﴿بِالْهُدَىٰ﴾؛ أي: بالتوحيد.

وقيل: بفرائض^(٤) الله على خلقه.

وقال الكلبي: أي: بالقرآن الذي يهدي إلى الرشد.

﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾: أي: الإسلام، وإضافته إلى الحق لوجهين:

أحدهما: أن الحق هو اسم الله، والمراد دينُ الله.

والثاني: أن الحق هو الإسلام؛ لأنه حقٌّ والكفر باطل، ويجوز أن يقال: دين الإسلام؛ أي: طريق الإسلام وملة الإسلام وشريعة الإسلام.

(١) في (ف) و(أ): «إضلالاً».

(٢) في (أ): «بمجيء تدييره»، وفي (ر) و(ف): «بمحن تدييره»، والمثبت من «لطائف الإشارات».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٢٢٢).

(٤) في (ر) و(ف): «بفرض».

وقوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَنُكَفِّرَ الْمُشْرِكُونَ﴾: أي: لِيُعْلِيَهُ^(١) على الأديان كلها على كراهة المشركين الظهور والعلو والغلبة، قال الله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤]، والدِّين اسم جنس فيصلح للجمع.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾؛ أي: ليعلمه شرائع الدين كلها، فيُظْهِرَهُ ويُطْلَعَهُ عليها^(٢)، والهاء عائدة إلى النبي ﷺ على هذا التأويل، وهو كقوله: ﴿وَأَظْهَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ [التحریم: ٣]؛ أي: أطلعه عليه، وعلى التأويل الأول تعودُ الهاء إلى الدِّين، والإظهار بمعنى الإعلاء.

وقال الكلبي: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾ بالقرآن والإيمان ليُظْهِرَ دينه على الأديان كلها، فلا يبقى دينٌ إلا ظهر عليه الإسلام، وسيكون ذلك ولم يكن بعد، ولا تقوم الساعة حتى يكون ذلك.

وقال الضحاك: عند نزول عيسى^(٣)، فلا يبقى أهل دينٍ إلا دخل في الإسلام أو أدَّى الجزية إلى المسلمين.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «ينزل عيسى بن مريم فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية»^(٤)، فلا يبقى على وجه الأرض إلا مسلمٌ أو مسلم.

(١) في (أ): «ليغلبه»، وفي (ف): «للغلبة».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/٤٢٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/١٧٨٦)، وذكره عن الحسن ابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/٤٢٦)، وزاد معه قتادة.

(٣) ذكره الواحدي في «البيسط» (١٠/٣٩١)، والبغوي في «تفسيره» (٤/٤٠)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١١/٤٢٢) عن أبي هريرة وأبي جعفر.

(٤) رواه البخاري (٢٤٧٦)، ومسلم (١٥٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وزادا: «ويفيض المال حتى لا يقبله أحد».

وقال الإمام القشيري رحمه الله: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أزال العِلل بما ألاح من الحُجَج، وأزال الشُّبُه بما أوضح من النِّهَج، فشموس الحق طالعة، وأدلة الشرع لامعة، وأنشدوا:

هي الشمسُ إلا أن للشمس غَيَّةً وهذا الذي نَعْنِيهِ ^(١) ليس يَغِيبُ ^(٢)

(٣٤) - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَفْقَهُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾: وصفَ الأخبار والرهبان الذين اتخذهم ^(٣) أهل الكتاب أرباباً فقال: لا تتوهموا في كثير من الأخبار والرهبان ^(٤) صلاحاً، ولا تغتروا بظاهر زِيهِهم وسكونهم، فإن ذلك كله مصائد للمطامع، واستجلاب للرئاسة، ومكائد للصدد عن سبيل الله، والجر إلى الضلالة، وذلك بأخذهم الرِّشا من الأشراف والعامّة، وتحريف الكتاب، وكتمان نعت ^(٥) النبي ﷺ وحقية الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَفْقَهُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: أي: يجمعون ويحتازون ^(٦).

(١) في (ر) و(ف): «نبيغية»، والمثبت من (أ) و«اللطايف»، ومثله في هامش (ر).

(٢) انظر: «لطايف الإشارات» (٢/ ٢٢).

(٣) في (ر) و(ف): «اتخذوهم» وهي على لغة: أكلوني البراغيث.

(٤) بعدها في (ف): «الذين اتخذوهم أهل الكتاب أرباباً».

(٥) في (ر): «بعث».

(٦) في (أ): «ويخبئون».

وقيل: أصله هو كبس^(١) الشيء بعضه على بعض.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَنْفِقُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: أي: لا يُخرجونها في طاعة الله، ولم يقل: ينفقونهما؛ لأنه أراد به^(٢) الكنوز.

وقيل: اكتفى بأحدهما عن الآخر إيجازاً، ومثله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً أَنْفَضُوا إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: ١١]، وقد أطلنا الكلام في نظائرها في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا يُرَمِّمْ بِهِ بَرِيئًا﴾ [النساء: ١١٢].

وقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: أي: ضع الوعيد بالعذاب الأليم موضع البشرى بالنعيم في حقهم على التعميم.

ثم قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ﴾ قيل: هو معطوف على ﴿إِنْ كَثُرَ﴾ وهو من صفات أهل الكتاب: جمع المال، ومنع حقوق الله تعالى فيه، والبخل، وقد مرت آيات في إثبات غاية بخلهم.

وقيل: هو مبتدأ في مانعي الزكاة من المسلمين.

وقيل: هو عامٌ يتناول الكل.

وقال السدي: هي في أهل القبلة^(٣).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هي خاصة عامة؛ أي: خاصة في السبب عامة في النسب^(٤).

(١) في (ر): «كتر».

(٢) «به» ليس من (أ) و(ف).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/٤٢٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/١٧٨٩).

(٤) «أي: خاصة في السبب عامة في النسب» ليس من (أ) و(ف).

وروي عن أبي ذر رضي الله عنه أنه قرأ هذه الآية على معاوية في أمر من الأمور، فقال معاوية: ليست هذه الآية فينا، إنما هذه الآية في أهل الكتاب، فقال أبو ذر رضي الله عنه: إنها لفينا وفيهم^(١).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما موقوفاً عليه ومرفوعاً إلى النبي ﷺ أنه قال: «ما أدِّي زكاته فليس بكنز»^(٢).

(١) رواه البخاري (٤٦٦٠).

(٢) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٨٣ / ٤) من طريق محمد بن جبير عن سفيان عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر مرفوعاً بلفظ: «كل ما أدِّي زكاته فليس بكنز وإن كان مدفوناً تحت الأرض، وكل ما لا يؤدي زكاته فهو كنز وإن كان ظاهراً» قال البيهقي: ليس هذا بمحفوظ، وإنما المشهور عن سفيان عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر موقوفاً.

ورواه الطبراني في «الأوسط» (٨٢٧٩) وابن عدي في «الكامل» (٤٢٦ / ٣) من طريق سويد بن عبد العزيز عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر مرفوعاً، ولفظه: «كل مال وإن كان تحت سبع أرضين يؤدي زكاته فليس بكنز، وكل مال لا يؤدي زكاته وإن كان ظاهراً فهو كنز» قال ابن عدي: رفعه سويد إلى النبي ﷺ وغيره يرويه موقوفاً.

والموقوف رواه الشافعي في «مسنده» (ص: ٨٧)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٧١٤٠) و(٧١٤١).

وفي الباب عن أم سلمة قالت: «كنت ألبس أوضاحاً من ذهب، فقلت: يا رسول الله، أكنز هو؟ قال: «ما بلغ أن تؤدِّي زكاته، فركي، فليس بكنز» أخرجه أبو داود (١٥٦٤) واللفظ له، والحاكم في «المستدرک» (١٤٣٨)، من طريق عطاء عن أم سلمة. ورجاله ثقات إلا أن عطاء - وهو ابن أبي رباح - لم يسمع من أم سلمة فيما قاله علي بن المديني. ومع ذلك فقد صححه ابن القطان، وجوّد إسناده الحافظ العراقي، فيما نقله عنهما الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٢٧٢ / ٣).

وروى البخاري في «صحيحه» (١٤٠٤): عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سئل عن هذه الآية فقال: من كنزها فلم يؤدِّ زكاتها فويل له، إنما كان هذا قبل أن تنزل الزكاة، فلما أنزلت جعلها الله طهراً للأموال. وقد ترجم له البخاري بقوله: (باب ما أدِّي زكاته فليس بكنز).

وقال سالم بن أبي الجعد: لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «تَبًّا للذهب والفضة» قالها ثلاثاً، فشَقَّ ذلك على الصحابة رضوان الله عليهم، فقالوا: أي مال نتخذُه؟ [فقال عمر: أنا أعلمُ لكم ذلك، فقال: يا رسول الله، إن أصحابك قد شَقَّ عليهم، وقالوا: فأَيَّ المال نتخذُ؟] فقال رسول الله ﷺ: «لساناً ذاكراً، وقلباً خاشعاً، وزوجةً تُعين أحداكم على دينه»^(١).

(٣٥) - ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَرَزْتُمْ لَأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْزِبُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾: وهو ظرفٌ لِمَا قبله؛ أي: فبشرهم بعذاب أليم يعدَّبون به يوم يحمى عليها؛ أي: يوقد على هذه الأموال، وقد حمى يحمى بالنار من حد علم، وأحمى غيره إحماءً.

وقوله تعالى: ﴿فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ﴾: أي: فتؤسَم بالكنوز

(١) حديث حسن بطرقه وشواهده، رواه الطبري في «تفسيره» (٤٢٨/١١) وما بين معكوفتين منه. وهذا بعضه مرسل عن سالم، وبعضه - وهو المروي عن عمر - منقطع، وسالم بن أبي الجعد روى عن عمر لكنه لم يدركه، وهو ثقة روى له الجماعة.

ورواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٢٣٩٢)، والترمذي (٣٠٩٤)، وابن ماجه (١٨٥٦)، من طريق سالم عن ثوبان به، وهو منقطع أيضاً، قال الترمذي: هذا حديث حسن، سألت محمد بن إسماعيل (البخاري) فقلت له: سالم بن أبي الجعد سمع ثوبان؟ فقال: لا.

ويشهد له ما رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٣١٠١) من طريق سلم بن عطية الفقيمي عن عبد الله ابن أبي الهذيل عن صاحب له: أنه انطلق مع عمر فقال: يا رسول الله قولك: «تَبًّا للذهب والفضة» ماذا؟ فقال ﷺ: «لساناً ذاكراً، وقلباً شاكراً، وزوجة تُعين على الآخرة» ورجاله ثقات غير سلم بن عطية فقد لَبَّته الحافظ ابن حجر في «التقريب».

المحمّاة بالنار جباهُ الكافرين، وهي جمعُ جبهة، وهي صفيحةٌ أعلى الوجه فوق الحاجبين، ﴿وَجُنُوبُهُمْ﴾ وهي جمعُ جنبٍ، ﴿وَزُفُرُهُمْ﴾ وهو جمعُ ظهرٍ، وخُصِّتْ بالكيِّ هذه المواضعُ لأنَّ الكيَّ على الجبهة^(١) يظهر للعيون فيكون أبلغَ في التشهير والتعذيب، وهو كقوله: ﴿سَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ [القلم: ١٦]، والجنوب مقاتل فكيها أشد إيجاعاً، والظهور فيها القوة، وفيه إزالةُ القوة بالكلية.

وقال أبو بكر الورّاق: إنما خُصِّتْ بالكيِّ هذه المواضعُ لأنَّ الغنيَّ المانع للزكاة إذا رأى الفقير انقبض وجهه، وإذا ضَمَّه والفقير مجلس^(٢) ازورَّ عنه فعارضه بجنبه، وإذا ملَّه قام وولَّاه ظهره^(٣).

قال محمد بن عليّ الترمذي: لأنَّه يَبْدُخُ وَيَشْمُخُ برأسه بسبب ماله ويقع على كنزهِ بجنبه ويتساند إليه بظهره^(٤).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: الجبهة مقدّمة الوجه، وهم لم يقدّموها إلى الآخرة، ولم ينفقوها في سبيل الله، فعذبوا على الجباه والجنوب لأنهم أخذوها من كلّ جانبٍ، وعلى الظُّهور لأنهم أنفقوها في الصّدِّ عن سبيل الله وتولية الظهور عن الحق، ويحتَمِلُ ذكرُ هذا إحاطةُ العذاب بهم من كلّ الجهات؛ كقوله تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]، وكقوله عز وجل: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]، وقال تعالى: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩].

وجعلَ الله تعذيبَ أهل النار في الآخرة بالأسباب التي منعتهم عن طاعة الله

(١) في (ف): «لأنَّه»، بدل: «لأنَّ الكي على الجبهة».

(٢) في (ف): «وإذا جلس الفقير مجلساً»، بدل: «وإذا ضمه والفقير مجلس».

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٤٠)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٤٣١).

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٤٠).

تعالى ودَعَتْهُمْ إِلَى مَخَالَفَةِ أَمْرِهِ، فَيَجْمَعُ بَيْنَهُمَا فِي النَّارِ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نَقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]، وقوله تعالى: ﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢] ونحو ذلك^(١).

وقال القشيري رحمه الله: لَمَّا طَلَبُوا الْجَاةَ عِنْدَ الْخَلْقِ بِمَالِهِمْ وَبِخَلْوِهَا بِإِخْرَاجِ حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى عَنْهُ شَانَ اللَّهِ وَجُوهَهُمْ، وَلَمَّا وَلَّوْا جَوَانِبَهُمْ^(٢) وَأَسْنَدُوا ظُهُورَهُمْ إِلَى أَمْوَالِهِمْ كَوَى اللَّهُ جِبَاهَهُمْ وَجَنُوبَهُمْ وَظُهُورَهُمْ^(٣).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾؛ أي: على الكنوز^(٤).

﴿فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ﴾؛ أي: لا يوضع دينارٌ مكانَ دينارٍ، ولا درهمٌ مكانَ درهمٍ، ولكن تَوْسَعُ جُلُودُهُمْ فَيُوضَعُ^(٥) لِكُلِّ دِينَارٍ وَدَرَاهِمٌ كِيَّةٌ عَلَى جِلْدِهِ.

وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما من رجلٍ لا يؤدي زكاةَ ماله إلا جعل الله ماله يوم القيامة صفائح من نارٍ فتُكْوَى بِهَا جِبْهُتُهُ وَجَنْبُهُ وَظَهْرُهُ فِي يَوْمٍ كَانَ مَقْدَارُهُ^(٦) خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ ثُمَّ يَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ، وَمَا مِنْ صَاحِبِ إِبِلٍ وَلَا بَقَرٍ لَمْ يُوَدِّ زَكَاتَهَا إِلَّا بُطِحَ لَهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِقَاعٍ قَرَقِرَ تَطَوُّهُ بِأَخْفَافِهَا وَأُظْلَافِهَا وَتَنْطِحُهُ بِقَرُونِهَا وَتَعَضُّهُ بِأَفْوَاهِهَا، كَلِمَا

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٣٦٣/٥).

(٢) في (أ): «ولما شدوا جوانبهم»، وفي (ف): «ولما سدوا جوانبهم»، وليست هذه الجملة في «اللطائف».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (٢٣/٢).

(٤) ذكره الواحدي في «البيسط» (٤٠٣/١٠).

(٥) في (ر) و(ف): «فتكوى»، والمثبت من (أ) و«البيسط» (٤٠٣/١٠)، والكلام منه.

(٦) في (أ): «قدره».

مَرَّتْ عَلَيْهِ أُخْرَاهَا عَادَتْ عَلَيْهِ أَوْلَاهَا، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فِي يَوْمٍ كَانَ مَقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، ثُمَّ يَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ، وَمَا مِنْ صَاحِبِ غَنَمٍ لَا يُؤَدِّي حَقَّهَا إِلَّا أَتَى بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَطَوُّهُ بِأُظْلَافِهَا وَتَنْطَحُهُ بِقُرُونِهَا»^(١)، ثُمَّ ذَكَرَ مَا ذَكَرَ فِي الْأَوَّلِ.

وقوله تعالى: ﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾: القول هاهنا مضمر، وتقديره: يقال لهم - أو: يقول لهم خزانة جهنم -: ﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾؛ أي: هذا الذي ترونه هو الذي كنزتم في الدنيا؛ أي: جمعتم فلم تؤدُّوا حقه ﴿فَدُونُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ أي: هذا بذاك، وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلِهَتِهِمْ تُلْمًا إِمَّا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء: ١٠].

(٣٦) - ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الَّذِينَ أَلْقِمُوا فَلَا تَطْلُمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَتْلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾: وبه يتم الحول، وبتمام الحول تجب الزكاة في النصاب^(٢)، وهو وجه اتصالها بالآية الأولى.

ووجه آخر: أنها متصلة بجملة ما نزلت فيه السورة؛ لأن النبي عليه السلام أراد أن يحج عام نزول هذه السورة، وكان الحج حينئذٍ على حساب النسيء في ذي

(١) رواه مسلم (٩٨٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في (أ): «النصب».

القعدة، وفي السنة الثانية في ذي الحجة، ولهذا قال عليه السلام عام حجّ الوداع: «إِنَّ الزَّمانَ قد استدارَ كهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ» وَأَبْطَلَ النِّسْيَ^(١).

ووجه آخر للاتصال: أن السورة في قتال المشركين وصفتهم أنهم نجس، وأفعالهم كذلك، ومن قبائحهم النسيء وهو تغيير حكم الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾: أي: شهور السنة ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾: أي: في حكم الله ﴿اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ نصب لأنهما اسمان جعلا اسماً واحداً وبُني على الفتحة لأنها أخف الحركات.

وإنما قُدِّرَت الشهور القمرية بالاثني عشر لأن الشهور الشمسية كذلك؛ لنزولها في اثني عشر برجاً، وتماثل السنة الشمسية بذلك، فجعلت السنة القمرية اثني عشر شهراً أيضاً؛ ليتوافقوا على حساب واحد، قال تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥].

وقوله تعالى: ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: في الإمام الذي عند الله كتبه يوم خلق السماوات والأرض^(٢).

وقال علي بن الحسين بن واقد: أي: في اللوح المحفوظ^(٣)، وهو كقوله في سورة الحج: ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ [الحج: ٧٠] وكذا في سورة الحديد. وقيل: في قضاء الله وإيجاب الله على خلقه من أحكامها.

(١) رواه البخاري (٣٢٩٧)، ومسلم (١٦٧٩)، من حديث أبي بكره رضي الله عنه.

(٢) ذكره الواحدي في «البيسط» (٤٠٧/١٠).

(٣) ذكره الواحدي في «البيسط» (٤٠٧/١٠) عن الواقدي، والمشهور بهذا اللقب هو محمد بن عمر صاحب «المغازي»، وعقبه الواحدي بقوله: وهو قول عامة أهل التأويل، ونحو هذا يُحكى عن ابن عباس: ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ قال: في الإمام... فذكر ما سبقه من قول ابن عباس.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾: ولم تزل الأمم تتناسخه إلى أن غيّرت العرب في شركها ما غيّرت منها.

وقوله تعالى: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾: أي: من الاثني عشر شهراً أربعة أشهر حُرُمٌ: جمعُ حرام، وهي: رجبٌ وهو فرد، وذو القعدة وذو الحجة والمحرم وهي سرْدٌ، وكذا فسرها النبي ﷺ^(١).

ومعنى الحرام^(٢): أنه يحرم فيها القتال والقتل، وكانت العرب تعظمها، حتى لو لقي الرجل منهم فيها قاتل أبيه لم يهجه.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾: أي: الحساب المستقيم، كما قال ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾؛ أي: يوم الحساب، ومعناه: إن الشهور على حساب مستقيم فلا تغيروها بالنسيء.

وقيل: الأخذ به الدينُ المستقيم.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: في جميع الشهور، لأنها شهودٌ عليكم بما تعملون. وقال قتادة: في الأربعة الحرم^(٣).

وظلمُ النفس هو المعصية؛ لأنه يَضُرُّ^(٤) بها نفسه وينقص بها^(٥) حظَّه.

(١) رواه البخاري (٣٢٩٧)، ومسلم (١٦٧٩)، من حديث أبي بكره رضي الله عنه.

(٢) في (أ): «الحرم».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٤٤٤ / ١١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٧٩٣ / ٦).

(٤) في (ر): «لأنها يضرب».

(٥) في (أ): «وينقص لها»، وفي (ر): «وينقص بها».

وإنما خَصَّ هذه الشهورَ الأربعة بالنهي عن ظلم النفس فيها مع أنه حرامٌ في كل وقت بياناً أنه فيها أغلظ، وهو كقوله تعالى في حق مكة: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ الآية [الحج: ٢٥]، والظلم في كل مكانٍ حرام، وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧] وكلُّ ذلك في كل وقت حرام، وقول النبي ﷺ في وعيد مَنْ زَنَى بحليلة الجار^(١)، والزنا بكلِّ امرأةٍ حرام، فالتخصيص دلالةٌ التغليظ في كل ذلك.

وقيل: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ بالبداة بالقتال، ولا بأس بقتال مَنْ بدأكم له فيها.

وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾: أي: جميعاً.

وقيل: أي: لا تظلموا فيهن أنفسكم إذا قوتلتم فيهن بأن تركوا القتال، لكن قاتلوهم في هذه الحالة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾: لا مع المشركين؛ أي: حافظُ المتقين وناصرهم، وهم الذين يتقون الشرك.

وقيل: أي: الذين يتقون هتك حرمة هذه الأشهر.

وقيل^(٢): الذين يتقون بدء المشركين^(٣) بالقتال فيها.

وقال عطاءُ الخراساني: أحلَّ الله القتال في الشهر الحرام بقوله: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ

(١) رواه البخاري (٤٧٦١)، ومسلم (٨٦)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) «وقيل» من (أ).

(٣) في (ف): «يتقون بداية المشركين»، وفي (ر): «يتقون الشرك».

اللَّهُ وَرَسُولِهِ ﴿الآيَات، وبقوله جَلَّ جلاله: ﴿وَقَنِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ يقول: فيهن وفي غيرهن.

(٣٧) - ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُخَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤَاطِعُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَلِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾: أي: التأخير.

قيل: هو مصدر كالرحيل.

وقيل: هو فعليل بمعنى المفعول، ومعناه: المؤخر، أي: الشهر المؤخر^(١)، من قولهم: نسأ الشيء وأنسأه؛ أي: أخره، ومنه: النسيئة في البيع.

وقوله تعالى: ﴿زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾؛ أي: تأخير حرمة المحرم إلى صفر بدعة زائدة على بدع سائر الكفار.

وقوله تعالى: ﴿يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص بضم الياء وفتح الضاد^(٢)؛ أي: الأتباع يضلون به بإضلال الرؤساء، على ما لم يسم فاعله.

وقرأ الحسن وجماعة بضم الياء وكسر الضاد^(٣): يُضِلُّ الرؤساء به الأتباع.

(١) في (ف): «المؤخر».

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣١٤)، و«التيسير» (ص: ١١٨).

(٣) انظر: «المحتسب» لابن جني (١/ ٢٨٨ - ٢٨٩). وهذه قراءة يعقوب من العشرة. انظر: «النشر»

وقرأ الباقون بفتح الياء وكسر الضاد^(١): يضل الرؤساء؛ أي: يقعون في الضلال بما يفعلون.

وقوله تعالى: ﴿يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا﴾: أي: يُحِلُّون القتال في هذا الشهر مرةً ويحَرِّمونه مرةً، حُذِفَ (في) عن الفعل كما يُحذف عن^(٢) الاسم، فيقال^(٣): الشهر الحرام والشهر المحرَّم؛ أي: المحرَّم فيه القتال.

وقوله تعالى: ﴿يُؤَاظَمُونَ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾: أي: ليؤاَفَقُوا عِدَّةَ ما حَرَّمَ الله، والمواظاة: الموافقة، وتواطأ القوم على كذا؛ أي: توافَقُوا؛ أي: يحرِّمون صفرًا مكان المحرَّم، ويحلُّون المحرَّم ويقولون: الأشهر الحرم أربعة، وقد حرَّمنا أربعة أشهر. وقوله تعالى: ﴿فِيحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾: أي: ليتوصَّلوا بهذه الحيلة إلى إحلال الشهر الذي حرَّم الله.

وقوله تعالى: ﴿رُبَّكَ لَهُمْ سُوءٌ أَعْمَلِهِمْ﴾:

قال الحسن: الشيطان زين لهم ذلك^(٤).

وقيل: أنفُسُهم زينت لهم ذلك.

وقيل: الله عز وجل زينها بالتخليق امتحاناً.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾: أي: إلى الحقِّ حال اختيارهم الثبات على الباطل.

وقيل: لا يهديهم طريق الجنة في الآخرة.

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣١٤)، و«التيسير» (ص: ١١٨).

(٢) في (ر): «في».

(٣) في (ر) و(ف): «فقال».

(٤) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٧٩٦/٦).

وقال الكلبي: أول من نسا الشهور رجل من بني كنانة يقال له: نعيم بن ثعلبة، وكان يكون على الناس بالموسم إذا هم الناس بالصَّدْر قام فخطب فقال: لا مردِّ لِمَا قضيتُ أنا الذي لا أعاب ولا أجاب^(١)، فيقول له المشركون: لبيك ربَّنَا، ثم يسألونه أن يُنسئهم شهراً يغيرون^(٢) فيه فيقول: فإن صفرًا العام حرام، فحلُّوا الأوتار ونزَعوا^(٣) الأسنة والأزجة، وإن قال: هو حلال، عقَدوا الأوتار فشَدُّوا الأزجة وأغاروا على الناس، وكان بعد نعيم بن ثعلبة رجل يقال له: جُنادة بن عوف بن أمية الكِنَانِي، وهو الذي أدركه رسول الله ﷺ^(٤).

وقيل: كان يلي ذلك عامر بن الظربان.

وقال قتادة: كان يفعل ذلك أبو ثُمَامَة صفوان بن أمية أحد بني فُقيم بن الحارث^(٥).

(١) في (أ) و(ر): «أخاف»، والمثبت من (ف)، وهو الموافق لما «معاني القرآن» للفراء، و«تفسير البغوي» و«زاد المسير» و«درج الدرر»، وفي «تفسير الثعلبي»: (أخاب)، وفي بعض نسخه كالمثبت. (٢) في (ف): «يغزون».

(٣) في (ر): «الأوثان وانزعوا».

(٤) ذكره عن الكلبي الثعلبي في «تفسيره» (١٣/ ٣٦٤)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٤٦ - ٤٧). وذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٤٣٥) عن الفراء، وهو في «معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٣٦). والجرجاني في «درج الدرر» (١/ ٧٦٤) من طريق محمد بن مروان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. ومحمد بن مروان هو السدي الصغير، وهو متهم بالكذب، والكلبي متروك، وأبو صالح لم يسمع من ابن عباس. والقول بأن فاعل ذلك هو نعيم بن ثعلبة ذكره أيضاً الماوردي في «النكت والعيون» (٢/ ٣٦١) عن الزبير بن بكار. وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣/ ٣٣) عن أبي علي البغدادى، لكنه تعقبه بقوله: واسم نعيم لم يعرف في هذا، وما أرى ذلك إلا كما حكى النقاش: من بني فقيم كانوا يسمون: القلامس، واحدهم: قَلَمَس، وكانوا يُفتون العرب في الموسم، يقوم كبيرهم في الحجر ويقوم آخر عند الباب ويقوم آخر عند الركن فيفتون.

قال ابن عطية: فهم على هذا عدة، منهم نعيم وصفوان ومنهم ذرية القلمس حذيفة وغيرهم.

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٤٥٤).

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أبو ثمامة كنية جنادة بن عوف بن أمية الكنانى ^(١) الذي قدّمناه.

وقال عبد الرحمن بن زيد: هو رجل من بني كنانة يقال له: القَلَمَس، في الجاهلية ^(٢).

وأنشد أبو عبيدة لبعض بني كنانة في الافتخار بهذا:

أَلَسْنَا النَّاسِئِينَ عَلَى مَعَدٍّ شُهُورَ الْحِلِّ نَجْعُلُهَا حَرَاماً ^(٣)

وقال السدي: كانت العرب يَشُقُّ عليهم أن يمكثوا ثلاثة أشهر لا يُغَيِّرُونَ فيها، وإذا أراد رئيسهم أن يُغَيِّرَ ^(٤) قال: إني أحللت المحرّم وحرّمت صفرًا مكانه، فقاتل الناس في المحرم، فإذا كان صفرًا غمدوا السيوف، ثم يقول في قابل: أحللت صفرًا وحرّمت المحرّم ^(٥).

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/٤٥١).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/٤٥٦).

(٣) البيت لعمير بن قيس بن جذل الكنانى، كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (١/٤٥)، و«شرح القصائد التسع الطوال» لابن الأنباري (ص: ٢٥٨)، و«معجم الشعراء» للمرزباني (ص: ٧٢)، و«تهذيب اللغة» (١٣/٥٨)، و«النكت والعيون» (٢/٣٦١). وعزاه الثعلبي في «تفسيره» (٥/٤٥)، والقرطبي في «تفسيره» (١٠/٣٢١) للكميت، والرواية في «ديوان الكميت» (ص: ٣٥٧):

وَكُنَّا النَّاسِئِينَ عَلَى مَعَدٍّ شُهُورَ هِمَّ الْحَرَامِ إِلَى الْحَلِيلِ

(٤) في (ر): «أرادوا نسيئهم أن يغيّر» وفي (ف): «أرادوا نسيئهم أن يغيّروا»، وفي نسخة: «أرادوا أن يغيّروا نسيئهم»، والمثبت من (أ)، وهو المتفق مع مصدر التخريج. انظر التعليق الآتي. وضبط (يغير) و(يغيروا) في جميع النسخ بتشديد الياء من التغيير، وله وجه، والأحسن عدم التشديد من الإغارة، كما في سابقه، وكما سيأتي في تخرجه.

(٥) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/١٧٩٦) بلفظ: كان رجلٌ من بني مالك بن كنانة يقال له: =

وقال عبد الرحمن بن زيد: كانوا يحلُّون المحرَّم ويسمُّونه صفراً، ويحلُّون بعده صفراً ويجعلون في هذا العام صفريين، ثم يحرمون المحرَّم وصر في القابل ويجعلونهما المحرَّمين^(١).

وفي حديث الحسن: أنهم كانوا يغيِّرون الشهور كلّها فيتغيَّر شهرُ الحج أيضاً، ولمَّا فتح الله مكة سنة ثمانٍ من الهجرة - وكانت في تلك السنة غزوة حنين - مضى النبيُّ عليه السلام منها إلى الطائف ثم إلى جِعْرانة وقَسَم بها غنائم حنين في ذي القعدة واعتمر فيه، ولم يؤدِّنْ له أن يحجَّ في ذلك العام لأن حجَّهم كان وقع في ذي القعدة، ولمَّا كانت سنة تسع وقع الحجُّ في ذي الحجة، وأرسل النبيُّ عليه السلام أبا بكر رضي الله عنه إلى مكة واستعمله على الحج وعَلَّمه المناسك، ونزلت سورة براءة بعد خروج أبي بكر، فبعث النبيُّ عليه السلام عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه وأمره إذا خطب أبو بكر وفرغ من خطبته أن يقوم فيقرأ على الناس سورة براءة، ففعل ونبذ^(٢) إلى المشركين عهدهم، وقال: «لا يجتمعن»^(٣) مسلمٌ ومشرِكٌ على هذا الموقف بعد عامهم هذا»، وإنما لم يحجَّ النبيُّ ﷺ تلك السنة لمخالطة الكفار، وأخَّر ليكون حجُّه في السنة التي بعدها بدون المشركين.

وكان أبو بكر رضي الله عنه هو الذي يخطبُ على الناس ويصلِّي بهم ويدفع بهم في الموقف.

= جُنَادَةُ بْنُ عَوْفٍ يُكْنَى أبا أُمَامَةَ يُنْسَبُ الشَّهْرُ، وكانت العربُ يشتدُّ عليهم أن يمكثوا ثلاثة أشهرٍ لا يُغيِّرُ بعضُهم على بعضٍ، فإذا أراد أن يُغيِّرَ على أحدٍ قام يومَ منى فخطب... الخبر.

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/٤٥٦).

(٢) في (ر): «فقد نبذ» بدل: «ففعّل ونبذ».

(٣) في (ر): «يحجن».

فلَمَّا كانت سنة عشرٍ أَذِنَ اللهُ تعالى لنبيه في الحج، فحجَّ رسول الله ﷺ حجة الوداع، فوقف بعرفة وقال: «يأيها الناس، إِنَّ الزمان قد استدار كهيئته يومَ خلق الله السماوات والأرض، فلا شهر يُنسأ، ولا عِدَّة تُخطأ، وإن الحج في ذي الحجة إلى يوم القيامة»^(١).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: قوله جَلَّ جلاله: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ﴾ لَمَّا عَلِمَ أَنَّهُمْ لَا يَدَاوِمُونَ عَلَى مِلَازِمَةِ الْقُرْبِ أَفْرَدَ بَعْضُ الشُّهُورِ بِالتَّفْضِيلِ لِيَخْصُوهَا بِاسْتِكْثَارِ الطَّاعَاتِ فِيهَا، فَأَمَّا الْخَوَاصُّ مِنْ عِبَادِهِ فَجَمِيعُ الشُّهُورِ لَهُمْ شَهْرُ رَمَضَانَ، وَجَمِيعُ الْأَيَّامِ لَهُمْ جُمُعَةٌ، وَجَمِيعُ الْبَقَاعِ لَهُمْ مَكَّةُ، وَأَنْشَدُوا فِي مَعْنَاهُ:

يَا رَبَّ إِن جِهَادِي غَيْرُ مَنْقَطِعٍ فكلُّ أَرْضِكَ لِي تُغَرُّ وَطرسوسُ

وقال في قوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ﴾: أَمَرَ الْعَوَامَّ أَلَّا يَظْلِمُوا قُلُوبَهُمْ فِي جَمِيعِ الشُّهُورِ بَارْتِكَابِ الزَّلَّةِ، وَأَمَرَ الْخَوَاصَّ أَنْ يَظْلِمُوا قُلُوبَهُمْ فِي جَمِيعِ الشُّهُورِ بِاحْتِقَابِ^(٢) الْغَفْلَةِ، فَظَلَمَ النَّفْسَ أَنْ يَجْعَلَ الْعَبْدَ زَمَامَهُ بِيَدِ شَهَوَاتِهِ فَتُورِدَهُ^(٣) مَوَارِدَ الْهَلَكَاتِ، وَظَلَمَ^(٤) الْقَلْبَ أَنْ يَلَاحِظَ الْخَلْقَ فَيَحْرِمَهُ أَنْسَ الْمَشَاهِدَاتِ، وَمَنْ ظَلَمَ نَفْسَهُ بَارْتِكَابِ الْمُحْظُورَاتِ ابْتِلَى بِالْفَتْرِ فِي الطَّاعَاتِ، وَمَنْ ظَلَمَ قَلْبَهُ بِالْمَسَاكِنَاتِ امْتَحَنَ بِعَدَمِ الصَّفْوَةِ فِي مَرُورِ الْأَوْقَاتِ.

(١) لم أجده عن الحسن، وذكره الأزرق في «أخبار مكة» (١/ ١٨٢ - ١٨٦) مطولاً عن الكلبي.

(٢) في (أ): «أنفسهم في بعض»، وفي (ف): «قلوبهم في بعض»، بدل: «قلوبهم في جميع»، والمثبت من (ر) و«اللطايف».

(٣) في (ر): «باحْتِقَارٍ»، والمثبت من (أ) و(ف) و«اللطايف». واحتقَبَ معناه: ادخَر. انظر: «القاموس» (مادة: حَقَب).

(٤) في النسخ: «فيوردها». والمثبت من «اللطايف».

(٥) في (ر): «وظلماء».

وقال في قوله عز وجل: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾: لا سلاح أمضى على العدو من تبرئك من حولك وقوتك.

وقال في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾: الدين ملاحظة الأمر ومجانبة الوزر وترك التقدم بين يدي الله تعالى في جميع أحكام الشرع، والآجال في الطاعات مضروبة، والتوقف في عرفانه^(١) متبع، والصالح في الأمور بالإقامة على حد العبودية، وترك الاعتراض^(٢) والمعارضة على الربوبية^(٣).

(٣٨) - ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَالُكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَا قُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَالُكُمْ﴾: هو حرف استفهام بمعنى التوبيخ ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ أي: اخرجوا إلى الغزو، وقد نفر نفيراً من حدّ ضرب، وسبيل الله: طريق طلب^(٤) رضى الله، وسمي به لأنه يُفضي بسالكة إلى الجنة.

وقوله تعالى: ﴿أَنَا قُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾: أي: تناقلتم، وأدغمت التاء في الثاء فبدئ بها - وهي ساكنة - عليها، فزيد عليها الألف ليكون المبتدأ بالمتحرك، ومثله: ﴿أَذَارَكُوا﴾ [الأعراف: ٣٨].

(١) في (أ): «التوقيف في عرفانه»، وفي (ر): «التوقف في عرفاته»، وفي مطبوع «اللطائف»: «التوفيق في عرفانه».

(٢) في (ف) و(أ): «الإعراض».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٢٥)، والجملة الأخيرة ليست فيه.

(٤) «طلب» ليس من (أ).

وهذه معاتبَةٌ للمؤمنين، حيث قيل لهم: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ فتباطؤوا فعُوتِبُوا على ذلك، وهو وجه النَّظْمِ؛ أي: ما السبُّ الذي يدعوكم إذا قال لكم الرسول: اخرجوا في الجهاد في سبيل الله، تناقَلْتُمْ عنه إلى الإقامة بأرضكم لبلوغ الثمار وطلبِ^(١) الظلال، وتعبِ الخروج لشدة الحر.

وقوله تعالى: ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾: أي: بدلاً عن الآخرة ونعيمها الخالد الذي لا يَبِيدُ.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا مَنَعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾: لأن هذا منقطعٌ وذاك باقٍ، وهذا كُلُّه تَقْرِيعٌ وتعجيبٌ من سوء الاختيار.

وقال مجاهد: أمروا بغزوة تبوك بعد الفتح وبعد الطائف وبعد حنين، أمروا بالنَّفير في الصَّيف حين أثمرت النخيل وطابت الثمار واشتهوا الظلال، فشَقَّ عليهم الخروجُ فاعتلُّوا فقالوا: فينا الثَّقِيلُ وذو الحاجة وذو الضَّيعة والشغل، فنزلت الآية^(٢).

وقال الكلبي: إن النبي ﷺ أقام بالمدينة بعد^(٣) مرجعه من الطائف، فأمر بالجهاد لغزوة الروم حين طابت ثمار المدينة وأينعت، فعظمت على الناس غزوة الروم - وقال قتادة: لغزوة تبوك قَبْلَ الشَّامِ^(٤) - وذلك في زمانٍ عسرةٍ من الناس، وجَذَبٍ من البلاد، وشدةٍ من الحر، وأحَبُّوا الظلال والمقام في ثمارهم، وكان النبي ﷺ قَلَمًا يخرج في غزوة إلا كَنَى عنها إلا غزوة تبوك؛ لُبَعْدِ شَقَّتْهَا وكثرة العدو،

(١) في (أ): «وطيب».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١ / ٤٦٠).

(٣) «بعد» ليست في (أ)، وتحرفت في (ر) إلى: «بيد».

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١١ / ٤٦١).

ليَتَأَهَّبَ النَّاسَ، فَأَمَرَهُم بِالْجِهَادِ وَأَخْبَرَهُم بِالْوَجْهِ الَّذِي يَرِيدُ، فَلَمَّا عَلِمَ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ تَثَاقُلَ الْمُسْلِمِينَ أَنْزَلَ هَذِهِ الْآيَةَ^(١).

قال الإمام القشيري رحمه الله: الجنوحُ إلى التكاثر والاسترواح إلى التغافل من أمارات ضعف الإيمان؛ إذ الإيمان غريم ملازم لا يرضى من العبد بغير ممارسة الأشقِّ وملازمة الأحقِّ^(٢).

قال أصحاب رسول الله ﷺ: بايعنا رسول الله ﷺ على السَّمْعِ والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره، بل بايعناه على الموت.

ثم قال: ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾: هل يَجْمَلُ^(٣) بالعابد أن يختار دنياه على عقباه؟ أم هل يَحْسُنُ بالعارف أن يُؤَثِّرَ هواه على رضا مولاه، وغيبته يوم من الزاهد^(٤) عن الباب تعدل شهوراً، وغيبته لحظة من العارف عن البساط تعدل دهوراً، وأنشدوا:

الإلف لا يصبر عن إلفه أكثر مما تطرف العين
وقد صبرنا عنكم ساعة ما هكذا فعل المحبين^(٥)

(٣٩) - ﴿إِلَّا نَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا نَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤٦/٥).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (٢٥/٢).

(٣) في (ف): «يحمد»، وفي (أ) و(ر): «يحمل»، والمثبت من «اللطائف».

(٤) في (ر) و(ف): «الدهر»، والمثبت من (أ) و«اللطائف».

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» (٢٥/٢-٢٦).

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا نَنفِرُوا يُعَذِّبَكُمُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾: (إلا) كلمتان: (إن) للشرط و(لا) للنفي؛ أي: إن لم تخرجوا إلى الغزو يعذبكم عذاباً وجيعاً لأبدانكم وقلوبكم في الدنيا والآخرة.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾: أي: يُنشئُ قوماً آخرين، ويأت بهم بدلاً عنكم، يحضون على^(١) أمره، ويحرّضون على مجاهدة عدوّه.

وقال أبو رَوْق: وهم أهل اليمن^(٢).

وقال سعيد بن جبیر: هم أهل فارس^(٣).

وقيل: الملائكة.

وقال القشيري رحمه الله: ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾: يَصْرِفُ ما كان عليكم من الإقبال إلى^(٤) غيركم من الأشكال، وليس كلُّ مَنْ حفر بئراً يَشْرَب من مَعِينِهَا، وفي معناه أنشدوا:

أَسْقِي رِياحِينَ الْحِفَاطِ مَدَامِعِي وسوای فی روضِ التّواصُلِ یرتَعُ^(٥)

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا﴾: عطفٌ على ما سبق، وهو مجزومٌ لأنه جواب الأمر، وعلامةُ جزمه حذفُ النون في آخره، وهو ظاهرٌ أنه لا يضرُّ الله شيئاً ولا ينقصُ من ملكه شيئاً.

(١) في (ف) و(أ): «إلى».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٣٧٢ / ١٣) (ط: دار التفسير).

(٣) المصدر السابق.

(٤) في (ر): «إلى قوم».

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» (٢ / ٢٦).

وقيل: معناه: ولا تضرُّوا رسوله وأولياءه شيئاً، فإن الله عزَّ وجلَّ ينصره بما شاء بدونهم^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: أي: هو على نصرِ رسوله بغيركم وإفناء الكفارِ بغير قتالٍ أحدٍ قدير؛ إذ هو القادرُ على كلِّ شيء. وقال القشيريُّ رحمه الله: العذابُ الأليم: ألا يعاتبه على تأخير الرجوع. وقيل: العذابُ الأليم: أن يُعرض العبد عن الطاعة فلا يبعث وراءه طالباً^(٢) من [جنود] التوفيق يرُدُّه إلى الباب.

وقيل: العذاب الأليم: أن يسلبه حلاوة النجوى إذا آب.

وقيل: العذاب الأليم: الصَّدودُ يوم الورود.

وقيل: العذاب الأليم: الوعيد بالفراق، فأما نفسُ الفراق فهو عين^(٣) التلف، وأنشدوا^(٤):

وزعمت أن البينَ منك غداً هددُ بذلك من يعيشُ غداً^(٥)

(٤٠) - ﴿إِلَّا نُنْصِرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَاقِبًا

أَثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْفَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا اللَّهُ مَعَنَا فَاَنْزَلَ

(١) في (ف): «ينصره بما شاء بدونكم»، وفي (ر): «ينصرهم بما شاء بدونهم».

(٢) في (ر): «عن الطاعات فلا يتوب ولا يكون معه طالب».

(٣) في (ر): «نفس»، وفي «اللطائف»: (تمام).

(٤) في (ر) و(ف): «كما قال»، بدل: «وأنشدوا».

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/٢٦).

اللَّهُ سَكِينَتُهُ عَلَيْهِ وَإِيَدُهُ يُجُودُ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا نُنْصِرُهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾: (إلا) كلمتان كما مر؛ أي: إن لم تنصروا محمداً في هذه الحالة فما هو ممن يُضَيِّعُ، فقد نصره الله أضعف ما كان فلن يخذله الآن.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَخْرَجْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: أي: حين مكر قريش فاضطّر إلى أن خرج ليلاً مستخفياً إلى المدينة مهاجراً خائفاً مشفقاً من لحوق الطلب، لا أنيس معه ولا أليف إلا رجل واحد وهو أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

ثم قال هنا: ﴿إِذْ أَخْرَجْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وقال في آية أخرى: ﴿وَهُمْ يُؤْمَرُونَ بِإِخْرَاجِ الرُّسُولِ﴾ [التوبة: ١٣]، وقال في آية أخرى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾ [الأنفال: ٥]. والتوفيق: أنهم همّوا بإخراجه^(١) بأنفسهم، فاضطّر فخرج بسبب همّهم، والله أذن له في الخروج وقدّر ذلك عليه.

وقوله تعالى: ﴿ثَانِيَيْنِ﴾: نصبٌ على الحال، وهو حال من النبي ﷺ، و﴿اثنَيْنِ﴾ خفضٌ بالإضافة، وهو محمد المصطفى وأبو بكر الصديق رضي الله عنه؛ أي: هو أحد اثنين ليس معهما ثالث.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾: وهو الثَّقَبُ^(٢) العظيم في الجبل، وهو في جبل بمكة^(٣) يقال له: ثور، قاله قتادة^(٤).

(١) في (ف) و(أ): «أن يخرجوه».

(٢) في (ف): «النقب».

(٣) في (أ): «وهو جبل مكة».

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/٤٦٥).

وهو مأخوذ من غار يغور؛ أي: دخل في عميق.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ﴾: أي: النبي ﷺ ﴿لَصَحْبِهِ﴾؛ أي: أبي بكر ﴿لَا تَحْزَنْ﴾؛ أي: لا تهتم ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾؛ أي: حافظنا وناصرنا ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ قال الزجاج: أي: على النبي ﷺ^(١)، كما قال في هذه السورة: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ [الفتح: ٢٦].

وقيل: على أبي بكر^(٢)؛ لأنه هو المخائف المحتاج إلى الأمن، وأما النبي ﷺ فقد كان ساكناً بما وعد له من النصرة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾: أي: وقوى محمداً، وهو عطف على قوله: ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾، والجنود: الملائكة أيده بهم في حرب بدر وحنين. وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى﴾: قال الحسن: هي الشرك.

﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ وهي: لا إله إلا الله، علّت هذه الكلمة^(٣) إلى قيام الساعة.

و(كلمة الله) رفعٌ بالابتداء، وهي غير معطوفة على الأولى؛ لأنه لم يجعل الجعل واقعاً عليها بل استأنف الكلام بها.

وقال ابن كيسان: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى﴾: هي ما قدرُوا بينهم من الكيد به ليقتلوه فلم ينالوا أملهم ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ وعد الله أنه ناصر^(٤).

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٤٤٩).

(٢) وأجازه الزجاج أيضاً. انظر المصدر السابق.

(٣) في (ر): «الكلمات».

(٤) ذكره الواحدي في «البيضا» (١٠/ ٤٤٤).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ويحتمل: وجعل أهل كلمة الذين كفروا هم الأسفلين، قال الله تعالى: ﴿مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ [فصلت: ٢٩] وأهل دين الله هم الأعلى^(١)، قال تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾: أي: في انتقامه ﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبيره وأحكامه. وقصته: أن قريشاً لما اجتمعوا في دار الندوة يمكرون بالنبي ﷺ، وتشاوروا في أمره على ما مر تفسيره في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنفال: ٣٠]، وترك رسول الله ﷺ علياً على فراشه ليلاً، وخرج مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه يتوجّهان إلى المدينة.

قالت عائشة رضي الله عنها^(٣): جاء رسول الله ﷺ واستأذن علينا - وذلك في نحر الظهيرة متقنّعاً - في ساعة لم يكن يأتينا فيها، وقال حين دخل لأبي بكر: «أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ»، فقال أبو بكر رضي الله عنه: إنما هم أهلك، فقال: «إنه قد أذن لي في الخروج للهجرة»، فقال أبو بكر رضي الله عنه: فالصحبة يا رسول الله بأبي أنت وأمي، فقال: «نعم»، قال: فخذ إحدى راحلتيّ هاتين، فقال عليه السلام: «بِالثَّمنِ»، وكان اشتراهما بثمان مئة، فأخذ رسول الله ﷺ القِصَواءَ^(٤)، وكان يعلفها^(٥)، وكان

(١) في النسخ: «الأعلين»، والمثبت من «التأويلات»، وهو الأنسب بالآية.

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٣٧٦/٥).

(٣) قوله: «قالت عائشة...» من هنا ورد أكثره عند البخاري (٣٩٠٥) و(٤٠٩٣) و(٥٨٠٧) من حديث عائشة، و(٣٩٠٦) من حديث سراقه بن مالك، ومن حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما عند البخاري (٣٦١٥) و(٣٦٥٢) و(٣٩١٧)، ومسلم (٣٠٠٩) كتاب الزهد. وما كان من غير الصحيحين سنييه بعون الله.

(٤) في البخاري (٤٠٩٣): (فَأَعْطَى النَّبِيَّ ﷺ إِحْدَاهُمَا وَهِيَ الْجَدْعَاءُ).

(٥) «وكان يعلفها» ليست في (أ). وهذه العبارة حتى قوله: «في خلافة أبي بكر رضي الله عنه» لم =

يغزو عليها المغازي ويحج عليها حتى ماتت في خلافة أبي بكر رضي الله عنه.

قالت عائشة رضي الله عنها: فجهزناهما بأخف^(١) الجِهاز: لحم وخبز، وصنعنا لهما سفرةً في جرابٍ، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعةً من نطاقها فأوكت به الجِرابَ، فلذلك كانت تسمى ذات النطاقين.

وقيل: كانت تَتَطَّقُ بنطاقين، فحَلَّتْ^(٢) أحدهما فجعلته عِلاقاً للسفرة، والآخر عصاماً لقم القربة^(٣).

وخرج النبي ﷺ ليلاً من بيته ونفر من قريش يرصدونه على الباب، فأخذ حفنةً من البطحاء فجعل يذرّها على رؤوسهم وهو يتلو: ﴿يَسَّ (١) وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ﴾ الآيات، ومر ولم يعلموا به، وانتهى إلى بيت أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فخرجا معاً، وكان أبو بكر استأجر عبد الله بن أريقط، فدفع إليه الراحلتين وواعده غار ثور بعد ثلاث ليال، وأتاها بهما حيثئذ فارتحلا عليهما إلى المدينة^(٤).

قال أبو بكر رضي الله عنه: فأحيينا^(٥) يومنا وليلتنا حتى قام قائم الظهيرة،

= ترد عند البخاري.

(١) في (أ): «ياخفاء»، وفي البخاري: (أَحَثَّ).

(٢) في (ر) و(ف): «فخلعت».

(٣) روى هذه الرواية إسحاق بن راهويه في «مسنده» (١١٦١) من حديث عائشة رضي الله عنها، وفي إسناده انقطاع.

(٤) وردت هذه القطعة ضمن خبر طويل رواه ابن سعد في «الطبقات» (٢٢٨/١ - ٢٢٩) عن شيخه الواقدي من حديث ابن عباس وعلي وعائشة أم المؤمنين وعائشة بنت قدامة وسراقة بن جعشم رضي الله عنهم دخل حديث بعضهم في بعض.

(٥) في (ر): «فأحيينا»، والمثبت موافق لما في البخاري (٣٦٥٢) عن البراء بن عازب، وفيه: (فأحيينا أو سرينا)، وفي الرواية الأخرى (فأحشنا).

فرميتُ ببصري هل أرى من ظلِّ فناويَ إليه، فرأيتُ صخرة فنزلناها، فنظرتُ بقية ظلِّها فسوَّيته وأخذتُ فروةً كانت معي ففرشتُها لرسول الله ﷺ وقلتُ: اضطجعْ يا رسول الله حتى أنفضَ ما حولك، فإذا غلامٌ راعٍ قد أقبلَ في غنمٍ له يريد هذه الصخرة للظل، فقلتُ: لمن أنت يا غلام؟ قال: لرجل من قريش، وسمَّاهُ فعرفته، فقلتُ: هل في غنمك من لبن؟ قال: نعم، فقلتُ: هل أنت حالبٌ لي؟ قال: نعم، فأعطيتُه فحلب، وقد زويتُ لرسول الله ﷺ إداوةً من ماء^(١)، فصبَّبتُ على اللبن حتى وجدتُ بردَ الماء من تحت الإناء، فأتيْتُ بها النبي ﷺ فوافقتهُ قد استيقظ، فقلتُ: اشرب يا رسول الله، فشرب منه، ثم قلتُ: قد آن الرحيل يا رسول الله.

فارتحلنا والقوم يطلبوننا، فأدركنا سراقه بن مالك بن جُعشمٍ على فرس له، فقلتُ: هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله، قال: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾.

فلما دنا قيد^(٢) رمحين أو ثلاثة قلتُ: هذا الطلب قد لحقنا، وبكيتُ، قال: «ما يبكيك؟» قلتُ: أنا والله ما على نفسي أبكي، ولكن إنما أبكي عليك يا رسول الله، فدعا عليه رسول الله ﷺ فقال: «اللهم اكفناهُ بما شئتَ»، فساخت فرسه في الأرض إلى بطنها، فوثب عنها^(٣) ثم قال: يا محمد! قد علمتُ أن هذا عملك، ادع الله على أن ينجينني مما أنا فيه، فوالله لأعمَّين على من ورائي من الطلب، وهذه كنانتني فخذ سهماً منها فإنك ستمرُّ على إبلي وغمي بمكان كذا وكذا، فخذ منها حاجتك، فقال له رسول الله ﷺ: «لا حاجة لنا في إبلك»، فدعا له رسول الله ﷺ، فانطلق راجعاً إلى أصحابه ومضى رسول الله ﷺ وأنا معه.

(١) في البخاري (٣٦٥٢) عن البراء بن عازب: (وقد جَعَلْتُ لرسول الله ﷺ إداوةً على فمها خِرقةً)، وفي الرواية الأخرى (ومعي إداوةً من ماء عليها خِرقةً، قد رَوَّأَتْها لرسول الله ﷺ).

(٢) في (أ): «قدر».

(٣) في (ف): «من عليها».

وكانت قريش جعلت لمن أخذ محمداً وأبا بكر ديتهما، وسمع سراقه رجلاً يقول:
رأيت في الطريق سواداً أظنه محمداً، فخرج مختفياً على أن يأخذهما فكان ما كان.

وقال أبو بكر لعائشة رضي الله عنها: لو رأيته ورسول^(١) الله ﷺ إذ صعدنا
الغار، فأما قدما رسول الله ﷺ فتقطرتا دماً، وأما قدماي فغارتا كأنهما صفوان،
فقلت عائشة: إن رسول الله ﷺ لم يتعود الحفية^(٢).

ولو رأيته ونحن نصعد في الغار مرة هو أمامي ومرة أنا أمامه حتى سبقته
إلى الغار، فدخلته فطلبت فيه حجراً فما وجدته، فألقمته عقبي، فدخل رسول الله
ﷺ عليّ، فقال أبو بكر رضي الله عنه: إن كانت لدغة لدغتنني أحب إليّ من أن
تلدغ رسول الله ﷺ^(٣).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قال أبو بكر: حين انتهينا إلى باب الغار
فقلت: يا رسول الله! الغار موضع المكاره فدعني أدخل قبلك، فإن كان فيه شيء
مكروه كان لي دونك، فدخل فرأى جحرةً، وكان عليه بردٌ سابِزٌ ثمينٌ، فخرقه وحشا
تلك الجحرة، وبقي جحران فسدهما بعقبه وقال: ادخل يا رسول الله، فدخل^(٤).

وجاءت العنكبوت فضربت على بابه بعشاشٍ بعضُها على بعضٍ، وأرسل الله
تعالى زوجاً من حمامٍ حتى باضتا في أسفل الثقب، وأثبت الله على باب المغارة
يمامةً^(٥).

(١) في (أ): «لقد رأيته ورسول»، بدل: «لو رأيته ورسول».

(٢) رواه ابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٤/٢٠١)، وابن عساكر في «تاريخه» (٣٠/٨١)، من
حديث عائشة.

(٣) ذكره المقرئ في «إمتاع الأسماع» (٨/٣٢٨) وعزاه للواقدي، ولم أجده في المطبوع من «مغازيه».

(٤) لم أجده.

(٥) رواه مطولاً ومختصراً ابن سعد في «الطبقات» (١/٢٢٩)، والطبراني في «المعجم الكبير» =

ومكثا فيه لثلاث^(١) ليالٍ بييت عندهما عبد الله بن أبي بكر وهو غلام لَقِنُ، فكان يرجع منهما^(٢) عند السَّحَرِ فيصبح مع قريشٍ بمكة فلا يسمع أمراً يكيدون به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، وكان عامر بن فُهيرة مولى أبي بكر رضي الله عنه يأتي بمنحة بالليل بعد العشاء فيبيتان في منحته، فإذا أسحر رجع^(٣).

وخرج الطلب من مكة، وقفوا آثارهما إلى باب الغار ثم انقطع الأثر، فوقفوا على الجبل فوق الغار، فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله! لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا، فقال: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما»^(٤).

وقال واحدٌ: ندخل الغار، فقال أمية بن خلفٍ: ما أربُكم إلى الغار؟ إن عليه لعنكبوتاً كان قبل ميلاد محمد، ثم جاء فبال في صدع الغار حتى سال بولُه بين يدي

= (٢٠/٤٤٣)، والعقيلي في «الضعفاء» (٣/٤٢٢-٤٢٣) من طريق عون بن عمرو القيسي، عن أبي مُصعب المكي قال: أدركتُ زيد بن أرقم وأنس بن مالك والمغيرة بن شعبة فسمعتهم يتحدثون: أن النبي ﷺ ليلة الغار...، فذكره، وعون - ويقال: عوين - بن عمرو القيسي، أعله العقيلي به وقال: لا يتابع عليه، وأبو مصعب المكي مجهول. وانظر: «نصب الراية» (١/١٢٣). وقصة نسج العنكبوت رواها أيضاً الإمام أحمد في «المسند» (٣٢٥١) بإسناد ضعيف كما ذكر محققوه، لكن قال ابن كثير في «البداية والنهاية» (٤/٤٥١) عنه: هذا إسنادٌ حسنٌ، وهو من أجود ما روي في قصة نسج العنكبوت على فم الغار.

(١) «لثلاث» ليست في (أ).

(٢) في (ف): «عنهما».

(٣) قوله: «وكان عامر بن فُهيرة...» لفظ البخاري في الرواية (٣٩٠٥): (وَيَرَعَى عَلَيْهِمَا عَامِرُ بْنُ فَهَيْرَةَ مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ مَنَحَةً مِنْ غَنَمٍ، فَيُرِيحُهَا عَلَيْهِمَا حِينَ تَذْهَبُ سَاعَةٌ مِنَ الْعِشَاءِ، فَيَبِيتَانِ فِي رَسْلِ، وَهُوَ لَبَنٌ وَمَنْحَتُهُمَا وَرَضِيفُهُمَا، حَتَّى يَنْعَقَ بِهَا عَامِرُ بْنُ فَهَيْرَةَ بَعْلَسٍ، يَفْعَلُ ذَلِكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ تِلْكَ اللَّيَالِي الثَّلَاثِ).

(٤) رواه البخاري (٤٦٦٣)، ومسلم (٢٣٨١)، من حديث أبي بكر رضي الله عنه.

النبي ﷺ وأبي بكر، فنهى النبي ﷺ يومئذ عن قتل العنكبوت وقال: «إنها جند من جنود الله تعالى»^(١).

وفي رواية قالوا حين رأوا العنكبوت وبيض الحمام: ولو دخلاه لانكسر البيض وتفسخ بيت العنكبوت، فانصرفوا^(٢).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: إن الله جلّ جلاله جعل رسوله أماناً لأهل الأرض بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لِّعَذَابِهِمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣]، ثم جعله في أمان العنكبوت حين نسج على باب الغار ليُعلم أنه من عند الله دون الأغيار.

وقالوا: إن للبقاع دولاً، متى خطر ببال أحد أن يصير ذلك الغار مثوى سيد الأولين والآخرين، ولكن الله عز وعلا يختصّ بقسمته ما^(٣) يشاء، كما يختص برحمته من يشاء^(٤).

وفيه بيان فضل الصديق رضي الله عنه حيث^(٥) جعله الله لرسوله صاحبه،

(١) رواه أبو نعيم من طريق الواقدي: حدثني موسى بن محمد بن إبراهيم عن أبيه عن النبي. انظر: «الخصائص الكبرى» للسيوطي (٣٠٦/١). والواقدي متروك كما أن الخبر منقطع. وليس في هذا الخبر قوله: «ثم جاء فبال في صدع الغار حتى سال بوله بين يدي النبي ﷺ وأبي بكر»، ولا يصح مثل هذا، لكن جاء في خبر طويل رواه الطبراني في «الكبير» (١٠٦/٢٤ - ١٠٧) عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها: (فقال أبو بكر لرجل يراه مواجه الغار: يا رسول الله إنه ليرانا، فقال: «كلا إن ملائكة تسترنا بأجنحتها»، فجلس ذلك الرجل فبال مواجه الغار). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥٤/٦): رواه الطبراني وفيه يعقوب بن حميد بن كاسب وثقه ابن حبان وغيره وضعفه أبو حاتم وغيره.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤٨/٥ - ٤٩) عن الزهري.

(٣) في (ر) و(ف): «من»، والمثبت من (أ) و«اللطايف».

(٤) في (ر): «ثم يختص برحمته لما يشاء»، وليست في (أ) و(ف)، والمثبت من «اللطايف».

(٥) في (أ): «حين».

وعده ثانيه، ثم هو في القبر ضجيعه وفي الجنة رفيقه^(١).

وقال رجل من الشيعة: ما ظنك في خمسة سادسهم جبريل؟ فقال أبو يوسف: ما ظنك باثنين الله ثالثهما.

وقالت الروافض في قوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّا اللَّهُ مَعَنَا﴾: لا يخلو إما أن يكون حزن أبي بكر طاعة أو معصية، فإن كان معصية ففيه نقصانه لا فضله، وإن كان طاعة فلم نهاه رسول الله ﷺ؟

قلنا: لم يكن حزنه سوء الظن بربه تعالى، ولا استبطاءً لنصره، لكن شفقة على رسول الله ﷺ وحببيه، وكان^(٢) ذلك شيئاً نشأ عن طبعه ولا نقص في مثله.

ثم نعارضهم بخوف موسى وهارون عليهما السلام، وقال الله تعالى لهما: ﴿لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا﴾ [طه: ٤٦] إلى آخر السؤال حَذَوِ الْقُدَّةَ بِالْقُدَّةِ^(٣)، على أنهما قالا: ﴿إِنَّا نَخَافُ﴾ [طه: ٤٥]، وليس في القرآن أن أبا بكر رضي الله عنه قال: إني أحزن، وقد قال أبو بكر رضي الله عنه في شعره:

قال النبي ولم أجزع يوقرنني
لا تخش شيئاً فإن الله ثالثنا
وإنما كيد من تخشى بواده
ونحن في سُدفةٍ من ظلمة الغار
وقد تكفل لي منه بإظهار
كيد الشياطين قد كادت بكفار

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٢٧).

(٢) في (ف): «أو كان»، وفي (ر): «ولكن».

(٣) أي: كما تُقدَّر كل واحدةٍ منهما على قدر صاحبها وتُقَطَّع، يُضْرَبُ مَثَلًا لِلشَّيْئَيْنِ يَسْتَوِيَانِ وَلَا يَتَفَاوَتَانِ. وَالْقُدَّةُ وَاحِدَةُ الْقُدْدِ: وَهِيَ رِيشُ السَّهْمِ، وَمِنْهُ الْحَدِيثُ: «لَتَرْكَبَنَّ سَنَنْ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذَوِ الْقُدَّةَ بِالْقُدَّةِ». انظر: «النهاية» (مادة: قذذ).

والله يهلكهم طرًّا بما صنعوا وجاعل المتتهى منهم إلى النار^(١)
 وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ﴿لَا تَحْزَنْ﴾ ليس بنهي عن الحزن، بل هو
 على تخفيف الأمر عليه وتيسير الحالة التي هو عليها^(٢).
 وهو كقوله تعالى: ﴿الَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾
 [فصلت: ٣٠].

وكما قال النبي ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه، فقد قال لرسول الله ﷺ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ
 عَلَيْهِمْ﴾ [الحجر: ٨٨] ولم يكن حزنه معصية بل كان شفقةً، فهذا مثله.
 وقال القشيري رحمه الله: كان حزنه لا لنفسه بل لله عز وجل؛ لأنه قال له
 رسول الله ﷺ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ وحزن لا يذهب إلا بمعية الحق ما
 يكون إلا بحق الحق^(٣).

(٤١) - ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ
 خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.
 وقوله تعالى: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾: هو نصب على الحال، والخِفَافُ:
 جمع خفيف، والثِقَالُ: جمع ثَقِيلٌ.

(١) ذكر الأبيات عن أبي بكر رضي الله عنه ابن إسحاق فيما رواه عنه أبو نعيم في «دلائل النبوة» (٢٣٧)،
 وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٨٥-٨٦/٣)، وأوردها الثعلبي في «تفسيره» (٤٨/٥)، والسهيلي
 في «الروض الأنف» (١٤٢/٤) (ط: إحياء التراث)، والكلاعي في «الاكتفاء» (٢٩٠/١)، ومعنى
 يوقرنني: يسكنني ويهدئني. وأسدف الليل: إذا أرخى ستوره وأظلم. وفي بعض المصادر (سُدَف).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٣٧٤/٥).

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (٢٨/٢).

وقال الحسن ومجاهد والضحاك: أي: شَبَّاناً وشيوخاً.

وقال أبو صالح: أي: أغنياء وفقراء.

وقال الحَكَم: فارغين ومشاعيل.

وقال ابن عباس وقتادة: نَشَاطاً وغيرِ نَشَاطٍ، بكسر النون: جمع نشيط.

وقال أبو عمرو: ركبناً ومشاة.

وقال ابن زيد: ذا ضيعةٍ وغيرِ ذي ضيعةٍ^(١)، وحملته على حالٍ يخفُّ فيه النَّفِير أو على حالٍ يثقل فيه النَّفِير.

وقال مرّة الهَمْداني: أصحَّاء ومرضى.

وقال [حضرمي]: إن ناساً كان بعضهم عليلاً وبعضهم كبيراً فقالوا: لا إثم علينا، فنزلت الآية.

وقال يمان بن رثاب: عزَّاباً ومتأهلين.

قال [محمد]: وشهد أبو أيوب الأنصاريُّ بدرأثم لم يتخلَّف عن غزاةٍ إلا عامّاً واحداً ثقل مدةً، ثم تكلف وخرج، وقال: قال الله تعالى: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ ولا أجدني إلا خفيفاً أو ثقيلاً^(٢).

وخرج سعيد بن المسيب إلى الغزو وقد ذهب إحدى عينيه، فقليل له: إنك

(١) في (أ) و(ف): «ذا صنعة أو غير ذي صنعة»، وهو تحريف.

(٢) روى هذه الأقوال الطبري في «تفسيره» (١١/٤٦٨ - ٤٧٣)، وما بين معكوفتين منه. عدا قولي مرة الهمداني ويمان بن رثاب فذكرهما الثعلبي في «تفسيره» (٥/٤٩). وحضرمي قال ابن المديني: شيخ بالبصرة روى عنه التيمي، مجهول وكان قاصّاً، وقال أحمد: لا أعلم يروي عنه غير سليمان التيمي. قاله في «التهذيب». ومحمد: هو ابن سيرين.

عليُّ صاحب ضر فقال: استغفر الله الخفيف والثقل، فإن لم يمكِّنِي الحربُ كثُرْتُ السَّوَادَ وحفظتُ المتاع^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: أي: مِنْ تَرْكِهِ.

وقيل: ليس هذا للتفضيل، بل لإثبات أصل الخير؛ أي: ذلكم صلاحٌ وخيرٌ لكم، وتركه فسادٌ وشرٌّ لكم.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: أي: الخير والشر.

وقيل: أي: إن كنتم تعلمون صدق الوعد على فعله وصدق الوعيد على تركه. وقيل: أي: إن كنتم تعملون بما تعلمون.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا﴾؛ أي: في حالِ حضور قلبكم فلا يمسُّكم نَصَبُ المجاهدات ﴿وَثِقَالًا﴾ إذا رُدِّدتم إليكم في مقاساة تعبِ المكابِدات، فإن البيعة أخذت عليكم^(٢) في المنشط والمكروه.

﴿خِفَافًا﴾ إذا كنتم محمولين في حال الجمع ﴿وَثِقَالًا﴾ إذا كنتم متحمِّلين في أوان التفرقة.

﴿خِفَافًا﴾ إذا تجرَّدتم عن رِقِّ المطالبات ﴿وَثِقَالًا﴾ إذا كان على قلوبكم ثقلُ الحاجات^(٣).

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤٩/٥) عن الزهري قال: خرج سعيد بن المسيب... فذكره.

(٢) في (أ) و(ر): «منكم».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (٢٩/٢).

(٤٢) - ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَا تَبْعُوكَ وَلَكِنْ بَدَدْتُ عَلَيْهِمُ الشَّقَّةَ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اُسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ﴾: أي: لو كان المدعو إليه ﴿عَرَضًا قَرِيبًا﴾؛ أي: شيئاً من متاع الدنيا قليلاً لا بقاء له^(١).

وقيل: أي: غنيمة قُرْب مُتَنَاوَلُهَا، كما قال في غنائم بدر: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ [الأنفال: ٦٧].

وقوله تعالى: ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾: أي: سهلاً وسطاً من الأسفار ﴿لَا تَبْعُوكَ﴾؛ أي: هؤلاء المنافقون المعتلون بعللٍ لا تبعوك إلى حيث قصدت.

﴿وَلَكِنْ بَدَدْتُ عَلَيْهِمُ الشَّقَّةَ﴾: أي: المسافة.

وقيل: هي قطعة من الأرض يَشُقُّ سلوكها على صاحبها لُبْعُهَا.

فلما لم يكن خروجهم لرضى الله تعالى بل لأجل نفع الدنيا تعللوا.

وقوله تعالى: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اُسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾: أي: لو كان لنا زادٌ وراحلةٌ لخرجنا على موافقتكم، وهي استطاعةُ سلامةِ الآلاتِ وتهيؤِ الأسبابِ فإنها تتقدم الفعل، فأما الاستطاعةُ التي يقع الفعل بها فإنها مع الفعل عندنا، ولا متعلقٌ للقدرية فيها؛ لِمَا قلنا: إن المراد بها استطاعة الأسباب.

وقوله تعالى: ﴿يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾: أي: يُوردونها نارَ جهنم بكذبهم.

(١) «لا بقاء له» تحرفت في (ف) و(أ) إلى: «لأثقاله».

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾: أنه^(١) لا استطاعة لهم، وهو ما ذكرنا من سلامة الآلات وتهيؤ الأسباب؛ أي: فلا تقبلوا لهم عذراً.

و﴿إِنَّهُمْ﴾ لم تتصّب بوقوع^(٢) العلم عليها لمكان اللام بعدها.

وقال مجاهد: إنهم لكاذبون فيما يقولون: ﴿لَحَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ ليس في قلوبهم ذلك.

وقال قتادة: هم جماعة من المنافقين منهم جدُّ بن قيس ومعتب بن قشير.

ودلت الآية على صدق النبي ﷺ في دعوى الرسالة؛ لأنه أخبر أنهم سيحلفون كذا، وكان^(٣) كما أخبر، وذلك لا يعلمه إلا العالم بالعباد عالم الغيب.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ﴾؛ أي: لو كان نفعاً حاضراً أو غائباً من منافع الدنيا لا تبعوك، فإن صفتهم كانت أتباع المنافع، وقال الله تعالى في صفتهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ الآية [الحج: ١١].

وقال في قوله تعالى: ﴿يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾: قيل: يُظهرون نفاقهم بترك الخروج، كقوله تعالى: ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقُفُوا أَخِذُوا وَفُتِلُوا فَنَقِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦١]^(٤).

وقال القشيري رحمه الله: كان ذلك تعليلاً فاسداً من أهل النفاق، وكذا من كان غير متحقق في قصده غير مُبالغ في جهده، وأنشدوا:

وكذا المَلُولُ إذا أراد قطيعةً ملَّ الوصالَ وقال كان وكان

وَمَنْ جَدَّ فِي الطَّلَبِ لَمْ يَعْرِجْ فِي أوطانِ الفشلِ، يصلُّ السَّيرَ بالسُّرى ولم يبالِ
من مقاساة العناء:

(١) «أنه» من (أ).

(٢) في (أ) و(ر): «لوقوع» والمثبت من (ف) وهو الصواب.

(٣) في (أ): «أو كذا».

(٤) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٣٧٨/٥).

ثم قطعتُ الليلَ في مَهْمِهِ لا أسداً أخشى ولا ذئباً
يغلِبُنِي شوقي فأطوي النوى ولم يَزَلْ ذو الشوق مغلوباً^(١)

(٤٣) - ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ
الْكَاذِبِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ قال الحسين بن الفضل: هذا من لطيف
المعائبة، ولو لم يفتتح الخطاب بالعفو لَمَا كان يقوم بقوله: ﴿لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾،
فطَيَّب الله نفسه بتصدير العفو^(٢).

وقال القفال: ذكر الله في هذه الآية والآيات التي بعدها أحوالَ مَنْ تَخَلَّفَ
عن غزوة تبوك وخلف غيره، وحلَّاهم بأوصافهم، وأذاع^(٣) بذكرهم حتى عرفهم
المسلمون، وذكر أيمانهم وحججهم ومعاذيرهم الباطلة.

والمراد من ذلك والله أعلم: أن تكون أوصاف مَنْ بعدهم من أهل النفاق مقرَّرةً
عند العلماء مخلَّدةً في كتاب الله تعالى، يُعرَف بما يوجد منها في الأخلاف^(٤) نفاقُ
المنافقين منهم إذ كان فاتهم زمانُ النبوة وانقطع الوحي، فإذا عرفوهم بأوصافهم لم
يغترُّوا بظواهرهم ولم يأمنوهم على أنفسهم ودينهم.

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٣٠).

(٢) في (أ): «بتقديم العفو»، وفي (ر): «بتصديق العفو»، والمثبت من (ف) وهو الموافق لما في
«السيط» للواحدي (١٠/ ٤٥٤).

(٣) في (ر) و(ف): «وبداً».

(٤) في (أ) و(ر): «الأخلاق».

وقوله تعالى: ﴿لَمْ أَذَنْ لَهُمْ﴾: أي: في التخلف عن الغزو ﴿حَتَّى يَبَيِّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذَّابِينَ﴾.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: يحتمل: حتى يُطلعكَ الله على نفاقهم فيكونَ ذلك آيةً من آيات النبوة إن لم تأذن لهم بالتخلف، أو ^(١) إن لم تأذن لهم يبيِّن لك نفاقهم؛ لأنهم يتخلفون عنك ويفارقونك وإن لم تأذن لهم، والذين صدقوا لا يفارقونك، فيتبيَّن لك هؤلاء من هؤلاء، ويظهر كذب المنافقين من صدق المؤمنين. قال: وفيه دليل أن النبي ﷺ أذن لهم بالتخلف ^(٢) بالاجتهاد لا بالأمر، إذ لو كان بأمرٍ لم يُعَاتَب عليه، ووقع في اجتهداه أنهم معذورون فأذن لهم، ثم إنما عوتب مع أنه اجتهد - وله ذلك - لأنه ترك الأفضل، وهو ترك الإذن حتى يتبيَّن له الصادق من الكاذب، وعُتِبَ الأنبياء يكون على ترك الأفضل مع فعل الفاضل ^(٣).

(٤٤) - ﴿لَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ بِالْمُنْفِقِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ بِالْمُنْفِقِينَ﴾: أي: أن لا يجاهدوا؛ كما في قوله تعالى: ﴿شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا﴾ [الأعراف: ١٧٢] أي: لا يستأذنك في التخلف بغير عذرٍ من كان يؤمن بالله فيطيعه بالأمر بالجهاد، وباليوم الآخر فيرجو فيه ثواب الجهاد، والله عليم بمن يتقيهِ ولا يخالف أمره بالجهاد ولا يتخلف عنه.

(١) في النسخ: «و»، والمثبت من «التأويلات».

(٢) في (ر) و(ف): «في التخلف».

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٣٧٩).

(٤٥) - ﴿ إِنَّمَا يَسْتَعِزُّنَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَعِزُّنَا ﴾: بالتخلف^(١) من غير عذر ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فلا يَروْنَ لله طاعةً، ولا يرجون في القيامة مثوبة ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: شكَّت في حقيقة الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾: أي: يتقلبون^(٢).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ذكر الله تعالى^(٣) هذا في المنافقين الذين يستأذنون من غير^(٤) عذر ذمًّا لهم، فأما المؤمنون الذين لهم عذرٌ فقد قال الله تعالى في حقهم: ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ الآية [النور: ٦٢]^(٥).

وقال مقاتل: كان المستأذنون من المنافقين تسعة وثلاثين رجلاً^(٦).

وقال محمد بن إسحاق: أذن لقوم كانوا من ذوي الشرف، فيهم عبد الله بن أبي الجذُّ بن قيس، لعلمه أنهم إن خرجوا أفسدوا عليه الجند^(٧).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: حسناتُ الأعداء مردودة، وسيئاتُ الأحباب مغفورة^(٨)، وأنشدوا في معناه:

(١) «بالتخلف» ليست في (أ).

(٢) «أي: يتقلبون» ليست في (أ).

(٣) «ذكر الله تعالى» ليست في (أ).

(٤) في (ر): «بغير».

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٤٨٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٠٦).

(٦) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ١٧٢).

(٧) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٥٤٩ - ٥٥٠).

(٨) في (أ): «معقودة»، والمثبت من باقي النسخ و«اللطف».

مَنْ ذَا يَأْخُذُ مِنْ يَحِبُّ بِذَنْبِهِ وَلَهُ شَفِيعٌ فِي الْفَوَادِ مَشْفَعٌ^(١)

(٤٦) - ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾: أي: معكم للغزو ﴿لَأَعَدُّوا لَهُ﴾؛ أي: لهيؤوا للخروج ﴿عُدَّةً﴾؛ أي: أهبة، قرأ عبد الله بن شداد: (عِدَّة) بكسر العين^(٢)؛ أي: جماعة من الآلات والقوة قبل وقت الخروج كإعداد المسلمين ذلك.

قال القشيري رحمه الله: تعالى لو صدقوا في الطاعة لاستجابوا ببذل الوسع والطاقة، ولكن سَقَمَتْ إرادتهم فحصلت دون الخروج بلادتهم، ولذلك قيل:

لَوْ صَحَّ مِنْكَ الْهَوَى^(٣) أُرْشِدْتَ فِي الْحَيْلِ^(٤)

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾ أي: لم يَرْضَ الله تعالى بخروجهم وانبعاثهم^(٥)، وهو الانطلاق بسرعة، يقال: بعثته فانبعث.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: والوجه الذي لم يَرْضَ به هو ما ذكره بعده: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ الآية^(٦).

وقوله تعالى: ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾: أي: ثَقَّلَهُمْ عن الخروج وحبسهم، وقد ثَبَّطَ من

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (٣١ / ٢).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٣).

(٣) في (ف): «الهدى».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (٣١ / ٢).

(٥) «أي: لم يَرْضَ الله تعالى بخروجهم وانبعاثهم» من (ر).

(٦) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥ / ٣٨٠).

حَدَّ عَلِمَ؛ أَي: ثَقُلَ، وَثَبُّطُهُ غَيْرُهُ تَثْيِيطًا، وفيه دلالةٌ خلق الله تعالى أفعالَ البشر.
 وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ أَقْعُدُوا مَعَ الْفَاعِدِينَ﴾: أَي: العجزة المتخلِّفون من
 الزَّمَنِي والنساء^(١) والصبيان والمجانين، وهذا الأمر يحتمل أن يكون من النبي عليه
 السلام حيث استأذنه فأذن لهم ظنًّا أن لهم عذرًا، وهو ما قال في هذه السورة: ﴿فَإِنْ
 رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَقْعُدُوا مَعَ الْخَلِيفِينَ﴾؛ أَي: هو من الله تعالى لهم
 على^(٢) التهديد والتوعيد؛ كقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠].

أو الشيطان وسوس لهم وزين في قلوبهم ذلك ودعاهم إليه.

أو قال بعضهم ذلك لبعض.

أو معناه: أقعدناهم، وهو إخبار بلفظة الأمر، كما في قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا مَنْ
 بَعْدَهُ لَبِئْسَ إِسْرَءِيلَ أَكُنُوا الْأَرْضَ﴾ [الإسراء: ١٠٤].

وقال القشيري رحمه الله: إن الله سبحانه بأمر التكليف دعاهم، ثم بأمر التكوين
 ثبَطهم وأقصاهم^(٣).

(٤٧) - ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا وُضِعُوا لِلنَّاسِ كَيْفَ
 أَلْفَنَتْكُمْ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾: أَي: فسادًا، وليس معناه
 أنهم كانوا في فساد والمنافقون زادوا في فسادهم، لكن معناه: لو خرجوا فيكم ما

(١) «والنساء» من (ف).

(٢) في (ر): «من»، وفي (ف): «في».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (٣٢/٢).

زادوكم قوةً، ولكن أوقعوا فساداً بالتجبين والتهويل من الكفار، وترديد الرأي، وتزيين الأمر لفريق وتقييحه عند فريق^(١) ليختلفوا بفرق كلمتهم لا ينتظم أمرهم.

وقال مرة الهمداني: ﴿إِلَّا خَبَالًا﴾؛ أي: غشاً^(٢).

وقال يمان بن رئاب: إلا مكرأ^(٣).

وقال عبد الرحمن بن زيد: إلا شماتة بكم^(٤).

وقال عطاء: إلا ضعفاً وجُبناً^(٥).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا وَضَعُوا لِحَلَالِكُمْ﴾: هي لام القسم، وأَوْضَعَ تعديّةً وَضَعَ؛ أي: أسرع، قال الشاعر:

يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعٌ أَخْبُ فِيهَا وَأَضَعُ^(٦)

ومفعوله مضمّر؛ أي: ﴿وَلَا وَضَعُوا﴾ الإِبِلَ ﴿لِحَلَالِكُمْ﴾؛ أي: فيما بينكم، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَرًا﴾ [النمل: ٦١]؛ أي: لحثوا الإبل مسرعين فيما بينكم في النيمة وإفساد ذات البين والتخليط.

وقوله تعالى: ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾: أي: يطلبونكم، والفتنة: المحنة، وأصله: إخراج خَبَثِ الذهب بالنار.

(١) في (ر): «وتقييحه لفريق».

(٢) ذكره الواحدي في «البيسط» (١٠/٤٦٥).

(٣) المصدر السابق.

(٤) الذي رواه الطبري في «تفسيره» (١١/٤٨٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/١٨٠٧)، عن ابن زيد بغير أن المعنى على قوله: إلا تخذيلًا.

(٥) ذكره الواحدي في «البيسط» (١٠/٤٦٥) عن ابن عباس.

(٦) البيت لدريد بن الصمة. انظر: «ديوانه» (ص: ٩٣)، و«السيرة النبوية» لابن هشام (٢/٤٣٩).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: الفتنة الشرك^(١)، ويحتمل القتل وإدخال الفشل والجبن فيهم.

وقال في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَضَعُوا خِلَافَكُمْ﴾: يحتمل: ولأدْخُلُوا واحلَّهم بينكم حتى لا يصيبهم الأذى، كانوا يتسترون بالمسلمين لئلا يصيبهم البلاء والشدة^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمْ﴾: قال قتادة: أي: وفي عسكريهم مَنْ يسمع قولهم^(٣) اغتراراً بظاهر أحوالهم في التنصيح^(٤) للمسلمين، فينصرف عن القتال فيقتدي به غيره فيرجع.

وقال مجاهد وجماعة: وفيكم جواسيس للمنافقين ينقلون إليهم منكم ما يسمعون فيكم^(٥).

وقال قتادة^(٦): وفيكم من المؤمنين أهل محبة لهم يطيعونهم ويقبلون قولهم لشرفهم فيهم.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾: أي: المنافقين، فيكشف لكم عن مكنون سرائرهم لتحذروهم.

(١) في (أ): «يحتمل الفتنة الشرك»، وفي «التأويلات»: (قيل: يبعثون منكم الفتنة، وهو الشرك الذي كانوا هم عليه).

(٢) في (ر): «الأذى والشدة». والمثبت من باقي النسخ و«التأويلات». انظر: «تأويلات أهل السنة» (٣٨١/٥ - ٣٨٢).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٤٨٦/١١).

(٤) في (ف): «التنصيح».

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (٤٨٦/١١) بلفظ: (يُحَدِّثُونَ بِأَحَادِيثِكُمْ، عِيُونَ غَيْرُ مُنَافِقِينَ).

(٦) كذا قال، وهذا القول مذكور في المصادر عن ابن إسحاق. انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٥٥٠/٢)، «تفسير الطبري» (٤٨٦/١١)، و«البيضا» (٤٧٤/١٠).

وقيل: أي: علمٌ بمن يوجّه أفعاله عن^(١) وجوهها ويضعها غير موضعها.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: أي: لا عن جهلٍ أمهلهم على ما هم عليه، لكنه أخرهم ليومٍ، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ الآية [إبراهيم: ٤٢] ^(٢).

وقال القشيري رحمه الله: أخبر الله تعالى في هذه الآية عن سابق علمه فيهم، وذكر ما علم أنه لا يكون أنه^(٣) لو كان كيف كان يكون.

وقال: لو ساعدوكم في الخروج لكان يلحقكم من سوء سيرتهم في التضريب بينكم والنميمة فيكم والسعي فيما يسوؤكم أكثر مما ينالكم بتخلفهم من نقصان عددكم، ومن ضرره أكثر من نفعه فعدمه خيرٌ من وجوده، ومن لا يظهر من حضوره غير شروره فتخلفه خيرٌ من حضوره^(٤).

(٤٨) - ﴿لَقَدْ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ﴾: في الوقائع، منها في حرب الخندق بقولهم: ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ [الأحزاب: ١٣]، وفي حرب أحد بانصراف ابن أبيٍ بأصحابه وهم ثلاث مئة، وبقي النبي ﷺ في أصحابه وهم^(٥) سبع مئة، وقد

(١) في (ف) و(أ): «غير».

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٣٨٢ / ٥).

(٣) في (ف): «وأنه»، وفي «اللطائف»: (أن).

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (٣٢ / ٢).

(٥) «أصحابه وهم» ليس في (أ).

مرت القصة، وليلة العقبة^(١) بإلقاء شيء بين قوائم ناقة النبي ﷺ بالليل حتى تنفر وتلقي النبي ﷺ، ووقوف اثني عشر منافقاً ليلتد على الشية ليفتكوا بالنبي ﷺ وأخبره الله تعالى بذلك^(٢)، وبتجبين المؤمنين في الغزوات.

وقوله تعالى: ﴿وَكَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾: أي: صرّفوا^(٣) فيك الآراء والحيل.

وقيل: بغوا لك الغوائل.

وقيل^(٤): قد مكروا بك ليثبتوك أو يقتلوك أو يُخرجوك.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ﴾: أي: الإسلام ﴿وَوَظَّهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾؛ أي: كثر المؤمنون، وقيل: أي: نصرهم^(٥) الله ﴿وَهُمْ كَذِبُونَ﴾؛ أي: المنافقون كارهون ظهور الدين ونصر المسلمين.

وقيل: قوله^(٦): ﴿مِنْ قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل أن^(٧) يقوى أمرك ويكثر أنصارك لم ينفذ لهم فيك شيء، فكيف اليوم وقد ظهرت قوتك وكثرت شيعتك؟

وقال محمد بن إسحاق: لما خرج النبي ﷺ إلى تبوك ضرب عسكره على ثنية الوداع، وضرب عبد الله بن أبي عسكره أسفل منه على [حِدةٍ بحذاءِ ذُبَابٍ] جبلٍ

(١) ليست هذه العقبة المشهورة في بيعة الأنصار للنبي ﷺ، لكنها قصة أخرى ستأتي في هذه السورة.

(٢) هي قصة العقبة السابقة وستأتي في هذه السورة عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُمْ أَيْمَانُ يَتَنَالَوْنَ﴾.

(٣) في (ف): «وضربوا».

(٤) «قيل» من (أ).

(٥) في (ف): «نصر».

(٦) في النسخ: «قولهم»، والصواب المثبت.

(٧) «من قبل أن» ليس في (أ) و(ف).

بالجبانة^(١) أسفل من ثنية الوداع، فلما سار رسول الله ﷺ تخلف ابن أبي، وعبد الله ابن نبتل، ورفاعة بن التابوت، وأبو زيد^(٢)، وأوس بن قيطي وجماعة من عظمائهم فنزلت هذه الآية^(٣).

(٤٩) - ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أَئِذْنَ لِّي وَلَا نَفْتِيَّ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أَئِذْنَ لِّي وَلَا نَفْتِيَّ﴾ أي: ومن المنافقين من يقول: ﴿أئِذْنَ لِّي﴾ في التخلف ﴿وَلَا نَفْتِيَّ﴾ أي: ولا توقعني في الفتنة؛ أي: الكفر. ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ أي: قد وقعوا في الكفر قبل هذا.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾: مشتملة عليهم لا يخرجون منها.

وقيل: أي: جامعة للمنافقين وسائر الكافرين؛ كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

وقال محمد بن إسحاق: قال النبي ﷺ لجعد بن قيس المنافق: «هل لك في جلاذ بني الأصفر؟» يعني: الروم، فقال: يا رسول الله، ائذن لي ولا تفتني، فوالله قد

(١) ما بين معكوفتين من «تفسير الطبري» و«تاريخه»، وفي «السيرة»: (على حدة نحو ذباب).

(٢) في (ر): «وأخو زيد»، ولم يرد في كتابي الطبري، وفيهما: ورفاعة بن زيد بن التابوت أخو بني قينقاع. ومن قوله: «وعبد الله بن نبتل...» إلى آخر الخبر لم يرد في «السيرة».

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٥١٩)، و«تفسير الطبري» (١٤/ ٢٨٥-٢٨٦) تحقيق محمود شاكر، و«تاريخ الطبري» (٢/ ١٨٢)، ونزول الآية في هذه القصة لم يذكره ابن هشام في «السيرة» عن ابن إسحاق، لكن رواه الطبري من طريق ابن إسحاق عن عمرو بن عبيد عن الحسن البصري.

عرفَ قومي ما رجلٌ أشدَّ عُجْباً بالنساءِ مِنِّي، وإني أخشى إن رأيتُ نساءَ بني الأصفر
ألا أصبرَ عنهن! فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: «قد أذنتُ لك»، ونزلت الآية^(١).

وقيل: أراد بالفتنة الردَّة إذا دَعَوهُ^(٢) إلى النصرانية.

وقيل: أراد به: إِنَّا عسى أن نواقعهنَّ قبل القسمة فوقعنا في الفتنة؛ أي: الإثم.

وقيل: أراد به: إِنَّا نشتغلُ بهنَّ ونُفتتنُ بهن فيشغلُنَا ذلك عن طلب المعاش وعن
الخروج للجهاد.

وأيَّ ذلك أراد لم يعذره^(٣)، وبَيَّن أنه قد وقع في الفتنة لمخالفة النبي ﷺ.

قال أبو العالية: كان الأصفرُ رجلاً من الحبشة ملك الروم فولدت له بناتٌ
لُعسٌ^(٤) لم يَرِ مثلهن في الحسن.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: أْبْرَزَ القوم قبيحَ فعالهم^(٥) في مَعْرِضِ

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٥/ ٥١٦)، و«تفسير الطبري» (١١/ ٤٩٢)، و«تفسير الثعلبي»
(٣/ ٢٠٧)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص: ٢٤٧ - ٢٤٨). وقد رواه ابن إسحاق ومن طريقه
الطبري عن الزهري وجماعة من أشياخه مرسلًا، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٠٩)
متصلاً من طريق بن إسحاق ثنا سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت عن جابر بن عبد الله
قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ - يقول لجَدِّ بنِ قيسٍ.. فذكره. ورواه بنحوه الطبراني في «الكبير»
(١٢٦٥٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفي إسناده يحيى الحمانى وهو ضعيف كما قال
الهيتمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٣٠).

(٢) في (ف): «دعونه».

(٣) في (أ) و(ر): «لم يعذر».

(٤) جمع لعساء، وهي التي في لونها أدنى سواد مشربة من الحمرة. انظر: «القاموس» (مادة: لعس).

(٥) في (ر): «قبح أفعالهم».

التَّحْرِجُ^(١)، وراموا التَّيْلِسَ على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين سوءَ سيرتهم وخبثَ سريرتهم، فبيَّن الله تعالى أن الذي فرُّوا منه بزعمهم سقطوا فيه بفعلهم^(٢).

(٥٠) - ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْهُمْ فَرِحُوا﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾: أي: إن تنلَّك غنيمةً ونصرٌ وعافية^(٣) كما كانت يوم بدر يحزنهم ذلك؛ أي: هؤلاء المنافقين.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ﴾: أي: نكبةٌ وهزيمةٌ، وقيل: كما كانت يوم أحد.

﴿يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ﴾: أي: قد كنَّا أخذنا حذرنا واحتطنا لأنفسنا بالتخلف عنهم، وأخذنا أمرنا بالوثيقة.

﴿وَيَتَوَلَّوْهُمْ فَرِحُوا﴾: مسرورون بما أصاب المسلمين.

(٥١) - ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾: قال الكلبي: أي: قل يا

(١) في (ر): «التَّحْرِجُ»، وفي (ف): «التَّخْرِجُ»، وفي مطبوع «اللطائف»: (التَّخْرِجُ)، والمثبت من (أ) ولعل المراد به: ادعاء التَّحْرِجِ إزاء بنات بني الأصفر للهروب من الخروج.

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (٣٣/٢).

(٣) في (ر): «ونصرة وعافية»، وفي (ف): «ونصر وعاقبة».

محمد لهؤلاء المنافقين: لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا في اللوح المحفوظ^(١).

وقال الضحاك: إلا قضاء^(٢) الله تعالى وقدره علينا.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: أي: إلا ما جاء به القرآن: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ الآية [التوبة: ١١١]^(٣).

وقوله تعالى: ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ أي: مالكنّا ونحن عبيده.

وقال الكلبي: هو ناصرنا على عدونا^(٤)، وفي رواية عنه قال: هو أولى بنا من

أنفسنا في الموت والحياة^(٥).

وقيل: هو وليّنا.

وقيل هو متولّي أمورنا وكافينا^(٦).

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾: أي: فليثق به الموحّدون.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: إذا علم العبد أن ما أصابه في إرادة مولاه سقط عن

قلبه ما يهواه، واشتغل بروح رضاه، وعذبّ عنده ما صعب من بلواه، وأنشدوا في معناه:

إن كان يرضيكم مرضاة حاسدنا^(٧) فما لجرح إذا أرضاكم ألم

(١) انظر: «البيسط» (١٠/ ٤٨٠).

(٢) في (أ): «قضاء» وفي (ف): «قضاء» بدل: «إلا قضاء».

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٣٨٦).

(٤) ذكره الواحدي في «البيسط» (١٠/ ٤٨٢) عن ابن عباس، فلعله مما روي من طريق الكلبي عن أبي

صالح عن ابن عباس.

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٥٣).

(٦) في (ر): «وكفائتنا». والكلام من قوله: «وقوله تعالى: ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾» إلى هنا سقط من (أ).

(٧) في «اللطائف»: (إن كان سرّكم ما قال حاسدنا).

وقال: شهودُ جريانِ التقديرِ يخففُ على العبدِ كلَّ عسير.

وقال: أولُ التوكلِ الثقةُ بوعده، ثم الرضا باختياره، ثم نسيانُ أمورِك بما يغلب على قلبك من أذكاره.

وقال: بداية التوكلِ سكونُ السرِّ عند حلول الأمر، ونهايته التفويضُ وهو استواءُ الحلو والمرِّ والنعمة والضَّرَّ^(١).

(٥٢) - ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾: ﴿هَلْ﴾ استفهامٌ بمعنى النفي، والترَبُّصُ: الانتظار، و﴿الْحُسَيْنَيْنِ﴾: تشيةُ الحُسنَى، والحُسنَى تأنيثُ الأحسن، والأحسنُ تفضيلُ الحسن، وأريد به نعتُ الحالتين أو الخصلتين.

ومعناه: قل يا محمد: ما تنتظرون يا معشر المنافقين بنا إلا واحدةً من خصلتين، وكلُّ واحدةٍ منهما نهايةٌ في الحُسنِ غايةٌ فيما يُحمد في العاقبة^(٢)، وهي الغنيمة أو الشهادة، فليس مما يجري علينا من جهتكم موضعُ شماتة.

قال الكلبي: ﴿إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾: النصر أو الشهادة.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: إمَّا أن نُقتَلَ ففيه الحياةُ والرزقُ، وإمَّا أن نَغْلِبَ فيؤتينا الله أجراً عظيماً، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُقْتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٤]^(٣).

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٣٣ - ٣٤).

(٢) في (أ): «من العافية».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٤٩٧).

وقال الحسن: هي الغنيمة في الدنيا والجنة في الآخرة.

وقال ابن كيسان: شهادتنا، أو إسلامكم بدعوتنا.

وقال الإمام أبو القاسم بن حبيب: سألتني بعضهم: كيف قال: ﴿إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾^(١) والمؤمن ينتظر كلتا الحسينين: الفتح في الدنيا والثواب في الآخرة بوعد الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكُمْ عَلَىٰ تَحَرُّوْا﴾ [الصف: ١٠] إلى قوله: ﴿وَفَتَحْ قَرْيَبُ﴾ [الصف: ١٣]؟

فقلت: هذا خطاب المنافقين، وكانوا يتربصون بالمؤمنين أحد الأمرين: إما أن يُنصروا، وإما أن يُقتلوا، فأخبر أنهم إن غلبوا كانت لهم حُسنَى وإن غلبوا فكذلك، وأما المؤمن فإنه ينتظر في الجهاد كلتا الحسينين.

وقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نَرَبِّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ يَأْتِيَنَا﴾: قال ابن جريج: ﴿مِّنْ عِندِهِ﴾: الموت ﴿أَوْ يَأْتِيَنَا﴾: القتل^(١).

وقال الكلبي: ﴿بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ﴾ مما^(٢) أصاب الأمم الخالية^(٣)، وبما شاء الله من العذاب والنقمة ﴿أَوْ يَأْتِيَنَا﴾: بالسيف.

وقال ابن كيسان: ﴿بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ﴾^(٤) فيعاقبكم في الدنيا في أنفسكم وفي الآخرة بالنار ﴿أَوْ يَأْتِيَنَا﴾ إن أظهرتم ما في قلوبكم قتلناكم^(٥).

وقوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُّتَرَبِّصُونَ﴾: قال الكلبي: أي: انتظروا هلاكنا فإننا ننتظر هلاككم.

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٤٩٧/١١) من طريق ابن جريج عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهو منقطع.

(٢) في (أ): «بما».

(٣) ذكره الواحدي في «البيسط» (٤٨٥/١٠) بلفظ: (كما أصاب...).

(٤) في (أ) و(ف): «بعذاب الله من عنده».

(٥) ذكره الواحدي في «البيسط» (٤٨٥/١٠).

وقال الحسن: ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ مواعيد الشيطان، فإنه كان يمنيهم موت النبي ﷺ؛ قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠] ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ مواعيد الله من إظهار دينه واستئصال مَنْ خالفه^(١).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: إن ظفرنا بكم فنصرٌ وغنيمة، وإعزازٌ للدين ورفعة، وإن قُتلنا فشهادةٌ ورحمة، ورضوانٌ من الله وزلفة، وإن أصابتنا هزيمةٌ ونكبة، فذلك سبب لنيل الأجر والثوبة، فإذا لا يستقبلنا إلا ما هو حسن ونعمة^(٢)، وأما أنتم فإن ظفرنا بكم فتعجيلٌ ذلٌ لكم ومحنة^(٣)، وإن قُتلتم فعقوبةٌ من الله وسخطة، وإن كانت لكم اليد في الحال فخذلانٌ من الله وتخلية، وسببٌ زيادة عذابٍ ونقمة^(٤).

(٥٣) - ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّنْ يَتَقَبَّلَ مِنْكُمُ إِنَّكُم كُنْتُمْ قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾
وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّنْ يَتَقَبَّلَ مِنْكُمُ إِنَّكُم كُنْتُمْ قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾: ﴿أَنفِقُوا﴾ أمرٌ صيغةٌ ومعناه الشرط؛ كقول الشاعر:
أسيئي بنا أو أحسنني لا ملومة لدينا ولا مقلية إن تَقَلَّتِ^(٥)
كأنه قال: إن أسأت أو أحسنت لا^(٦) تلامي، فكذا هذا: إن أنفقتم طوعاً بالاختيار

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥٣/٥)، والواحدي في «البيسط» (١٠/٤٨٥).

(٢) في (ر): «إلا ما هو حسنى».

(٣) في (ر) و(ف): «فتعجيل ذلك لكم»، وفي «اللطائف»: «فتعجيل لذلك ومحنة».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/٣٤).

(٥) البيت لكثير عزة، وهو في «ديوانه» (ص: ٨٠)، و«معاني القرآن» للفراء (١/٤٤١)، و«الشعر

والشعراء» (١/٥٠٦).

(٦) في (أ): «لن».

أو كرهاً بالإجبار لن يُتقبل منكم؛ لأنكم كنتم في القِدَم^(١) فاسقين منافقين خارجين عن الطاعة والإخلاص، وإنما يتقبل الله من المتقين، وطوعُ المنافق لا يكون لرجاء ثواب الله ولطلب رضا الله، لكن ما يفعله بطبعه فهو من طوعه، وكرهه ما يطلب منه ويُجبر عليه.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في جدِّ بن قيس حيث قال: ﴿أُثِّدَنِي وَلَا نَفَيْتَنِي﴾ وَأَعَيْنُكَ بِمَالِي، فنزلت هذه الآية^(٢).

وقال القشيري رحمه الله: المردود لا يُقبل منه توسُّلٌ، ولا يغيِّر حكمَ شقاوته تكلفٌ ولا تعمُّلٌ.

وقيل: تقرُّبُ العدوُّ يُوجب زيادة المقت، وتحبُّبُ^(٣) الحبيب يُوجب زيادة العطف، قال الله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَدَّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]^(٤).

(٥٤) - ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنْهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَرِهُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنْهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَرِهُونَ﴾: (منع) يتعدَّى إلى مفعولين، تقول: منعتُ زيداً مراده، وهاهنا أحدُ المفعولين: هم، والثاني: ﴿أَنْ تُقْبَلَ﴾

(١) في (ف): «القديم».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٤٩٩/١١) من طريق ابن جريج عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهو منقطع.

(٣) في (ر) و(ف): «وتحية»، والمثبت من (أ) و«اللطائف».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (٣٤/٢).

لأنه في معنى المصدر، وتقديره: وما منع المنافقين قبول نفقاتهم في سفرهم معك وفي غير ذلك طوعاً أو كرهاً إلا كفرهم بالله وبرسوله، وهو رفعٌ لأنه فاعل.

وكما لا تُقبل نفقاتهم لا تُقبل صلاتهم لكفرهم، وهم لنفاقهم لا يأتونها إلا متثاقلين؛ لأنهم لا يرجون بأدائها ثواباً ولا يخافون بتركها عقاباً، ولا ينفقون شيئاً إلا على كراهية منهم.

ثم ذمهم على الكسل مع أنه لا صلاةَ لهم ذمٌ على النفاق الذي يبعث على الكسل، وفقد الإيمان الذي يبعث على النشاط.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: فقدوا الإخلاص في أعمالهم فعَدِمُوا الاختصاصَ في أحوالهم، وحُرِمُوا الخلاصَ في عاجلهم ومآلهم^(١).

(٥٥) - ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وقال ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة: فيه تقديم وتأخير؛ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْآخِرَةِ^(٢).

وقال الحسن: هي على نَظْمِهَا، ومعناه: يعذبهم بها في الدنيا بأخذ الزكوات منهم بغير طيبة نفسٍ منهم، والإنفاق في سبيل الله كذلك.

وقال [ابن] زيد: أي: بالمصائب^(٣).

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٣٥).

(٢) «إنما يريد الله ليُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْآخِرَةِ» ليس في (ف).

(٣) روى هذه الأقوال الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٠٠ - ٥٠١).

وقيل: أي: بكونهم مكظومين، وقد غَضُّوا^(١) بما يُضْمِرُونَهُ مِنَ النِّفَاقِ وَيَرُونَهُ مِنْ عِلْوِ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِمْ، وَلَا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَى إِظْهَارِ مَا فِي نَفْسِهِمْ^(٢).

ومعنى قوله: ﴿لِيُعَذِّبَهُمْ﴾؛ أي: أَنْ يُعَذِّبَهُمْ.

وقيل: فيه إضمار: إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَمْلِيَ لَهُمْ فِيهَا لِيُعَذِّبَهُمْ^(٣)، وَإِنْ حُمِلَتِ الْآيَةُ عَلَى الْمَشْرُكِينَ فَتُعَذِّبُهُمْ فِي الدُّنْيَا قَدْ يَكُونُ بِالسَّبِي وَالِاسْتِغْنَامِ.

وقوله تعالى: ﴿وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ﴾: أي: تَخْرُجُ أَرْوَاحُهُمْ ﴿وَهُمْ كَافِرُونَ﴾؛ أي: حَالُ الْكُفْرِ.

وقيل: ﴿تَزْهَقَ﴾: تَذْهَبُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١].

وقيل: تَهْلِكُ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾؛ أي: هَلَكَ.

وَدَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى إِبْطَالِ الْقَوْلِ بِالْأَصْلَحِ؛ لِأَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّ إِعْطَاءَ الْمَالِ وَالْأَوْلَادِ إِيَّاهُمْ لِلتَّعْذِيبِ وَالْإِمَاتَةِ عَلَى الْكُفْرِ.

وَدَلَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ﴾ عَلَى إِرَادَةِ اللَّهِ أَفْعَالَ الْعِبَادِ كُلِّهَا خَيْرَهَا وَشَرَّهَا؛ لِأَنَّ إِرَادَةَ الْعَذَابِ إِرَادَةٌ مَا يُعَذِّبُ عَلَيْهِ.

(٥٦) - ﴿وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِيَّاهُمْ لِمَنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِيَّاهُمْ لِمَنْكُمْ﴾: أي: عَلَى دِينِكُمْ وَطَرِيقَتِكُمْ ﴿وَمَا هُمْ مِنْكُمْ﴾؛ أي: عَلَى دِينِكُمُ الْإِسْلَامِ ﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾؛ أي: يَخَافُونَكُمْ

(١) فِي (ف) وَ (أ): «عَصَمُوا».

(٢) فِي (أ): «أَنْفُسُهُمْ».

(٣) «لِيُعَذِّبَهُمْ» مِنْ (ر).

على أنفسهم إن صرّحوا^(١) لكم بما في قلوبهم، فلذلك يحلفون إنهم لمنكم، قال تعالى: ﴿اتَّخِذُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ [المجادلة: ١٦]، وقال تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعُدُوُّ﴾ [المنافقون: ٤].

(٥٧) - ﴿لَوْ يَحِذُّونَ مَلَجًا أَوْ مَغْرَبًا أَوْ مَدْخَلًا لَّوَلُوا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْحَدُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ يَحِذُّونَ مَلَجًا﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: حرزاً. وقال قتادة: أي: حصناً^(٢).

وقال عطاء: مهرباً^(٣).

﴿أَوْ مَغْرَبًا﴾: جمع مغارة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: غيراناً^(٤)، جمع غارٍ، والغار: الثقب الواسع في الجبل.

وقيل: المغارة: المدخل الساتر، وقيل: المغارات: المكامن التي يتوارى فيها. ﴿أَوْ مَدْخَلًا﴾: مفتعلاً من دخل، وهو موضع الدخول.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: سرباً^(٥)، وقال الضحاك: مأوى^(٦).

وقوله تعالى: ﴿لَّوَلُوا إِلَيْهِ﴾: أي: وجوهم^(٧).

(١) في (ر) و(ف): «أن يصرحوا».

(٢) روى القولين الطبري في «تفسيره» (٥٠٤ / ١١).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥٤ / ٥)، والبغوي في «تفسيره» (٥٩ / ٤).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٥٠٤ / ١١).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (٥٠٤ / ١١).

(٦) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥٤ / ٥)، والبغوي في «تفسيره» (٥٩ / ٤).

(٧) «أي: وجوهم» ليست في (أ) و(ف).

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾: أي: يُسرعون لا يردُّهم شيءٌ، من الفرس الجَموح الذي لا يردُّه اللِّجام.

يقول: يحلفون لكم إنهم لمنكم كاذبين خوفاً من القتل؛ لتعذر خروجهم من بلادكم، ولو استطاعوا ترك دورهم وأموالهم والالتجاء إلى بعض الحصون أو الغيران - أي: المواضع التي تسترهم عن رؤيتكم - لفعلوه استثقلاً لكم وتكرهاً للقائكم.

وقال ابن كيسان: ﴿لَوْ يَحْدُوثُ مَلَجًا﴾ قوياً^(١) يأمنون فيه، ﴿أَوْ مَغْرَبٍ﴾: غيراناً يَسْتَخْفُونَ فيها ﴿أَوْ مُدْخَلًا﴾ في أهل حربكم لا ينالهم منكم ما يخافون من القتل والأسر، لأسرعوا إلى واحد من الثلاثة ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾: يركبون رؤوسهم لا يَلَوُّون على شيء^(٢).

قال الإمام القشيري رحمه الله: إن المُمَازِق^(٣) في الخُلة ينسلُّ عن سِلْكها بأضعف خَلَّة^(٤)، إن وجد مهرباً آوى إليه، وإن أمل نيل ما يعلِّل به انتهزه واتكل عليه^(٥).



(٥٨) - ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ﴾.

(١) «قوياً» زيادة من (أ).

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (١٣/ ٤١١) (ط: دار التفسير)، و«البيسط» (١٠/ ٤٩٧).

(٣) في (ف) و(أ): «المتمارق»، وفي (ر): «الممارق»، والمثبت من «اللطائف». والممازق: الذي لا يخلص في وده.

(٤) الخلة بالضم: الصداقة، وبالفتح: الحاجة.

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٣٦).

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾: قرأ الحسن والأعرج وسهل ويعقوب: ﴿يَلْمِزُكَ﴾ بضم الميم^(١)، وقرأ القراء^(٢) بكسرها وهما لغتان.

وقال الحسن: أي: يعيبك^(٣).

وقيل^(٤): اللمز: العيب مُسَارَةً، والهمز: العيب مجاهرة؛ قاله الزجاج^(٥)، قال الله تعالى: ﴿وَبَلَّ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةً﴾.

وقال قتادة: ﴿يَلْمِزُكَ﴾؛ أي: يطعن عليك^(٦).

وقال عطاء: أي: يغتتابك^(٧).

أي: ومن المنافقين مَن يعيبك في إعطاء الصدقات أهلها، فيقول: إن محمداً يفرِّق الصدقات على شهوته، فيعطي مرة ويَحْرِمُ مرة أخرى، ويعطي واحداً ويَحْرِمُ آخر، ويعطي الأغنياء المؤلفة قلوبهم ويمنع الفقراء، فيلمزك لجهله بمواضع الأحكام. وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَاهُمْ يَسْتَخْطُونَ﴾: أي: إن

(١) انظر: «النشر» (٢/ ٢٧٩) عن يعقوب. و«تفسير الثعلبي» (٥/ ٥٦) عن الحسن والأعرج وأبي رجاء وسلام ويعقوب.

(٢) في (ف): «وعامة القراء» بدل: «وقرأ القراء».

(٣) انظر: «البيضاوي» (١٠/ ٥٠٠) عن الكلبي.

(٤) كلمة: «قيل» من (أ)، وفي (ر): «قال»، وليست في (ف).

(٥) في النسخ: «وقال الزجاج»، والصواب المثبت. انظر: «تفسير ابن كمال باشا» عند هذه الآية، وانظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ٤٥٦). وظاهر كلامه اختيار عدم الفرق بينهما، وكذا في تفسير سورة الهمة (٥/ ٣٦١).

(٦) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٠٩١)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٠٦).

(٧) انظر: «تفسير الثعلبي» (٥/ ٥٦) عن عطاء، و«البيضاوي» (١٠/ ٥٠٠) عن عطاء عن ابن عباس.

أعطاهم النبي عليه السلام منها ما أرادوا رَضُوا وذكروه بالجميل وأثنوا عليه، وإن لم يعطهم منها غضبوا منه وطعنوا عليه.

قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: بينا رسول الله ﷺ يقسم ما لا إذا جاءه ابن أبي الخويصرة - وهو خرقوص بن زهير - التميمي عظيم من عظماء المنافقين، فقال: اعدل يا رسول الله، قال: «وَمَنْ يَعْدِلْ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ؟!» فقال عمر رضي الله عنه: ائذن لي أضرب عنقه، فقال: «دَعُهُ، فَإِنْ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدَكُمْ صَلَاتَهُ فِي صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ فِي صِيَامِهِمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، وَآيَتُهُمْ رَجُلٌ أَسْوَدُ ذُو ثَدِيَّةٍ مِثْلُ ثَدِي الْمَرْأَةِ تَذَرْدُرُ^(١)، يَخْرُجُونَ عَلَى فِتْرَةٍ مِنَ النَّاسِ»، قال أبو سعيد رضي الله عنه: سمعتُ هذا من رسول الله ﷺ، وأشهد أن علياً حين قتلهم^(٢) جيء بالرجل على النعت الذي وصف رسول الله ﷺ^(٣).

وروي أن هذا الطاعن كان رجلاً غائر العينين كث اللحية مشرف الجبهة، فقال لرسول الله ﷺ: اعدل فإنك لم تعدل! فقال عليه السلام: «لا تأمنوني وأنا أمينُ ربي؟» ثم قال: «يُخْرِجُ مِنْ ضَنْضِي هَذَا قَوْمٌ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ يَقْتُلُونَ أَهْلَ الصَّلَاةِ»^(٤). ولما خرج قال النبي عليه السلام: «مَنْ يَقُومُ إِلَى هَذَا فَيَقْتُلُهُ؟» فقال أبو بكر رضي الله عنه: أنا يا رسول الله فذهب فوجده قائماً في الصلاة، فرجع وقال:

(١) قوله: «ذُو ثَدِيَّةٍ مِثْلُ ثَدِي الْمَرْأَةِ تَذَرْدُرُ» كذا في النسخ، ولفظ الصحيحين: «إِحْدَى عَصْدِيَّةٍ مِثْلُ ثَدِي الْمَرْأَةِ، أَوْ مِثْلُ الْبَضْعَةِ تَذَرْدُرُ»، وفي رواية للبخاري: «إِحْدَى يَدَيْهِ...»، والباقي كالأولى، وفي أخرى: «إِحْدَى يَدَيْهِ - أَوْ قَالَ: ثَدْيِيهِ - مِثْلُ ثَدِي الْمَرْأَةِ، أَوْ قَالَ: مِثْلُ الْبَضْعَةِ تَذَرْدُرُ». والبضعة: القطعة من اللحم، وتدردر: تضطرب وتذهب وتجيء.

(٢) قوله: «قتلهم» كذا في رواية للبخاري، وفي باقي روايات الصحيحين: «قاتلهم».

(٣) رواه البخاري (٣٦١٠) و(٦١٦٣) و(٦٩٣٣)، ومسلم (١٠٦٤ / ١٤٨).

(٤) رواه البخاري (٣٣٤٤)، ومسلم (١٠٦٤ / ١٤٣) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

يا رسول الله، وجدته في القيام، وقال عليه السلام: «مَنْ يَقْتُلُهُ؟» فقال عمر رضي الله عنه: أنا، فذهب فوجده في الركوع، فقال: لم يقتله الصديق في القيام فكيف أقتله في الركوع؟ فرجع فقال: يا رسول الله وجدته في الركوع، ثم أعاد رسول الله ﷺ ذلك فقال عثمان رضي الله عنه: أنا أقتله، فذهب فوجده في السجود فقال: إن أبا بكر وعمر لم يقتلاه بالقيام والركوع فكيف أقتله في السجود؟ فرجع فأعاد رسول الله ﷺ الكلام، فقال علي رضي الله عنه: أنا أقتله، فقال عليه السلام: «تَقْتُلُهُ إِنْ وَجَدْتَهُ» فلم يجده فرجع، فقال عليه السلام: «قَدْ قُلْتُ إِنَّكَ لَا تَجِدُهُ، لَكِنْ هَلَاكُهُ يَكُونُ عَلَى يَدَيْكَ»، وكان كذلك، وقتل فيمَن خرج بالنَّهْرَ وَأَنَّ ذَلِكَ عَلَى عَهْدِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (١).

(٥٩) - ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾: أي: ما آتاهم رسول الله فإنه يؤتى بأمر الله، قال عليه السلام: «اللَّهُ الْمَعْطِي وَأَنَا الْقَاسِمُ» (٢)، وقال عليه السلام: «والذي نفسي بيده ما أعطيتكم شيئاً ولا أمنعكم، إنما أنا خازن» (٣).
وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾: أي: كافينا ورازقنا من حيث شاء، فيعطينا كفايتنا وإن تأخرت.

وقوله تعالى: ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾: فما آتاه فهو فضلٌ منه سواء كان بكسب العبد أو بغير كسبه.

(١) لم أجده.

(٢) رواه البخاري (٣١١٦) من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٥٠٦/١١) عن قتادة مرسلاً.

وقوله تعالى: ﴿وَرَسُولُهُ﴾ أي: سيؤتينا رسوله بأمره.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ أي: في توسعة أرزاقنا علينا من حيث نشاء، وفي آخره مضمّر؛ أي: لكان خيراً لهم، وهو أبلغ من الذكر؛ لأن النفس تذهب فيه كلّ مذهبٍ والذكر يقصّره على ما ذكر دون غيره.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: لو وقف القوم مع الله بشرط الرضا لآتاهم^(١) فنون العطاء، ولو حفظوا مع رسوله الأدب لسعدوا بوجدان الأرب من غير معاناة تعبٍ ولا مقاساة نصبٍ، لكنهم عرجوا في أوطان الطمع فوقعوا في الذل والحرب^(٢).

(٦٠) - ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُوقِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾: بين مصارف الصدقات في هذه الآية، وردّ على^(٣) من عاب النبي ﷺ في صرف الصدقات إلى حيث كان يصرف وأعلم أن الله عزّ وعلا أمره بذلك، وأن الذين كانوا يطمعون فيها لم يكونوا مستحقّين فإنهم كانوا أغنياء، والله تعالى جعل مصارفها للفقراء، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾ وليست اللام دلالة الملك بينهم بالسوية فإنهم مجهولون، والمجهولون لا يصلحون للاستحقاق بطريق الملك، بل هي لبيان أن الصرف لهم

(١) في «لطائف الإشارات»: (بسر الرضا لأتاهم).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (٣٧/٢).

(٣) «على» ليست في (أ).

دون غيرهم؛ كما يقال: الخلافة لبني العباس، وميراثُ فلان لقربته؛ أي: ليست
لغيرهم، لا أن تكون بينهم بالسوية^(١).

ثم الفقرُ هو شدة الحاجة، والمسكنةُ في معناه، لكنْ تدلُّ على انكسار صاحبها
وتدُلُّه، فإن المسكين عند الناس اسمٌ للمرحوم، والمغايرةُ في الاسم تدلُّ على نوع
تفاوت.

واختلف في أن الفقير أضعف حالاً أم المسكين؟

قال فقهاء العراق أبو حنيفة وغيرهم رضوان الله عليهم: الفقير: الذي لا يسأل؛
لأن عنده ما يكفيهِ للحال، قال الشاعر^(٢):

أما الفقيرُ الذي كانت حَلَوْبَتُهُ وَفَقَّ العيال فلم يُتركْ له سَبْدٌ^(٣)

والمسكين أضعفُ حالاً منه، وهو الذي يسأل لأنه لا يجد شيئاً، قال الله تعالى:
﴿أَوْ مَسْكِينًا دَامِرَةً﴾ [البلد: ١٦]؛ أي: لصق بالتراب لقربه.

وهو قول عامة السلف، وهو اختيار يونس البصري وأبي العباس ثعلب الكوفي.

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما والحسن وجابر بن زيد
والزهري ومجاهد: أن الفقير المتعفف الذي لا يسأل، قال الله تعالى ﴿لِلْفُقَرَاءِ
الَّذِينَ﴾ إلى قوله: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣]، والمسكين

(١) في (أ): «بالسوية».

(٢) «قال الشاعر» من (ف).

(٣) البيت للراعي النميري، وهو في «ديوانه» (ص: ٦٤)، و«تفسير الثعلبي» (٥/٥٨)، و«البيضا»

(٥٠٣/١٠). السبد بالتحريك: القليل من الشعر، يقال: ما له سبد ولا لبد؛ أي: لا قليل ولا كثير.

انظر: «القاموس» (مادة: سبد).

الذي يَسْأَلُ^(١)، وقد بينّا أن المسألة تشير إلى المذلة وهي ظاهرة^(٢) في المسألة. وقال الشافعي رضي الله عنه: الفقير أضعف حالاً^(٣)؛ لأن الاسم من كَسَرَ الْفَقَارَ، وهو نهايةُ الاضطرار، وأما المسكين فهو الذي يَسْكُنْ قلبه إلى شيءٍ وهو معه، وقد قال الله تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ﴾ [الكهف: ٧٩].

وقيل: الفقراء أهلُ الصُّفَّةِ، وكانوا لا يخرجون ولا يسألون شيئاً ولا يملكون شيئاً، والمساكين هم الطَّوَّافُونَ السَّائِلُونَ، ولذلك قال عليه السلام: «ليس المسكينُ الذي تردُّهُ اللَّقْمَةُ واللِّقْمَتَانِ والتمرَّةُ والتمرَّتَانِ، لكن المسكين الذي لا يسأل الناس شيئاً، ولا يُفْطَنُ لمكانه فيُتَصَدَّقَ عليه»^(٤)، وهو دليل على أنهم كانوا يطلقون هذا الاسم على السُّؤَالِ الذين يُتَصَدَّقُ عليهم بالكِسْرِ واللُّقْمِ. ورويت عن السلف ألفاظٌ مختلفة في الصنفين:

قال جابر: الفقراء فقراء المهاجرين، والمساكين الذين^(٥) لم يهاجروا^(٦). وقال الحسن: الفقير الجالس في بيت، والمسكين الذي يتتبع^(٧).

(١) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٠٩ - ٥١٠)، وذكره عنهم الثعلبي في «تفسيره» (٥٧/ ٥)، والواحدي في «البيسط» (١٠/ ٥٠١ - ٥٠٢).

(٢) في (ف): «وهذا ظاهره».

(٣) «حالاً» من (ف).

(٤) رواه البخاري (١٤٧٩)، ومسلم (١٠٣٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) بعدها في (ر): «يتصدق عليهم بالكسر واللقم»، وليست في المصادر.

(٦) ذكره عن جابر بن عبد الله الرازي في «تفسيره» (٨٥/ ١٦)، ورواه أبو عبيد في «الأموال» (١٩٤١).

عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه أبو عبيد أيضاً في «الأموال» (١٩٤٠)، وابن أبي شبة في

«المصنف» (١٠٥٩٣)، والطبري في «تفسيره» (٥١١/ ١١) عن الضحاك، وذكره الثعلبي في

«تفسيره» (٥٧/ ٥) عن النخعي والضحاك.

(٧) رواه الطبري في «تفسيره» (٥٠٩/ ١١) بلفظ: (...) والمسكين الذي يسعى).

وقال قتادة: الفقير الذي به زمانة، والمسكين الصحيح المحتاج^(١).

وقيل: الفقير الذي له دون النصاب، والمسكين الذي لا شيء له.

وقال عبد الرحمن بن أبزي: كان ناسٌ من المهاجرين لأحدهم الدار والزوجة والعبد والناقة يحج عليها ويغزو، وسماهم الله تعالى فقراء، وجعل لهم سهماً في الزكاة^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهِ﴾: هم عمال الصدقات يُصَرَّف إليهم منها ما يكفيهم وأعوانهم كفافاً لا إسرافاً.

وقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبُهُمْ﴾: هم قومٌ من رؤساء العرب أسلموا، وكان رسول الله ﷺ يتألفهم على الإسلام ويستدنيهم^(٣) عليه، ويستدعي به إليه أتباعهم.

روى معمر عن يحيى بن أبي كثير أنهم من بني مخزوم: الحارث بن هشام وعبد الرحمن بن يربوع، ومن بني أمية: أبو سفيان بن حرب، ومن بني جُمَح: صفوان بن أمية، ومن بني عامر بن لؤي: سهيل بن عمرو وحويط بن عبد العزى بن أبي قيس^(٤)، ومن بني أسد بن عبد العزى: حكيم بن حزام، ومن بني هاشم: أبو سفيان بن حارث بن عبد المطلب، ومن بني فزارة: عيينة بن حصن بن حذيفة، ومن بني تميم: الأقرع بن حابس، ومن بني نصر: مالك بن عوف، ومن بني سليم: العباس بن مرداس، ومن بني نقيف: العلاء بن حارثة^(٥).

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٥١١/١١).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٥١٢/١١).

(٣) في (ف): «ويستدنيهم».

(٤) في (أ): «وحويص بن عبد المطلب»، وفي (ر) و(ف): «وحويط بن عبد العزى بن عبد المطلب»، والصواب المثبت.

(٥) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١١٠٣)، والطبري في «تفسيره» (٥٢٠/١١).

ومنهم: عَدِيُّ بن حاتم الطائي، والزُّبْرَقَانُ بنُ بدر، وزيدُ الخيل، ومَخرمةُ بن نوفل، وعُمير بن وهب، وهشام بن عمرو، وقيس بن عدي، وأبو السَّنابل بن بَعَكَك، وعلقمة بن علاثة، وجدُّ بن قيس، وعمرو بن مرداس.

وقال الواقدي: قَسَمَ رسول الله ﷺ غنائم الطائف وحنين بالجعرانة، وكان غَنِمَ أربعة آلاف أوقية، فأعطى المؤلفة قلوبهم أول الناس، وجاءه أبو سفيان بن حرب وبين يديه الفضة، فقال: يا رسول الله! أصبحت أكثر قريش مالا، فتبسم رسول الله ﷺ، فقال أبو سفيان: أعطني من هذا المال يا رسول الله، فقال: «يا بلال، زن لأبي سفيان أربعين أوقية، وأعطه مئة من الإبل»، فقال أبو سفيان: ابني يزيد أعطه، قال رسول الله ﷺ: «زنوا ليزيد أربعين أوقية وأعطوه مئة من الإبل»، فقال أبو سفيان: والله إنك لكريم، فذاك أبي وأمي والله لقد حاربتك فنعم المحارب كنت، ثم سالمتك فنعم المسالم أنت، جزاك الله خيراً.

وأعطى صفوان بن أمية مئة من الإبل، وكان يطوف مع النبي ﷺ يتصفح الغنائم إذ مرَّ بشعبٍ فيه إبلٌ وغنم كثيرة من الغنائم^(١)، فجعل صفوان ينظر إليه متعجباً، قال رسول الله ﷺ: «أعجبك يا أبا وهب هذا الشعبُ؟» قال: نعم، قال: «هو لك وما فيه»، قال صفوان: أشهد ما طابت بهذا نفس أحد قط إلا نبئ، وأشهد أنك رسول الله عليك السلام.

وأعطى عيينة بن حصن مئة من الإبل، والأقرع بن حابس مئة من الإبل، والعباس بن مرداس خمسين من الإبل، فعاتبه في أبيات:

أَتَجْعَلُ نَهْيِي وَنَهْبَ الْعَيْبِ د^(٢) بَيْنَ عُيْنَةٍ وَالْأَقْرَعِ

(١) في (ف): «الغنيمة».

(٢) في هامش (أ): «العيب: اسم فرس العباس بن مرداس».

وما كان حصنٌ ولا حابسٌ يفوقان مرداسَ في مَجْمَعِ
وما كنتُ دونَ امرئٍ منهما وَمَنْ تَضَعِ اليَوْمَ لَا يُرْفَعِ
وقد كنتُ في الحربِ ذا تُدْرٍ^(١) فلم أعطَ شيئاً ولم أُمْنَعِ^(٢)

فقال عليه السلام: «اقطعوا لسانه»، فهاب الناس، ثم أعلموا أنه أراد به قطع كلامه بزيادة العطية، فأعطوه تمام^(٣) مئة من الإبل^(٤).

وكان رسول الله ﷺ يعطيهم كذلك كلَّ سنة، فلما قبض رسول الله ﷺ واستُخلف أبو بكر رضي الله عنه جاؤوا يستبدلون منه الخطَّ^(٥) بذلك، فبذل لهم، فجاءوا إلى عمر رضي الله عنه وعرضوا عليه الخطَّ وطلبوا منه التقرير، فأخذ ذلك منهم ومزقه وقال: كان النبي ﷺ يتألفكم على الإسلام، فأما اليوم فقد أعزَّ الله الإسلام، فالإسلامُ أعز من أن يُرشى عليه، فإن ثبتُّم على الإسلام بغير رشوة وإلا فبيننا وبينكم السيف، فعادوا إلى أبي بكر وقالوا: أنت الخليفة أم عمر؟ فقال: هو إن شاء^(٦). فسقط سهم المؤلفة قلوبهم بإجماع الصحابة رضي الله عنهم.

(١) أي: ذا دفع، من قولك: درأه، إذا دفعه.

(٢) روى هذه القطعة من الخبر - دون البيت الأخير - مسلم (١٠٦٠) من حديث رافع بن خديج رضي الله عنه.

(٣) «تمام» ليست في (أ).

(٤) انظر: «مغازي الواقدي» (٩٤٤/٣ - ٩٤٧).

(٥) في (أ): «مستبدلين منه الخطَّة».

(٦) رواه بنحوه البخاري في «التاريخ الأوسط» (٨١/١)، والفسوي في «المعرفة والتاريخ» (٣/٣١٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٨٢٢/٦)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢٠/٧)، والخطيب في «الجامع» (٣٠٤/٢)، عن عبيدة السلماني، ورواه بنحوه أيضاً الإمام أحمد في «فضائل الصحابة» (٣٨٣) عن نافع.

وقوله تعالى: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾: أي: المكاتبين، يُعْطَوْنَ شيئاً^(١) من الصدقات فيؤدُّون بها بدلَ الكتابة فينالون به العتق.

وقوله تعالى: ﴿وَالْفَرِمِينَ﴾: أي: المديونين^(٢) الذين ليس لهم بعد قضاء الدَّين ما يقع به الغنى.

وقوله تعالى: ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: أي: الغزاة المحتاجين، وإن كانوا أغنياء بأموالهم خلفوها في بلدهم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَيْنِ السَّبِيلِ﴾: أي: الغريب البعيد عن ماله.

وقوله تعالى: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾: أي: إيجاباً من الله؛ أي: يُصرف إليهم ولا يصرف إلى غيرهم.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾: أي: بمصالح عباده ﴿حَكِيمٌ﴾؛ أي: في أحكامه.

ثم عند الشافعي رضي الله عنه: لا بد أن يصرف إلى الأصناف السبعة - فقد سقط سهم المؤلفة قلوبهم - من كلِّ صنفٍ ثلاثة تحقيقاً لمعنى الجمع.

وعندنا: إن صُرف إلى صنف واحد وإلى شخصٍ واحد جاز؛ لأنهم ذكروا لبيان أسباب الحاجة، ألا ترى أنه قال في آية أخرى: ﴿وَلِئِنْ تَخَفَوْهَا وَتَوْتَوْهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١]، وقال عليه السلام لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: «خُذْهَا مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ وَرُدَّهَا فِي فَقَرَائِهِمْ»^(٣)، فأوجب الصرف إلى المحتاجين، ثم بيَّن بهذا

(١) «شيئاً» من (ر).

(٢) في (ر): «أي في الديون».

(٣) رواه البخاري (١٣٩٥)، ومسلم (١٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

النَّصُّ أسباب الحاجة، فصاروا صنفاً واحداً في التحقيق، وهو مذهبُ عامة الصحابة رضي الله عنهم: عمرَ وعليّ وابن مسعود وابن عباس وحذيفة وغيرهم، وكذا قال جماعة من التابعين: سعيد بن جبير والضحاك وأبو العالية وإبراهيم النخعي وميمون بن مهران^(١).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: أيّ صنّفٍ أعطيتَه من هذه الأصناف^(٢) جاز. قال حذيفة: إن شئت جعلتها في صنّفٍ واحد^(٣) وإن شئت جعلتها في صنفين. وقال سعيد بن جبير: لو وضعتها في صنّفٍ واحد أجزأ عنك، ولو نظرت إلى أهل بيت من المسلمين فقراء متعفّفين فجبرّتهم^(٤) بها كان أحبّ إليّ^(٥). وقال الإمام القشيري رحمه الله: الفقير الصادق عندهم: مَنْ لا سماء تُظِلُّه ولا أرض تُقِلُّه، ولا سِمة^(٦) تتناوله، ولا معلوم يشغله، ولا علاقة تقطعه، فهو عبدُ الله بالله^(٧)، يُردُّ^(٨) إلى التمييز في أوان العبودية، وفي غير هذا الوقت مُضْطَلَمٌ عن شواهدِه فإنّ عن أغياره.

(١) روى أقوال هؤلاء الأئمة من الصحابة والتابعين - عدا عليّاً والضحاك - الطبري في «تفسيره» (١١/٤٣١-٤٣٢)

(٢) «من هذه الأصناف» من (أ).

(٣) بعدها في (ر): «أجزى عنك».

(٤) في (أ) و(ر): «فخيرتهم»، والمثبت من (ف) وهو الموافق لما في «تفسير الطبري». والجبر: أن تغني الرجل من فقر.

(٥) روى هذه الأقوال الطبري في «تفسيره» وقد تقدم قريباً تخريجها.

(٦) في (ف) و(أ): «سمة».

(٧) في (ف) و(أ): «عند الله بالله». وفي مطبوع «اللطائف»: (عبد بالله لله).

(٨) في «اللطائف»: (يرده).

وقيل: الفقير: مكسور الفقار، فهو عندهم: مَنْ سقط اختياره، وتعطلت عنه دياره،
واندرست في استيلاء مَنْ اصطلمه آثاره، وكأنه لم يبق منه إلا أخباره، قال الشاعر:

أما الرُّسومُ فمُخْبِرَاتٌ أَنَّهُمْ رَحَلُوا قَرِيباً مِنْ جِوَارِ الْمَنْزِلِ^(١)
وأما المسكين: فهو الذي أسكنته حالته بباب معبوده، لا يبرح عن سدّته، فهو
معتكفٌ بقلبه، لا يغفل لحظةً عن ربّه، وهي مراتبُ الحاجة والفقر والمسكنة:
فذو الحاجة: مَنْ يرضى بدنياه وتسُدُّ الدنيا فقره.
والفقير: الذي يكتفي بعقباه وتَجْبُرُ الجنة فقره.
والمسكين: الذي لا يرضى بغير مولاه، لا إلى الدنيا يلتفت، ولا بالآخرة
يشتغل، ولا بغير مولاه يكتفي.

(٦١) - ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ
بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.
وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾: أي: ومن المنافقين قومٌ يؤذون
النبيَّ عليه السلام.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: لم يبيّن بماذا يؤذونه؟ فيحتمل أنهم كانوا
يؤذونه بتكذيبه وتركهم إجابته وطاعته، ويحتمل أنهم يؤذونه بكلماتٍ يُسمعون به
وطعنٍ يطعنون به.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ قال أبو عوسجة: هو الذي من قال له شيئاً

(١) «من جوار المنزل» من (ر)، وليس في (أ) و(ف) و«اللطائف».

سمعه، وَمَنْ حَدَّثَهُ بِشَيْءٍ صَدَّقَهُ، وَالْأُذُنُ الَّتِي هِيَ جَارِحَةُ السَّمَاعِ كَذَلِكَ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَسْتَمَعُ إِلَى كَلَامِ كُلِّ مَنْ حَدَّثَهُ بِشَيْءٍ؛ لِكَرَمِهِ وَشَرَفِهِ وَمَجْدِهِ وَحُسْنِ خَلْقِهِ.

وقيل: أرادوا به أنه يقبل كلَّ عذرٍ صدقاً كان أو كذباً، وكان النبي عليه السلام كذلك لكرمه وحسن خلقه، فظن أولئك أنه إنما يقبله ويعاملهم به لسلامة قلبه وصغر همته وقصور يده^(١).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾: أي: أنا أذن خير لكم^(٢)، وهو إضافة الشيء إلى صفته كقوله: هو رجلٌ خيرٌ؛ أي: قل يا محمد: إن الذي يقبل العذر خيرٌ ممن لا يقبله، فكيف تؤذونه وتعيبونه؟! وقيل: إنه يسمع الخير ويقبله دون الشر.

وقوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾: أي: يصدِّقه ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: ويصدق المؤمنين^(٣) بما شهدوا به عنده، فلا يقبل^(٤) إلا ما ثبت صدقه بإخبار الله عز وجل عنهم فيما قالوا وليس عندهم أحد من المسلمين، أو بشهادة المؤمنين إذا قالوا ذلك بحضرتهم.

ولفظه الإيمان تعدى بالباء واللام، قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧] ﴿فَعَامَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ [العنكبوت: ٢٦].

وقيل: كانوا يذكرون أشياء لو بلغه ذلك آذاه، فإذا قيل لهم: لا تفعلوا فإنه

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٤١). وجاء في (ف): «ويعاملهم به ليس لسلامة قلبه بل لصغر همته..»، والمثبت من باقي النسخ و«التأويلات».

(٢) «أي: أنا أذن خير لكم» من (أ).

(٣) في (ف): ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: أي: يصدق الله ويصدق المؤمنين.

(٤) بعدها في (ر): «عنده».

يبلغه الخبر، قالوا: نأتية فنعذر إليه فيصدقنا لأنه أذن، فقال الله تعالى: ﴿قُلْ أَذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فإذا أخبره الله تعالى بكذبكم أو شهد المؤمنون على قولكم لم يصدقكم.

وقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾: أي: وأنا رحمة لمن آمن منكم مع أنكم إذا أذيتُموني فيلزمكم العذاب، فإذا آمتُم بي فلكم الرحمة والثواب.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: في الدارين.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في خِذَام بن خالد، والجلاس بن سويد، وإياس بن قيس، ومُخْشِي بن حمير^(١)، وَسَمَّاك بن زيد، وعُبَيْد بن هلال، ورفاعة بن عبد المنذر^(٢): كانوا يقولون في رسول الله ﷺ ما لا ينبغي، فقالوا: لا تفعلوا فإننا نخاف أن يبلغه هذا فيوقع بنا، فقال الجلاس: إنه أذن نقول ما شئنا ثم نحلف له فيصدقنا، فنزلت الآية^(٣).

(١) في النسخ: «مخشي بن خويلد»، ومثله في «تفسير الثعلبي» (٥/ ٦٢)، والصواب المثبت. وقد اختلف في اسمه، فقيل: مُخْشِي كما هنا، وقيل: مُخَاشِن، وقيل: مُخْشَن، وقيل: ابن مخشي. انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٥٢٤ - ٥٢٥)، و«تاريخ خليفة بن خياط» (ص: ١١٤)، و«الاستيعاب» (٤/ ١٤٦٥)، و«التعريف والإعلام» للسهيلى (ص: ٧٠)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٥٥)، و«تفسير القرطبي» (١٠/ ٢٩٢)، و«تجريد أسماء الصحابة» للذهبي (٢/ ٦٤). وذكر القرطبي الخلاف في اسمه عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نَعَذِّبْ طَائِفَةً﴾ [التوبة: ٦٦] عن ابن إسحاق وخليفة بن خياط وابن عبد البر والسهيلى، ثم قال: (وذكر جميعهم أنه استشهد باليمامة، وكان تاب وتسمى عبد الرحمن ودعا الله أن يقتل شهيداً، ولا يعلم بقبره). قلت: وسيأتي هذا قريباً من رواية السدي.

(٢) قوله: «ورفاعه بن عبد المنذر» كذا وقع ذكره في هذا الخبر، ولعل الصواب غيره، فرفاعة صحابي جليل ذكره ابن إسحاق فيمن شهد بدراناً. انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٦٨٨)، و«تجريد أسماء الصحابة» للذهبي (١/ ١٨٤).

(٣) ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٤٦٠) من طريق أبي صالح عن ابن عباس، ولعله من رواية =

وذكر مقاتل في جملتهم: شاس بن قيس، والمخشي بن حمير، وعبيد^(١) بن مالك، ورفاعة بن زيد، ثم قول الجلاس ذلك^(٢).

وقال أبو حاتم سهل بن محمد: هو نبتل بن الحارث^(٣)، وكان رجلاً أذلم^(٤) نائر الشعر، أحمر العينين، أسفع الخدين، مشوه الخلقة، وفيه قال النبي ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى الشَّيْطَانِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى نَبْتَلِ بْنِ الْحَارِثِ» وكان يَنْتُمُ حَدِيثَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى الْمُنَافِقِينَ، فقالوا له: لا تفعل، فقال: إنما هو أذن، مَنْ حَدَّثَهُ بِشَيْءٍ صَدَّقَهُ، أقول هذا ثم آتاه فاعتذر إليه^(٥).

وقال الحسن: قال المنافقون: ما هذا الرجل إلا أذن يقبل ما يسمع ليست له عزيمة، فنزلت الآية^(٦).

= الكلبي عن أبي صالح عنه، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٣/٤٤٩) (ط: دار التفسير) دون عزو، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/١٨٢٦) عن السدي. وذكره أيضاً مقاتل كما سيأتي. وقد روي أن الجلاس قد تاب وحسنت توبته كما سيأتي عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا إِلَيْكَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾. (١) في (ف) و(أ): «وعبيدة».

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/١٧٨)، وفيه بدل «شاس»: «شماس». وبدل «عبيد بن مالك»: «عبيد بن الحارث».

(٣) وقاله ابن اسحاق أيضاً. انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/٦٨٨)، و«تفسير الطبري» (١١/٥٣٥)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص: ٢٤٩). ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/١٨٢٦) من طريق محمد بن إسحاق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبيرة عن ابن عباس.

(٤) الأذلم: الطويل الأسود، والشديد السواد من الناس. انظر: «معجم متن اللغة» (مادة: دلم).

(٥) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/٥٢١)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص: ٢٤٩).

(٦) ذكره الواحدي في «البيسط» (١٠/٥٢١).

قالوا: عابه الجهال بما هو آية كرمه وغاية حسن شيمه، قال عليه السلام: «المؤمن غرٌّ كريم، والمنافق خبٌّ لثيم»^(١).

وقيل: العاقل هو الفطن المتغافل، وأنشدوا في معناه:

وَإِذَا الْكَرِيمُ أَتَيْتَهُ بِخَدِيعَةٍ فَرَأَيْتَهُ فِيمَا تَرُومُ يُسَارِعُ
فَاعْلَمْ بِأَنَّكَ لَمْ تَخَادِعْ جَاهِلًا إِنَّ الْكَرِيمَ بِفَضْلِهِ مُتَخَادِعُ

(٦٢) - ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ﴾: أي: يعتذر هؤلاء ويحلفون بالله^(٢) كاذبين ليزيلوا سخطكم.

﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾: أي: يحقُّ عليهم في إزالة سخطكم أن يخلصوا، فإذا فعلوا ذلك أرضوا الله ورسوله فيرضى المؤمنون به؛ لأن الله تعالى إذا رضي عن العبد أرضى عنه الناس.

ثم إنه قال: ﴿أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ على التوحيد - مع سبق ذكر الله ورسوله - لأنه أراد: أن يرضوا الرسول، وإرضاءه إرضاء الله تعالى؛ كما قال ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ [النور: ٤٨]؛ لأن حكمه حكم الله.

وقيل: إنه لا يذكر بعد ذكر الله ورسوله كناية ترجع إليهما^(٣)؛ لأنه تسوية بينهما،

(١) رواه أبو داود (٤٧٩٠)، والترمذي (١٩٦٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفيهما: «والفاجر» بدل: «والمنافق». قال الترمذي: (غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه).

(٢) في (ر) و(ف): «ويحلفون عليه».

(٣) في (ف): «عليهما». وهذا الذي قاله المؤلف هو في القرآن كما قال لكنه منقوض في السنة =

وترك تعظيم في حق الله عز وجل، ولهذا قال النبي عليه السلام فيمن تكلم عنده وقال: من أطاع الله ورسوله فقد رشد، ومن عصاهما فقد غوى: «بئس خطيب القوم أنت»^(١)، كره منه ذكر كناية واحدة راجعة إلى اسم الله تعالى وإلى اسم رسوله.

قال السدي: اجتمع ناس من المنافقين منهم جلاس بن سويد ووديع بن ثابت ورجال آخرون وعندهم غلام من الأنصار يقال له: عامر بن قيس - وفي رواية غير السدي: هو زيد بن الأرقم^(٢) - فحَقَرُوهُ، وقالوا: إن كان ما يقول محمد حقاً لنحن شر من الحمير، فغضب الغلام وقال: والله إن ما يقول محمد حق، وأنتم شر من الحمير، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره، فدعاهم فسألهم فحلفوا إن عامراً كاذب، وحلف عامر أنهم كذبة، فصدقهم النبي ﷺ، فقال عامر: اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب، وكان واحد من المنافقين قال^(٣) بعد ما سمع عامر كلامهم^(٤): «وَدِدْتُ أَنِّي قَدَّمْتُ فُجِّلْتُ مِثْلَ جِلْدَةٍ وَأَنَّهُ لَا يَنْزِلُ فِينَا شَيْءٌ يَفْضَحُنَا، فَنَزَلَتْ: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾ ونزلت: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ﴾ الآية [التوبة: ٦٢]^(٥).

= الصحيحة بقول النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا...».

(١) رواه مسلم (٨٧٠) من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.

(٢) روى هذه الرواية ابن شبة في «أخبار المدينة» (٧٠٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٨٤٢/٦)، والبيهقي في «الدلائل» (٥٧/٤)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وفيه ذكر نزول قوله تعالى: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤].

(٣) في (ف): «فقال واحد من المنافقين».

(٤) في (ف): «بعد ما سمع كلام عامر».

(٥) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٨٢٦/٦) في نزول قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾ فقط.

وورد نحو هذه القصة في نزول قوله تعالى: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ﴾ رواه الطبري في =

(٦٣) - ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾: استفهامٌ بمعنى التوبيخ؛ أي: ألم يعلم هؤلاء المنافقون أنه مَن يُعَادِلُ الله ورسوله.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: يخالف الله.

وقال الأخفش: يحارب الله.

وقال قطرب: يعاند الله^(١).

والمحاذة بين اثنين: أن يصير كُلُّ واحد منهما في حَدٍّ غير الحد الذي عليه الآخرُ معاداةً ومخالفةً وممانعةً.

﴿فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ وتكرار (أَنَّ) للمبالغة في التأكيد، و﴿خَالِدًا فِيهَا﴾: دائماً فيها^(٢) بكفره، ومَن صار^(٣) كذلك فقد عظم خزيه؛ أي: افتضح أبلغ الافتضاح، وبلغ غاية الهوان، والخزي: الهوان بما يُستحيى من مثله.

= «تفسيره» (١١/ ٥٤٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٢٨)، عن قتادة.

وروي نحوها أيضاً في نزول قوله تعالى: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤]، رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٦٩) عن عروة وابن إسحاق ومجاهد، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٤٣) عن كعب بن مالك وابن عباس رضي الله عنهما. وروي أيضاً من حديث أنس وقد خرجناه قريباً.

(١) ذكر هذه الأقوال الواحدي في «البيسط» (١٠/ ٥٣١).

(٢) «دائماً فيها» ليس من (أ).

(٣) في (أ): «كان».

قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في رهط من المنافقين تخلفوا عن غزوة تبوك - وقد سميناهم - جاؤوا حين رجع رسول الله ﷺ يعتذرون فيحلفون، فنزلت هذه الآية وغيرها^(١).

(٦٤) - ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزْوا إِنْ أَلَّاهُ مَخْرَجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ﴾ خبرٌ عن حذرهم عند أكثر المفسرين. وقال الزجاج: هو بمعنى الأمر^(٢).

قال الإمام أبو منصور رحمه الله: ويحتمل ذلك: أي: ليحذر المنافقون أن تنزل عليهم؛ أي: على النبي عليه السلام فيخبرهم به^(٣)، والمنزل على الرسول منزلٌ على الأمة معنًى؛ لأنه خطاب لهم بما فيه.

وقوله تعالى: ﴿تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: تخبرهم بذلك، ولم يكن ذلك لإعلامهم فقد علموا به، لكن بإخبارهم أنه لا يخفى على الله ولا يخفيه عن رسوله، وليهتك أستارهم للمؤمنين ليعلموا به، وعلى القول الذي قالوا: إنه خبرٌ عنهم، فلكثرة ما كان يُطلع الله رسوله عليه كانوا يحذرون ذلك، ولخُبث اعتقادهم وشدة كفرهم كانوا يؤذونه ويستهزؤون به، وذلك قوله تعالى:

(١) ذكره الواحدي في «البيسط» (٥٢٩/١٠).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤٥٩/٢).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤١٩/٥).

﴿قُلْ أَسْتَهْزِئُكُمْ﴾: وصيغته أمرٌ وهو للتهديد؛ كقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠]، ودليله قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُخْرِجُ مَا تَحْذَرُونَ﴾؛ أي: مظهرٌ، وقد أظهر أحوالهم في هذه السورة، ولذلك سميت فاضحةً مبعةً.

وقال الحسن: كانوا يسمونها حافرة؛ لأنها حَفَرَتْ ما في قلوبهم فأظهرته^(١).

وقال قتادة: كانوا يسمونها المثيرة^(٢).

وقال الكلبي ومقاتل: نزلت في الجلاس بن سويد وأصحابه وقد سميناهم^(٣).

وقال عطاء: هم سبعون رجلاً أنزل الله تعالى أسماءهم وأسماء آبائهم، ثم رفعت مرحمةً على العباد، ولأن أولادهم أسلموا وأخلصوا^(٤).

وقال السدي: جاء واحد من المنافقين اسمه مَخْشِي بن غليظ وقال: إن اسمي واسم أبي من شرِّ الأسماء يا رسول الله، فغيَّرهما لعل الله يغيِّر حالي، وكان منافقاً، فسماه النبي ﷺ: عبد الله بن عبد الرحمن فأسلم وأخلص وقال: اللهم إني أسألك أن أقتل في سبيلك لا يُقَدَّر لي على^(٥) جثة، ولا يُعلم لي مقتل، فقتل بوقعة^(٦) مسيلمة الكذاب^(٧).

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/٦٤)، وفيه بدل «الحافرة»: «الحفارة».

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/١٨٢٩).

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/١٧٨)، و«تفسير البغوي» (٤/٦٨).

(٤) ذكره الواحدي في «البيسط» (١٠/٥٣٣) عن عطاء عن ابن عباس، والبغوي في «تفسيره»

(٤/٦٨)، عن ابن عباس.

(٥) في (أ): «يعذر» بدل من «يقدر لي على».

(٦) في (أ): «يوم».

(٧) لم أجده، وذكر نحوه القرطبي كما ذكرنا عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ

أَلِيمٌ﴾، وقد ذكرنا ثمة الخلاف في اسمه، لكن لم أجِد من ذكر أن اسم أبيه (غليظ).

(٦٥) - ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِإِلَهِهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِإِلَهِهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾: أي: ولئن قلت لهم: لم قلتم كذا، حين أطلعك الله على ذلك، قالوا: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾؛ أي: لم يكن ذلك عن اعتقادٍ وشكٍّ في الدين، لكن على العادة من الناس إذا اجتمعوا لم تخل أحاديثهم عن أن يجري فيها القول على سبيل المساعدة والاستئناس من الهزل، فقل يا محمد إنكاراً عليهم: أبالله وآياته ورسله تفعلون هذا؟ وهو لا يحتمل إلا الجِدَّ والصدق دون الهزل واللعب.

قال محمد بن إسحاق: قال هذا ودیعة بن ثابت^(١).

وقال مقاتل بن حیان: نزلت في ثلاثة نفر: معتب بن قشير وودیعة بن ثابت ومخشي بن حمير، ولكن عبد الله بن عبد الرحمن لم يمالئهما في الحديث، ولكنه كان يسير مجاناً لهما ويضاحكهما، فقال ودیعة لمعتب: أيطمع هذا الرجل في الشام وقصورها؟ هيهات! ويظن أن جلال بني الأصفر هين، فنزلت هذه الآية، فبعث النبي ﷺ عمار بن ياسر فقال لهم: احترقتم أحرقكم الله، قلتم كذا وكذا، فجاءوا يعتذرون، فأنزل الله تعالى هذه الآية^(٢).

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/٥٢٣).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل بن سليمان» (٢/١٧٩)، وذكره ابن أبي زمنين في «تفسيره» (٢/٢١٩) عن الكلبي، والواحد في «البيسط» (١٠/٥٣٦) عن الكلبي ومقاتل بن سليمان، والجرجاني في «درج الدرر» (٤/٦٨) دون عزو، ورواه بنحوه دون ذكر الأسماء ودون ذكر عمار الطبري في «تفسيره» (١١/٥٤٤ - ٥٤٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/١٨٣٠) عن قتادة. وقد وقع في =

وفي رواية زيد بن أسلم: نظرتُ إلى هذا القائل متعلّقاً بنسب ناقة رسول الله ﷺ^(١).
وفي رواية عبد الله بن عمر: رأيتُ عبد الله بن أبيّ يشتدُّ بين يدي رسول الله ﷺ
والحجارة تنكبه وهو يقول: إنما كنّا نخوض ونلعب، ورسول الله ﷺ يقول: ﴿أَيُّ اللَّهِ
وَأَيَّنِيهِ، وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾^(٢).

وعذر النبي ﷺ الذي لم يمالئهم حين اعتذر وهو عبد الله بن عبد الرحمن،
وفي رواية: مخشي بن حمير، وفي رواية: الحمير بن الحمير^(٣).

وقال القرطبي رحمه الله: مَنْ استهان بالدين، ولم يحتشم من ترك حرمة
الإسلام والمسلمين، جعله الله في الحال نكالا، وسامه في الآخرة صغراً وإذلالاً،

= المصادر اختلاف في الأسماء، لكن لم يذكر أحد فيهم: عبد الرحمن بن عبد الله، ولعل ذكره وهم،
فإن عبد الرحمن هذا هو نفسه مخشي، سماه به النبي ﷺ عند توبته كما تقدم في خبر السدي، وكما
ذكر القرطبي، وهو الذي لم يمالئهما في الحديث، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿إِنْ تَعَفَّ عَنْ طَائِفَةٍ
مِّنْكُمْ﴾ على قول طائفة من العلماء. انظر: «تفسير القرطبي» (١٠/٢٩٢ - ٢٩٣)، وانظر ما تقدم
عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/٥٤٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/١٨٢٩ - ١٨٣٠) عن
زيد بن أسلم، عن عبد الله بن عمر قال: (قال رجل في غزوة تبوك في مجلس: ما رأينا مثل قرائنا
هؤلاء أرغب بطوناً ولا أكذب ألسناً ولا أجبن عند اللقاء! فقال رجل في المجلس: كذبت، ولكنك
منافق! لأخبرن رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك النبي ﷺ ونزل القرآن. قال عبد الله بن عمر: فأنا رأيته
متعلّقاً بحَقَب ناقة رسول الله ﷺ). فالقائل: «نظرت» هو عبد الله بن عمر لا زيد بن أسلم.

(٢) رواه الهروي في «ذم الكلام» (٤/٩٣) من طريق نافع عن ابن عمر. ورواه بنحوه الطبري في
«تفسيره» (١١/٥٤٣) عن زيد بن أسلم عن ابن عمر دون ذكر اسم الرجل.

(٣) قوله: «وفي رواية: الحمير بن الحمير» ليس في (ف)، ولم أقف عليه، وقد تقدم قريباً ذكر الخلاف
في اسمه، ومخشي بن حمير هو اسمه قبل التوبة، وعبد الله بن عبد الرحمن سماه إياه النبي ﷺ عند
التوبة، كما تقدم في خبر السدي قريباً.

والحقُّ سبحانه لا يرضى دون أن يُذيق العتاة بأسه، ويسقي كلاً على ما يستوجبُه كأسه، وقد أرخى الله للمنافقين عنان إمهالهم، ثم هتك أستارهم بأقوالهم وأفعالهم^(١).

(٦٦) - ﴿لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبُ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَعْذِرُوا﴾: أي: لا تتكلموا بالعذر الباطل ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ﴾: فقد صرّحت بما يوجب الكفر ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾: بعد إظهاركم بالإيمان باللسان.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبُ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾^(٢): قرأ عاصم: ﴿نَعْفَ﴾ بالنون وفتحها وضم الفاء، ﴿نُعَذِّبُ﴾ بالنون وضمّها وكسر الذال، ﴿طَائِفَةً﴾ بالنصب، إخباراً من الله تعالى عن نفسه بكلمة التعظيم، وقرأ الباقر: ﴿يُعْفَ﴾ بالياء وضمها وفتح الفاء ﴿نُعَذِّبُ﴾ بالتاء وضمها وفتح الذال على ما لم يسمّ فاعله، ﴿طَائِفَةً﴾ بالرفع^(٣).

ومعناه: إن تركنا العقوبة في الحال في حقّ بعضهم وهم العامة والأتباع الذين لا ضرر منهم على المسلمين لنعاقبهم في الآخرة، نعذب طائفة منهم من الكبراء المعلّنين بالأراجيف الساعين بين المسلمين بالفساد بالقتل.

قال تعالى: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [التوبة: ٧٣]، ﴿لَنْ يَنْفَعَهُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [الأحزاب: ٦٠] إلى قوله تعالى: ﴿وَقُتِلُوا قَتِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦١]، وقوله تعالى:

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٤٢).

(٢) في (ف): «إن يعف... تعذب...»، وهي قراءة أكثر السبعة كما سيأتي.

(٣) «طَائِفَةً» بالرفع من (ر). وانظر القراءتين في «السبعة» (ص: ٣١٦)، و«التيسير» (ص: ١١٨).

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ﴾ [النساء: ٨٨] إلى قوله عز وعلا: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾^(١) [النساء: ٨٩].

﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾^(٢) وهو اسمُ نهايةِ الذم؛ لأنه يدل على انقطاعه عن كلِّ الخيرات، من الجرم: وهو القطع.

وقيل: ﴿إِنْ نَعَفَ عَنْ﴾ قوم منهم نعلم أنهم يتوبون ويخلصون ﴿نُعَذِّبُ﴾ قوماً منهم نعلم أنهم على النفاق يدومون.

وقيل: ﴿إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ﴾ منهم بالإيمان ﴿نُعَذِّبُ طَائِفَةً﴾^(٣) بالموت على الكفر.

وقيل: ﴿إِنْ نَعَفَ﴾ فلم نأمر بالقتل في حق قومٍ لم يظهر نفاقهم للنبي ﷺ وللمؤمنين كما قال جل جلاله: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَهُمْ﴾ [التوبة: ١٠١] ﴿نُعَذِّبُ﴾ بالأمر بالقتل والتشهير مَنْ ظَهَرَ نفاقهم بهذه الأحوال.

وقال محمد بن كعب القرظي: ﴿نَعَفَ﴾ عن طائفةٍ منهم: هي واحدة^(٤)؛ كما قال تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢]، وهو الذي ذكرنا في الآية التي قبلها أنه لم يمالئهم واعتذر فعذر ﴿نُعَذِّبُ طَائِفَةً﴾ وهم الذين خاضوا.

وقيل: هو الواحد أيضاً، وهو ودیعة بن ثابت.

(١) في (ف): «واقتلوهم حيث ثقتهموهم».

(٢) في النسخ: «إنهم كانوا مجرمين».

(٣) في (ف): «تعذب طائفة».

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١١ / ٥٤٧) بلفظ: (طائفة: رجل).

(٦٧) - ﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾: أي: مجتمعون على النفاق، مطابقون على إيذاء الرسول والمؤمنين على اتفاق^(١).

﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ﴾: بما ينكره الشرع والعقل ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾: ما يرضاه الشرع والعقل. ومن المنكرات: ترك الجهاد، وهم به يأمرون، ومن المعروف: الجهاد، وهم عنه ينهون.

﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾: أي: عن الإنفاق في الجهاد وسبل الطاعات من الزكوات ونوافل الصدقات.

وقوله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾: أي: تركوا ذكر الله وطاعته ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾: أي: خذلهم. ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾: أي: هم الخارجون عن قبول أمر الله والعمل به.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ﴾؛ أي: بتكذيب رسول الله ﷺ ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾؛ أي: عن تصديقه وأتباعه^(٢).

وقال الضحاك: يأمرون بالكفر وينهون عن الإسلام^(٣).

وقال القشيري رحمه الله: المنافق لصاحبه أسُّ به قِوَامُهُ، وأصلُّ به قِيَامُهُ، يُعِينُهُ

(١) في (ر) و(ف): «عن النفاق».

(٢) ذكره الواحدي في «البيسط» (١٠/ ٥٤١) عن عطاء عن ابن عباس.

(٣) المصدر السابق.

على فساد، ويعمّي عليه طريق رشاده، والمؤمن ينصر المؤمن؛ يبصره عيوبه، ويقبّح في عينه ذنوبه، فهو على السداد يُنَجِّدُه، ومن الفساد يُبْعِدُه، والمنافقون يقبضون أيديهم لا يُنْفِقُونَ في سبيل الله، ولا يَجِدُّون في إعانة عباد الله، ولا يأخذون بأيدي الضعفاء لوجه الله، ولا يرفعون أيديهم في طلب الحوائج إلى الله.

﴿نَسُوا اللَّهَ﴾؛ أي: تركوا طاعته وآثروا مخالفته ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾: تركهم وما يختارون؛ كما قال تعالى: ﴿وَرَكَّاهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧] ^(١).

(٦٨) - ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ﴾: أي: الذين يُظْهِرُونَ الإيمان ويضمِّرون الكفر.

وقوله تعالى: ﴿وَالْكُفَّارَ﴾: أي: المجاهرين به.
﴿نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ﴾: أي: واقعةٌ موقعٌ ما استحقَّوه من الجزاء على كفرهم.

﴿وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ﴾: طردهم من رحمته ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾: دائم.
وقال القشيري رحمه الله: لهم النار في الآجلة، والعذاب المقيم في العاجلة، وتلك ^(٢) عذابُ الحُرقة، وهذه عذابُ الفُرقة.

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (٤٣/٢).

(٢) في (ر): «ذلك».

(٦٩) - ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَكَثُرَ أَمْوَالُهُمْ وَأُولَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾: خطابٌ للمنافقين، وفي أوله مضمّرٌ، وتقديره: وأنتم في معاملتكم كالذين من قبلكم.

وقيل: أي فعلني بكم في الدنيا والآخرة كفعلني بالذين من قبلكم.

وقوله تعالى: ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: منعةً وبطشاً^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَكَثُرَ أَمْوَالُهُمْ وَأُولَدًا﴾: يتكثرون بالأولاد ويعتصدون^(٢) بالأموال، فلم يعتصموا بقوة أنفسهم ومعونة أولادهم وأنصارهم وكثرة أموالهم حين كذبوا رسلي واستحقوا إنزال بأسى.

وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ﴾: أي: صرّفوا إلى التمتع الحالي نصيبهم من الدنيا ولم يقدموا إلى الآخرة.

﴿فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ﴾: فعلتُم أنتم في الدنيا فعلهم.

وقوله تعالى: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾: أي: في آيات الله بالباطل، فإذا كنتم في سوء المعاملة مثلهم، وفي القوة والمنعة دونهم، فما يؤمّنكم أن يصيبكم من العقوبة مثل^(٣) ما أصابهم.

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٦٦/٥) دون عزو.

(٢) في (أ): «ويعتصون».

(٣) «مثل» ليست في (أ) و(ف).

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾: أي: الذين رُضُوا من آخرتهم بديانهم بطلت أعمالهم في الدارين فلا ينتفعون بها: أمّا في الدنيا فقد قصدوا بذلك توهين الإسلام وقهر أهله وعلو أنفسهم، فأبطل الله تعالى كيدهم وخيب أملهم، قال تعالى: ﴿لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢]، ﴿لَا يَصْلِحُ عَمَلُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١]، ﴿كَلَّمَ آدَمُ أَهْلَهُ بِالنَّحْوِ فَأَعْرَضَ عَنْ آدَمَ﴾ [المائدة: ٦٤]، وفي الآخرة لا ثواب لهم ولا نجاة.

وقوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾: ذهب أموالهم فيما ضرهم ولم ينفعهم، ولو ذهب فيما لا ينفعهم ولا يضرهم كانت خساراً، فكيف وقد ذهب فيما يضرهم ولا ينفعهم؟ قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا [الكهف: ١٠٣ - ١٠٤].

(٧٠) - ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمَ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَنَّهُمْ رُسِلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمَ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾: هي قُرَيَاتُ لوطٍ، ومعناها: المنقلبات^(١)، حيث جعل الله عاليها سافلها، و﴿أَلَمْ﴾ استفهام بمعنى التقرير. قال القفال: أي: قد أتاهم خبر الأمم السالفة، سمعوا ذلك وعرفوه، وشاهدوا آثار إيقاع الله بهم بما جعلهم نكالا وعبرة لغيرهم؛ كما فعل بقوم نوح صلوات الله عليه حين أهلكوا بالغرق، وعاد بالريح الصَّرصر العاتية، وثمود بالرجفة والصاعقة،

(١) في (أ): «الملقيات».

وقوم إبراهيم بالتشيت وسلب الملك والنعمة؛ أي: من نمرود، وأصحاب مدين بعذاب يوم الظلة، وقوم لوط بانقلاب الأرض، وكل ذلك كان عدلاً من الله تعالى وحكمةً وعقاباً لمن ظلم نفسه وعصى ربه وكذب رسله واستحق عقابه، فليحذر المنافقون أن يفعل بهم ما فعل بأولئك.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾: يرجع هذا إلى كل هذه الأمم، وإن صرف إلى ما يليه وهي المؤنفات - ورسول أهلها واحد وهو لوط عليه السلام - فقد قيل: كان في كل قرية رسول من جهة لوط، فلذلك جمع.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾: أي: ليس من صفة الله تعالى ظلم العباد بتعذيبهم من غير ذنب.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾: بإيقاعها فيما يوجب العقوبة.

(٧١) - ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾: ذكر بمقابلة المنافقين والمنافقات: المخلصين والمخلصات، وتغاير صفات الفريقين، فالمخلصون ذكورهم وإناثهم يتوالون على الدين ويتناصرون ويتعاونون حتى إن الرجل ليخرج إلى الجهاد وامرأته تهيب أسبابه وتخرج النساء مع الرجال أيضاً فيداوين الجرحى ويعالجن المرضى ويصلحن الطعام ويحملن الماء وكذا كل الخيرات في الدين.

وقوله تعالى: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾: وقد فسرناهما في تلك الآية، وهو خلاف صفات المنافقين.

﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾: وهو خلافُ صفة المنافقين، هؤلاء يصلُّون وفي الصلاة ذكرُ الله، وأولئك دأبوا على نسيان الله.

﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾: وهو خلافُ صفة^(١) المنافقين، فإنهم يقبضون أيديهم. ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في كلِّ الأوامر والنواهي، فهو خلاف صفة المنافقين ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(٢).

﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾: بخلاف المنافقين^(٣) ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ قال مقاتل: ﴿عَزِيزٌ﴾ في ملكه ﴿حَكِيمٌ﴾ في أمره^(٤).

وقال القفال: ﴿عَزِيزٌ﴾: منيعٌ قادرٌ على مجازاة المطيعين والعاصين ﴿حَكِيمٌ﴾ في توفيق المؤمنين وخذلان المنافقين.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ذكر في المؤمنين والمؤمنات: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، وذكر في الكفار: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، وذكر في المنافقين: ﴿بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾، ولم يقل: بعضهم أولياء بعض؛ لأن المؤمنين يتوالون ويتناصرون ويتعاونون على الدين الحق، والكفار لهم دينٌ أيضاً وهو باطل وهم يتوالون عليه ويتعاونون ويتناصرون، فأما المنافقون فليس لهم دينٌ يُظهرونه ويمكنهم التوالي والتعاون والتناصر عليه، لكن بعضهم على صفة بعض، فلذلك قال: ﴿بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾^(٥).

(١) في (ر): «صفات».

(٢) ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ليس في (ف).

(٣) في (ر) و(ف): «بخلاف ما للمنافقين».

(٤) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ١٨١).

(٥) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٤٢١ - ٤٢٢).

وقال في هذه الآية: يجوز أن يكون هذا إخباراً عنهم أنهم كذلك؛ لأنهم صاروا بالإسلام أولياء؛ قال تعالى: ﴿إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءَ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ويجوز أن يكون أمراً من حيث المعنى؛ أي: ليكنوا أولياء بعضهم لبعض، فقد نهى عن موالاته الكفار لقوله^(١): ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ [النساء: ١٤٤]، وبقوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: ٥١]، فكان أمراً لهم أن يكون^(٢) بعضهم أولياء بعض^(٣).

وقال القشيري رحمه الله تعالى: إن الله تعالى وصف المؤمنين بأنهم يتحابون في الله، ويقومون بحق الله، ويتصاحبون لله، ويعادون من يعادون لأجل الله، تركوا حظوظهم لحق الله، وآثروا على هواهم^(٤) رضاء الله، أولئك الذين عصمهم الله في الحال وسير حمهم في المال^(٥).

(٧٢)- ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عِدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾: وهو في مقابلة قوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [التوبة: ٧٢].

(١) «لقوله» كذا في النسخ، ولعل الأحسن: (بقوله).

(٢) في (أ): «أمراً لهم بكون».

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤٢٦/٥).

(٤) في (أ): «أحوالهم» وفي (ر): «أنفسهم». والمثبت من (ف) و«اللطف».

(٥) انظر: «لطف الإشارات» (٤٥/٢).

وقوله تعالى: ﴿وَمَسْكَنَ طَيْبَةً﴾: أي: جزاءً عما احتملوه من أذى الحر وسوء المنازل في أسفارهم للغزوات وتركهم مواطن الراحة.

وقوله تعالى: ﴿فِي جَنَّتِ عَدْنٍ﴾: أي: إقامة، وقد عَدَنَ المكانَ عَدَنًا، والمعدن: المُقام؛ أي: هي مواضع إقامة وثبات لا يبعثون عنها حَوْلًا، وليس هذا بتكرار لقوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾؛ لأن قوله: ﴿جَنَّتِ عَدْنٍ﴾ إخبارٌ بدوام مُقامهم فيما أُعِدَّ لهم من المساكن، وقوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ إخبارٌ بدوام النعيم لهم في الجنان، فهما معنيان مختلفان.

وقال الأعمش: ﴿عَدْنٍ﴾ وسط الجنة^(١).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: بطنان الجنة^(٢).

وقال عبد الله بن عمرو^(٣) رضي الله عنهما: إن في الجنة قصرًا يقال له: عدن، حوله البروج والمروج، وله خمسة آلاف باب لا يدخله إلا نبيٌّ أو صديق^(٤).

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٥٦١ / ١١).

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٣٧٤)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٥١٦٧)، والطبري في «تفسيره» (٥٦١ / ١١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٨٤٠ / ٦). وهذا القول هو بمعنى المذكور قبله عن الأعمش، فإن معنى بطنان الجنة: وسطها، كما جاء في رواية الطبري لخبر ابن مسعود من طريق الأعمش عن عبد الله بن مرة عن مسروق عن ابن مسعود، وفيه: (فقلت للأعمش: ما بطنان الجنة؟ قال: وسطها). وقوله: «وقال ابن مسعود رضي الله عنه: بستان الجنة» ليس في (أ) و(ف)، وقد استدرك على هامش (ر).

(٣) في النسخ: «عمر»، والمثبت من المصادر.

(٤) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٩٣٨٠) و(١٩٣٩٣) و(٢١٩١٩) و(٣٢٥٦٠)، والطبري في «تفسيره» (٥٦٣ / ١١)، وزيد في بعض الروايات: (أو شهيد أو إمام عادل). وبهذه الزيادة رواه البزار في «مسنده» (٢٤٨٧) من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً، لكن إسناده ضعيف، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٩٦ / ٥): فيه عبد الله بن مسلم بن هرمز وهو ضعيف.

وقال الكلبي: ﴿عَدْنٍ﴾؛ أي: أعلى درجة الجنة، وفيها عينُ التسنيم، والجَنَانُ حولها محدقةٌ بها^(١)، وهي مغطاةٌ من يومِ خلقها الله تعالى حتى ينزلها أهلُها الأنبياءُ والصديقون والشهداء والصالحون ومن شاء الله جل جلاله.

وقال مقاتل: ﴿وَمَسْكَنَ طَيْبَةً﴾: قصورُ الدرِّ والياقوت والذهب، فتهبُّ ريحٌ طيبةٌ من تحت العرش فتدخل عليهم كُثبانُ المسك الأبيض^(٢).

وقال عطاء: ﴿عَدْنٍ﴾: نهر في الجنة جنَّاتُه على حافتيه^(٣).

وروى أبو الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «عدنٌ دارُ الله التي لم ترها عينٌ ولم تخطرْ على قلب بشر، لا يسكنُها من بني آدمَ غيرُ ثلاثة: النبيون والصديقون والشهداء^(٤)، يقول الله تعالى: طوبى لمن دخلك»^(٥).

وقال الحسن: سألت أبا هريرة وعمران بن حصين عن قوله تعالى: ﴿وَمَسْكَنَ طَيْبَةً فِي جَنَّتِ عَدْنٍ﴾ فقالا: على الخبير سقطت، سألنا رسول الله ﷺ فقال: «قصرٌ في الجنة من اللؤلؤ فيه سبعون داراً من ياقوتة حمراء، في كلِّ دار بيتٌ من زمردة خضراء، في كلِّ بيتٍ سبعون سريراً، على كلِّ سريرٍ سبعون فراشاً من كلِّ لون، على كلِّ فراش زوجةٌ من الحور العين»^(٦).

(١) «بها» من (أ).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ١٨١ - ١٨٢).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٦٤).

(٤) بعدها في (ف): «والصالحين».

(٥) رواه البزار في «مسنده» (٣٥١٦ - كشف الأستار)، والدارقطني في «المؤلف والمختلف» (٣/ ١١٥١)،

وابن الجوزي في «العلل» (٢١)، وقال: هذا الحديث من عمل زيادة بن محمد، لم يتابعه عليه أحد.

(٦) رواه البزار في «مسنده» (٣٥٦٣)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٥٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» =

وقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾: أي: أعظم من هذه النعم قدراً وأشرف منها ذكراً رضوانُ الله تعالى عن هؤلاء، ومن رضوانه قبولُ أعمالهم اليسيرة، وتيسيرُ الحساب عليهم، وإثابَتُهُم على الأعمال المنقطعة نعماً لا تنقطع وكلِّ كرامة في الدنيا والآخرة.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾: أي: الرضوان الذي نالوه هو الفوز العظيم الذي لا أعظم منه؛ لأنه دركُ كلِّ مطلوب، ووصولُ إلى كلِّ مأمول، وأمانٌ من كلِّ محذور.

وقال الإمام القشيري رحمه الله تعالى: المساكنُ لا تطيب للساكن إلا بروية المحبوب، إلا أنه قد تختلف بهم الهمم: قومٌ تطيبُ مساكنهم بوجود عطائه^(١)، وقومٌ تطيبُ أنفسهم بشهود لقائه، قال قائلهم:

وإني لأهوى الدارَ ما يستقرُّ بي لها الودُّ إلا أنها من دياركا
وقال آخر:

أجيراننا ما أوحش الدار بعدكم إذا غبُتُم عنا ونحن حُضور^(٢)

(٧٣) - ﴿يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ الْمَصِيرُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾: لما وصف الله المنافقين

= (٦/ ١٨٤٠)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (٢/ ٤٢٤)، وقال: موضوع.

(١) في (ر) و(ف): «خطابه»، والمثبت من (أ) و«اللطائف».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٤٥-٤٦).

والكفار، وكشف له أحوال المتسترين منهم بالإظهار، أمره بجهادهم الذي هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو من صفات المؤمنين، وخلاف ذلك من صفات المنافقين.

وقال عطاء: نسخت هذه الآية كل شيء من الصفح والعفو^(١).

وقوله تعالى: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ﴾ أي: بالسلاح في وقته وباللسان في وقته.

﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: باللسان^(٢).

وقال الحسن وقتادة: بإقامة الحدود^(٣).

وقيل: بالسيف بعدما ظهرت أحوالهم، قال تعالى ﴿أَيَنَّمَا تُقِفُوا أَخَذُوا وَقَتْلُوا نَفْتِيلًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَغْلَظْ عَلَيْهِمْ﴾: أي: ولا تدهنهم وآيسهم من نفسك، وقرّر عندهم أنه لا مودة بينك وبينهم، وإنما هو الإسلام أو السيف.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أُوْنَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ غلبوا في الجهاد أو غلبوا ﴿وَبَيْسَ الْمَصِيرُ﴾ جهنم.

وقال القشيري رحمه الله: المجاهدة أولها باللسان، بشرح البرهان وإيضاح الحجج والبيان، ثم إن حصل من العدو جحدٌ بعد إزاحة العذر فالوعيد والزجر بالإعلان، فإن لم ينجع الكلام ولم ينفع الملام فالقتال والجرب بالسيف والسنان^(٤).

(١) ذكره عنه الثعلبي في «تفسيره» (٤٧٨/١٣)، والواحي في «البيسط» (٥٥٣/١٠)، والبغوي في «تفسيره» (٧٤/٤).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٥٦٦/١١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٨٤٢/٦).

(٣) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (٥٦٧/١١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٨٤١/٦).

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (٤٦/٢).

(٧٤) - ﴿يَخْلُفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ أَوِيًا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَوُوا يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَخْلُفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾: وهذا ينتظم لما سبق من ذكر مقابح المنافقين وطعنهم في الرسول وفي الدين.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾: هي كل لفظة ترجع إلى الطعن في الدين أو في الرسول، وقد بينا بعضها.

وقوله تعالى: ﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾: أي: حَكَمَ لهم بالكفر بهذه اللفظة بعدما حَكَمَ بإسلامهم بظاهر إقرارهم، واختلفت الروايات في هذا القائل:

قال عروة وابن إسحاق ومجاهد: هو الجلاس بن سويد بن الصامت، وقد بينا قصته في الآيات المتقدمة، ومقالته: إن كان ما ^(١) جاء به محمد حقًا لنحن شرٌّ من الحمير ^(٢).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: هذه الكلمة ليست بكفر إلا إن ثبت معها زيادة عليها هي كفر.

وقال قتادة: هو عبد الله بن أبي ابن سلول حين قال: ﴿لَنْ رَجَعَنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَ الْأَعْرَابُ مِنَ الْأَذَلِّ﴾ ^(٣).

(١) في (ف): «الذي».

(٢) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٦٩ - ٥٧١). ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٤٣) من طريق محمد بن إسحاق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبيرة عن ابن عباس.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٧٢).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ذَكَرَ هذا القولُ أيضاً، وحكى عنه أنه قال: والله ما مثَلْنَا ومثَّلْ محمدٌ إلا كما قال القائل: سَمَنْ كَلْبِكَ يَأْكُلُكَ.

قال: ويُشبهه أن يكون هذا متصلاً بقوله: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة: ٦٥]، وكانوا يستهزئون بالله وآياته ورسوله، وهو كفر، أو قالوا قولٌ كفرٍ لم يبين الله لنا ذلك، فلا نفِسرُه أنهم ماذا قالوا لما ليس لنا إلى معرفة ذلك حاجة^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ أَيْمَانُ يَنَالُوا﴾ قال مجاهد: هو همُّ عبد الله بن أبيٍّ ﴿لِيُخْرِجَ الْأَعْرَضُ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾^(٢).

وقال مجاهد في رواية: هو همُّ الجلاس بقتل مَنْ أنكر عليه قوله: إن كان ما يقول محمد حقاً لنحن شرٌّ من الحمير، على ما روينا^(٣).

وقال الكلبي: ﴿وَهُمْ أَيْمَانُ يَنَالُوا﴾ يعني: المنافقين ليلة العقبة، همُّوا بقتل النبي عليه السلام في غزوة تبوك: عبد الله بن أبيٍّ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح القرشي، وطعمة بن أبيرق، والجلاس بن سويد، ومجمّع بن جارية، وأبو عامر بن النعمان، وأبو الأخوص^(٤)، وكانوا خمسة عشر رجلاً.

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٤٣٠).

(٢) ذكره دون عزو الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٧٣ - ٥٧٤). وذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٣٨٣/ ٢) عن قتادة.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٧٣). وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٤٥).

(٤) في (أ): «الأحوص». وهذا الخبر ذكره مقاتل في «تفسيره» (٢/ ١٨٣ - ١٨٤)، وفيه: (وَأَبُو الْخَوَاصِ). وروى نحوه البيهقي في «الدلائل» (٢/ ٢٥٨) عن ابن إسحاق في خبر طويل، وفيه أن النبي ﷺ أنبأ حذيفة بأسمائهم وكانوا اثني عشر رجلاً منهم المذكورون هنا، وفيه بدل «أَبُو الْخَوَاصِ»: «أَبُو حَاضِرٍ =

وقال ابن كيسان: لَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ وَقَفَ لَهُ عَلَى الْعُقْبَةِ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ لِيَفْتِكُوا بِهِ إِذَا عَلَاها وَمَعَهُمْ رَجُلٌ مُسْلِمٌ، فَأَخْبَرَ جَبْرِيلُ النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَا قَدَّرُوا وَتَنَكَّرُوا لَهُ فِي لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ، فَأَمَرَ جَبْرِيلُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَرْسَلَ عَلَيْهِمْ^(١) مَنْ يَضْرِبُ وَجْهَ رَوَاحِلِهِمْ، وَعِمَارُ بْنُ يَاسِرٍ يَقُودُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَحَذِيفَةُ يُسَوِّقُ بِهِ، فَقَالَ لِحَذِيفَةَ: «اضْرِبْ وَجْهَ رَوَاحِلِهِمْ»، فَضْرَبَ بِهَا حَتَّى نَحَّاهُمْ، فَلَمَّا نَزَلَ قَالَ لِحَذِيفَةَ: «مَنْ عَرَفْتَ مِنَ الْقَوْمِ؟» قَالَ: لَمْ أَعْرِفْ مِنْهُمْ أَحَدًا، غَيْرَ أَنِّي عَرَفْتُ جَمْلَ فُلَانٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّهُمْ فُلَانٌ وَفُلَانٌ» حَتَّى عَدَّاهُمْ كُلَّهُمْ، فَقَالَ حَذِيفَةُ: أَلَا تَبْعَثُ إِلَيْهِمْ فَيَأْتُوكَ؟ قَالَ: «أَكْرَهُ أَنْ يَقُولَ الْعَرَبُ لَمَّا ظَفَرَ بِأَصْحَابِهِ أَقْبَلَ يَقْتُلُهُمْ، بَلْ يَكْفِينَاهُمْ اللَّهُ بِالْذُّبِيلَةِ» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الذُّبِيلَةُ؟ قَالَ: «شَهَابٌ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ يَضَعُهُ عَلَى نِيَاطِ فُؤَادِ أَحَدِهِمْ حَتَّى تَرَهَقَ نَفْسُهُ»^(٢). النِيَاطُ: عَرَقٌ مُتَعَلِّقٌ بِالْقَلْبِ إِذَا انْقَطَعَ مَاتَ صَاحِبُهُ^(٣).

= الأعرابي. لكن البيهقي رحمه الله توقف عند ذكر عبد الله بن أبيٍّ معهم حيث قال: (إلا أن ابن إسحاق ذكر قبل هذا أن ابن أبيٍّ تخلف في غزوة تبوك، ولا أدري كيف هذا؟).

(١) في (ف) و(أ): «إليهم».

(٢) ذكره عن ابن كيسان الثعلبي في «تفسيره» (٦٤/٥)، والبغوي في «تفسيره» (٦٩/٤). ورواه بنحوه البزار في «مسنده» (٢٨٠٠)، والبيهقي في «الدلائل» (٢٦٠/٢) من حديث حذيفة رضي الله عنه. ورواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٣٧٩٢) من حديث أبي الطفيل عامر بن واثلة رضي الله عنه، وإسناده قوي، ورواه البيهقي أيضاً (٢٥٨/٢) من طريق أبي الأسود عن عروة، ومن طريق يونس عن ابن إسحاق، لكن إخبار النبي ﷺ بأسمائهم على التعيين لم يرد في شيء من هذه الأخبار سوى خبر ابن إسحاق. انظر التعليق السابق. وحديث الذبيلة رواه مسلم (٢٧٧٩) عن حذيفة رضي الله عنه، وفيه: «في أمتي اثنا عشر منافقاً لا يدخلون الجنة، ولا يجدون ريحها، حتى يلج الجمل في سم الخياط ثمانية منهم تكفيهم الذبيلة، سراج من النار يظهر في أكتافهم، حتى ينجم من صدورهم».

(٣) «النياط: عرق متعلق بالقلب إذا انقطع مات صاحبه» ليس في (أ) و(ف).

وقال أبو رَوْقٍ: ذكروا أن اثني عشر رجلاً من المنافقين أتوا رسول الله ﷺ وهو في بيته ليفتكوا به، فأناه جبريل فعرفه إياهم حتى عرفهم وأخبر بقصتهم، فقال رسول الله ﷺ: «إن اثني عشر رجلاً من المنافقين ائتمروا بأمر لم ينالوه، فليقوموا وليستغفروا فأستغفر لهم» فلم يقوموا فقال: «قم يا فلان قم يا فلان»، حتى أتى على آخرهم، فقالوا: يا رسول الله، نستغفر الله ونتوب إليه مما كنا عليه من الكفر، فقال: «الآن ولم تُجيبوني^(١)! اخرجوا عني» فخرجوا مفتضحين، فنزلت فيهم: ﴿وَهُمْ أَوْيَاكُمْ يَبْتَغِ الْجَزَاءَ﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقْمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾: أي: ما عابوا.

وقيل: أي: ما طعنوا.

ومعناه: أي: ليس للمؤمنين عندهم ذنبٌ يعيبونهم به ويغتazon به عليهم إلا أن أغناهم الله من فضله^(٣) بالغنائم والصدقات، ورسوله كان سبباً لذلك وموصلاً إليهم، وهذا ليس مما يُنقم به.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَّهُمْ﴾: أي: إن يُخلص هؤلاء المنافقون فهو خيرٌ لهم في الدنيا والآخرة؛ لنجاتهم من العقاب ووصولهم إلى الثواب في العقبى، وأمنهم وعزهم وحسن ذكرهم في الدنيا.

(١) في (ف) و(أ): «تخشوني».

(٢) لم أجده، وهو مخالف للأخبار السابقة مرسله ومرفوعة من أن القصة وقعت خلال غزوة تبوك، وقد روي في قوله تعالى في هذه السورة: ﴿سَعَدَ بِهِمْ مَرَّتَيْنِ﴾ خبر شبيه ببعض ما هنا، رواه الطبري في «تفسيره» (١١/٦٤٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/١٨٧٠)، والطبراني في «الأوسط» (٧٩٢)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه: قام رسول الله ﷺ يوم الجمعة خطيباً فقال: «قم يا فلان فاخرج فإنك منافق، اخرج يا فلان فإنك منافق» فأخرجهم بأسمائهم ففضحهم.. الحديث. وسيأتي بتمامه عند تفسير قوله تعالى: ﴿سَعَدَ بِهِمْ مَرَّتَيْنِ﴾.

(٣) «من فضله» من (ف)..

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَتَوَلَّوْا﴾: أي: عن التوبة عن النفاق^(١) ﴿يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا﴾ باللعن وهتك السُّتر والجلء والسَّبي والقتل ﴿وَفِي﴾^(٢) ﴿الْآخِرَةِ﴾ بعذاب النار أبدًا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾: أي: في الدنيا ﴿مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾: أي: مَنْ يَتَوَلَّى الذَّبَّ عنهم إذا نزل عذابُ الدنيا، ولا مَنْ يَنْصُرُهُمْ فيمنعُ الله عن تعذيبهم، ولم يذكر الآخرة لأن الملك يومئذ لله فلا وليَّ ولا نصير يومئذ لأحد، فأما في الدنيا فقد يكون للإنسان وليٌّ ونصير، وهؤلاء ليس لهم في الدنيا ذلك.

وقيل: أي: ما لهم مَنْ يوالونهم ويتعصَّبون لهم، ولا مِنْ أعوانهم والقائمين بنصرتهم في هذه الدنيا مَنْ يصرفُ عنهم العذاب في العقبى.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ولَمَّا نزل ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ قام الجلاس فقال: أسمع الله يَعْرضُ عليَّ التوبة، والله لقد قلتُ هذا، وإن الذي أخبر عني لصادقٌ، فتاب وحسنت توبته^(٣).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: تمنَّوا زوال دولة الإسلام، فأبى الله إلا إعلاء أمرها على الدوام.

﴿وَمَا نَقْمُوا مِنْهُمْ﴾؛ أي: وما عابوهم إلا بما هو أجلُّ الخصال، فلم يحصلوا إلا على الخزي والنكال.

(١) «عن النفاق» من (أ).

(٢) «في» من (أ) و(ف).

(٣) ذكره عن عطاء عن ابن عباس الواحدي في «البيسط» (٥٥٧/١٠). وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٧٠/٥)، والواحدي في «البيسط» (٥٥٧/١٠)، والبغوي في «تفسيره» (٧٠/٤)، عن الكلبي. ورواه عبد الرزاق في «المصنف» (١٨٣٠٣)، والطبري في «تفسيره» (٥٧٦/١١)، عن عروة بن الزبير، وهو عندهم متصل بقصة قوله: (لنحش شر من الحمير).

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [وأقوى أركان] التوبة: حلُّ عقدة الإصرار عن القلب، ثم القيام بكلِّ حقوق الرب^(١).

(٧٥) - ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾: أي: ومن هؤلاء المنافقين من عاهد الله، هو ثعلبة بن حاطب، وقد كتبنا هذه القصة في أمالي بعض^(٢) مشايخنا ببخارى مسنداً عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه: أن ثعلبة بن حاطب رضي الله عنه قال لرسول الله ﷺ: ادع الله أن يرزقني مالاً، فقال النبي ﷺ: «ويحك يا ثعلبة، قليل تؤدِّي شكره خيرٌ من كثير لا تُطيقه»، ثم قال له مرةً أخرى، فقال له: «ألا ترضى أن تكونَ مثلَ نبيِّ الله؟ فوالذي نفسي بيده لو شئتُ أن تسير معي الجبال ذهباً وفضةً لسارت» فقال: والذي بعثك بالحق نبياً لو دعوت الله أن يرزقني مالاً لأعطينَ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فقال النبي ﷺ: «اللهم ارزقه مالاً».

فَاتَّخَذَ غَنَمًا فَنَمَتْ كَمَا يَنُمُو الدَّودُ، فَضَاقَتْ عَلَيْهِ الْمَدِينَةُ فَفَتَنَحَى عَنْهَا فَنَزَلَ وَاذِيًّا مِنْ أَوْدِيَّتِهَا، ثُمَّ جَعَلَ يَصَلِّي الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ بِجَمَاعَةٍ وَيَتْرَكُ مَا سِوَاهُمَا، ثُمَّ نَمَتْ وَكَثُرَتْ فَفَتَنَحَى^(٣) حَتَّى تَرَكَ الصَّلَوَاتِ إِلَّا الْجُمُعَةَ، وَهِيَ تَنُمُو كَمَا يَنُمُو الدَّودُ، حَتَّى تَرَكَ الْجُمُعَةَ، فَطَفِقَ يَتَلَقَّى الرِّكْبَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ يَسْأَلُهُمْ عَنِ الْأَخْبَارِ، فَسَأَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا فَعَلَ ثَعْلَبَةُ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اتَّخَذَ غَنَمًا فَضَاقَتْ عَلَيْهِ الْمَدِينَةُ، وَأَخْبَرُوهُ

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (٤٧ / ٢)، وما بين معكوفتين منه.

(٢) قوله: «في أمالي بعض» من (ر)، ووقع بدلاً منه في (أ): «من بعض»، وفي (ف): «لبعض».

(٣) «فتنحى» ليست في (أ) و(ف).

بأمره، فقال النبي عليه السلام: «يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة» فأنزل الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ وأنزل عليه فرائض الصدقة، فبعث النبي ﷺ رجلين على الصدقة وكتب لهما كيف يأخذان الصدقة وأسنان الإبل، وأمرهما أن يخرجوا ويأخذوا الصدقات من المسلمين، وقال لهما: «مَرَّا بثعلبة وبفلانٍ من بني سليم فخذوا منهما الصدقة»، فخرجا حتى أتيا ثعلبة، فسألاه الصدقة فأقرأه كتاب رسول الله ﷺ، فقال: ما هذه إلا جزيّة، ما هذه إلا أختُ الجزية، ما أدري ما هذا؟! انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إليّ، فانطلقا.

وسمع بهما السلمي، فنظر إلى خيار أسنان إبله فعزلها^(١) للصدقة، ثم استقبلهما بها، فلما رأوها قالوا: ما يجب عليك هذا، وما نريد أن نأخذ منك هذا، قال: بلى خذوه فإن نفسي بذلك طيبة، وإنما هي لي، فأخذوها منه، فلما فرغا من صدقاتهما رجعا حتى مرّا بثعلبة، فقال: أروني كتابكما، فنظر فيه فقال: ما هذه إلا أختُ الجزية! فانطلقا حتى أرى رأيي.

فانطلقا حتى أتيا رسول الله ﷺ، فلما رآهما قال: «يا ويح ثعلبة» قبل أن يتكلما ودعا للسلمي بالبركة، فأخبراه بالذي صنع ثعلبة والذي صنع السلمي، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ﴾ الآيات، وعند رسول الله ﷺ ناس^(٢) من أقارب ثعلبة، فسمع ذلك فخرج حتى أتاه فقال: ويلك يا ثعلبة، قد أنزل الله فيك كذا وكذا، فخرج ثعلبة حتى أتى رسول الله ﷺ، فسأله أن يقبل منه صدقته، فقال عليه السلام: «إن الله قد منعني أن أقبل منك صدقتك» فجعل يحثي على رأسه التراب، فقال له رسول الله ﷺ: «هذا عملك، قد أمرتك فلم تطعني» فلما أبى أن يقبل منه شيئا رجع إلى منزله.

(١) في (ف): «فعدّها».

(٢) «ناس» ليست في (أ) و(ف).

وَقَبُضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ شَيْئاً، حَتَّى أَتَى أَبَا بَكْرٍ حِينَ اسْتُخْلِفَ فَقَالَ: قَدْ عَلِمْتَ مَنَزَلَتِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَوْضِعِي مِنَ الْأَنْصَارِ، فَاقْبَلْ صَدَقَتِي، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: لَمْ يَقْبَلْهَا مِنْكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا أَقْبَلُهَا؟! فَقَبُضَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَلَمْ يَقْبَلْهَا. فَلَمَّا وَلِيَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَتَاهُ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَقْبَلْ صَدَقَتِي، فَقَالَ: لَمْ يَقْبَلْهَا مِنْكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَا أَبُو بَكْرٍ وَأَنَا أَقْبَلُهَا؟! فَقَبُضَ عُمَرُ وَلَمْ يَقْبَلْهَا مِنْهُ. ثُمَّ وَلِيَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَتَاهُ يَسْأَلُهُ أَنْ يَقْبَلَ صَدَقَتَهُ، فَقَالَ: لَمْ يَقْبَلْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَأَنَا أَقْبَلُهَا مِنْكَ؟! فَلَمْ يَقْبَلْهَا مِنْهُ عُثْمَانُ، وَهَلَكَ ثَعْلَبَةُ فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(١).

وَذَكَرُوا أَنَّ ثَعْلَبَةَ قَبْلَ سُؤَالِ الْمَالِ وَحُدُوثِ هَذَا الْحَالِ كَانَ مَلَاظِماً لِمَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلاً وَنَهَاراً، وَكَانَ يَلْقَبُ بِذَلِكَ: حَمَامَةَ الْمَسْجِدِ، وَكَانَتْ جَبْهَتُهُ صَارَتْ كَرُكْبَةِ الْبَعِيرِ لِكَثْرَةِ سَجُودِهِ عَلَى الْأَرْضِ - وَقِيلَ: عَلَى الْحِجَارَةِ الْمُحَمَّاةِ بِالشَّمْسِ - وَجَعَلَ يَخْرُجُ كُلَّمَا فَرَّغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْفَجْرِ بِالْجَمَاعَةِ مِنْ غَيْرِ لِبَثٍ وَاشْتِغَالٍ بِدَعَاءِ أَيَّاماً، فَقَالَ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَالِكٌ صَرَتْ تَعْمَلُ أَعْمَالَ الْمُنَافِقِينَ مِنْ تَعْجِيلِ الْخُرُوجِ بَعْدَ الْجَمَاعَةِ؟»، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي فِي غَايَةِ الْفَقْرِ وَالْفَاقَةِ، وَلِي وَلَا مَرَأَتِي ثَوْبٌ وَاحِدٌ وَهُوَ الَّذِي عَلَيَّ، فَأَنَا أَصْلِي فِيهِ هَاهُنَا وَهِيَ عَرِيَانَةٌ فِي الْبَيْتِ، ثُمَّ أَعُودُ إِلَيْهَا فَأَنْزَعُهَا وَهِيَ تَلْبَسُهُ فَتَصْلِي فِيهِ، فَسَلِّ اللَّهُ أَنْ يَوْسَعَ عَلَيْهَا، ثُمَّ الْقِصَّةُ عَلَى مَا سَقْنَاهَا^(٢).

(١) رواه ابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢٢٥٣)، والطبري في «التفسير» (١١ / ٥٧٨)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٧٨٧٣)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥ / ٢٨٩ - ٢٩٢) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، قال البيهقي: هذا حديث مشهور فيما بين أهل التفسير، وإنما يروى موصولاً بأسانيد ضعاف. وقال الذهبي في «تجريد أسماء الصحابة» (ص: ٦٦): منكرٌ بمرة.

(٢) ذكره حقي في «روح البيان» (٣ / ٤٦٩)، والآلوسي في «روح المعاني» (١٠ / ٤٣٢).

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ﴾؛ أي: وَسَّعَ علينا المالَ ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾؛ أي: لنتصدقن، أدغمت التاء في الصاد وشُدَّتْ؛ أي: لنصرفن^(١) في وجوه الخير من الجهاد وغيره ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

قيل: مثل عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف في البذل والسخاء.

(٧٦) - ﴿فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾.

﴿فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾: ووسَّعَ الله عليهم الدنيا ﴿بَخِلُوا بِهِ﴾؛ أي: بالفضل، فمنعوا حقوقه ﴿وَتَوَلَّوْا﴾؛ أي: عن طاعة الله وطاعة رسوله في أداء حقوق الأموال ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾؛ أي: عن الإسلام وأحكامه.

(٧٧) - ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾.

﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا﴾: قال مجاهد: فأعقبهم الله نفاقاً^(٢)؛ أي: جعل عاقبة ذلك نفاقاً. ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: ترديداً واضطراباً في العقيدة، وشكاً في الإسلام، وهذا من الله تعالى جزاءً لهم على بخلهم.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ويحتمل: فأعقبهم دواماً على نفاقهم^(٣)،

(١) في (ف): «لنصدقن».

(٢) ذكره الجصاص في «أحكام القرآن» (٤/٣٥٠)، والواحدي في «البيضا» (١٠/٥٦٤) بلفظ: (أعقبهم الله ذلك بحرمان التوبة كما حرم إبليس).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/٤٣٣).

فقد^(١) قيل: كانوا منافقين فخذلهم الله وتركهم في ضلالهم لاختيارهم ذلك.

وقوله تعالى: ﴿إِلَى يَوْمٍ لَّيَقُونَهُ﴾: أي: إلى يوم القيامة، وهو لتأييد نفاقهم، فمن بقي منافقاً إلى يوم القيامة لم يثبت له حكم الإسلام أبداً.

ثم هو حجة لنا في مسألة خَلَقَ الأفعال، ومسألة^(٢) الأصلح.

وقال الحسن: فأعقبهم بخلمهم نفاقاً^(٣)؛ أي: صار سبباً لذلك، وقوله: ﴿إِلَى يَوْمٍ لَّيَقُونَهُ﴾: أي: يرون بخلمهم؛ كما قال: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ﴾ [آل عمران: ٣٠].

وقوله تعالى: ﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾: فوعدهم: عهدهم المذكور في أول الآية، وكذبهم: قولهم: ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، ودل على أن من قال: لأفعلن كذا، وهو ينوي ألا يفعله كان كاذباً.

وقال النبي ﷺ: «ثلاث من علامات المنافق^(٤): إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان»^(٥)، ومعناه: إذا استحل ذلك، أو كانت هذه الأشياء في الدين لا في معاملة الخلق.

وذكر محمد بن جرير في «تفسيره» عن معبد بن ثابت أنه قال في هذه الآية: إنما هو شيء نوّوه في أنفسهم ولم يتكلموا به يدلُّ عليه ما بعده، وهو قوله تعالى:

(١) «فقد» ليست في (أ).

(٢) في (ر): «ومثله».

(٣) ذكره الجصاص في «أحكام القرآن» (٤/ ٣٥٠).

(٤) في (أ): «المنافق».

(٥) رواه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٧٨) - ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾^(١):

استفهامٌ بمعنى التوبيخ؛ أي: يعلم ما أسروه في أنفسهم يومَ عاهدوه وما يتناجون فيما بينهم مما لا يشركهم في العلم به غيرهم من الطعن على شرائع الإسلام من الصدقات ووجوه الطاعات، وهو علّامُ الغيوب لا يخفى عليه من الغائبات شيءٌ.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: أي: من الغائبات عن الخلق، ولا يغيب عن الله تعالى شيء^(٢).

(٧٩) - ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ

وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي

الصَّدَقَاتِ﴾: أي: هم الذين يعيبون المتطوعين، أدغمت التاء في الطاء وشددت، وقوله ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: من المخلصين في الصدقات الزائدة على الزكوات اللازمة، فيقولون: يراؤون بما يفعلون.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾: أي: ويعيبون الفقراء الذين

يأتون بما لا يفي حالهم بأكثر منه، والجُهد بالضم: الطاقة، والجُهد بالفتح: المشقة^(٣).

(١) لم أجده عند الطبري، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٧٣/٥)، وابن الجوزي في «زاد المسير»

(٤٧٥/٣)

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤٣٤/٥).

(٣) ويجوز في معنى الطاقة فتح الجيم أيضاً. انظر: «مختار الصحاح» (مادة: جهد).

وقال الشعبي: الجُهد بالفتح: في العمل، والجُهد بالضم: في القوت^(١).
وقيل: هما لغتان كالضَّعف والضَّعف، والكُره والكُره، وهما الحمل على
النفس بما يشقُّ عليها.

وقوله تعالى: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾: أي: يَهْزِؤْنَ.

وقوله تعالى: ﴿سَخَّرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾: أي: جزاهم^(٢) جزاء سُخْرِيَتِهِمْ، وقد بينا نظائره
في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾
[الأنفال: ٣٠].

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: أي: في الدنيا والآخرة.

وقال الكلبي: قال النبي ﷺ: «اجمعوا صدقاتكم»، فجاء عبد الرحمن بن عوف
بأربعة آلاف درهم، وقال: قد كان لي ثمانية آلاف درهم، فأقرضتُ ربِّي أربعة آلاف
وأمسكتُ لنفسِي أربعة آلاف، فقال عليه السلام: «بارك الله لك فيما أعطيتَ وفيما
أمسكتَ»، ثم جاء عمر بنحو ذلك، وجاء عاصم بن عديٍّ بسبعين وسقاً من تمر - وفي
رواية: بمئة وسقٍ -، فلمزه المنافقون وقالوا: ما أعطاه إلا رياءً، وجاء أبو عقيلٍ بصاعٍ من
تمر، فأمره رسول الله ﷺ أن يضعه فوق الصدقات، فلمزه المنافقون وقالوا: كان الله
غنياً عن صاع أبي عقيل، ولكنه أحبَّ أن يذكر نفسه ليعطى من الصدقة^(٣).

(١) ذكره الواحدي في «البيسط» (٥٦٩/١٠).

(٢) في (ف) و(أ): «جازاهم».

(٣) رواه أبو الشيخ في «تفسيره» عن الحسن مرسلًا مطوَّلًا كما في «الدر المنثور» (٢٥٢/٤)، وللقصّة
شواهد عن جمع من الصحابة والتابعين رواها الطبري في «تفسيره» (١١/٥٨٨ - ٥٩٦)، ومنها
حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند البزار (٢٢١٦ - كشف الأستار). وخبر أبي عقيل رواه البخاري
(١٤١٥)، ومسلم (١٠١٨) من حديث أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه.

وقال مقاتل: الذين يلمزونهم هم معتب بن قشير وحكيم بن زيد^(١).

وقال عطاء: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾: سهل بن رافع^(٢).

وقيل: هو أبو خيثمة.

وفي رواية: قال لعبد الرحمن: «أكثرَ يا عبد الرحمن، هلا تركت لأهلك شيئاً» قال: تركت لهم شطر مالي، فدعاه بما رويناه^(٣).

(٨٠) - ﴿أَسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾:

قال الإمام أبو منصور رحمه الله: قال عامة المفسرين: لما مات عبد الله بن أبي أراد رسول الله ﷺ أن يصلِّي عليه، فأخذ عمر بثوبه فقال: ما أمرك الله بهذا؛ قال: ﴿أَسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ فقال: «قد خيرني ربي» فقال عمر رضي الله عنه: إنه قال: ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ قال: «أزيد على السبعين فعسى الله أن يغفر لهم» فأنزل الله عند ذلك ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٦]^(٤)، ولكن هذا

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (١٨٦/٢).

(٢) ذكره الواحدي في «البيسط» (٥٦٨/١٠) من طريق عطاء عن ابن عباس. وتحرف فيه «رافع» إلى: نافع.

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (١٨٥/٢).

(٤) رواه مختصراً عبد الرزاق في «تفسيره» (١١١٣) عن قتادة، والطبري في «تفسيره» (٦٠١/١١) عن =

يَبْعُدُ؛ أَنْ يَفْهَمَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ التَّخْيِيرَ وَعَمْرٌ يَمْنَعُهُ عَنْ ذَلِكَ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَفْهَمَ التَّخْيِيرَ مِنْ ذَلِكَ، أَوْ يَخْرُجَ ذَلِكَ عَلَى التَّحْدِيدِ، أَوْ تَكُونَ هَذِهِ مَنْسُوخَةً بِالْآيَةِ الَّتِي فِي الْمَنَافِقِينَ لِأَنَّهُ وَعِيدٌ وَالْوَعِيدُ لَا يَحْتَمِلُ النِّسْخَ.

وَالْوَجْهُ فِيهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ: إِنْ اسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ فَإِنْ اسْتَغْفَرَكَ لَيْسَ بِالَّذِي يَرُدُّ وَلَا يَجِبُ، لَكُنْهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَقَدْ تَعْلَمُ مِنْ حُكْمِي أَنِّي لَا أَغْفِرُ لِمَنْ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ، فَخَرَجَ ذَلِكَ عَلَى الْإِعْتِزَالِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي ذَلِكَ، وَالنَّهْيُ^(١) لَهُ عَنِ الْإِسْتِغْفَارِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى﴾ [الآية: التوبة: ١١٣]، وَقَدْ عَلِمَ هُوَ كَفَرُ الْمَنَافِقِينَ؛ إِذْ لَا يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَطَّلَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى كُفْرِهِمْ^(٢).

وَقَالَ غَيْرُهُ: قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ لَيْسَ بِأَمْرٍ، وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ لَيْسَ بِنَهْيٍ، وَ﴿أَوْ﴾ لَيْسَ بِتَخْيِيرٍ، بَلْ هُوَ تَسْوِيَةٌ بَيْنَ الْفَعْلَيْنِ: أَنَّهُ لَا يَقَعُ بِهِ الْمَغْفَرَةُ،

= ابن عباس، وإسناده ضعيف جداً. وأورد عليه أن سورة براءة آخر ما نزل فكيف تكون الآية التي في (سورة المنافقين) نازلة بعدها. قاله الشهاب في «الحاشية» (٤/ ٣٤٩).

وَقَالَ ابْنُ حَجَرٍ «الْكَافِي الشَّافِي» (ص: ٧٨): (وَأَصْلُهُ فِي الْمَتَّفِقِ عَلَيْهِ عَنْ ابْنِ عَمْرِو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا تَوَفَّى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي جَاءَ ابْنُهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَسَأَلَهُ أَنْ يُعْطِيَهُ قَمِيصَهُ يَكْفُنُ فِيهِ أَبَاهُ فَأَعْطَاهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَقَامَ يُصَلِّيُ عَلَيْهِ، فَأَخَذَ عَمْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِثَوْبِهِ فَقَالَ: أَتُصَلِّيُ عَلَيْهِ وَقَدْ نَهَاكَ اللَّهُ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَيْهِ؟ فَقَالَ: «إِنَّمَا خَيْرَنِي فَقَالَ: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ الْآيَةُ، وَسَازِيدُهُ عَلَى السَّبْعِينَ» فَصَلَّى عَلَيْهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا﴾ فَتَرَكْتَ الصَّلَاةَ عَلَيْهِمْ. لَفْظُ مُسْلِمٍ). قُلْتُ: رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٤٦٧٠، ٤٦٧٢)، وَمُسْلِمٌ (٢٤٠٠).

(١) فِي (أ): «النَّهْيُ» دُونَ الْوَاوِ، وَلَهَا وَجْهٌ، لَكِنَّا وَقَعْنَا فِي بَاقِي النِّسْخِ «وَالْتَأْوِيلَاتِ»: «وَالنَّهْيُ»، بِالْوَاوِ.

(٢) انْظُرْ: «تَأْوِيلَاتُ أَهْلِ السَّنَةِ» (٥/ ٤٣٦).

وطريقه طريق قول الرجل: اطلب مني هذا أو لا تطلب، فإن طلبت سبعين مرة فلم أعطك، هو بيان أنه لا يقع في ذلك ولا أثر لذلك، والتقدير بالسبعين ليس يقصر عليه، بل هو بيان الكثرة والمبالغة فيها، فإن السبعين جمع السبع، وعلى السبع أكثر الأعداد: عدد السماوات والأرضين، والأقاليم والبحار والأعضاء، وتارات بني آدم وأرزاقهم^(١)، والأيام السبعة، وأسباع القرآن، وأيام الدنيا، وغير ذلك، والجمع نهاية فيه، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ [الأعراف: ١٥٥] وقوله: ﴿سَبْعُونَ ذَرَاعًا﴾ [الحاقة: ٣٢]، وقول النبي ﷺ «ما أصبر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة»^(٢).

فمعناه: إنك وإن انتهيت في عدد الاستغفار لم ينفعهم ذلك.

وقيل: كان يستغفر لهم بطلبهم وكانوا يسخرون بذلك، قال الله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ الآية [الفتح: ١١]، ولذلك قال: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٦]؛ أي: سواء عندهم، فليس ذلك منهم على الجِدِّ والتحقيق.

وقيل معناه: سواء عند الله في حقهم الاستغفار وتركه؛ لما قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾: أي: الخارجين عن الإيمان، ما داموا مختارين^(٣) للكفر والطغيان.

وقال القشيري رحمه الله: من غلبته الشُّقوة لم تنفعه الشفاعة والدعوة، وصريع القدرة لا يُنعشه الجهد والحيلة^(٤).

(١) في (ر): «وأرزاق بني آدم»، بدل: «وتارات بني آدم وأرزاقهم».

(٢) رواه أبو داود (١٥١٤)، والترمذي (٣٥٥٩)، من حديث أبي بكر رضي الله عنه. قال الترمذي: هذا حديث غريب إنما نعرفه من حديث أبي نُصَيْرَةَ، وليس إسناده بالقوي.

(٣) في (ر): «والمختارين»، بدل: «ما داموا مختارين».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٤٩).

(٨١) - ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ﴾: المخلفون: الذين لم يخرجوا مع رسول الله ﷺ والمؤمنين إلى غزوة تبوك، ولتسميتهم بذلك معانٍ: أحدها: أن الله تعالى خلفهم، وهم الذين ﴿كَرِهَ اللَّهُ أَنْيَعَانَهُمْ فَبَطَّهَهُمْ﴾. والثاني: أن النبي ﷺ لم يأذن لهم^(١) بالخروج وتركهم.

والثالث: أن النبي ﷺ والمؤمنين لم يعبؤوا بهم، ولا عدوهم في جملة مَنْ يُتَكَبَّرُ بمثلهم في العسكر أو يُعْتَصَدُ بهم في رأيٍ ومشورةٍ لَمَّا علموا بثقلهم عن الجهاد. وتسميتهم بذلك على هذه الوجوه تهجين^(٢) لهم وسبٌّ وذمٌّ، وفي معناه يقول الأخطل يهجو قومًا:

مخلفون ويقضي الناس أمرهم^(٣)

وقوله تعالى: ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾ يجوز أن يكون مصدرًا كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [القمر: ٥]؛ أي: بعودهم، ويجوز أن يكون موضعاً ومعناه: فرحوا بالمدينة وبمنازلهم وحوائطهم لَمَّا نالوا من الدعة والراحة.

وقوله تعالى: ﴿خَلَفَ رَسُولُ اللَّهِ﴾؛ أي: على مخالفته^(٤) بمعنى المصدر.

(١) في (ر): «تأذن لهم»، بدل: «لم يأذن لهم».

(٢) في (ر): «تهجير».

(٣) وعجزه:

وهم بغيبٍ وفي غمٍّ ما شَعَرُوا

انظر: «المقاصد النحوية» للعيني (٢/ ٥٩٣).

(٤) في (ف): «بمخالفته» بدل: «على مخالفته».

وقيل: أي: خَلَفَ رسول الله ﷺ، وهو كقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا يَلْبَثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦] وقرئ: ﴿خَلْفَكَ﴾، على المعنيين.

وقوله تعالى: ﴿وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: أي: استَثَقَلُوا ذلك لكفرهم.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾: أي: قال بعضهم لبعضٍ - وقيل: قالوا للمؤمنين -: لا تخرجوا للغزو، فإنه وقع في شدة حرٍّ لا يؤمِّن معها قلة المياه وكلالُ الظهور والضعفُ عن المشي، فعاب الله عز وجل هذا من قولهم وهددهم عليه بالنار، وذلك قوله تعالى:

﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾: أي: أخبرهم يا محمد أن لهم على تخلفهم وتثيبتهم غيرهم نار جهنم إليها مصيرهم، وتأذيهم بحرَّها أشدُّ من تأذيهم بحرَّ الشمس والهواء.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾؛ أي: لو تدبَّروا وتفكَّروا كما يفعل ذلك من فهم وفقه، ولو فقهوا وفهموا^(١) لاحتملوا قليل التعب والأذى في طاعة الله ليُفْضِيَ بهم ذلك إلى النعيم المقيم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ضرب النبي ﷺ عسكره على ثنية الوداع، وضرب عبد الله بن أبي عسكره أسفل من الثنية، وكان أعظم العسكرين، فلما سار رسول الله ﷺ فتخلف عبد الله فيمن تخلف من المنافقين وأهل الريب، فنزلت الآية^(٢).

(١) «وفهموا» ليست في (أ) و(ف).

(٢) لم أجده عن ابن عباس، ولم أجده في نزول هذه الآية، وروى الطبري في «تفسيره» (١١/ ٤٩٠ -

٤٩١) هذه القصة من طريق ابن إسحاق عن عمرو بن عبيد عن الحسن البصري في سبب نزول قوله

تعالى: ﴿لَقَدْ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ﴾ الآية [التوبة: ٤٨]، وقد تقدم عند تفسير الآية المذكورة.

وقال مقاتل: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ﴾؛ أي: رضي المخلفون ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾: بعودهم عن غزوة تبوك ﴿خَلَفَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ وهم بضعة وثمانون رجلاً، فمنهم من اعتلَّ بشدة الحر، ومنهم من اعتلَّ بالعسرة ﴿وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ وقال بعضهم لبعض: ﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ مع محمد، نزلت في سبعة منهم أبو لبابة وأصحابه، فإن^(١) الحر شديد والسفر بعيد ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾؛ أي: يعلمون^(٢).

(٨٢) - ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾: أمر^(٣) بمعنى التهديد؛ كقوله: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠]، ومعناه: يضحكون على فرحهم بتخلفهم، وهذا في الدنيا قليل ثم يكون في الآخرة بكاءً كثيراً دائماً لا ينقطع. قوله تعالى: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾: من الكفر والنفاق والمعاصي.

(٨٣) - ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَدْنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَائِفِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾: أي: رجعت^(٤) الله من غزوة تبوك إلى المدينة، وقد بقي من المنافقين طائفةٌ وهلك طائفةٌ.

(١) قوله: «فإن»، كذا في النسخ، وفي «تفسير مقاتل»: «قالوا».

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (١٨٧/٢).

(٣) من هنا وقع خرم في (ر) بمقدار ورقتين، وسوف نبين نهايته في موضعها.

(٤) في (ف): «ردك».

وقيل: تخصيص طائفة منهم تخصيص رؤسائهم.

وقد روى شعبة عن قتادة أنهم كانوا اثني عشر رجلاً^(١).

وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَدْنُوكَ لِخُرُوجٍ﴾: أي: معك إلى غزوة أخرى ﴿فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقْبِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾؛ أي: فامنعهم عن الخروج معك للقتال، عاقبهم بأن لا تستصحبهم^(٢) استخفافاً بهم، ودلالة على سقوط محلهم والاستغناء في الأمور عنهم. وقوله: ﴿إِنْ كُرِضْتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فلم تخرجوا إلى تبوك ﴿فَأَقْعُدُوا مَعَ الْخُلَفَاءِ﴾ قال الحسن وقاتدة: أي: مع النسوان والصبيان^(٣).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: مع من تخلف من المنافقين بغير عذر^(٤).
وقيل: مع من تخلف عن الجهاد بعذر من العميان والزمنى.

وقيل: مع أهل الفساد، من قولهم: خلف فوه خلوفاً: إذا تغير إلى الفساد.
وقال القشيري رحمه الله: يقول: لا تنخدع لملقهم، ولا تثق بقولهم، ولا تمكّنهم من صحبتك فيما يظهرونه من الوفاق، بعد ما ظهر وتقرّر منهم الكذب والنفاق، وإذا انقطع سلك العهد لم يحتمل الشدّ، وإذا اتسع الخرق لم ينفع بعده الرقع^(٥).

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٦٠٩/١١) من طريق سعيد عن قتادة. وسعيد هو ابن أبي عروبة، فعمل كلمة (شعبة) في النسخ محرفة عن: (سعيد).

(٢) في (ف): «تصحبهم».

(٣) ذكره عنهما الماوردي في «النكت والعيون» (٣٨٨/٢). ورواه الطبري في «تفسيره» (٦٠٩/١١) عن قتادة بذكر النساء فقط.

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٧٨/٥)، والماوردي في «النكت والعيون» (٣٨٨/٢). ورواه الطبري في «تفسيره» (٦٠٩/١١) بلفظ: (والخالفون الرجال).

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» (٥٠/٢). وفيه: (... وإذا وهن سلك العهد...)، وهو الصواب، فإن المنقطع لا يصلح ذكر الشد معه، وإنما يكون ذاك للذي وهن.

(٨٤) - ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾: هذه فضيحة لهم بعد الوفاة، وما ذكر قبلها خزي لهم في حالة الحياة.

وقال قتادة: دخل رسول الله عليه السلام على عبد الله بن أبي بن سلول في مرض موته وكان دعاه^(١)، فسأله أن يصلي عليه ويقوم على قبره ويكفنه في قميصه، ففعل ذلك، فنزلت الآية^(٢).

وعن عمر رضي الله عنه أنه قال: لما توفي عبد الله بن أبي ووضعه ليصلي عليه، قام رسول الله عليه السلام، فقلت: أتصلي على عدو الله، القائل يوم كذا: كذا، والقائل يوم كذا: كذا، وعددت أيامه الخبيثة، فتبسم رسول الله عليه السلام وصلى عليه، ثم مشى معه وقام على حفرته حتى دُفن وانصرف، فوالله ما لبث إلا يسيراً حتى نزل: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا﴾ الآية، فما صلى رسول الله عليه السلام على منافق أبداً ولا قام على قبره^(٣).

وفي الآية تقديم وتأخير، وتقديره: ولا تصل أبداً على أحد منهم مات ولا تقم على قبره.

قيل: هو نفس القيام وهو نوع إكرام.

وقيل: هو القيام بأسباب دفنه ومواراته^(٤).

(١) في (ف): «عاده».

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ١٦١)، والطبري في «تفسيره» (١١/ ٦١٤).

(٣) رواه بنحوه البخاري (١٣٦٦)، ومسلم (٢٤٠٠).

(٤) في (أ): «ومولاته».

وفي «التأويلات» أنه قيل: يا رسول الله! تلبس عدو الله قميصك، قال: إني لأرجو أن يسلم بقميصي ألف من بني الخزرج^(١)، وكان كذلك^(٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَانُوا وَهُمْ فَسِقُونَ﴾: أي: قد كفروا وأصرُّوا وعليه ماتوا، فليسوا أهلاً في إجلالك.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فَسِقُونَ﴾؛ أي: مُعلنون للمعاصي.

وقال القشيري رحمه الله: يقول: ليس بعد التبري تولي، ولا بعد الفراق وفاق، ولا بعد الحجة قربة^(٣).

(٨٥) - ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.

قوله تعالى ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾: فسرنا الآية مرة، ومعنى التكرير: المبالغة في التأكيد والتقرير، أو لأن كل آية في فرقة غير الأخرى.

ومعنى اتصالها بالأولى: أمض في المنافقين هذه الأحكام ولا يهولنك ما يتكثرون به من الأموال والأولاد.

(١) رواه ابن شبة في «أخبار المدينة» (٧٣٢) عن الحسن، و(٧٣٤) عن قتادة، وفيهما: (من بني النجار) بدل: (من بني الخزرج). ورواه عن قتادة أيضاً الطبري في «تفسيره» (١١ / ٦١٤)، وفيه: (من قومه).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥ / ٤٤٠). وانظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢ / ٤٦٣). وفيه: (فيروى أنه أسلم من بني الخزرج ألف لما رأوه يطلب الاستشفاء بثوب رسول الله ﷺ). قلت: وهذا كله لم

يرد به خبر يصلح للاحتجاج به.

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (٢ / ٥١).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: ولا تحسبن أن تمكين أهل النفاق من تنفيذ مرادهم وتكثير أموالهم وأولادهم إسداء معروف منا إليهم، وإسباغ إنعام من لدنا عليهم، إنما ذلك مكر بهم واستدراج لهم، وإمهال لا إهمال، وسيلقون^(١) غبه عن قريب^(٢).

(٨٦) - ﴿وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾.

قوله تعالى ﴿وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللهِ﴾: هو الأمر بابتداء الإيمان في حق الكافرين، وباللدوام على الإيمان في حق المؤمنين، وأمر بالإخلاص في حق المنافقين. قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ﴾: أي: جاهدوا الكفار مبايعين^(٣) لرسوله. قوله تعالى: ﴿اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما ومقاتل والحسن: أي: أولو الغنى^(٤).

وقال ابن كيسان: وهو الكثير المنظور إليهم^(٥).

وقيل: الطول: العدة التي يُمكن بها من مطاولة الأعداء.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾: أي: دعنا^(٦) نقعد مع المتخلفين.

(١) في (ر): «وسيقولون»، وفي (ف): «وسيطوقون»، والمثبت من «اللطف»، ولعل ما في (أ) محرف عنه.

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٥١).

(٣) في (ف): «متابعين».

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦١٦) عن ابن عباس، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٥٨)،

وذكره الواحدي في «البيسط» (١٠/ ٥٨٥) عنه وعن الحسن. وانظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ١٨٨).

(٥) ذكره الواحدي في «البيسط» (١٠/ ٥٨٥) بلفظ: (الكبراء المنظور...).

(٦) في (أ): «ذرنا».

(٨٧) - ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُوهُ﴾.

قوله تعالى: ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾: أي: النساء المتخلفات، والفواعل^(١) جمع الإناث.

وقيل: معناه: مع الخِساس، من قولهم: فلانٌ خالفه أهله، إذا كان دونهم في أسباب الفضل، وهذا تعبيرٌ لهم وذمٌّ.

قوله تعالى: ﴿وُطِبِ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾: أي: خُتم عليها فخذلوا لاختيارهم الكفر والنفاق.

قوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُوهُ﴾: قيل: لا يعلمون.

قال الضحاك: أي: لا يقبلون أمر الله^(٢)، وهذا كقوله: ﴿مَانَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا نَقُولُ﴾ [هود: ٩١]؛ أي: لا نقبل.

قال الإمام أبو منصور: الفقه: معرفة الشيء بمعناه الدال على نظيره، ومنعهم الطبع أن يعرفوا الأشياء^(٣) بمعانيها ونظائرها للحجاب الذي وقع، فإن الإيمان نورٌ تبصر به عواقب الأمور، وتُرفع الستور عن القلوب، والكفر ظلمةٌ تستر ذلك^(٤).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: تعلل أولو السعة وركنوا إلى اختيار الدعة، وقعدوا عن بساط العبادة، ورضوا بالتعريج في ميدان التفرقة، ولو أنهم رجعوا إلى الله بصدق الندم لقابلهم بالفضل والكرم، ولكن القضاء غالبٌ والتكلف ساقط^(٥).

(١) في (ف): «والقواعد».

(٢) ذكره الواحدي في «البيسط» (٥٨٦/١٠) وتحرف فيه «يقبلون» إلى: (يعلمون).

(٣) في (أ): «الأسباب»، والمثبت من (ف) و«التأويلات».

(٤) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤٤٣/٥).

(٥) في (ف): «والتكلف ساقط» والمثبت من (أ) و«اللطائف». انظر: «لطائف الإشارات» (٥٢/٢).

(٨٨) - ﴿لَنَكِينُ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَنَكِينُ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾: وهو صفةُ الرسول عليه الصلاة والسلام والمخلصين الذين معه، بخلافِ صفة أولئك المنافقين.

قوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾: أي^(١): المنافعُ والمحاسن في الدارين: من الأمن، والثناء الحسن، والصحبة مع رسول الله ﷺ في المغازي وإصابة المغنم، وصلاة النبي عليه السلام عليهم، والقيام على قبورهم، وفي الآخرة بالكرامات الموعودة في الجنة.

قوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: الفائزون بكلِّ مطلوب والبالغون في أنفسهم وأعدائهم كلِّ مأمول.

(٨٩) - ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.
قوله تعالى: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾: وهذا ظاهر.

(٩٠) - ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾: يقال: اعتذرتُ إلى

(١) في (أ): «أي مع».

فلان؛ أي: تكلمت بالعدر، فعذرني - بالتخفيف - أي: قبل عذري، وأعذرت^(١) إليه؛ أي: أقمْتُ العذرَ الصحيح على أمري، وعذرتُ - بالتشديد - أي: أتيتُ بما هو صورةُ العذر ولا عذرَ لي فيه حقيقةً.

والآية قرئت بقراءتين: بالتخفيف وهي قراءة ابن عباس^(٢)، وبالتشديد وهي قراءة سائر الناس.

وبالتخفيف إخبارٌ عن قوم أتوا بالعدر الصحيح فعُذروا، وبالتشديد إخبارٌ عن أعراب تكلموا بالعدر ولا عذر لهم فلم يُعذروا، وفي الآية ذمٌ لهم.

وجملته: أن نزول السورة في الجهاد، وصار الناس على أصناف:

منافقو أهل المدينة: وقد ذكرهم في قوله: ﴿اسْتَعِذْكَ أَوْ لَوْ أَلْطَوُلَ مِنْهُمْ﴾.

والمخلصون: وذكرهم في قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾.

وأعراب أهل البادية من لهم عذر حقيقة أو لا عذر لهم، وذكرهم الله في قوله:

﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ﴾ من الأعراب على القراءتين.

وآخرون من الأعراب تخلّفوا من غير استئذان، وذكرهم في قوله تعالى:

﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾؛ أي: أظهروا الإيمان بالله ورسوله وهم كافرون في

الباطن، فقد كذبوا بذلك الله ورسوله.

وقيل إنهم بايعوا رسول الله ﷺ على الجهاد ثم تخلّفوا عن هذه الغزوة، فقد

كذبوا الله ورسوله فيما قالوا في تلك البيعة.

(١) في (أ) و(ف): «واعذرت»، والصواب المثبت.

(٢) كما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٩)، وهي قراءة يعقوب من العشرة كما في «النشر»

(٢/ ٢٨٠)، ورواية عن الكسائي - في غير المشهور عنه - كما في «جامع البيان» للداني (٢/ ١٨٢).

وقيل: لَمَّا دعاهم رسول الله ﷺ إلى هذه الغزوة قالوا: نستعدُّ^(١) ونلحقُ بك، فلم يفعلوا فذلك كذبهم.

قوله تعالى: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: في الدنيا والآخرة بكفرهم وكذبهم، ولم يقل: سيصيبهم، [ليدلَّ على أن من أهل النفاق من قد آمن، وأن من تاب يُقبل ذلك منه]^(٢) [فيكون قوله]: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية لمن مات منهم على الكفر ولم يخلص، دون من تاب وأخلص.

وقوم آخرون^(٣) من ضعفاء المسلمين لم يكن لهم عُدَّةٌ فجاءوا واستعانوا، فذلك قوله تعالى:

(٩١) - ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ﴾:

فالضعفاء: هم الذين لا قوة لهم بسبب كبر سنٍّ أو زمانةٍ أو عرجٍ أو عمى.

والمرضى: الذين بهم علةٌ يرجى زوالها إلا أنه في الحال لا طاقةٌ بهم.

والذين لا يجدون ما ينفقون: هم الفقراء.

فهؤلاء لا حرج عليهم؛ أي: لم يضيق الله تعالى عليهم بالقعود بل وسَّعه عليهم.

(١) في (ف): «نستعد».

(٢) ما بين معكوفتين من «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٤٤٥)، والكلام فيه بنحوه، وما جاء بعده بين معكوفتين زدناه ليستقيم السياق.

(٣) في (ف): «وهم قوم» بدل: «وقوم آخرون»، والمثبت من (أ)، وهو الموافق لما في «تفسير ابن كمال باشا» عند هذه الآية.

قوله: ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: أي: لم يثبُطوا غيرهم من المومنين والأصحاء عن الخروج، ولم يوهموهم أن قعودهم كان لجواز التخلف لكل من أَرادَه، بل يَبْنُوا سبب تخلفهم، وحرصوا القادرين عليهم^(١)، وقاموا بأسبابهم عند خروجهم وأسباب من خلفوهم بالمعونة.

قوله تعالى: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾: وهم هؤلاء ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: يغفر لهم تخلفهم، ويرحمهم بإزالة الحرج عنهم.

(٩٢) - ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَحِمْكُمْ عَلَيْهِمْ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَحِدُّوا مَا يُنْفِقُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾: أي: ولا حرج أيضاً على الأصحاء^(٢) الذين لا يستطيعون المشي ويحتاجون إلى المركب، وجاؤوك يا محمد وسألوك أن تعطيتهم مراكب تحملهم عليها، وقد حمل الأمير فلاناً؛ أي: أعطاه مركباً. قوله تعالى: ﴿قُلْتَ لَا أَحِمْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾: أي: قد فرقت ما كان عندي على الناس فلم يبق شيء أهيب به مراكبكم.

قوله تعالى: ﴿تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَحِدُّوا مَا يُنْفِقُونَ﴾: أي: انصرفوا من عندك وهم ييكون تأسفاً على فوت صحبتك وتخلفهم عنك، وهذه أمانة إخلاصهم وقعودهم بالعدر، وشدة شوقهم إلى لقاء رسول الله ﷺ وتحسرهم على فوت ثواب الجهاد.

(١) في النسخ: «عليهم» والصواب المثبت. انظر: «تفسير ابن كمال باشا» عند هذه الآية.

(٢) في (أ): «المرضى». والمثبت من (ف)، وهو الموافق لما في «تفسير ابن كمال باشا» عند هذه الآية.

واختلفوا فيمن نزلت فيهم هذه الآية:

قال مجاهد: في نفرٍ من مُزينة^(١)، وهم مَعْقِلُ بْنُ مَقْرِنٍ والنعمانُ بن مقرن^(٢).

وقال مقاتل: نزلت في سبعة نفرٍ من جُهينةَ ومُزينةَ وبني عُذرة^(٣): عمرو بن خيثمة^(٤) من بني عمرو بن عوف، وعُلبةُ بن زيد أخو بني حارثة^(٥)، وعمرو بن حزم من بني واقف^(٦)، وسالم بن عمير وعبد الرحمن بن كعب وهو أبو ليلي من بني

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٦٢٥ / ١١) بلفظ: (هم بنو مقرن من مزينة)، قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٧١ / ٣)، والقرطبي في «تفسيره» (٣٣٣ / ١٠): وعلى هذا جمهور المفسرين. وانظر التعليق الآتي.

(٢) «والنعمان بن مقرن» من (ف)، وفي الاختصار على اسم أو اثنين نظر، فقد كانوا سبعة إخوة هاجروا وصحبوا النبي ﷺ، ولم يشاركهم في هذه المكربة غيرهم، وهم: النعمان، ومَعْقِلُ، وعَقِيلُ، وسويدٌ، وسنانٌ، وعبد الله، وعبد الرحمن. انظر: «الاستيعاب» (١٤٣٢ / ٣)، و«تفسير القرطبي» (٣٣٣ / ١٠)، و«تجريد أسماء الصحابة» للذهبي (٣٣٦ / ١) و(٣٥٦)، و«القاموس» (مادة: قرن).

(٣) قوله: «من جُهينة ومزينة وبني عُذرة» ليس في «تفسير مقاتل».

(٤) في (أ): «خيثم»، والمثبت من (ف)، ولم أقف على أي منهما. وفي «تفسير مقاتل»: (عمرو بن عبسة)، وفي نسخة منه: (عمرو بن غنمة)، وقد ذكر غيره عمرو بن غنمة في البكائين، لكن من بني سلمة لا من بني عمرو بن عوف، وذكر من بني عمرو بن عوف: سالم بن عمير. رواه الطبري في «تفسيره» (٦٢٦ / ١١) عن محمد بن كعب وغيره.

(٥) في (أ) و(ف): «وعلبة بن زيد بن حارثة»، ووقع في اسمه في «تفسير مقاتل» تحريف كثير، والصواب المثبت. انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٥١٨ / ٢)، و«الاستيعاب» (١٢٤٥ / ٣)، و«الإصابة» (٥٤٦ / ٤)، وغيرها. قال الحافظ: علبة بضم أوله وسكون اللام بعدها موحدة، ابن زيد بن عمرو بن زيد بن جشم بن حارثة بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس الأنصاري الأوسي. ذكره ابن إسحاق وابن حبيب في «المحبر» في البكاءين في غزوة تبوك... إلى آخر ما قال.

(٦) في «تفسير مقاتل»: (وعمر بن حزام من بني سلمة)، وفي خبر محمد بن كعب وغيره المتقدم: (ومن بني واقف: هرمي بن عمرو). وفيه وفي غيره ممن ذكر اختلاف كثير في كتب السيرة والتفسير.

النجار، وعمرو بن خزيمة من بني سلمة، هؤلاء الستة هم من الأنصار، وعبد الله بن المغفل المزني، أتوا النبي عليه السلام فقالوا: احملنا فإننا لا نجد ما نخرج عليه، فقال: «لا أجد ما أحملكم» فانصرفوا ييكون^(١).

وقال الحسن: نزلت في أبي موسى الأشعري وأصحابه^(٢).

وقيل: هم معقل بن يسار، وصخر بن سلمان، وعبد الله بن كعب، وسالم بن عمر، وثعلبة بن عثمة؛ كلهم من الأنصار، وعبد الله بن المغفل وصخر بن خنساء. وقال قتادة: نزلت في عائذ بن عمرو وغيره^(٣).

قال أبو مسعود الأنصاري: جاء رجل إلى رسول الله عليه السلام فقال: احملني، فقال: «ليس لي ما أحملك، ائت فلاناً فإنه يحملك»، فأتاه فحمله، فأخبر رسول الله بذلك، فقال رسول الله عليه السلام: «مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَهُ»^(٤). وقال الحسن: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ﴾ هي في عبد الله بن أم مكتوم وأصحابه^(٥).

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (١٨٩/٢ - ١٩٠).

(٢) ذكره الواحدي في «البيسط» (٥٩٥/١٠). وانظر حديث أبي موسى رضي الله عنه في «صحيح البخاري» (٣١٣٣)، و«صحيح مسلم» (١٦٤٩).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٦٢٣/١١) دون كلمة: «وغيره». وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨١/٥) وفيه: (وأصحابه).

(٤) رواه أبو داود (٥١٢٩).

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨١/٥) عن الضحاك. وروى ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٨٦١/٦) عن زيد بن ثابت قال: كنت أكتب لرسول الله ﷺ فكنت أكتب براءة، فإني لو اضع القلم على أذني إذ أمرنا بالقتال، فجعل رسول الله ﷺ ينظر ما عليه إذ جاءه أعمى فقال: كيف بي يا رسول الله وأنا أعمى؟ فنزلت: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى﴾.

(٩٣) - ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾: أي: سبيل اللوم والعتاب والعقاب ﴿عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾: ومعنى التكرير المبالغة في التقرير.
وكذلك قوله: ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

(٩٤) - ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾: أي: يعتذر إليك هؤلاء المنافقون المتخلفون إذا رجعتُم إلى المدينة التي فيها مساكنكم ومساكنهم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ﴾: أي: لا تقبلوا عذرهم وقولوا لهم: لا تتكلموا بالعذر ﴿لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ﴾؛ أي: فإننا لا نصدِّقكم.

قوله تعالى: ﴿قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾: أي: قد عرفنا الله^(١) إضماركم عداوتنا وكذبكم في معاذيركم.

وقوله تعالى: ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾:

قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: إن عملتُم خيراً وتبئتم إلى الله من تخلفكم فسيرى الله عملكم ورسوله فيما تستأنفون، ثم ترجعون ﴿إِلَىٰ عِلِّيِّمِ الْغَيْبِ

(١) هنا نهاية الخرم في (ر).

وَالشَّهَدَةَ ﴿١﴾؛ أَي: إِلَى جِزَاءِ اللَّهِ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ، فَيُخْبِرُكُمْ بِمَا عَمِلْتُمْ وَيَجْزِيكُمْ عَلَى ذَلِكَ ^(١)، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [التوبة: ٧٤].

(٩٥) - ﴿سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِعُرْضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَا وَدَّعَهُمْ جَهَنَّمَ جَزَاءً لِّمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِعُرْضُوا عَنْهُمْ﴾: أَي: إِعْرَاضَ صَفْحِ ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾؛ أَي: إِعْرَاضَ مَقْتٍ، وَأَظْهِرُوا لَهُمُ الْاسْتِخْفَافَ بِهِمْ، وَعَرَّفُوهُمْ أَنَّ إِقْرَارَهُمْ أَوْضَعُ مِنْ أَنْ يَصْلَحُوا لِصَحْبَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُمْ رَجِسٌ﴾: أَي: أَتَجَاسُّ نَجَاسَةً كُفْرًا وَنِفَاقًا.

وَقِيلَ: هُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة: ٤٧].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا وَدَّعَهُمْ جَهَنَّمَ جَزَاءً لِّمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾: وَإِنْ لَمْ تُجَازِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَصَفَحَتْ عَنْهُمْ.

(٩٦) - ﴿يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِرِضْوَانِهِمْ فَإِنْ تَرَضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِرِضْوَانِهِمْ فَإِنْ تَرَضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾: أَي: يَلْتَمِسُ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ الْمُتَخَلِّفُونَ بِحِلْفِهِمْ أَنْ يُرْضَوْكُمْ وَتَطْيِبَ قُلُوبُكُمْ لَهُمْ، فَلَا تَرْضَوْا عَنْهُمْ، وَإِنْ أَعْرَضْتَ عَنْ عَقُوبَتِهِمْ عَلَى تَخَلُّفِهِمْ،

ولكن أبغضوهم بقلوبكم ساخطين معاملاتهم إياكم^(١)، فإن الله لا يرضى عنهم لعلمه بكذبهم وفسقتهم، ومأوى الفاسقين النار، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيهِمُ النَّارُ﴾ [السجدة: ٢٠].

قال الإمام القشيري رحمه الله: مَنْ كان مسخوطَ الحق لا ينفعه أن يكون مرضيَّ الخلق، وليست العبرة بقول غير الله، إنما المدارُّ على ما سبق من السعادة في حُكم الله^(٢).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: سَمِيَ اللهُ الكفارَ والمنافقين فاسقين في آياتٍ وإن كان اسم الكافر والمنافق أبلغَ في الذمِّ من اسم الفاسق؛ لأن اسم الفاسق يأنفُ منه كلُّ ذي دينٍ، فإنه خروجٌ عما يدينُ به، فأخبر الله تعالى أنهم مع تدينهم بالباطل فاسقون في معاملاتهم، خارجون عن دياناتهم، مستوجبون لمذمَّاتهم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في جدِّ بن قيس ومعتب بن قشير، وكانوا ثمانين رجلاً^(٣).

وقال مقاتل: نزلت في عبد الله بن أبيٍّ لعنه الله، وذلك أنه حلف للنبي ﷺ بالله الذي لا إله إلا هو لا يتخلف عنه ويكوننَّ معه على عدوِّه، وطلب إلى النبي ﷺ أن يرضى عنه، فنزلت الآية^(٤)، وحلف عبد الله بن أبي سرح لعمر بن الخطاب أن يرضى

(١) قوله: «وإن أعرضت عن عقوبتهم على تخلفهم، ولكن أبغضوهم بقلوبكم ساخطين معاملاتهم إياكم»، كذا وقع في النسخ، ولعل الصواب التبديل بين الجملتين؛ أي: «ولكن أبغضوهم بقلوبكم ساخطين معاملاتهم إياكم، وإن أعرضت عن عقوبتهم على تخلفهم».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (٥٦/٢).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨٢/٥)، والبغوي في «تفسيره» (٨٥/٤).

(٤) «فنزلت الآية» من (ر)، وليست في (أ) و(ف)، وفي «تفسير مقاتل» بدلاً منها: (يقول الله: ﴿فَإِنْ تَرَضَوْا عَنْهُمْ﴾ يعني: عن المنافقين المتخلفين ﴿فَإِنْ تَرَضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾).

عنه فنزلت الآية، وقال النبي ﷺ حين قدم المدينة «لا تجالسوهم ولا تكلموهم»^(١).

(٩٧) - ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾: يتصل بما سبق: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ [التوبة: ٩٠].

أي: سكان البوادي إذا كانوا كفاراً أو منافقين فهم أشدُّ كفراً ونفاقاً؛ لبعدهم عن رسول الله ﷺ، وغيبتهم عن مجالسته، وقلة ما يَرِدُ عليهم من مواعظ القرآن، فهم بذلك أحرى أن يجهلوا حدود العبادات والشرائع المنزلة من الله على رسوله.

وقيل: الحدود: الأوامر والنواهي؛ قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩]، ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧].

وهو ﴿عَلِيمٌ﴾ بسرائر المؤمنين والكفار والمنافقين ﴿حَكِيمٌ﴾ في تعريف أوليائه ذلك ليميزوا بين الأولياء والأعداء، وحكيم أيضاً في كل ما يأمر به في حق كل طبقة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في أعاريب أسدٍ وغطفانٍ ومن حوالي المدينة منهم^(٢).

﴿وَأَجْدَرُ﴾؛ أي: أحرى ﴿أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ من فرائضه في كتابه.

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (١٩١/٢). وقول النبي ﷺ: «لا تجالسوهم ولا تكلموهم» رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٨٦٥/٦) عن السدي مرسلًا.

(٢) ذكره الواحدي في «البيسط» (١٠/١١). ورواه أبو الشيخ كما في «الدر المنثور» (٢٦٦/٤) عن الكلبي، فلعله مما روي من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

وقال الضحاك: هم أعرابُ بني أسدٍ وبني تميم.

وقال مقاتل: هم أعرابُ مُزينة^(١).

وقال ابن كيسان: ﴿وَأَجْدَرُ أَنْ يَعْلَمُوا﴾ حَجَّجَ الله وتوحيده وتثبیت رسالته رسولهُ^(٢)؛ لأنهم لا ينظرون فيها ولا يعلمونها.

وقال يمانُ بن رثاب: حدودُه: الحرام والحلال^(٣).

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما يسرون ﴿حَكِيمٌ﴾ في احتجاجه.

(٩٨) - ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا﴾: أي: ومن هؤلاء الأعراب من يُعَدُّ ما أنفق في نائبة أو وجهٍ برٍّ وصدقةٍ - كان النبي ﷺ يبعث الناس عليها^(٤) - أو في تجهيز غازٍ غرامةً، ولا يفعله حسبة^(٥)؛ لأنه لا يؤمن بالله ولا يصدق بالبعث والجزاء، ولا ينال به^(٦) عوضاً في الدنيا، ولا يخاف عقوبةً في الإساءة.

وقوله تعالى: ﴿وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾: أي: ينتظر بكم الحوادث.

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (١٩١/٢).

(٢) في (أ): «رسالة رسله»، وفي (ف): «رسالته»، والمثبت من «السيط» للواحد، والكلام منه.

(٣) ذكر القولين الواحد في «السيط» (١١/١٥).

(٤) «كان النبي ﷺ يبعث الناس عليها» ليست في (أ) و(ف).

(٥) في (ر) و(ف): «حسنة».

(٦) في (أ): «يتألى به» وفي (ر) و(ف): «يناله به»، والمثبت هو الأنسب بالسياق.

قال يمان بن رثاب: أي: ينتظر أن تنقلب الأمور عليكم فيموت الرسول ويظهر عليكم المشركون^(١).

وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾: أي: عليهم يدور البلاء والخزي، فلا يرون في محمد ودينه إلا ما يسوءهم.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿دائرة السَّوْءِ﴾ بضم السين والباقون بفتحها^(٢).

قال الكسائي: مَنْ ضَمَّ السين أراد بالسوء البلاء والشدة وهو إضافة، وَمَنْ فَتَحَ السين جعل السوء نعتاً للدائرة، فيكون كقولك: رجلٌ سَوٌّ وامرأةٌ سَوٌّ.

قال الإمام القشيري رحمه الله: خُبْتُ عقائدهم فانظروا للمسلمين ما تمنّوه من حلول المحن بهم، فأبى الله إلا أن يحيق بهم مكرهم، وقد قيل في المثل: إذا حَفَرْتَ لأخيك فوسَّع، فربما يكون ذلك مقيلك^(٣).

ويقال: مَنْ نظر إلى ورائه لم يوفَّق في كثير من تدبيره ورأيه^(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾: أي: لمقالاتهم^(٥) ﴿عَلِيْمٌ﴾؛ أي: بنياتهم.

(٩٩) - ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتَخَذُوا مَائِنَفِمْ قُرَيْبٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

(١) ذكره الواحدي في «البيسط» (١١/١٦)، والبغوي في «تفسيره» (٤/٨٦).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣١٦)، و«التيسير» (ص: ١١٩).

(٣) في (ر): «مقتلك».

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/٥٧).

(٥) في (ف): «لمقاتلهم».

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: أي: ومن هؤلاء الأعراب من يخالفهم في الصفة، و﴿مَنْ﴾ للجمع هاهنا لأنه جنس؛ أي: ليسوا بكفار ولا منافقين، بل هم مؤمنون بالله واليوم الآخر مصدقون بالبعث والجزاء.

وقوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذُوا يَنْفِقُ قُرْبَتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾: أي: ينفقون في سبيل الله ببعث رسول الله ويرونه قربة؛ أي: طاعة مقربة إلى رحمة الله، يرجع إليهم ثوابها، وينالون بها الدرجات في الآخرة، ويكتسبون^(١) بها صلوات الرسول: وهو دعاؤه المتبرك به، واستغفاره المرجو إجابته.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾: أي: لهم^(٢) ما نؤوا ورجوا.

وقوله تعالى: ﴿سَيَدْخُلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: في جنته^(٣).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: أي: يغفر ذنوبهم ويكفرها بهذه النفقات، ويرحمهم ولا يجزيهم بالعقوبات.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هم من أسلم من أعراب أسد وجهينة وغفار وأسلم^(٤).

وقال مجاهد: هم بنو مقرن من مزينة.

قال القشيري رحمه الله: تنوعوا فمنهم من غش فلم يربح، ومنهم من نصح فلم

(١) في (ف): «ويكسبون».

(٢) «لهم» زيادة من (ف).

(٣) ذكره الواحدي في «البيوط» (١١/٢٢ - ٢٣).

(٤) ذكره الواحدي في «البيوط» (١١/١٩).

يخسر، فأما الذين مدَّقوا^(١) فهم في مهواة هوانهم، وأما الذين صدَّقوا فهم في روح إحسانهم^(٢).

(١٠٠) - ﴿وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾:

وانتظامها بما قبلها: أن الله تعالى ذكر من أول السورة إلى هاهنا أقسام الكفار، وهم ثلاثة: أهل الشرك، وأهل الكتاب، وأهل النفاق^(٣)، وقد ذكرهم على الترتيب إلى هاهنا، ثم ذكر أقسام المؤمنين وهم ثلاثة: المطيعون، والعاصون التائبون، والعاصون المصرون، أما المطيعون فهو قوله: ﴿وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ وهو ابتداءً وجوابه: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ إلى آخر الآية.

وقال الكلبي: هم الذين سبقوا إلى الإيمان والهجرة والجهاد والنصرة ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ﴾ هم الذين جاؤوا بعدهم وعملوا عملهم إلى قيام الساعة.

فعلى قوله: الآية تتناول جميع المهاجرين: وهم الذين هجروا أوطانهم بمكة ورحلوا مع رسول الله ﷺ إلى المدينة، وجميع الأنصار: وهم أهل المدينة سُمُوا به للنصرة، والمهاجرون أيضاً نصرُوا رسول الله ﷺ، لكنَّ اختصاص^(٤) أهل المدينة

(١) في (ر) و(ف): «مرقوا»، والمثبت من (أ) و«اللطائف».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٥٧).

(٣) في (أ): «والمنافقون» بدل: «وأهل النفاق».

(٤) في (ر) و(ف): «ولذلك اختصاص».

بهذا الاسم لِمَا أَنَّهُمْ نَصَرُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ والمهاجرين معه لِمَا جَاءُواهُمْ، فَأَوْوَهُمْ وَنَصَرُوهُمْ، ثُمَّ اجْتَمَعُوا جَمِيعاً عَلَى نَصْرَةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْغَزَوَاتِ.

وقوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُهَجْرِينَ﴾ ليس للتبعيض على هذا القول بل للتجنيس.

﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ﴾: هم جميع متبعيهم بالإحسان في كل عصر وزمان.

والإحسان: قيل: هو الإخلاص؛ كما قال تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ

مُحْسِنٌ﴾ [البقرة: ١١٢].

وقال النبي ﷺ: «الإحسانُ أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(١).

وقيل: هو إحسان العمل.

وقيل: هو الإحسان إلى الناس.

وقيل: الآية خاصة في السابقين من جملتهم، و﴿مِنَ﴾ للتبعيض واختلف

في ذلك:

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هم الذين صلّوا إلى القبلتين وشهدوا بدرًا^(٢).

وقال الشعبي: مَنْ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ مِنَ الْحَدِيثَةِ فَهُوَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ

الأوليين^(٣).

(١) رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) لم أجده عن ابن عباس، ورواه الطبري في «تفسيره» (٦٣٩/١١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره»

(١٨٦٨/٦)، عن سعيد بن المسيب. وليس عند الطبري: (وشهدوا بدرًا)، ورواه دون هذه العبارة أيضاً

الطبري في «تفسيره» (٦٣٨/١١ - ٦٤٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٨٦٨/٦)، عن أبي موسى

الأشعري وابن سيرين وقتادة. وزاد ابن أبي حاتم نسبته للشعبي - في إحدى الروايات عنه - والحسن.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٦٣٧/١١ - ٦٣٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٨٦٨/٦).

وقال عطاء: هم أهل العقبة السبعون^(١).

وقيل: هم السابقون من أهل كل قبيلة إلى الإسلام وإلى العلم وإلى القرآن^(٢) وإلى الشهادة.

وقرأ الحسن وسلام ويعقوب: ﴿وَالْأَنْصَارُ﴾ بالرفع عطفاً على قوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ﴾^(٣)، ويكون السبق صفةً للمهاجرين خاصة.

وقراءة العامة بالخفض عطفاً على ﴿الْمُهَاجِرِينَ﴾ والسبق صفةٌ لهم جميعاً، سبق أولئك بالهجرة وسبق هؤلاء بالنصرة.

وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (الذين اتبعوهم بإحسان) بغير واوٍ نعتاً لـ ﴿الْأَنْصَارِ﴾ بأنهم اتبعوا المهاجرين بإحسان.

وروي عنه أنه سمع رجلاً يقرأ: ﴿وَالَّذِينَ﴾ بالواو فقال: مَنْ أقرأك هذا؟ قال: أبيُّ بن كعب، فسأل عنه أبيّاً، فقال: أقرأني رسول الله ﷺ، قال أبيُّ رضي الله عنه: وتصديق ذلك في سورة الجمعة: ﴿وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لِمَا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ [الجمعة: ٣]^(٤).

(١) لم أجده عن عطاء، وذكره الواحدي في «البيسط» (٢٣/١١ - ٢٤) عن ابن عباس وغيره بلفظ: سَبَّاقُ الْأَنْصَارِ أهل بيعة العقبة الأولى وكانوا سبعة، والثانية وكانوا سبعين، والذين آمنوا بالمدينة حين قدم عليهم مصعب بن عمير يعلمهم القرآن.

وذكر الماوردي في «النكت والعيون» (٣٩٥/٢)، والواحدي في «البيسط» (٢٣/١١) عن عطاء قوله: هم الذين شهدوا بدرًا.

(٢) «وإلى القرآن» ليست في (ف).

(٣) انظر: «تفسير الثعلبي» (٨٣/٥)، وذكرها ابن خالويه في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٥٩) عن عمر رضي الله عنه والحسن وقتادة ويعقوب. وقراءة يعقوب من العشرة. انظر: «النشر» (٢/٢٨٠).

(٤) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص: ٣٠١)، والطبري في «تفسيره» (١١/٦٤٠ - ٦٤١)، وجاء قول أبيِّ في رواية الطبري: (بلى، تصديق هذه الآية في أول سورة الجمعة: ﴿وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لِمَا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ =

وقال الحسن: قرأ عمر يوماً: (والأنصار الذين اتبعوهم بإحسان) وعنده أبي بن كعب، فقال أبي: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ﴾ يا أمير المؤمنين! فقال عمر^(١): (الذين اتبعوهم بإحسان)، فقال أبي: والله لأقرأنها^(٢) رسول الله ﷺ من فيه إلى في وإنك تبيع القرظ بالبيع، فقال عمر: صدقت، ولئن شئت قلت: شهدنا وغبتم ونصرنا وخذلتهم وآوينا وطردتم، وتابع عمر أبا^(٣).

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قرأ يوماً بغير واو، ف قيل له: هاهنا واو، فقال: هذه الواو عندي خير من الدنيا وما فيها، يعني: ثبوت الشركة للمتأخرين في فضل المتقدمين^(٤).

وقال عطاء: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ﴾ يريد: الذين يذكرون المهاجرين والأنصار بالخير والرحمة والدعاء^(٥)، أشار إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠].

= إلى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، وفي سورة الحشر: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾، وفي الأنفال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَجَرُوا وَجْهَهُمْ عَنْكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾، إلى آخر الآية. قال الألوسي في «تفسيره» (٤٨٤ / ١٠): ومراده أن هذه الآيات تدل على أن التابعين غير الأنصار.

(١) بعدها في (ر): «هم».

(٢) في (ف): «أقرأنها».

(٣) ذكر هذه الرواية الزمخشري في «الكشاف» (٣٠٤ / ٢).

(٤) في (ر): «للمتأخر في فضل المتقدم».

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨٣ / ٥)، وذكره الواحدي في «البيسط» (٢٤ / ١١) من طريق عطاء عن

ابن عباس.

وقوله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾: هذا ظاهر التفسير.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: في الآية دلالة الرد على الروافض؛ لأنهم يجعلون أبا بكر وعمر وهؤلاء ظلمةً وعلى غير الحق بتولية الإمارة والخلافة أبا بكر وعمر وعثمان = لأنه أخبر أن الله تعالى راضٍ عنهم، فدلَّ أنهم كانوا على حقٍّ وصواب، وأن من وصفهم بالظلم والتعدي فهو الظالم والمتعدي.

وفيه دلالة وجوب^(١) تقليد الصحابة رضوان الله عليهم والافتداء بهم؛ لأنه مدح الذين ﴿اتَّبَعُوهُمْ يَحْسَنِينَ﴾ فدلَّ أنهم إذا أخبروا بخبرٍ وقالوا قولاً يجب العمل به ولا يسع تركه^(٢).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: السابقون مختلفون، فمن سابق بصدق قدمه، ومن سابق بصدق^(٣) هممه، والسابق على الحقيقة: من ساعدته القسمة^(٤) بالتوفيق، وأسعدته القضية بالتحقيق، فسبق لهم من الله تعالى رحمته، وسبق^(٥) لهم عنايته.

ويقال: بسبق عنايته بهم سَبَقُوا بطاعتهم له، وبرضاه عنهم وصلوا إلى رضاهم عنه^(٦).

(١) في «التأويلات»: (جواز).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٤٦١).

(٣) في (أ) و(ر): «بصادق».

(٤) في (ر): «العناية».

(٥) في (ر): «وصدق»، وفي (ف): «وصدقت».

(٦) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٥٨).

(١٠١) - ﴿وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى الْإِنْفَاقِ لَا نَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنَعْدُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يَرُدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾.

ثم ذكر بعد ذكر الأنصار - وهم المخلصون من أهل المدينة - المنافقين، وذلك قوله:

﴿وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ﴾ ويتصل هذا بقوله: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾.

وقوله: ﴿وَمَنْ حَوْلَكُمْ﴾؛ أي: حول مدينتكم، وهو المحيط بها.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى الْإِنْفَاقِ﴾: هؤلاء سكانها، ﴿وَمَنْ حَوْلَكُمْ﴾ سكان أطرافها، والذين سبق ذكرهم في قوله تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ سكان البادية.

وقوله تعالى: ﴿مَرَدُوا عَلَى الْإِنْفَاقِ﴾ صفة من في المدينة ومن حولها؛ أي: عتوا وطفغوا وثبتوا عليه، وأعيوا^(١) خبثاً.

وقال مقاتل: ﴿وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ﴾ يعني: جهينة ومزينة وأسلم وغفار وأشجع، كانت منازلهم حول المدينة، ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ عبد الله بن أبي، ومعتب بن قشير، والجلال بن سويد، ووحوح^(٢) بن الأسلت، وأبو عامر بن النعمان الراهب سماه النبي ﷺ: الفاسق.

﴿لَا نَعْلَمُهُمْ﴾: أي: لا تعرف نفاقهم ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾: نحن نعلم نفاقهم ﴿سَنَعْدُهُمْ﴾

(١) في (أ): «وأعتوا».

(٢) في (أ): «ووجوع»، وفي (ر): «ووجوح». والمثبت من (ف) وهو الموافق لما في المصادر. انظر ما تقدم عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، ووقع في المطبوع من «تفسير مقاتل»: (وجوح)، وهو تحريف أيضاً.

مَرَّتَيْنِ ﴿عند الموت بضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم، وفي القبر بمنكرٍ ونكيرٍ﴾ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿في الآخرة (١)﴾.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أول العذابين: بدر، والثاني: عذاب القبر، والثالث: عذاب جهنم (٢).

وقال مقاتل: العذاب الأول: السيف يوم بدر، والثاني: عند الموت، والثالث: في الآخرة (٣).

وقال الكلبي: القتل وعذاب القبر وعذاب النار.

وقال مجاهد: الأول القتل والسبي (٤).

وقال الحسن: الأول: عذاب النبي عليه السلام - يعني: قوله تعالى: ﴿مَلْعُونِينَ﴾ أَيْنَمَا تُقْفَوْا أَخْذُوا وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا ﴿[الأحزاب: ٦١] - والثاني: عذاب القبر (٥)، والعذاب العظيم في الآخرة (٦).

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (١٩٣/٢).

(٢) القول بأن أول العذابين بدر لم أجده عن ابن عباس وسيأتي من قول مقاتل، أما القول بأن العذاب الثاني عذاب القبر فقد رواه الطبري في «تفسيره» (١١/٦٤٤) عن ابن عباس وجمع من الأئمة على اختلاف بينهم في العذاب الأول، والذي عن ابن عباس: أن المرة الأولى فضيحة المنافقين بكشف أسمائهم للناس، والثانية عذاب القبر، وروى في ذلك قصة ستأتي قريباً. وذكر أيضاً عن ابن عباس من وجه غير مرتضى - كما قال -: إحدى المرتين الحدود، والأخرى عذاب القبر.

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/٨٨)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/٤٩٣)، عن مقاتل بن حيان.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/٦٤٥).

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/٨٨) بلفظ: (عذاب النبي وعذاب الله، يعني بعذاب النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿مَلْعُونِينَ﴾ أَيْنَمَا تُقْفَوْا أَخْذُوا وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا ﴿)، ورواه الطبري في «تفسيره» (١١/٦٤٧) بلفظ: ﴿سَنَعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ قال: (عذاب الدنيا وعذاب القبر).

(٦) في (أ): «النار».

وقال عطاء: هم الأوس والخزرج ﴿سَنَعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ الأمراض في الدنيا وعذاب الآخرة، وذلك أن مرض المؤمن كفارة ومرض المنافق عقوبة^(١)، وعلى هذا لا يكون قوله: ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ عذاباً ثالثاً، بل يكون إخباراً عن قدر العذاب في المرة الثانية.

وقال الضحاك: مصائب الدنيا وعذاب الآخرة.

قيل: هو إخراجهم إلى الغزو^(٢) لقتال إخوانهم، وأخذهم بالإنفاق في الجهاد لتقوية أعدائهم على أوليائهم، ثم ما يرون من عز المسلمين وعلو قدرهم وازدياد غيظ أنفسهم بذلك، ثم العذاب العظيم في جهنم.

وقيل: الأول: إخراجهم من المسجد، والثاني: تخريب مسجد الضرار، والعذاب العظيم في الآخرة.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قام رسول الله ﷺ يوم الجمعة فقال: «أخرج يا فلان فأنت منافق، أخرج يا فلان فأنت منافق، أخرج يا فلان فأنت منافق» وأخرجهم من المسجد بأسمائهم وفصحهم، ولم يكن عمرُ شهد تلك الساعة، فلقيهم عمر وهم يخرجون من المسجد فظن أنهم قد صلّوا، فاختبأ منهم حياءً أنه لم يشهد الجمعة، واختبئوا من عمر وظنوا أنه قد علم بأمرهم، فدخل المسجد فإذا الناس لم

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨٨/٥). وذكره الواحدي في «البيسط» (٢٨/١١) من طريق عطاء عن ابن عباس. وليس عندهما عبارة: «الأوس والخزرج»، ولا يظهر لذكرها وجه هنا، بل وردت في بعض التفاسير عند قوله تعالى: ﴿وَمِنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ قال السمعاني في «تفسيره» (٣٤٣/٢): (قوم من الأوس والخزرج)، ومثله في «تفسير البغوي» (٨٩/٤)، وذكره الواحدي في «البيسط» (٢٦/١١) عن ابن عباس.

(٢) في (ف): «العدو».

يُصَلُّوا، فقال له رجل من المسلمين: أبشُر يا عمر فقد فضح الله المنافقين اليوم^(١).
وقيل: ﴿سَعَدَ بِهِمْ مَرَّتَيْنِ﴾ على معنى متابعة العذاب عليهم في الدنيا دون
تعيين العدد، وهو كقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يَرْوُونَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ
مَرَّتَيْنِ﴾ [التوبة: ١٢٦].

وقوله تعالى: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ كان ذلك يومئذ، ثم كشف له أحوالهم بالعلامات،
قال تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]، وبالتعيين أيضاً كما مر.
وقال الإمام القشيري رحمه الله: الأول: ظنهم أنهم على شيء، والثاني: خيبة
آمالهم، والثالث: ظهور ما لم يحتسبوه^(٢).

(١٠٢) - ﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ
عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾: أي: أقرؤا، وهم القسم الثاني من
أقسام المؤمنين الذين ذكرناهم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هذا في أقوام كانوا تخلفوا عن غزوة تبوك لا
على اعتقاد الخلاف، لكن لتأخرهم الاستعداد^(٣) إلى أن فاتهم اللُّحوق بالنبِيِّ عليه
السلام، وكان ذلك منهم ذنباً لا نفاقاً منهم، فندموا على ذلك واعترفوا فتاب الله عليهم.

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١ / ٦٤٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ١٨٧٠)، والطبراني في
«الأوسط» (٧٩٢). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧ / ٣٤): فيه الحسين بن عمرو بن محمد
العنقزي، وهو ضعيف.

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (٢ / ٥٩).

(٣) في (ف): «للاستعداد».

وروي أنهم كانوا ثمانية نفر، وقال الضحاك: سبعة، وقال قتادة: تسعة فيهم أبو لبابة الأنصاري، وهو من أفاضل الصحابة.

وروى حيان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانوا ثلاثة: أبو لبابة بن عبد المنذر، وأوس بن ثعلبة، ووديعه بن حزام، تخلفوا عن رسول الله ﷺ مخرجاً إلى تبوك، فلما بلغهم ما نزل فيمن تخلف عن رسول الله ﷺ أيقنوا بالهلاك، فأوثقوا أنفسهم على سواري المسجد، فلم يزالوا كذلك حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة^(١) فسأل عنهم فذكر له أنهم أقسموا أن لا يحلوا أنفسهم حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يحلهم، وقال رسول الله ﷺ: «وأنا أقسم أن لا أكون أول من حلهم إلا أن أؤمر فيهم بأمر» فلما نزل: ﴿خَاطَبُوا عَمَلًا صَلَاحًا وَآخَرًا سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «إن عسى من الله واجب» فقام إليهم فحلهم، فأتوا نبي الله بأموالهم فقالوا: هذه أموالنا التي خلفتنا عنك فتصدق بها عنا، قال: «ما أمرت فيها بأمر» فنزل: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾^(٢).

وقال قتادة: ذكر أنهم سبعة، وفيهم جد بن قيس وأوس بن حزام وثعلبة بن وديعة وعامر، كلهم من الأنصار^(٣).

وقال الزهري: ربط أبو لبابة نفسه بسارية وحلف لا يحل نفسه ولا يذوق طعاماً

(١) «المدينة» زيادة من (أ).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١ / ٦٥١)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥ / ٢٧١)، وابن مردويه كما في «الكافي الشاف» (ص: ٨٠) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقوله في الخبر: «إن عسى من الله واجب» ليست من كلام النبي ﷺ، بل من كلام ابن عباس رضي الله عنه، وقد رواه عنه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ١٨٧٤).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١١ / ٦٥٣)، وأسماء الأربعة فيه: (جد بن قيس، وأبو لبابة، وحزام، وأوس)، وكذا رواه عنه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ١٨٧٣)، وفي مطبوعه: (حزام) بدل: (حرام).

ولا شرباً حتى يموت أو يتوب الله عليه، فمكث سبعاً كذلك حتى عُشي عليه، ثم تاب الله عليه وحلّه النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله: إن من توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبْتُ فيها الذنب، وأن انخلع من مالي كلّ صدقةً إلى الله تعالى ورسوله، فقال عليه السلام: «يجزيك الثلث»^(١).

وقال سعيد بن جبير: ومن أصحاب أبي لبابة مرداس وكردم وأبو قيس^(٢).

وقال الحسن: هم أبو لبابة مروان بن عبد المنذر وأوس بن خزام ووديعه بن ثعلبة.

وكان سببُ تخلّفهم: أن النبي ﷺ خرج غداة يوم الخميس، وكان قدّم فقراء الصحابة، وكان الأغنياء والأقوياء مع رسول الله ﷺ، وقال أبو لبابة وأصحابه: نمكث اليوم ونلحقُ بهم الليلة، فلما أمسوا ثقل عليهم الشيطانُ الخروج - وكذا من قصر في الطاعة قليلاً سهّل الشيطان عليه كثيراً - فقالوا: نخرج سحراً، فغلبهم النوم، فلما أصبحوا خافوا أن يخرجوا فلا يلحقوا بالنهار بهم وفي الطريق أعداء، فقالوا: نخرج في الليلة القابلة، فلما أمسوا قالوا: بُعدوا علينا^(٣) فلا يمكننا لحوقهم، ففعدوا.

وقوله تعالى: ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾: يقال: خلطتُ الشيءَ بالشيءِ: إذا امتزجا، وخلطتُ الشيءَ والشيءَ - من غير باءٍ -: إذا جمعتَ بينهما فلم يمتزجا، يقال: خلطتُ الماءَ باللبن، وخلطتُ الدراهم والدنانير.

وقال الكلبي: ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا﴾: التوبة ﴿وَأَخْرَسَيْنَا﴾: تقاعدَهم عن القتال.

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١١٢٣)، والطبري في «تفسيره» (١١ / ٦٥٧).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١ / ٦٥٣).

(٣) في (أ): «عنا».

وقال الحسن: ﴿خَاطُوا عَمَلًا صَالِحًا﴾ قيل: هذا خروجهم إلى الجهاد معك
﴿وَأَخْرَسَيْنَا﴾: تخلفهم عن تبوك^(١).

وقيل: خرجوا مرةً وقعدوا مرةً.

وقوله تعالى: ﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ قال الكلبي: ﴿عَسَىٰ﴾ من الله واجب^(٢)؛
أي: هو إطماع، وإطماع الكريم واجب.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ هذا ظاهر.

وقال بعض العلماء: المسيء منّا إلى مخلوق إذا خافه لم يخلّصه من ذلك إلا
شيئان: الإنكار والفرار^(٣)، والمسيء في حقّ الله تعالى لا ينجيه إلا شيئان: الإقرار
والقرار^(٤)، قال قائلهم:

أَقِرُّرْ بِذَنْبِكَ ثُمَّ اطْلُبْ تَجَاوُزَنَا وَاَعْلَمْ بِأَنَّ جُحُودَ الذَّنْبِ ذَنْبَانِ^(٥)

(١٠٣) - ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ
وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ قد رَوَيْنَا أَنَّ أَبَا لِبَابَةَ وَأَصْحَابَهُ لَمَّا تَابَ اللَّهُ

(١) ذكر القولين الواحد في «البيضا» (١١/ ٣١ - ٣٢).

(٢) تقدم قريباً عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) في (ر) و(ف): «والإقرار».

(٤) في (ر) و(ف): «والفرار».

(٥) ذكره دون نسبة الثعلبي في «تفسيره» (٣/ ١٧٠)، والثعلبي في «المتحل» (ص: ١١٥)، والراغب

في «محاضرات الأدباء» (١/ ٢٨٥).

تعالى عليهم جاؤوا بأموالهم إلى رسول الله ﷺ ليتصدق بها كفارةً لذنوبهم وشكراً لِمَا أنعم الله عليهم من قبول التوبة فقال عليه السلام: «لم أؤمر فيها بأمر» فنزلت الآية. ﴿وَمَنْ﴾ للتبعض، وقد روينا أنه أخذ الثلث.

وقوله تعالى: ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾: التاء لخطاب النبي ﷺ؛ أي: تطهر نفوسهم من الذنوب بها.

قوله تعالى: ﴿وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾: أي: يحصل لهم الثناء الحسن والرفعة بها، بالإضافة إلى النبي ﷺ بطريق التسبيب.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: أي: ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ من الآثام ﴿وَتُزَكِّيهِمْ﴾ من البخل والمنع وأخلاق اللئام^(١).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: أي: ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ من طلب الأعواض عليها ﴿وَتُزَكِّيهِمْ﴾ من ملاحظتهم إياها.

﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ عن شح نفوسهم ﴿وَتُزَكِّيهِمْ﴾ بأن لا يتكثروا^(٢) بأموالهم، بل يتعززون بالتجرد عنها، ويرون عظيم مئة الله عليهم بوجدان التجرد منها^(٣).

ثم اختلف أن هذه الصدقة ما هي:

قيل: صدقة نفل، والكلام مبتدأ غير مرتبط بشيء.

وقيل: هي صدقة حث النبي ﷺ عليها يوم الخروج إلى تبوك، وهي ما قلنا في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة: ٧٩] فيرتبط هذا بذلك، والآيات نزلت في هذه القصة.

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤٦٦/٥).

(٢) في (ف) و(أ): «يتكبروا». وفي «اللطائف»: (يتكاثروا).

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (٦٠/٢).

وقيل: هي صدقة أبي لبابة والمتخلفين، والآية تتصل بالآية التي قبلها.

وقيل: هي الزكاة، ويدل عليه ما روي في قصة ثعلبة في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ﴾ وأن هذه الآيات لما نزلت بعث النبي ﷺ المصدقين إلى ثعلبة وغيره. وقوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾: أي: ادع لهم واستغفر.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾: قرأ عاصم في رواية حفص والمفضل وحمزة والكسائي وخلف على التوحيد، والباقون: ﴿صَلَاتِكَ﴾ على الجمع^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: أي: ﴿سَمِيعٌ﴾ دعاءك ﴿عَلِيمٌ﴾ شفقتك. وقيل: ﴿سَمِيعٌ﴾ لما أظهره لك من التوبة ﴿عَلِيمٌ﴾ بصدق نيّاتهم فيه. ومعنى السكن: طمأنينة القلب.

وقيل: كان إذا أتى رجل بصدقته وهو مؤمن مخلص دعا له، وإذا أتى بها منافق لم يدع له، وكان إذا دعا لمن أتى بالصدقة سكن قلبه إلى أنه مخلص. وقيل: لأن^(٢) المؤمن يسكن قلبه بدعاء النبي ﷺ، ولعلمه أنه يستجاب له فيه.

(١٠٤) - ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾: يجوز أن يكون هذا الاستفهام بمعنى الإثبات، ويجوز أن يكون بمعنى الأمر كما في قوله: ﴿أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا﴾.

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣١٧)، و«التيسير» (ص: ١١٩).

(٢) في (أ): «إن».

وقوله تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾: أي: عن عباده كلهم إذا أخلصوا، ويأخذ كل^(١) الصدقات؛ أي: يقبلها ويثيب عليها.

وقيل: جعل الله أخذ النبي ﷺ أخذاً له تشريعاً^(٢) للنبي عليه السلام، وقد روي: «أن الصدقة تقع في يد الله تعالى قبل أن تقع في يد السائل، فيريها كما يري أحدهم فلو»^(٣)، وهذا ترغيب للعباد في فعلها، وبيان أنه قابلها والمثيب عليها والمكثّر قليلها.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾: أي: كثير قبول التوبة ﴿الرَّحِيمُ﴾ بترك^(٤) العقوبة، وهذا وعد لهؤلاء أنه قبل توبتهم ورضي صدقتهم.

(١٠٥) - ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. وَالشَّهَادَةُ فَيَنْتَشُرُ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ.

وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا﴾: أي: قل لهؤلاء التائبين اعملوا الطاعات بعد قبول التوبة وأخذ الصدقة ﴿فَسِيرَى اللَّهِ عَمَلَكُمْ﴾ فيثيبكم عليه ﴿وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ فيعلمون بصدق توبتكم، فيخالطونكم ولا يهاجرونكم^(٥) كما يفعلون بالمنافقين.

(١) «كل» زيادة من (أ).

(٢) في (ف): «تصديقاً».

(٣) رواه البخاري (١٣٤٤)، ومسلم (١٠١٤)، والنسائي (٢٥٢٥)، والترمذي (٦٦١)، وابن ماجه

(١٨٤٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٣٣١٩)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٢٤٢٥)، من حديث

أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) في (أ): «برفع»، وفي (ف): «بفعل».

(٥) في (ف): «يجاهدونكم».

وقوله تعالى: ﴿وَسَرُّدُونَ إِلَىٰ عَلِيمٍ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾: أي: تُرجعون في القيامة إلى جزاء مَنْ يعلم الظاهر والباطن.

﴿فَيَنْتَكِرُ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: أي: يخبركم به ويجزيكم عليه.

وقيل: أي: لا تنظروا إلى قبول التوبة وأخذ الصدقة فتركوا العمل، بل اعملوا ما عشتُم^(١).

وقيل: أي: أصلحوا أعمالكم في المستأنف، واحذروا العود إلى مثل ما كان منكم، فإن النبي عليه السلام والمؤمنين يراعون أعمالكم ولا يخفى عليه ثباتكم على التوبة أو زوالكم عنها، والله عز وجل لا يخفى عليه سرائركم، وهو يُثيبكم^(٢) بأعمالكم ويجزيكم عليها، وهو ترغيب وترهيب.

وقيل: هو خطاب للمنافقين ووعد لهم.

وقيل: هو خطاب للمؤمنين: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَيَسِيرَ اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ فيثيبكم ﴿وَرَسُولُهُ﴾ فيزيكيكم ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ فيشهدوا لكم بالخير.

وروى الإمام أبو منصور رحمه الله: أن النبي ﷺ مروا عليه بجنازة فأتوا عليها فقال عليه السلام: «وَجَبْتُ» قيل: يا رسول الله، وما وَجَبْتُ؟ قال: «الملائكة شهداء الله في السماء، وأنتم شهداء الله في الأرض، فإذا شهدتم وجبت» ثم قرأ النبي ﷺ هذه الآية^(٣)، قال: وفيه دلالة أن إجماع الأمة حجة^(٤).

(١) في (ف): «عسيتم».

(٢) في (ف) و(أ): «ينبتكم».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٦٣٢/٢) من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه. وله شاهد من حديث أنس رواه البخاري (١٣٦٧)، ومسلم (٩٤٩)، دون ذكر تلاوة الآية، ودون قوله: «الملائكة شهداء الله في السماء».

(٤) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/٤٧٢).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: خوَّفهم برؤيته سبحانه وتعالى أعمالهم، فلمَّا علم أن فيهم مَنْ يتقاصرُ حاله عن الاحتشام لا طَّلَاع الحق قال: ﴿وَرَسُولُهُ﴾، ثم قال لمن نزلت رتبته: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾، وقد خسر مَنْ لا يمنعه الحياءُ، وسقط من عين الله مَنْ هتك جلابَبِ الاتِّقاء، وقال عليه السلام: «إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النَّبِوةِ: إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ»^(١) قال الشاعر:

إِذَا قَلَّ مَاءُ الْوَجْهِ قَلَّ حَيَاؤُهُ وَلَا خَيْرَ فِي وَجْهِ إِذَا قَلَّ مَأْوَُهُ^(٢)

(١٠٦) - ﴿وَأَخْرُوتَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَخْرُوتَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾^(٣) قرئ بالهمزة وغير الهمزة^(٤)، ومعناه: مؤخرون موقوفون إلى أن^(٥) يظهر أمر الله فيهم.

وقوله تعالى: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾: قيل: الإرجاء من العباد، فكانت طائفة تقول: إن الله يتوب عليهم كما تاب على أبي لبابة وأشكاله، وطائفة تقول: إن الله يعذبهم ويردُّ توبتهم ويمنع الناس من مكالمتهم ويفرِّق بينهم وبين نسائهم، أو يأمر بقتلهم أو نفيهم، فنزل القرآن بقبول توبتهم: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا﴾ [التوبة: ١١٨].

(١) رواه البخاري (٣٤٨٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٦١).

(٣) في (ف): «وآخرون مرجؤون...»، وهما قراءتان كما سيأتي.

(٤) قرأ بالهمز ابن كثير وأبو بكر وأبو عمرو وابن عامر، والباقون بغير همز. انظر: «السبعة»

(ص: ٢٨٧ - ٢٨٩)، «التيسير» (ص: ١١٩).

(٥) في (أ): «ومعناه مرجون إلى أن»، وفي (ف): «ومعناه مرجون موقوفون إلى أن».

وقيل: الإرجاء كان من الله إذ أخفى أمرهم مدةً ثم بيّن توبتهم على أجمل الوجوه حين قرن توبتهم بتوبته على النبي ﷺ والمهاجرين والأنصار، على ما نذكر في تلك الآية.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَأَخْرُوتُ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ ليقضي فيهم ما هو قاضي^(١).

وهم ثلاثة نفر: كعب بن مالك من بني سلمة، وهلال بن أمية الواقفي، ومُرارة بن الربيع الزبيدي، وكانوا تخلّفوا عن غزوة تبوك وفعلوا كما فعل أبو لبابة وأصحابه، وكانوا مرجئين لأمر الله لا يتولاهم أصحاب رسول الله ﷺ ولا يتبرؤون منهم، حتى نزلت: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا﴾ وكانوا لم يؤثّقوا أنفسهم بالسواري فلم يذروا آيتاب عليهم أم يعذبون^(٢).

وقال الضحاك: كانوا من أفاضل الصحابة مياسير، ولم يتّسع لهم العذر كما اتّسع لأبي لبابة وأصحابه؛ لأنهم لم يبالغوا في التنصّل^(٣) والاعتذار كما فعل أبو لبابة، فأخّر أمرهم^(٤).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: فوقّفهم النبي ﷺ خمسين ليلة، ونهى الناس عن مكالمتهم ومخالطتهم، وأمر نساءهم بالاعتزال منهم، حتى شفّفهم القلق،

(١) ذكره الواحدي في «السيط» (٤٣/١١).

(٢) في (أ): «يعذبون».

(٣) في (ر): «التوبة»، وسقطت الجملة من (ف).

(٤) ذكره الواحدي في «السيط» (٤٢/١١) عن ابن عباس، وفيه بدل «فأخّر أمرهم»: «فوقّف رسول الله

ﷺ أمرهم، ونهى الناس عن مكالمتهم ومخالطتهم، حتى نزل قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا﴾ [التوبة: ١١٨] الآيات بعد خمسين ليلة).

وَنَهَكُهُمُ الْحَزْنَ، وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ؛ لِإِعْرَاضِ النَّاسِ عَنْهُمْ، وَاعْتِزَالِ الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ مِنْهُمْ، وَكَانُوا مِمَّنْ شَهِدُوا بِدِرَآءِ فَتَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بَعْدَ خَمْسِينَ لَيْلَةً^(١).

(١٠٧) - ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا﴾: ذكر جماعة أنهم طائفة من المنافقين بالمدينة كانوا بنوا^(٢) بقرب قُبَاءٍ مسجدًا يعارضون به مسجد النبي ﷺ بقُبَاءٍ، وكانوا اثني عشر رجلاً كلهم من الأوس والخزرج: خِذَام بن خالد، وثعلبة بن حاطب، ومعتب بن قُشَيْرٍ، وأبو حبيبة بن الأزعر، وعَبَاد بن حُنَيْفٍ، وجارية بن عامر، وابناه مجمع بن جارية ويزيد بن جارية، وَنَبْتَل بن الحارث، وَبَحْرَج الصُّبَعِي، وَبِجَاد بن عثمان، ووديعه بن ثابت، وكانوا أتوا النبي ﷺ وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا: يا رسول الله، إِنَّا قَدْ بَنَيْنَا مَسْجِدًا لِّذِي الْعَلَّةِ وَالْحَاجَةِ وَاللَّيْلَةِ الْمَطِيرَةِ وَاللَّيْلَةِ الشَّاتِيَةِ، وَنَحْنُ نَحِبُّ أَنْ تَأْتِيَنَا فَتَصْلِيَ فِيهِ، فَقَالَ: «إِنِّي عَلَى جَنَاحِ سَفَرٍ وَحَالٍ شَغْلٍ، وَلَوْ قَدِمْنَا أَتَيْنَاكُمْ فَصَلَّيْنَا فِيهِ».

فما انصرف رسول الله ﷺ من تبوك حتى نزل بواي بينه وبين المدينة ساعة من نهار، فَأَتَاهُ خَبَرُ الْمَسْجِدِ، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَالِكَ بْنَ الدُّخَشُمِ أَخَا بَنِي سَالِمِ بْنِ عَوْفٍ، وَمَعْنَ بْنَ عَدِيٍّ أَوْ أَخَاهُ عَاصِمَ بْنَ عَدِيٍّ فَقَالَ: «انْطَلِقَا إِلَى هَذَا الْمَسْجِدِ

(١) انظر التعليق السابق. وروى حديثهم مطولاً البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩)، من حديث

كعب بن مالك رضي الله عنه.

(٢) في (ف): «يقيمون».

الظالم أهلُه فاهْدِمَاه وحرِّقَاه»، فهدمَاه وحرِّقَاه، وتفرَّقوا، ونزلت هذه الآية^(١).

ورُوي أنهم بنوه بكتاب أبي عامر بن النعمان - المعروف بالراهب - إليهم، وذلك أن أبا عامر هو الذي حرَّب الأحزاب على رسول الله ﷺ، فلما انصرف المشركون بما انصرفوا به خرج إلى الشام يستنصر قيصرَ على رسول الله ﷺ، فكتب إلى هؤلاء المنافقين يأمرهم ببناء المسجد، وأخبرهم أنه سيظهر على رسول الله ﷺ إذا جاء صلَّى في هذا المسجد، فنزل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا﴾؛ أي: يضارُّون به أهل مسجد رسول الله ﷺ، ولا يقصدون به الخير^(٢).

وقوله عز وجل: ﴿وَكُفْرًا﴾؛ أي: كفرًا منهم بالله لأنهم اتَّخذوه لأبي عامر المشرك، وقصدوا به مخالفة الله والرسول.

وقوله تعالى: ﴿وَتَقَرَّبَآئِكَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: ليصلي بعضهم فيه جاهلاً^(٣) بالحال، فيتفرَّق الناس عن رسول الله ﷺ ولا يتوقَّرون^(٤) في مسجده.

وقوله تعالى: ﴿وَارْصَادًا﴾: أي: إعداداً، وقد أرصد؛ أي: أعدَّ، ورصد؛ أي: ترقَّب.

وقوله تعالى: ﴿لَمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾: أي: أعدَّ^(٥) المسجد لأبي عامر،

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٥٣٠) عن ابن إسحاق، وروى نحوه الطبري في «تفسيره»

(١١/ ٦٧٣) من طريق ابن إسحاق عن الزهري، ويزيد بن رومان، وعبد الله بن أبي بكر، وعاصم بن

عمر بن قتادة.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٦٧٥ - ٦٧٩) عن ابن عباس وجمع من الأئمة.

(٣) في (أ) و(ف): «جاهلين».

(٤) في (أ) و(ر): «يتوقرون».

(٥) في (ر): «أعدوا».

وهو الذي حارب الله ورسوله من قبل؛ أي: من قبل بناء هذا المسجد، يعني: يوم الخندق.
وقوله تعالى: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى﴾: أي: لم نقصد به إلا الرفق بالضعفاء والتسهيل في الشتاء.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾: أي: في قولهم: ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى﴾.
وهذا المعروف بالراهب سماه النبي ﷺ: الفاسق، وكان ترهب في الجاهلية ولبس المُسوح، فلما قدم النبي ﷺ المدينة قال للنبي عليه السلام: ما هذا الذي جئت به؟ قال: «جئت بالحنيفية دين إبراهيم»، قال أبو عامر: فأنا عليها، قال النبي ﷺ: «إنك لست عليها» قال: بلى، ولكنك أدخلت في الحنيفية ما ليس منها، فقال النبي ﷺ: «ما فعلت، ولكنني جئت بها ببيضاء نقية»، فقال أبو عامر: أمات الله الكاذب طريداً وحيداً.
فخرج إلى الشام وأرسل إلى المنافقين: أن استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح، وابنوا لي مسجداً فإني ذاهبٌ إلى قيصر فآتي بجندٍ تخرج محمداً وأصحابه، فمات الفاسق بالشام طريداً وحيداً كما دعا، وابنه حنظلة غسيل الملائكة فاستشهد يوم أحد.
وقال الحسن: لما التمس هؤلاء من النبي ﷺ أن يأتي مسجدهم فيصلّي فيه، فجعل ينتظر الوحي، فجعل لا يأتيهم وأولئك لا يأتونه يفعلون بالصلاة في مسجدهم، فلما طال ذلك عليه دعا بقميصه ليلبسه ويأتيهم، فبينا هو يزوره^(١) عليه إذا بجبريل نزل وأنزل قوله: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾^(٢).

(١) في (ر) و(ف): «فبينما هو يزوره».

(٢) رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١١ / ٦٧٨) عن قتادة.

(١٠٨) - ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾.

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾: أي: لا تقم في مسجد الضرار للصلاة ما عشت، وهو كقوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ وَقَامَهُ»^(١).

وقوله تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ﴾: قيل: هو مسجد رسول الله ﷺ أسس لإحياء دين الله وإظهار معالم شريعته التي لا يقوم بها إلا مَنْ اتقى الله تعالى. قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه وأبي بن كعب رضي الله عنهما: قال النبي ﷺ: «هو مسجدي هذا»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾: أي: أول الأيام إذا ميزت^(٣) يوماً يوماً؛ كما تقول: أعطيت كل رجل في الدار^(٤)؛ أي: كل الرجال إذا ميزوا رجلاً رجلاً.

وقوله تعالى: ﴿أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾: للصلاة من مسجد أسس على غير التقوى، بل ضراراً وكفراً وتفريقاً وإرصاداً، وذلك ليس بحق فكيف يكون هذا أحق؟ قلنا: هو مبالغة، ومعناه: لو كان ذلك حقاً فهذا أحق، فكيف وذاك باطل؟ وقيل: هو مسجد قباء.

وقوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾: أي: مخلصون يحبون أن

(١) رواه أبو داود (١٣٧١)، والترمذي (٦٨٣)، وابن ماجه (١٣٢٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم (١٣٩٨)، والترمذي (٣٠٩٩) وصححه، والنسائي (٦٩٧)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. واللفظ للترمذي والنسائي. ورواه الإمام أحمد في «المسند» (٢١١٠٧)، والحاكم في «المستدرک» (٣٢٨٤) وصححه، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه.

(٣) في (ر): «الأيام التي امتيزت».

(٤) في (ر): «الدراري».

يصلُّوا لله عز وجل متطهّرين بأبلغ الطهارة، لا كأهل مسجد الضّرار الذين يصلّون صورةً لا حقيقةً وهم مدّسّون بالنفاق.

وقيل: هو التطهّر عن الذنوب بالإخلاص لله تعالى.

وعن جابرٍ وأنسٍ وجماعة: أن الآية لما نزلت دعا رسول الله ﷺ أهل مسجد قُباء فقال: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَتَنَى عَلَيْكُمْ بِطُهورِكُمْ، فما طُهورُكُمْ؟» قالوا: إِنَّا نَسْتَنْجِي بالماء، فقال: «فَعَلَيْكُمْوه»^(١).

وقال عطاء: كانوا يستنجون بالماء ولا ينامون بالليل على الجنابة^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾: أي: يحبُّ هؤلاء وَمَنْ فَعَلَ مِثْلَ فِعْلِهِمْ. وقال يزيد بن شجرة: أتت الحمّى رسول الله ﷺ في صورة جارية سوداء، فقال لها رسول الله ﷺ: «مَنْ أَنْتِ؟» قالت: أَنَا أُمُّ مَلْدَمَ، أَنْشَفُ الدَّمَّ، وَأَكُلُ اللَّحْمَ، وَأَصْفَرُّ الْوَجْهَ، وَأَرْقُقُ الْعِظْمَ، فقال النبي ﷺ: «مَرِّي فاقْصِدي الْأَنْصَارَ فَإِنْ لَهُمْ عَلَيْنَا حَقُّوًّا» فَحَمَّ الْأَنْصَارُ، فلما كان من الغد قال: «مَا لِي لَا أَرَى الْأَنْصَارَ؟»، قال: حُمُّوا عَنْ آخِرِهِمْ، قال: «قَوْمُوا بِنَا نَعُوذُهُمْ» فعادهم وجعل يقول: «أَبْشِرُوا فَإِنَّهَا كَفَّارَةٌ وَطُهورٌ»، فقالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فادْعُ اللَّهَ أَنْ يَدِيمَهَا عَلَيْنَا أَيَّامًا حَتَّى تَكُونَ كَفَّارَةً لذنوبنا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى يُشْنِي عَلَيْهِمْ: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ بِالْحَمَى عَنْ مَعاصِيهِمْ ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾^(٣).

(١) رواه ابن ماجه (٣٥٥)، والدارقطني في «سننه» (١٧٤) وقال: عتبة بن أبي حكيم (أحد رجال الإسناد) ليس بقوي.

قال القرطبي في «تفسيره» (٣٨٠ / ١٠): وهذا الحديث يقتضي أن المسجد المذكور في الآية هو مسجد قُباء، إلا أن حديث أبي سعيد الخدري نصّ فيه النبي ﷺ على أنه مسجده فلا نظر معه. (٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩٤ / ٥)، والبغوي في «تفسيره» (٩٦ / ٤).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩٥ / ٥)، ولم أجده مسنداً من حديث يزيد بن شجرة، لكن روي معناه =

قال مقاتل: أمر رسول الله ﷺ في مسجد الضرار بعدما هُدم وأُحرق أن يتخذ كناسة يُلقى فيها الجيف^(١).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: في هذه الآية دلالة نبوة محمد ﷺ؛ لأنه معلوم أنهم أسروا وأضمرُوا فيما بينهم من الضرار والكفر والتفريق بين المؤمنين، فأطلع الله نبيه على ما أسروا ليُعلم أنه إنما عَرَفَ ذلك بالله تعالى^(٢)، وكذا قال في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾^(٣)، وكذا قال في كثير من آيات هذه السورة فيما يرجع إلى إضمارهم السوء في حق النبي ﷺ وأصحابه.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: ﴿فِيهِ رَجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا﴾: يتطهرون عن وُضْر المعاصي وذلك سِمَةُ التائبين، ويتطهرون عن الشهوات والأمانِي وذلك صفة الزاهدين، ويتطهرون عن محبة المخلوقين [ثم] عن شهود أنفسهم فيما به يتصفون، وذلك صفة المحبين^(٤).

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ بأسرارهم عن مساكنة المخلوقين وملاحظة المسبوقين^(٥).

= دون ذكر سبب النزول من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٤٣٩٣)، وقال محققوه: رجاله رجال الصحيح وفي متنه غرابة.

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (١٩٨/٢).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤٧٦/٥ - ٤٧٧).

(٣) المصدر السابق (٤٧٩/٥).

(٤) في «اللطائف»: (صفة العارفين).

(٥) في (ر) و(ف): «المسرفين». وانظر: «اللطائف الإشارات» (٦٢/٢) وما بين معكوفتين منه. ووقع

في (ر) و(ف): «وملاحظة المسرفين»، وعبارة «اللطائف»: (عن المساكنة إلى كل مخلوق، أو ملاحظة كل محدث مسبوق).

(١٠٩) - ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَاتَّخَذَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ﴾: قرأ نافع وابن عامر على ما لم يسم فاعله، وقرأ الباقون على الفعل الظاهر ﴿بُنْيَانَهُ﴾ بالنصب على أنه مفعول به^(١).

والألف استفهام بمعنى الإنكار، والبيان: البناء.

وقوله تعالى: ﴿عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ﴾: بحذف تنوينه لأنه على وزن فعلى: وأصله: وَقَوَى.

وقوله تعالى: ﴿خَيْرٌ﴾: هو على التفضيل فسّر كذلك، وإنما لم يدخل فيه ألف (أفعل) لأن الخير والشر فيهما اشتراك، فقد يراد بهما الاسم بدون التفضيل.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرْفٍ هَارٍ﴾ الشفا: الطرف، والجرف: الوادي الذي تجرّف^(٢) بالماء أصله فيبقى واهياً، وهو من الجرف والاجتراف: وهو اقتلاع الشيء من أصله، والهارى^(٣): الساقط الواقع الذي يتداعى بعضه على إثر بعض كما ينهار الرمل الرقيق والشيء الرخو، قاله قطرب. وقال أبو عوسجة: أي: رخو سريع الانهدام^(٤).

ورجل هارٍ؛ أي: ضعيف، وقد هار يهْور هَوْرًا: إذا انصدع بالتهدم، فهو هائر. وإنما قيل هاهنا: ﴿هَارٍ﴾؛ لأنه قلب فصار (هارٍ) مكان: هائر، كما يقال:

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣١٨)، و«التيسير» (ص: ١١٩).

(٢) في (أ): «ينجرف» وفي (ف): «يتجرف».

(٣) في النسخ: «الهار»، والصواب المثبت.

(٤) ذكره عنه الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٤٨٣) بلفظ: الهار: الهش الذي ليس بصلب.

عَاقٌ يَعْوِقُ فَهُوَ عَائِقٌ^(١)، ثم قيل في النعت: عَاقٍ، على القلب^(٢)، قال الشاعر:
 وَلَوْ أَنِّي رَمَيْتُكَ مِنْ بَعِيدٍ لَعَاقَكَ مِنْ دَعَاءِ الذُّنْبِ عَاقٍ^(٣)
 ويقال أيضاً: هَارٍ يَهَارُ فَهُوَ هَارٌ عَلَى الرَّفْعِ، وتقديره: هَوْرٌ، كما يقال: رَجُلٌ مَالٌ؛
 أي: مَتَمَوِّلٌ، وتقديره: مَوَّلٌ، وعلى هذا لا قلب.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنهَارٍ فِيهَا نَارُ جَهَنَّمَ﴾: أي: تَسَاقَطَتْ وَتَنَاقَرَتْ بِهِ؛ أي: بصاحبه فسقطا
 معاً فيها، والباء للتعدية والإيصال.

ومعنى الآية: أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَوْلَى بِالْخَيْرِيةِ: مَنْ أَسَّسَ بِنَاءَ الْمَسْجِدِ يَرِيدُ بِهِ تَقْوَى اللَّهِ
 وَطَاعَتَهُ وَهُمْ أَهْلُ مَسْجِدِ قُبَاءٍ أَوْ مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ، أَمْ مَنْ أَسَّسَ بِنَاءَهُ عَلَى النِّفَاقِ وَالشَّقَاقِ
 وَالْكَفْرِ وَالتَّفْرِيقِ وَانْتِظَارِ الْكَفَارِ أَنْ يَأْتُوهُ فَيَقْصِدُوا بِهِ كَيْدَ الْمُسْلِمِينَ، وَيَتَدَبَّرُوا فِي
 الْاِحْتِيَالِ لِتَوْهِينِ الدِّينِ، فَلَا يَلْبِثُ احْتِيَالُهُمْ أَنْ يَبْطُلَ وَظَنُهُمْ أَنْ تَخِيبَ، فَيَنْهَدُمُ الْبِنَاءَ
 وَيَنْهَارُ الْأَسَاسُ، ثُمَّ تَكُونُ عَاقِبَةُ أَهْلِهِ^(٤) دُخُولَ جَهَنَّمَ؟

ولم يقل: هو في نار جهنم للحال؛ لأنه ما دام حياً أمكنه أَنْ يُخْلَصَ فَيُتَخَلَّصَ
 وَلَا يَقَعَ فِيهَا.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾: أي: لا يهديهم للرشد ولما يتم

(١) في (ر): «عاق»، وسقطت من (أ) و(ف)، والصواب المثبت.

(٢) «على القلب» ليس من (أ) و(ف).

(٣) البيت لذي الخرق الطهوي قرط بن شريح كما في «الدلائل في غريب الحديث» لقاسم بن ثابت
 السرقسطي (١/ ٣٠٤)، ودون نسبة في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٩٤)، و«كتاب الألفاظ» لابن
 السكيت (ص: ٤٠٩)، و«تفسير الطبري» (١٤/ ٥٩٦)، و«الصحاح» (مادة: عقا).

(٤) في (ر): «عاقبته».

به تدبيرهم الفاسد؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢]، ولا يوفقهم للخير عقوبة لهم على نفاقهم.

وقال محمد بن إسحاق: إن الذي كان يؤم في ذلك المسجد مجمّع بن جارية، فلما أنزل الله في شأنه ما أنزل، وأمر النبي ﷺ بهدمه، وفرقت تلك الجماعة، وذهب من كان يصلي من بني عمرو بن عوف في مسجدهم إلى المسجد^(١) الذي بنى رسول الله ﷺ بقاء، كلّم بنو عمرو بن عوف عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته ليأذن لمجمّع بن جارية فيؤمّهم في مسجدهم، فقال: ولا نَعَمْتُ عين، أليس بإمام^(٢) مسجد الضرار؟ فقال له مجمّع: يا أمير المؤمنين! لا تعجل عليّ، فوالله لقد صليت فيهم والله إني لا أعلم ما أضمرّوا عليه، ولو علمت ما صليت معهم فيه، كنت غلاماً قارئاً للقرآن وكانوا شيوخاً ولم أعلم ما في أنفسهم^(٣)، وكانوا لا يقرؤون من القرآن شيئاً، فصليت ولا حسبت ممّا صنعوا شيئاً، إلا أنّي قلت: يتقربون إلى الله، فعذّره وصدّقه وأمره بالصلاة لقومه^(٤).

(١١٠) - ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَنُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

حَكِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَنُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾: أي: شكّاً وشبهة؛ أي:

(١) «إلى المسجد» ليس في (أ) و(ف).

(٢) في (ف): «كان يؤم».

(٣) في (ف): «نفوسهم».

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩٣/٥)، والبغوي في «تفسيره» (٩٥/٤).

كان ألقى إليهم أبو عامر أنه يأتي مسجدهم فيصلِّي فيهم، ويكون له ولهم الظهور على المسلمين، فلا يزال ذلك في قلوبهم^(١).

وقوله تعالى: ﴿لَا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾: قرأ ابن عامر وحمزة وعاصم في رواية حفص بفتح التاء، وأصله: تنقطع، فحذفت إحداهما تخفيفاً، وقرأ الباقر بضمها^(٢)، وهو ما لم يسم فاعله من التقطيع^(٣).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو الموت^(٤).

وقال عكرمة: هو في القبر^(٥).

وقال المبرد: تقطع القلب: تشقُّقه وانصداعه ولا بقاء مع ذلك، وهو كقوله تعالى: ﴿لَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٦]، وهو نياط القلب، والحياة تنقطع عند انقطاعه، وهذا إخبار بموتهم على نفاقهم وإصرارهم عليه حال حياتهم.

وقيل: معناه: إن خطأهم وضلالهم فيما قصدوه ببناء هذا المسجد لا يزول عنهم إلا أن يموتوا فيستيقنوا بالمقت^(٦)؛ لأنه حال زوال الشكوك.

وقال المبرد: أي: لا يزال هدمُ بنيانهم غيظاً في قلوبهم إلى الموت، قال الشاعر:

قَضَيْنَا مِنْ تِهَامَةٍ كُلِّ رِيْبٍ وخَيْرَ ثَمِ أَجَمَّمْنَا السِّيَوفَا^(٧)

(١) بعدها في (ف): «أي شكاً وشبهة».

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣١٩)، و«التيسير» (ص: ١٢٠).

(٣) في (ف): «التقطع».

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١١ / ٦٩٨).

(٥) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ١٨٨٦).

(٦) في (أ): «بالموت».

(٧) البيت لكعب بن مالك رضي الله عنه. انظر: «طبقات الفحول» (١ / ٢٢١).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: قال بعضهم: ﴿رَبِيَّةٌ﴾؛ أي: حسرةٌ وندامةٌ، وهو على وجهين:

يَحْتَمِلُ أَنَّهُمْ تَابُوا وَنَدَمُوا عَلَى مَا صَنَعُوا.

وَيَحْتَمِلُ: حَسْرَةً وَنَدَامَةً لَمَّا افْتَضَحُوا بِمَا صَنَعُوا.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾: أي: بضمائر العباد ﴿حَكِيمٌ﴾ في التمييز بين أهل الصلاح وأهل الفساد.

(١١١) - ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾: بدأ السورة بالبراءة من الكافرين، ثم بالأمر بقتال المشركين، ثم بالحث على الخروج إلى غزو عظيم اختلفت فيه أحوال المنافقين، وذم في المتخلفين، ثم مدح في هذه الآية المجاهدين، وذكر كراماتهم^(١) يوم الدين، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ ﴿بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ أخبر عز وجل أنه تاجر^(٢) عباده المؤمنين على أبدانهم وأموالهم بما أعد لهم من جنات النعيم عنده - مع أن الأشياء كلها ملكه - لطفاً منه بعباده؛ كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُجِيزُكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠]، وهو كما قال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥].

(١) في (ف): «كراماتهم».

(٢) في (ف): «بأجر» بدل: «أنه تاجر».

وقوله تعالى: ﴿يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: أي: يبذلون أنفسهم وأموالهم في طاعة الله والجهاد لأعدائه على إعلاء كلمته.

﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾: أي: تارة هم يقتلون العدو وتارة يقتلهم العدو، فإذا فعلوا ذلك فقد سلّموا ما باعوا واستحقوا بوعده الله ثمن ما أعطوا وهو الجنة، وهذا مستعار من الكلام تشبيهاً بالبيع المعروف الذي حقيقته إعطاء شيء وأخذ^(١) بدل عنه. وقرأ حمزة والكسائي: ﴿فَيُقْتَلُونَ﴾ بضمّ الياء وفتح التاء على ما لم يسمّ فاعله ﴿وَيُقْتَلُونَ﴾ على عكسه على الفعل الظاهر^(٢)، وهذا أدلّ على ثبات قلوبهم وجرأتهم على عدوهم^(٣)، وأنهم لم ينكسروا لما جرى على بعضهم، كما قال: ﴿وَكَاثِنٌ مِنْ نَبِيِّ قُتِلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا﴾^(٤) الآية [آل عمران: ١٤٦].

وقوله تعالى: ﴿وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْآنِ﴾: ﴿وَعَدَا﴾ نصبٌ على الحال من قوله: ﴿بَأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾، أو معناه: بوعده عليه حق، فنصب بنزع الخافض، ومعناه: عهداً عليه لازماً أوحى به إلى أنبيائه وأثبتته في كتبه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَ بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ﴾: استفهامٌ بمعنى النفي، وهو بيان أن المراد من الوعد المذكور قبله هو العهد.

وقيل: بل المراد من هذا العهد هو الوعد، وهو بيان أن الشراء ليس على حقيقته، وهو مبادلة صورة ومواعدة معنًى.

وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَبَشِرُوا بِنِعْمِ اللَّهِ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾: أي: فافرحوا به فإنكم

(١) في (ف): «واحد».

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣١٩)، و«التيسير» (ص: ٩٣).

(٣) «على عدوهم» ليست في (أ).

(٤) في (ر): «وكأين من نبي قاتل معه...»، وكلها قراءات سبعة.

تبيعون فانياً بياقي، وتأخذون ثمناً من مشترٍ هو المالك، وبمبيعٍ هو ملكه وحقه، ثم لا يخرج من أيديكم بهذا البيع إلا حياةً منغصةً^(١) فانيةً، ومالٌ^(٢) قليلٌ تافهٌ تعتاضون منه حياةً مهتأةً دائمةً، ونعماً في جنات الخلد باقيةً.

وقوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾: وهذا الشراء على هذا الوجه لكم فيه ربحٌ عظيم.

وروي عن عبد الله بن رواحة أنه قال: يا رسول الله اشترط، لرَبِّك ولنفسك ما شئت علينا، قال: «أشترطُ لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأشترطُ لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون به أنفسكم وأموالكم» قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال: «الجنة» قال: ربح المبيع لا نُقِيل ولا نَسْتَقِيل، فنزلت هذه الآية^(٣).

وقال الحسن: مرَّ أعرابيٌّ بالنبيِّ ﷺ وهو يقرأ هذه الآية، فقال: كلامٌ من هذا؟ قال: «كلامُ الله تعالى» قال: بيعٌ والله مربحٌ، لا نُقِيله ولا نَسْتَقِيله^(٤)، فخرج إلى الغزو فاستشهد^(٥).

(١) في (أ): «منقضية».

(٢) في (ف): «وبمال».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٦ - ٧) عن محمد بن كعب القرظي. وذكره ابن العربي في «أحكام القرآن» (٥٨٩ / ٢) وقال: (وهذا مما لا يوجد صحيحاً). ومراده والله أعلم: أنه لم يرد في حديث متصل؛ لأنه أعقبه بنحوه عن الشعبي ثم قال: وهذا وإن كان مقطوعاً فإنَّ معناه ثابتٌ من طريق.

(٤) في (ف): «لا نُقِيل ولا نَسْتَقِيل».

(٥) ذكره عن الحسن الثعلبي في «تفسيره» (٩٧ / ٥)، ورواه بنحوه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٨٨٦ / ٦) من طريق عطاء الخراساني عن جابر رضي الله عنه، وعطاء الخراساني لم يسمع من جابر. انظر: «المراسيل» لابن أبي حاتم (ص: ١٣٠).

وقال جعفر بن محمد الصادق: ليس لأبدانكم ثمنٌ إلا الجنة، فلا تبيعوها إلا بها، وأنشد الأصمعيُّ لجعفر الصادق:

أُثَامِنُ بِالنَّفْسِ النَّفِيسَةَ رَبِّهَا فليس لها في الخلق كلِّهم ثمنٌ
بها تُشْتَرَى الجنات، إن أنا بعْتُها بشيءٍ سواها إنَّ ذلكم غبنٌ
إذا ذهبَتْ نفسي بدُنْيَا أصيْبُها فقد ذهب الدنيا وقد ذهب الثمن^(١)
وفي بعض الكتب المنزلة على بعض الأنبياء: يا بني آدم، ما خلقتكم لأربح عليكم إنما خلقتكم لتربحوا عليَّ^(٢).

وفي التوراة: الجنةُ جنتي والمالُ مالي، فاشتروا جنتي بمالي، فإن ربحتم فلکم وإن خسرتم فعليَّ^(٣).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: البائع لا يستحقُّ الثمنَ إذا امتنع عن المبيع، فلذلك لا يستحقُّ العبدُ الجزاءَ الموعودَ إلا بعد تسليم النفس والمال على موجب أوامر الشرع.

ويقال: لا يكون في الشرع البائعُ والمشتري واحداً فيتولَّى طرفي العقد إلا الأب والجدُّ؛ لفرط شفقتهمَا وكمال نظرهما، ولما كانت رحمة الله بالعبد أتمَّ ونظره له أبلغ، وكان سبحانه وتعالى أولى بالمؤمن منه بنفسه، تولَّى العقد عنه عليه.

وقيل: علم الله تعالى سوءَ خلقك فاشتراك قبل أن أوجدك، وغالى بثنكك لئلا يكون لك حقُّ الاعتراض عند بلوغك.

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩٧/٥)، والطبرسي في «مجمع البيان» (١١/١٤٧).

(٢) ذكره القشيري في «لطائف الإشارات» (٢/٦٤).

(٣) ذكره القشيري في «لطائف الإشارات» (٢/٦٥)، وأورده الديلمي في «الفردوس» (٥١٠) من

حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وقيل: لا يصح للمؤمن أن يتعصّب لنفسه بحال؛ لأنها ليست له ومشتريها أولى بها من صاحبها الذي هو أجنبي عنها.

وحكي عن الجنيد أنه مرض مرضاً، فدعا الله تعالى أن يشفيه، فنودي في السر: يا فضولي، لم تدخل بيني وبين نفسك، أما علمت أن نفسك لي أتصرف فيها كيف شئت.

وقيل: أخبر أنه اشتراها لئلا يدعي العبد فيها ولا يساكنها ولا يلاحظها ولا يُعجب بها.

وإنما قال: ﴿أَنفُسُهُمْ﴾ ولم يقل: قلوبهم؛ لأنها فيها فدخلت في الحكم معها. وقيل: ذكر النفوس والأموال، وجعل الجزاء عليهما الجنة، فأما القلوب فعطأوها رؤيته عز وجل.

وقيل: ذكر شراء النفوس والأموال لأنها معيبة، ولا يرغب المشترون^(١) في شراء المعيب، فاشترى هو ذلك بكرمه ترويحاً لِمَا كَسَدَ على العبد امتناناً عليه. وقيل: اشترى النفوس منهم بالثمن فوهبوا القلوب له شكراً لذلك.

وقيل: القلوب ليست في أيديهم^(٢) فلا يقدرّون على تسليمها، ولا يشتري ما لا يمكن تسليمه كالطير في الهواء والسمك في الماء.

وقال أبو علي الدقاق: القلوب موقوفة على محبة الله تعالى والوقف لا يشتري. وقال في قوله تعالى: ﴿فَأَسْتَبْشِرُوا بِيَعِيكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾ ولم يقل تعالى:

(١) في (ف): «المشتري».

(٢) في (ف) و(أ): «أيديهم».

بِثَمَنٍ مَّيْبَعَكُمْ، لِيُعْلَمَ أَنَّ الاسْتِثْنَاءَ بِزَوَالِ الْأَنْفُسِ وَالْأَمْوَالِ عَنْ حُكْمِهِمْ وَخِلَاصِهِمْ عَنْ آفَاتِهَا^(١).

(١١٢) - ﴿التَّائِبُونَ الْعَمِيدُونَ الْحَمِيدُونَ الْمُتَكِمُونَ الرَّكْعُونَ
السَّجِدُونَ لِلْأَمْرِ وَالْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّكَاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ
اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿التَّائِبُونَ﴾: وفي مصحف عبد الله: (التائبين)^(٢) نعتاً لقوله:
﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

فأما الرفع فلو جوه:

أحدها: هم التائبون.

والثاني: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ ولذلك ضمير في آخره، وهذا بدل^(٣)
ذلك الضمير.

والثالث: هو مبتدأ وخبره مضمَر في آخره: لهم الجنة، وكذا ما بعده فوجوه
ما بينا^(٤).

ولمَّا مدحهم وزكاهم بما كان منهم ذَكَرَ خصالهم التي هي صفات المتحققين^(٥)

(١) في (أ): «آفاتهما». وانظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٦٤ - ٦٥)، وفي كلام المؤلف بعض الزيادة والاختلاف.

(٢) وكذا ما بعده إلى آخر الآية كله بالياء. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٠).

(٣) في (أ): «يدل على».

(٤) في (ر): «لما قلنا»، وفي (ف): «لما بينا».

(٥) في (ر) و(ف): «المتحققين».

بالإيمان، ولذلك ختم بالإيمان بقوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ كما افتتح به بقوله: ﴿أَشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هذه الصفات مما شَرَطَهُ الله عز وجل على أهل الجهاد؛ إذا وفوا لله^(١) بشرطه وفي لهم بشرطهم.

وقال الحسن: هذه أعمالهم قبل الجهاد.

وعنه في رواية: قال: على هذا الشرط اشترى منهم^(٢).

وأما تفسير (التائبين) فقد قال قتادة وعطاء: ﴿التَّائِبُونَ﴾ من الشرك ثم لم ينافقوا في الإسلام^(٣).

وقيل: الراجعون عن المعاصي.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: التائبون أصناف: فمن راجع يرجع عن زلَّته إلى طاعته، ومن راجع يرجع عن متابعة^(٤) هواه إلى موافقة رضاه، ومن راجع يرجع عن شهود نفسه إلى شهود لطفه، ومن راجع يرجع عن الإحساس بنفسه وأبناء جنسه إلى الاستغراق في حقائق حقّه^(٥).

وقوله تعالى: ﴿الْمُكِيدُونَ﴾: أهل العبادة والعبودية.

وقال الكلبي: أي: المطيعون المخلصون^(٦).

(١) في (ر): «وفوا له».

(٢) لم أجده بهذا اللفظ، ولعله يريد ما رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٨٦) عن الحسن في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ قال: هم الذين وفوا ببيعتهم.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٨-٩) عن قتادة والحسن.

(٤) في (ر) و(ف): «سابقة».

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٦٦).

(٦) ذكره الواحدي في «البيسط» (١١/ ٦٩) بلفظ: (الذين أخلصوا لله العبادة).

وقال عطاء: الموحِّدون لله^(١).

وقال الحسن: الذين عبدوا الله باتباع أمره وآثروه على مَنْ دونه^(٢).

وقال القشيري رحمه الله: ﴿الْعَبِيدُونَ﴾: الخاضعون لله بكلِّ وجه، الذين لا تسترُّ قُهم كرائم الدنيا، ولا تستعبدُهم عظامُ العقبي، ولا يكون العبد عبداً لله على الحقيقة إلا بعد تجرُّده عن كلِّ حادث^(٣).

وقوله تعالى: ﴿الْحَمِيدُونَ﴾: أي: المُشْتَوْن عليه بآلائه، الشاكرون له على نعمائه، المادحون له بصفاته وأسمائه.

وقال القشيري رحمه الله: الحامدون له: هم الذين لا اعتراض لهم على ما يحصل بقدرته، ولا انقباض لهم عما يجب له من طاعته.

وقيل: هم الذين يحمدونه على منعه وبلائه كما يحمدونه على صنعه وعطائه^(٤).

وقوله تعالى: ﴿السَّائِحُونَ﴾: أي: الصائمون، قالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله ﷺ: «سياحةٌ^(٥) أمتي الصَّيَّام»^(٦).

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٨٩) عن سعيد بن جبيرة.

(٢) ذكره الواحدي في «البيسط» (١١/ ٦٩). وروى الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٨٩) عن الحسن قوله: عبدوا الله على أحيائهم كلَّها في السَّراء والضَّراء.

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٦٦).

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٦٧) وفيه: (... على نفعه وعطائه).

(٥) في (أ): «سياحة».

(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٥) عن عائشة رضي الله عنها موقوفاً بلفظ: (سياحة هذه الأمة الصيام). ورواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١١)، والعقيلي في «الضعفاء» (١/ ٣١٧)، وابن عدي في «الكامل» (٢/ ٦٣٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً. وقال العقيلي: فيه حكيم بن خذام كان يرى القدر، منكر الحديث. ورواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١١) عن أبي هريرة موقوفاً، =

وقال سفيان بن عيينة: إنما قيل للصائم: سائح؛ لأنه تارك اللذات كلها من المطعم والمشرب والنكاح^(١)، كَمَن يسيح في الأرض؛ أي: كَمَن يسيّر فيها. وقيل: طلابُ العلم الداخلون فيه.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: هم الصائمون عن شهود غير الله، الممتنعون عن خدمة غير الله تعالى، المكتفون من الله بالله.

وقيل: ﴿السَّائِحُونَ﴾: السائرون في الأرض على جهة الاعتبار طلباً للاستبصار، الزاهبون بقلوبهم في مشارق الأرض ومغاربها بالتفكير في جوانبها، والاستدلال بآياتها على خالقها، والجائلون بأسرارهم في الملكوت، فيجدون روح الوصال، ويعيشون بنسيم الأنس بالتحقق بشهود ذي الجلال^(٢).

وقوله تعالى: ﴿الرَّكَعُوتَ السَّجْدَةَ﴾: أي: المحافظون على الصلوات فرضها ونفلها تذلاً إليه وخضوعاً.

وقال عطاء: ﴿الرَّكَعُوتَ السَّجْدَةَ﴾ بنية صادقة بلا رياء ولا سمعة^(٣).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: ﴿الرَّكَعُوتَ﴾: الخاضعون لله في جميع الأحوال بخمودهم تحت سلطان التجلي.

وفي الخبر: إن الله تعالى إذا تجلّى لشيء خضع^(٤) له.

= وصوب وقفه ابن كثير عند تفسير هذه الآية. وقد روي هذا القول عن جمع من الصحابة والتابعين، فقد رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١١ - ١٥) عن أبي هريرة وعائشة كما تقدم، وعن ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم، وعن سعيد بن جبير ومجاهد والحسن والضحاك وعطاء.

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩٨/ ٥)، والبغوي في «تفسيره» (٩٩/ ٤).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (٦٧/ ٢).

(٣) ذكره الواحدي في «البيسط» (٧١/ ١١) من قول ابن عباس بلفظ: (الذين يصلون لله بنية صادقة).

(٤) في (ر): «خضع». والمثبت من باقي النسخ و«اللطائف».

و﴿السَّاجِدُونَ﴾ بنفوسهم في الظاهر على بساط العبودية، وبقلوبهم في الباطن عند شهود الربوبية^(١).

وقوله تعالى: ﴿الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾: أي: الإيمان والطاعة ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾: أي: الكفر والمعصية.

وقال بسام^(٢) بن عبد الله: ﴿الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾؛ أي: بإقامة السنّة والجماعة ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾: عن الهوى والبدعة^(٣).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: ﴿الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ هم الذين يدعون الخلق إلى الله تعالى ويحذرونهم عن غير الله تعالى، يتواصون على الإقبال على الله وترك الاشتغال بغير الله تعالى^(٤).

وفي زيادة الواو في قوله تعالى: ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أقاويل:

قيل: الواو تدخل للمبالغة في المدح للمنعوت واحداً كان أو جماعة، قال تعالى: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا﴾ [آل عمران: ٣٩].

وقيل: لأن الأمر والنهي متقابلان، والمعروف والمنكر كذلك، فكانا

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٦٧).

(٢) تحرف في (ر) و(ف) إلى: «بشار»، وسقطت الجملة من (أ)، والصواب المثبت، وهو بسام بن عبد الله الصيرفي أبو الحسن الكوفي، روى عن زيد بن علي بن الحسين وأخيه أبي جعفر الباقر وجعفر الصادق وعطاء وعكرمة، وغيرهم، وعنه ابن المبارك ووكيع وأبو نعيم وغيرهم، من رجال «التهذيب».

(٣) ذكره عن بسام الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٩٨)، ودون عزو البغوي في «تفسيره» (٤/ ٩٩)، كلاهما أورده مختصراً بلفظ: (المعروف السنّة والمنكر البدعة).

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٦٨).

كالمتعاندين^(١)، فأدخل بينهما حرف العطف كما في قوله تعالى: ﴿تَبَيَّنَتْ وَأَبْكَرًا﴾ [التحریم: ٥].

وقيل: هي واو الثمانية؛ لأنها الصفة الثامنة، والعرب تخص ذلك بالواو، كما في قوله تعالى: ﴿تَبَيَّنَتْ وَأَبْكَرًا﴾ [التحریم: ٥]، وقوله تعالى: ﴿وَأَمِنْهُمْ كَلِمَتُ﴾ [الكهف: ٢٢]، وقوله: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧٣]؛ لأن أبواب الجنة ثمانية.

ولا أصل لهذا القول عند المحققين، فليس في هذا العدد ما يوجب ذلك، ولا استعمال على الاطراد كذلك، قال الله تعالى: ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ بغير واو.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ الآية بغير واو في الثامن.

وقوله تعالى: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾: قال الحسن: هم أهل الوفاء ببيعة الله^(٢).

وقيل: حدود الله: أوامره ونواهيه، قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩]، ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧].

وقيل: هي معالم الشرع.

وقال القشيري رحمه الله: هم الواقفون حيث وقفهم الله تعالى، الذين يتحركون إذا حرّكهم ويسكنون إذا سكّنهم، يحفظون مع الله أنفاسهم^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَنَشَرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾: أي: الذين بايعهم الله ليستبشروا، وقال بنفسه: ﴿فَاسْتَبَشِرُوا﴾ وقال لنبية: ﴿وَنَشِرِ﴾ ليتضاعف الاستبشار.

(١) في (أ): «كالمغاييرين».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩٨/٥ - ٩٩)، والبعوي في «تفسيره» (٩٩/٤). ورواه الطبري في «تفسيره» (١٨/١٢) بلفظ: (القائمون على أمر الله).

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (٦٨/٢).

وقيل: أي: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من المجاهدين وغيرهم، لَمَّا خَصَّ المجاهدين بقوله: ﴿فَاسْتَبِشِرُوا﴾ سَكَنَ قلوب القاعدين بعذرٍ بقوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لثلاثا يَقْنَطُوا.

(١١٣) - ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾:

اتصالها بما قبلها: أنها حثُّ للنبي ﷺ والمؤمنين على قطع موالاة المشركين أحيائهم وأمواتهم، قريبهم وبعيدهم؛ تأكيداً لَمَّا أمرهم به من الجهاد؛ إذ لا يتيهياً ذلك مع الأقارب خصوصاً إلا بقطع الموالاة والوداد^(١).

و﴿مَا كَانِ﴾ تأكيدٌ نفى^(٢)؛ كما في قوله تعالى: ﴿مَا كَانِ لَكُمْ أَنْ تُبَيِّنُوا شَجَرَهَا﴾^(٣) [النمل: ٦٠]، ﴿مَا كَانِ لِلَّهِ أَنْ يَخْذَلَ مَنْ وَلَدَ﴾ [مريم: ٣٥]، ﴿وَمَا كَانِ لِلنَّفْسِ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٤٥]، ﴿مَا كَانِ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [يوسف: ٣٨]، ﴿وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ [يوسف: ٧٣].

وتقديره: يَبْعُدُ من أخلاقهم أن يسألوا الله تعالى مغفرة المشركين وإن كانوا أقرباءهم بعد أن عرفوا أنهم أعداء الله، والمستوجبون سخط الله، والمستحقون عذاب الله تعالى.

(١) في (ف): «والوارد».

(٢) في (أ): «تأكيد بقي»، وفي (ر): «تأكيداً للنفي».

(٣) في (ف): «تؤذوا رسول الله»، بدل: «تنبتوا شجرها».

وقال بعض أهل التفسير: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجُبِينِ﴾؛ أي: ظهر لهم شركهم، فقد قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨].

وقال مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والضحاك: أي: بعد ما ماتوا على شركهم فقد انقطع رجاء صيورتهم وكونهم^(١) أهلاً للمغفرة^(٢).

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: رأيت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان، فقلت له: أتستغفر لأبويك وهما مشركان؟ فقال: أليس قد استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك؟ فذكرت ذلك للنبي ﷺ فنزلت هذه الآية^(٣).

وقال الحسن: أتي النبي ﷺ فقبل له: إن فلاناً يستغفر لأبائه وهم مشركون؟! فقال: «ونحن نستغفر لهم» فنزلت هذه الآية، فأمسكوا عن الاستغفار^(٤).

وقال سعيد بن المسيب [عن أبيه]^(٥): لَمَّا حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه رسول الله ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية فقال: «يا عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله» فقالا له: يا أبا طالب، أترغب عن ملة آبائك، فلم يزا إلا به حتى قال آخر ما كلمهم به: هو على ملة عبد المطلب، فقام رسول الله ﷺ من عنده باكياً وقال: «لأستغفرنَّ لك ما لم أُنَّه عنك» فنزلت هذه الآية^(٦).

(١) «وكونهم» من (ف).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٩ / ١٢) عن الضحاك.

(٣) رواه النسائي (٢٠٣٦)، والترمذي (٣١٠١) وقال: حديث حسن.

(٤) الخبر مروي في «تفسير مجاهد» (ص: ٣٧٥).

(٥) ما بين معكوفتين من الصحيحين وكتب السنة.

(٦) رواه البخاري (٣٨٨٤)، ومسلم (٢٤)، من حديث المسيب بن حزن رضي الله عنه.

قال الواحدي في «البيسط» (٧٤ / ١١): واستبعده الحسين بن الفضل؛ لأن هذه السورة من آخر القرآن نزولاً، ووفاة أبي طالب كانت بمكة في عنفوان الإسلام.

وذكر الكلبي أن النبي ﷺ زار قبر أمه في ألف فارس وهو يريد أن يستغفر لها، فلما قام عند قبرها فإذا هو بجبريل عليه السلام فوضع يده على صدر النبي ﷺ ونزلت الآية، فبكى النبي ﷺ وبكى المسلمون، فما روي يومٌ أشدَّ باكيةً وأكثر^(١) من يومئذ^(٢). وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: لا يصح حديث استغفار النبي ﷺ لعمه

= قلت: وكذا قال ابن كمال باشا في «تفسيره» عند هذه الآية متعباً: (وفيه: أن موت أبي طالب كان قبل الهجرة، وهذا آخر ما نزلت بالمدينة، لا يقال: ما ذكر إنما يتم لو كان نزول الآية عقيب موت أبي طالب، وليس بلازم؛ لجواز أن يكون النبي عليه السلام يستغفر له إلى وقت نزول الآية = لأننا نقول: الظاهر من قوله: (فنزلت) إنما هو التعقيب بلا تراخ. وقد ذكرنا في تحقيقنا له ما ذكره الألوسي في توجيه هذا الإشكال: أن الفاء للسببية لا للتعقيب، يعني أن قوله: (فنزلت) لا يراد به أن النزول كان عقيب القول، بل يراد أن ذلك سبب النزول، قال: واعتمد على هذا التوجيه كثير من العلماء، وهو توجيه وجيه.

لكنه عاد فذكر أنه يعكر عليه ما رواه ابن سعد عن علي كرم الله تعالى وجهه، وفيه: (وجعل رسول الله ﷺ يستغفر له أياماً ولا يخرج من بيته حتى نزل عليه جبريل عليه الصلاة والسلام بهذه الآية). قال: فإنه ظاهر في أن النزول قبل الهجرة لأن عدم الخروج من البيت فيه مغيباً به... والأولى في الجواب عن أصل الاستبعاد أن يقال: إن كون هذه السورة من أواخر ما نزل باعتبار الغالب كما تقدم فلا ينافي نزول شيء منها في المدينة. انظر: «روح المعاني» (١٠/٥٣٩). والخبر الذي رواه ابن سعد في «الطبقات» (١/١٢٣)، وفي إسناده الواقدي وهو متروك.

- (١) في (ف): «في يوم أشد بكاء ولا أكثر» وفي (ر): «في يوم أكثر وأشد بكاء».
- (٢) لم أقف عليه بهذا السياق، والكلبي متروك، لكن روى مسلم (٩٧٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: زار النبي ﷺ قبر أمه، فبكى وأبكى من حوله، فقال: «استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذكرك الموت». وليس فيه أن الآية نزلت في ذلك، لكن روي عن ابن مسعود نحو هذه القصة على أنها سبب نزول الآية، رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/١٨٩٤)، والحاكم في «المستدرک» (٣٢٩٢)، والبيهقي في «الدلائل» (١/١٨٩).

وأُمّه^(١)، فقد عَلم بكفرهما وموتهما عليه^(٢)، ولا يخفى عليه أن الله تعالى لا يَغفر للمشرك، إذ في العقل والحكمة تعذيبُ الكافر أبداً، وأن لا يُغفر له؛ إذ في ذلك تسويةٌ بين الوليِّ والعدو، وهو ليس بحكمة، وجائز أن يكون استغفر للمنافقين قبل أن يتبين له نفاقهم، فلما تبين له كُفٌّ، والاستغفار للمشرك حال حياته يجوز على معنى سؤال الإسلام له والمغفرة بسببه، فأما مع قيام الكفر فلا^(٣).

(١١٤) - ﴿وَمَا كَانَتْ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾:

قيل: لما ورد النهي عن الاستغفار للمشركين قال الناس: إن إبراهيم استغفر لأبيه المشرك^(٤)، فنزلت هذه الآية^(٥).

ومعناها: ولم يكن سؤال إبراهيم عليه السلام الله أن يغفر لأبيه المشرك إلا

(١) بل حديث استغفاره لعمه قبل نزول الآية متفق عليه كما تقدم، أما استغفاره لأمه فقد ثبت أنه لم يؤذن له فيه. انظر التعليق السابق. وهذا الكلام منقول عن الماتريدي بالمعنى، وليس في كلامه التعرض لعدم صحة الحديث.

(٢) كذا قال، وفي ذكرهما معاً نظر، فإن أبا طالب قد أدرك الدعوة وعرض عليه الإسلام فأبى، أما أم النبي ﷺ فإنها لم تدرك دعوته، فأكثر ما يمكن أن يقال فيها: إنها من أهل الفترة، وهؤلاء علمُ عاقبتهم عند الله.

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/٤٩٢)، والكلام فيه بنحوه.

(٤) في (ف): «وهو مشرك».

(٥) رواه ابن سعد في «الطبقات» (١/١٢٤) عن عمرو بن دينار مرسلًا، ورواه بنحوه النسائي (٢٠٣٦)، والترمذي (٣١٠١) وحسنه، من حديث علي رضي الله عنه.

بسبب أنه كان وعد لأبيه لقوله: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرَ لَكَ رَبِّي﴾ [مريم: ٤٧] فوفى بذلك الوعد وسأل الله أن يغفر له.

ومعناه: أن يهديه للإسلام ويجعله أهلاً للمغفرة ويغفر له بعد إسلامه، وهو كقول هود لقومه: ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٦١] وكقول نوح عليه السلام: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠] ليس هذا بأمر لهم أن يقولوا: نستغفر الله، ولكن هذا أمرٌ بالإسلام ليصيروا أهلاً للمغفرة لهم.

وكذا قول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَاعْفُ لِي﴾ [الشعراء: ٨٦]؛ أي: أعطه السبب الذي تغفر له به، وهو التوحيد.

وعلى هذا القول يكون قوله: ﴿وَعَدَهَا﴾ خبراً عن فعل إبراهيم، وقوله تعالى: ﴿إِيَّاهُ﴾ كناية عن أبيه.

وقال بعض المفسرين: بل قوله: (وَعَدَ) خبرٌ عن فعل والد إبراهيم أنه وعد إبراهيم، وقوله: ﴿إِيَّاهُ﴾ كناية عن إبراهيم، وتلك المواعدة أنه كان قال لإبراهيم: إني أسلم وقت كذا، فكان يستغفر له، ومعنى استغفاره^(١): سؤاله المغفرة له بعد ما أسلم، أو سؤاله إعطاء الإسلام الذي به يغفر له.

وقيل: كانت المواعدة مؤقتة، فانتهى إبراهيم إلى ذلك الوقت فظن أنه أسلم فاستغفر له مطلقاً، ولذلك قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦]؛ أي: قبل هذا؛ كما قال: ﴿سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]؛ أي: قبل التوبة، فلما ظهر أنه لم يسلم تبرأ منه.

وعلى القول الأول: ﴿فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾؛ أي: لما مات على الكفر تبرأ منه، وهذه الجملة حاصل كلام الإمام أبي منصور رحمه الله.

(١) في (أ): «استغفار»، وفي (ف): «الاستغفار».

ثم أورد سؤالاً على قوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ [المتنحة: ٤]: لَمَّا اسْتَشْنَى هَذَا مِنَ الْاِقْتِدَاءِ بِهِ عُلِمَ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ، وَسَوْأُ الْهَدَايَةِ لِلْكَافِرِ وَالْمَغْفِرَةِ جَائِزٌ بَعْدَ هَذَا، فَمَا مَعْنَاهُ؟

وأجاب أن معناه: حتى يُعْلَمَ^(١) المراد من استغفاره؛ أي: إذا وقع عند السامع أنه سؤال المغفرة مطلقاً لا على الوجه الذي قلنا فما ينبغي له أن يفعله مقتدياً به في ظاهر الاستغفار^(٢).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾: (الأواه) في اللغة: المتأسف، وهو^(٣) المتوجّع والمتحزن، قال المثقّب العبدى:
إذا ما قمتُ أرحلها بليلٍ تأوّه آهة الرجل الحزين^(٤)
أصلها: تتأوّه، بتاءين.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: (الأواه): التوّاب^(٥).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: الدّعاء^(٦).

وقال الحسن وقتادة: الرحيم^(٧).

(١) في «التأويلات» (حتى نعلم).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٤٩٣/٥)، والكلام فيه بنحوه.

(٣) في (أ): «هو في اللغة التأوّه لي هو» وفي (ف): «هو في اللغة المشاقّة وهو»، بدل: «الأواه في اللغة: المتأسف وهو».

(٤) انظر: «ديوان المثقّب» (ص: ١٦٤).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٠) وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٨٩٦/٦).

(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٤ - ٣٥).

(٧) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٥ - ٣٨) عن الحسن وقتادة وابن مسعود وعمرو بن شرحبيل.

والأول أصح إسناداً عن ابن مسعود كما قال النحاس في «معاني القرآن» (٣/ ٢٦١).

وقال محمد: الموقن^(١).

وقال كعب: القائل: آه، عند ذكر النار^(٢).

وقيل: المؤمن^(٣).

وفي «التأويلات»: عن النبي عليه السلام أنه سئل عن (الأواه) فقال: «الدَّعَاءُ الخاشع المتضرّع»^(٤).

وفيها: عن ابن عباس رضي الله عنهما: (الأواه): المؤمن^(٥).

وفيها قيل: (الأواه): الفقيه الموقن^(٦).

وفيها: قيل: المسبِّح^(٧).

وقال في (الحليم): هو الذي لا يَغْضَبُ ولا يَسْفَه عند سَفَه السَّفِيهِ^(٨).

وقيل (الحليم) هاهنا: هو أنْ جَهَلَ الكافر لم يمنعه عن الدعاء إلى الله تعالى،

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٣٨ - ٤٠) عن ابن عباس ومجاهد وسفيان والضحاك وعكرمة وعطاء. زاد ابن عباس في رواية وعكرمة وعطاء: (بلسان الحبشة). وزاد سفيان: (وقال بعضهم: الفقيه الموقن). وفي رواية عن مجاهد: (مؤمن موقن).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٠٢ / ٥)، والبغوي في «تفسيره» (١٠٢ / ٤).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٤٠) عن مجاهد، ورواه ابن عباس وابن جريج بلفظ: (المؤمن بالحبشية).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٤٣ - ٤٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ١٨٩٥ - ١٨٩٦) عن عبد الله بن شداد بن الهاد، وهو مرسل، وفيه شهر بن حوشب وهو ضعيف.

(٥) تقدم تخريجه عنه بلفظ: (المؤمن بالحبشية).

(٦) في النسخ: «الموفق»، والمثبت من «التأويلات»، وكذا روي عن سفيان كما تقدم قريباً.

(٧) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٤١) عن سعيد بن المسيب.

(٨) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥ / ٤٩٤).

وعن المواعدة الجميلة التي يرجو بها الحمل على الإسلام، وذلك مثل ما ذكر في سورة مريم في مخاطبة أبيه في آيات.

(١١٥) - ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾^(١) إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾:

قال مجاهد: إن الله لا يحكم بضللكم عن الحق باستغفاركم للمشركين إلا بعد أن تبين لكم أنكم منهئون عنه^(١).

وقال الكلبي: لما أنزل الله الفرائض فعمل بها الناس، ثم جاء ما ينسخها من القرآن وقد غاب أناس^(٢) وهم يعملون بالأمر الأول من القبلة والخمر وأشباه ذلك، سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك فأنزل الله تعالى هذه الآية^(٣).

وقال الكلبي: ويقال: وما كان الله ليُبطِلَ عمل قوم قد عملوا بالمنسوخ حتى يتبين لهم الناسخ^(٤)، ونظيره: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعُمُوا﴾ [الآية [المائدة: ٩٣]].

(١) رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٤٧ - ٤٨).

(٢) في النسخ: «الناس»، والمثبت من المصادر، وستأتي.

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ١٠٤)، والبغوي في «تفسيره» (٤ / ١٠٣) عن مقاتل والكلبي، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٣ / ٥١٠) من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. وهو في «تفسير مقاتل» (٢ / ٢٠٠).

(٤) هذا تنمة قول الكلبي عند الثعلبي. انظر التعليق السابق.

وقال الضحاك: وما كان الله ليعذب قوماً حتى يبين لهم ما يأتون وما يذرون، والإضلال: الإهلاك، يقال: ضلَّ الماء في اللَّبَنِ^(١).

قال أبو روق: وما كان الله ليرك قوماً في الضلال وإن عملوا بالمنسوخ حتى يبين لهم ما نُسَخ من القرآن ثم يعملون به بعد ذلك.

وقال القشيري: مَنْ أَهْل لبساط الوُصلة ما مُنِيَ بعده بعذاب الفرقة إلا إذا أُسِرَّ بعده ترك الخدمة^(٢).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ هذا ظاهر^(٣).

(١١٦) - ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾: ينتظم بما مرَّ من الحثِّ على الجهاد أن له الخلق كلَّهم يصرفهم كيف يشاء يُبقي ويُفني، فامضوا على بيعتكم ولا يَهُولَنَّكم كثرةُ الأعداء، وتوكلوا عليَّ فأوفوا بالمبايعة أنصرَّكم، فإن لم تُوفوا بها خذلتكم ثم لا يكون لكم وليٌّ ولا نصير.

وعلى قولٍ مَنْ حمل الآية الأولى على النَّسخ فوجه الانتظام له: أنه ينسخ حكماً بحكمٍ وأمرًا بأمرٍ، يحكم في أهل السماوات والأرض بما يشاء.

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/١٠٤)، والبغوي في «تفسيره» (٤/١٠٣).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/٦٩)، ولفظه: (من أحلَّه بساط الوصلة ما مُنِيَ بعده بعذاب الفرقة،

إلا لمن سلف منه ترك حرمة). ومن قوله: «وقال القشيري...» إلى هنا ليس في (أ) و(ف).

(٣) «هذا ظاهر» ليس في (أ) و(ف).

وقال الإمام القشيري رحمه الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وهو لا يتجمل بوجود مملوكاته، ولا يلحقه نقص بعدم مخلوقاته، يحيي مَنْ يشاء بعرفانه، ويميت مَنْ يشاء بكفره وطغيانه، يحيي مَنْ أقبل عليه بتضرعه ويميت مَنْ أعرض عنه بترفه^(١).

(١١٧) - ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ﴾ الآية:

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ولما نزلت هذه السورة وفي آياتها بيان معاملات المنافقين على التفصيل^(٢) ظننا أنه لا يبقى أحدٌ منا إلا نزل فيه قرآنٌ، إلى أن نزلت هذه الآية، وكانت السورة تدعى: الفاضحة، ولما نزلت هذه الآية سُميت بها: سورة التوبة^(٣).

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ﴾ قال أبو عبيدة: هو مفتاح كلام، لما كان هو سبب التوبة على القوم ذكر معهم^(٤)، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٤١].

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٦٩ - ٧٠).

(٢) في (ف): «التفصيل ومنهم».

(٣) لم أجد بهذا اللفظ، وروى البخاري (٤٨٨٢)، ومسلم (٣٠٣١) عن سعيد بن جبيرة، قال: قلت لابن عباس: سورة التوبة، قال: التوبة؟ هي الفاضحة، ما زالت تنزل: ومنهم ومنهم، حتى ظنوا أنها لن تبقى أحدًا منهم إلا ذكر فيها.

(٤) في (ف): «معهم».

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو العفو عن إذنه للمنافقين بالتخلف عنه^(١)، قال تعالى ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾: قال الإمام أبو منصور رحمه الله: قيل: هو في حق زلاتٍ سبقت منهم يومٍ أحدٍ وغيره، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَسْتَرْزَلَهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

وقيل: هو في حق هَفَواتٍ كانت منهم في غزوة تبوك؛ همُّوا أن ينصرفوا في غير وقت الانصراف على غير إذنٍ لشدائد أصابتهم.

قال: ويجوز أن يكون أراد الإدامة والثبات^(٢) على التوبة الماضية، كما عُرف في قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ﴾ [النساء: ١٣٦] أنه على الدوام والثبات دون الابتداء والإنشاء.

قال: ويحتمل أنه على أنهم حيث صبروا على ما أصابهم من الجهد والشدة كشف الله عنهم أشياء كانت مستورة عنهم، وجلَّى لهم أغطيةً كانت لا تنجلي لهم من قبل، فازدادوا تفويضاً وتسليماً ورجوعاً إلى ربهم، فذلك توبةُ الله عليهم وتوبتهم إلى الله تعالى^(٣).

ثم الجمعُ بين المهاجرين والأنصار وبين النبي ﷺ في هذا غايةُ التشريف لهم والتشهير^(٤)، حيث أشرك بينه وبينهم في التطهير.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِسْكَاءَ الْعُصْرَةِ﴾: أي: في غزوة تبوك وقد أصابتهم

(١) ذكره الواحدي في «البيسط» (١١ / ٨٠).

(٢) في (ر) و(ف): «والإثبات».

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥ / ٥٠٢ - ٥٠٣).

(٤) في (أ): «غاية تشريف وتشهير».

فيها مشقة شديدة من قلة الزاد والماء والمركب، وهذا عن مجاهد وجابر وقتادة^(١).
قال عبد الله بن محمد بن عقيل: كان ذلك عسرة من الماء، وعسرة من النفقة،
وعسرة من الظَّهر^(٢).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه في شأن
العسرة، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً أصابنا
فيه عطش شديد حتى ظننا أن رقابنا ستقطع، حتى إن كان الرجل يذهب يلتمس
الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستقطع، وحتى إن الرجل ينحرب بعيره فيعصر فرثه
فيشربه ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن الله قد عودك في
الدعاء خيراً فادع الله لنا، قال: «نعم» فرفع يديه فلم يرجعهما حتى أظلت السماء ثم
سكبت، فملؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجد ما جاوزت العسكر^(٣).

وقال قتادة: ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما، وكان التفرد يتداولون
التمر بينهما يمضونها هذا ثم يشرب عليها الماء، ثم يمضونها هذا^(٤).
وقال الحسن ومعمّر: كان الرجلان والثلاثة على بعير واحد يتعاقبون،
وكان زادهم التمر والمحض^(٥) وشيئاً من الشعر، وإهالة مُتَنَّة^(٦).

(١) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٥٠ - ٥١).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٥٠).

(٣) رواه البزار في «مسنده» (٢١٤)، والطبري في «تفسيره» (١٢ / ٥٢)، وابن حبان في «صحيحه»
(١٣٨٣)، وابن خزيمة في «صحيحه» (١٠١)، والطبراني في «الأوسط» (٣٢٩٢)، والحاكم
في «المستدرک» (٥٦٦) وقال: صحيح على شرط الشيخين. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد»
(٦ / ١٩٥): رواه البزار والطبراني في «الأوسط» ورجال البزار ثقات.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٥١).

(٥) في (ر): «والمحض». واللبن الخالص. انظر: «القاموس» (مادة: محض). وفي المصادر:
«التمر المسوس»، بدل: «التمر والمحض».

(٦) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ١٠٤)، والبغوي في «تفسيره» (٤ / ١٠٤)، والقرطبي في «تفسيره» =

وفيها قصة دعائه بتمر قليل، وجعله في قصعة، والدعاء^(١) بالبركة، حتى أخذ الناس - وهم أكثر من ثلاثين ألفاً - أزوادهم والتمر بحاله^(٢).

وفيها كانت قصة وضعه كفيه في ماء قليل، وانفجار الماء من أصابعه العشر، حتى شربوا وسقوا دوابهم وملؤوا أوعيتهم^(٣).

وقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾^(٤): قرأ حمزة وعاصم في رواية حفص: ﴿يَزِيغُ﴾ بياء التذكير لتقدم الفعل، وقرأ الباقون بقاء التأنيث بسبب الجمع^(٥)، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَطْمِئِنُّ قُلُوبُنَا﴾ [المائدة: ١١٣].

وقوله: ﴿يَزِيغُ﴾؛ أي: تميل ﴿قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾؛ أي: جماعة، ولم يقل: زاغت، بل قال: ﴿كَادَ يَزِيغُ﴾ ولم يقل: قلوبهم، بل قال: ﴿قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ وهذا في الزيغ يجوز أن يكون ميلاً عن المضي وقصداً للرجوع، ويحتمل أن يكون وقوع الاضطراب في القلوب.

يقول: تناهى بهم العسر، واشتد عليهم الأمر، حتى قاربوا أن تضطرب قلوب بعضهم، فتداركهم الله، وكذا كان حال الأنبياء وأتباعهم من قبل، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف: ١١٠]، وقال: ﴿وَلَمَّا

= (١٠/٤٠٧-٤٠٨)، عن الحسن. الإهالة: الشحم. انظر: «القاموس» (مادة: أهل).

(١) في (أ): «ودعا».

(٢) رواه مسلم (٤٥/٢٧).

(٣) رواه مالك في «الموطأ» (١/١٤٣)، ومن طريقه مسلم (١٠/٧٠٦) (كتاب الفضائل)، وفيه أن الماء نبع من عين بعد أن غسل النبي ﷺ فيه يديه ووجهه. وكذا روي عن ابن إسحاق في «السيرة النبوية» لابن هشام (٥٢٧/٢).

(٤) في (ر) و(ف): «من بعد ما كاد يزيغ...».

(٥) انظر: «السبعة» (ص: ٣١٩)، و«التيسير» (ص: ١٢٠).

يَأْتِيَكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ ﴿الآية [البقرة: ٢١٤]، وقال: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [الأحزاب: ١١].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾: أي: وفقهم للرجوع إليه والاعتصام به، وقبل ذلك منهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ بِهِمْ رُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾: والجمع بين الاثنين^(١) للمبالغة والتأكيد. وإنما كرر ذكر التوبة لوجوه:

أحدها: أن قوله: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ﴾ هو للتوفيق للتوبة، ثم قوله: ﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ لقبولها، والأول لما سلف والثاني لما كان منهم في هذه الغزوة، أو الأول للكل والثاني لمن كاد يزيغ قلبه على الخصوص.

وقيل: الأول: العفو، والثاني: التخفيف، حيث قفل بهم النبي ﷺ قبل الحرب، قاله الحسن، وهو كقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَتَابَ عَلَيْهِمْ﴾ [المزمل: ٢٠]؛ أي: خفف عنكم فأسقطه عنكم.

وقال الإمام القشيري رحمه الله: كذا سنة الله مع أوليائه إذا أشرفوا على العطب وقاربوا من التلف، واستمكن اليأس من قلوبهم من النصر، ووطئوا أنفسهم على أن يذوقوا أليم البأس والعسرة، يُمطر عليهم سحائب الجود والنصر الموعود، فيعيد عود الحياة بعد يسه طرياً، ويردُّ ورد الأنس عقيب^(٢) ذبوله غصاً جنياً^(٣).

(١١٨) - ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ

(١) في (ف) و(أ): «الاسمين».

(٢) في (ف): «بعد».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (٧٠ / ٢).

عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُوا أَنَّ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا﴾: أي: وتاب أيضاً على الثلاثة الذي خلفوا.

قال قتادة: أي: عن غزوة تبوك^(١).

وقال مجاهد: أي: عن التوبة^(٢).

وقيل: أي: عن^(٣) الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، قال تعالى:

﴿وَأَخْرُوتُمْ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾، أو^(٤) عن المذكورين في قوله: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ فابتهلوا ودعوا فتاب الله عليهم.

ولالأول وجهان:

أحدهما: أنه تقدّمهم القوم فهم مخلفون بتقدّم أولئك.

والثاني: خلفهم الله؛ أي خلق فيهم التخلف، ودل ذلك على خلق الأفعال.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾: أي: اتسعت، وقد رُحِبَ

رُحْباً بضم راء المصدر، فهو رَحْبٌ بفتحها، من حَدٍّ شَرَفٌ.

و(ما) مع الفعل مصدر تقديره: بُرِحَها؛ أي: بلغ منهم الغمُّ والتأسُّف والندمُ

مبلغاً لا يجدون منه مخرجاً ولا يهتدون لحيلة، كما قال الشاعر:

كَأَنَّ بِلَادَ اللَّهِ وَهِيَ عَرِيضَةٌ عَلَى الْخَائِفِ الْمَطْلُوبِ كُفَّةٌ حَابِلٌ^(٥)

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٥٦).

(٢) ذكره عن مجاهد الواحدي في «البيسط» (١١ / ٨٤). ورواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٥٤) عن عكرمة وقتادة. ورواه عن قتادة أيضاً ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ١٩٠٤).

(٣) «عن» ليس من (أ) و(ف).

(٤) في (أ): «أي».

(٥) نسب لعبد الله بن الحجاج، وللبيد، ولرزين العروضي، ولعبيد بن أيوب بن ضرار العبدي، وللطرماح، =

وقوله تعالى: ﴿وَصَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾: أي: اشتدَّ غمُّهم وضيقُ صدورهم وحيأؤهم فصاروا كأنهم لا يجدون موضعاً يخفونها فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَطَنُّوْا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾: أي: أيقنوا أنه ^(١) لا معتصم من الله إلا بالله، ولا مخلص من عقاب الله إلا عفو الله.

وقيل: كان ذلك حين كلّموا النبي ﷺ في ذلك فلم يُجبهم بشيء.

و﴿حَتَّى إِذَا﴾ يقتضي جواباً، وهو محذوف هاهنا، وهو معطوف عليه ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾، وهو أن يقال: خفف عليهم - أو: رحمهم، ونحوه - ثم تاب عليهم.

وقيل ﴿حَتَّى إِذَا﴾ كلمة غاية وتقديره: وخلفوا إلى هذه الغاية ثم تاب عليهم، وعلى هذا الوجه لا حذف فيه.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾: أي: وفّقهم للتوبة فتابوا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾: وهذا ظاهرٌ.

والآية نزلت في كعب بن مالك من بني سلمة، وهلال بن أمية الواقفي، ومُرارة بن الربيع الزبيدي.

وذكر محمد بن إسماعيل البخاري في «الجامع»: عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه عن جده أنه قال: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا غزوة تبوك، وكان من خبري: أنّي لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة، والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط حتى جمعتُهما في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله ﷺ يريدُ غزوةً إلا ورّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديد، واستقبل سفراً بعيداً وعدواً كثيراً، فجلّى

= وقد تقدم عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَصَاقَتْ عَلَيْهِمْ الْأَرْضُ بِمَآرِحِهَا﴾ [التوبة: ٢٥].

(١) في (ف): «أن».

للناس أمرهم ليتأهبوا أهبةً غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثيرٌ، ولا يجمعهم كتاب حافظ. يريد الديوان.

قال كعب: فما رجلٌ يريد أن يتغيّب إلا ظنَّ أنه سيخفى له ما لم ينزل فيه وحيُّ الله تعالى، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، وتجهّز رسول الله ﷺ والمؤمنون معه، فطفقت أعدو لكي أتجهّز^(١) معهم، فأرجعُ ولم أقض شيئاً، فأقول في نفسي: أنا قادر عليه، فلم يزل يتمادى بي ذلك حتى خرج رسول الله ﷺ والمسلمون معه ولم أقض شيئاً من جهازي، فقلت: أتجهّز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم، فغدوتُ بعد أن فصلوا لأتجهّز فرجعتُ ولم أقض شيئاً، ثم غدوتُ ثم رجعتُ ولم أقض شيئاً، ولم يزل بي ذلك حتى أسرعوا، وهممتُ أن ارتحل فأدركهم وليتني فعلتُ، ولم يقدّر لي ذلك، فكنْتُ إذا خرجتُ في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفقتُ فيهم أحزنني أن لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه النفاق^(٢)، أو رجلاً ممن عذره الله من الضعفاء، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك^(٣)، فقال وهو جالس في القوم: «ما فعل كعب؟» فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله، حبسه بُرداه^(٤) ونظره في عطفه، فقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً، فسكت رسول الله ﷺ.

قال كعب بن مالك: فلماً بلغني أنه توجه قافلاً حضرنني همّي، وطفقتُ أتذكرُ الكذب وأقول: بماذا أخرج من سخط رسول الله ﷺ غداً، واستعنتُ على ذلك بكلّ ذي رأي من أهلي، فلماً قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظّل قادماً زاح عني الباطل،

(١) في (ف): «لأتجهز».

(٢) أي: متهماً به. انظر: «شرح مسلم» للنووي (٨٩/١٧).

(٣) بغير صرف للأكثر، وفي رواية: (تبوكاً) بالصرف على إرادة المكان. انظر: «فتح الباري» (١١٨/٨).

وقال النووي في «شرح مسلم» (٨٩/١٧): هكذا هو في أكثر النسخ (أي: نسخ مسلم): (تبوكاً) بالنصب.

(٤) في (أ): «برده».

وعرفت أنني لن أخرج عنه أبداً بشيء فيه كذب، فأجمعتُ صدقه.

وأصبح رسول الله ﷺ قادماً، وكان إذا قدم من سفره بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم يجلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون وطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعةً وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وبايعهم واستغفرَ لهم، ووكلَ سرائرهم إلى الله تعالى، فجنَّته، فلما^(١) سلمت عليه تبسَّم تبسُّم المغضَّب ثم قال: «تعال»، فجنَّتُ أمشي حتى جلستُ بين يديه، فقال لي: «ما خلفك، ألم تكن قد ابتغتَ ظَهْرَكَ؟!» فقلت: بلى، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيتُ أن سأخرج من سَخَطه بعذرٍ، ولقد أُعطيْتُ جدلاً، ولكني والله لقد علمتُ لئن حدَّثتُك اليوم حديثَ كذبٍ ترضى به عني ليوشكنَّ الله أن يُسخطك عليَّ، ولئن حدَّثتُك حديثَ صدقٍ تجدُ عليَّ فيه إنِّي لأرجو فيه عفو الله، لا والله ما كان لي من عذرٍ، والله ما كنتُ قطُّ أقوى ولا أيسرَ مني حين تخلفتُ عنك، فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدَّق، فقم حتى يقضيَ الله فيك» فقمْتُ، وسار رجال من بني سَلَمَةَ فاتَّبَعُونِي فقالوا لي: والله ما علمناك كنتَ أذنبتَ ذنباً قبل هذا، ولقد عجزتَ أن لا تكون قد اعتذرتَ إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المتخلفون^(٢)، قد كان كافيكَ ذنبك استغفارُ رسول الله ﷺ، فوالله ما زالوا يؤنَّبُونِي حتى أردتُ أن أرجع فأكذَّب نفسي، ثم قلتُ لهم: هل لقيَ هذا معي أحد؟ قالوا: نعم، رجلان قالَا مثلاً ما قلتُ فقليل لهما مثلاً ما قيل لك، فقلت: مَنْ هما؟ قالوا: مُرارة بن الربيع العنبريُّ وهلالُ بن أمية الواقفيُّ، فذكروا رجلين صالحين قد شهدا بداراً فيهما أسوةً، فمضيت حين ذكروهما لي.

(١) في (ف): «و».

(٢) في (أ) و(ر): «المخلفون».

ونَهَى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا من بين مَنْ تخلف عنه، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا، حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلةً، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحدٌ، وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرّك شفّتيه بردّ السلام عليّ أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إليّ، وإذا التفت نحوه أعرض عني، حتى إذا طال عليّ ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسوّرت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي وأحب الناس إليّ، فسلمت عليه فوالله ما ردّ عليّ السلام، فقلت: يا أبا قتادة! أنشدك بالله هل تعلم أني أحب الله ورسوله؟ فسكت، فعدت له فنشدته فسكت، فعدت له فنشدته فسكت، فعدت له فنشدته فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناى وتوليت حتى تسوّرت الجدار.

فبينما أنا أمشي بسوق المدينة إذا ببطي من أنباط الشام ممن قدّم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له إليّ، حتى إذا جاءني دفع إليّ كتاباً من ملك غسان، فإذا فيه: أمّا بعد، فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوانٍ ولا مضيعةٍ، فالحق بنا نواسك، فقلت لما قرأتها: وهذا أيضاً من البلاء، فتيّمت بها التّنور فسجّرت بها.

حتى إذا مضت أربعون ليلةً من الخمسين إذا رسول الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرُك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا بل اعتزلها ولا تقربها، وأرسل إلى صاحبّي بمثل ذلك، فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر.

قال كعب: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه، قال: «لا، ولكن لا يُقربك» قالت: والله ما به حركةٌ إلى شيء، والله ما زال يبكي مذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا، فقال لي بعض أهلي: والله لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك كما استأذنت امرأة هلال بن أمية أن تخدمه، فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ، وما يدريني ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب؟

فلبثت بعد ذلك عشر ليالي حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهي رسول الله ﷺ عن كلامنا، فلما صليت الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى قد ضاقت نفسي وضاقت علي الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر، فخررت ساجداً، وعرفت أن قد جاء الفرج^(١).

وآذن^(٢) رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قبل صاحبي مبشرون، وركض رجل إليّ فرساً، وسعى ساع من أسلم^(٣) فأوفى على الجبل، فكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعتُ صوته يبشّرني نزعتُ له ثوبي فكسوته إياهما ببشراه، والله ما أملك غيرهما يومئذٍ، واستعرتُ ثوبين فلبستهما وانطلقتُ إلى رسول الله ﷺ، فتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهتف لي بالتوبة، يقولون: ليهنك توبة الله عليك.

قال كعب: حتى دخلت المسجد، فإذا برسول الله ﷺ جالس والناس حوله،

(١) في (أ): «جاءني الفرج»، ولفظ الصحيحين: (جاء فرج).

(٢) أي: أعلم.

(٣) بعدها في مسلم: (قبلي)؛ أي: نحوي.

فقام إليّ طلحة بن عبيد الله يهروء حتى صافحني وهنّاني، والله ما قام إليّ رجلٌ من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة.

قال كعب: فلما سلّمتُ على رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور: «أبشر بخير يومٍ مرّ عليك منذ ولدتك أمك» قلتُ: أَمِنْ عندك يا رسول الله أَمٍ مِنْ عند الله؟ قال: «لا، بل من عند الله»، وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه كأنه قطعة قمر، وكُنَّا نعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلتُ: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقةً إلى الله تعالى وإلى رسوله، فقال رسول الله ﷺ: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ»، قلتُ: إني أَمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْرٍ، فقلتُ: يا رسول الله، إنما نجاتي بالصدق، وإن من توبتي ألاّ أحدث إلاّ صدقاً ما بقيتُ، فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله تعالى من صدق الحديث منذ ذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ أحسنَ مما أبلاني، ما تعمّدتُ منذ ذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذباً، وإني لأرجو أن يحفظني الله تعالى فيما بقيتُ.

فأنزل الله تعالى على رسول الله ﷺ: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ إلى قوله: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، فوالله ما أنعم الله عليّ من نعمةٍ قط بعد أن هداني للإسلام أعظمَ في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ أن لا أكون كَذِبْتُهُ فَأَهْلِكَ كما هلك الذين كذبوا، فإن الله تعالى قال للذين كذبوا حين أنزل الوحيَ شرّاً ما قال لأحد، قال سبحانه: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَاتَّكَبَ اللَّهُ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

قال كعب: وكُنَّا تَخَلَّفْنَا [أيها الثلاثة] عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله تبارك وتعالى فيه، فلذلك قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا﴾ وليس الذي

ذَكَرَ اللَّهُ مِمَّا خَلَّفْنَا عَنْ الْعَزْوِ، وَإِنَّمَا هُوَ تَخْلِيفُهُ إِيَّانَا وَإِرْجَاؤُهُ أَمْرًا عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ
وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ^(١).

(١١٩) - ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾: أي: القائِلين
بالْحَقِّ الْعَامِلِينَ بِهِ، وَ: ﴿مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ فِي مَعْنَى: مِنَ الصَّادِقِينَ، أَوْ: فِي الصَّادِقِينَ؛
لَأَنَّ (مَعَ) هُوَ لِلْمَصَاحِبَةِ، وَ(فِي) لِلْوَعَاءِ، وَ(مِنْ) لِلتَّبْعِيضِ، فَإِذَا كَانُوا فِي جَمْلَتِهِمْ فَهُمْ
عَلَى الْمَعَانِي الثَّلَاثَةِ.

وَقِيلَ: هَذَا أَمْرٌ لِلصَّاحِبَةِ رِضْوَانِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ إِذَا خَرَجُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَن
يَتَّقُوا مُخَالَفَتَهُ، وَأَنْ يَكُونُوا عَلَى مَذْهَبٍ مَنْ يَسْتَعْمَلُ الصَّدَقَ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَهُوَ
مِنْ قَوْلِكَ: أَنَا مَعَ فَلَانٍ؛ أَي: عَلَى مَذْهَبِهِ.

وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: اتَّقُوا اللَّهَ فِي الدُّنْيَا لِتَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ فِي الْجَنَّةِ فِي الْعَقَبَى، مِنْ
قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ [النِّسَاءُ: ٦٩]، وَطَرِيقُهُ
طَرِيقُ قَوْلِكَ: ائْتِنِي وَخُذْ كَذَا؛ أَي: لَتَأْخُذْ كَذَا.

وَفِي قِصَّةِ كَعْبِ الثِّيِّ سُقْنَاهَا مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْمَجَاهِدِينَ، فَقَدْ
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾،
وَلَيْسَ هُوَ مُجَرَّدُ الْقَوْلِ، بَلْ هُوَ التَّحْقِيقُ فِي الْإِيمَانِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا
اللَّهُ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [مُحَمَّدٌ: ٢١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾
[الْأَحْزَابُ: ٢٣]، فَكَانَ مَعْنَى الْآيَةِ: وَلَا تَعُودُوا إِلَى التَّخَلُّفِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي مَغَازِيهِ
لِتَكُونُوا قَدْ صَدَقْتُمْ فِي إِيْمَانِكُمْ.

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٤٤١٨)، وَمُسْلِمٌ (٢٧٦٩)، وَمَا بَيْنَ مَعْكَوْفَتَيْنِ مِنْهُمَا.

وقال الحسن^(١): بلغني أنه كان لأحدهم حائطٌ كان يومئذ خيراً من مئة ألف درهم، فقال: يا حائطاه! ما خلفني عن رسول الله ﷺ إلا ظُلك وانتظارُ ثمرك، اذهب فأنت في سبيل الله، ثم لحق برسول الله ﷺ، وأما الآخر فلم يكن له إلا أهيلٌ له، فقال: يا أهيله^(٢)! ما بطّاني عن رسول الله ﷺ ولا خلفني عنه إلا الضنُّ بك، لا جرم والله لأكابِدَنَّ المفاوِزَ حتى ألحق برسول الله ﷺ، وأما الثالث فلم يكن له أهل ولا مال فقال: يا نفس! والله ما خلفني عن رسول الله ﷺ إلا حُبُّ الحياة لا جرم^(٣) والله لأكابِدَنَّ الشدائدَ حتى ألحق برسول الله ﷺ، ثم ركب نعليه^(٤) ومعه زادُه تحت إبطه، فلحق برسول الله ﷺ.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يا أيها الذين آمنوا من أهل الكتاب، اتَّقُوا الله وكونوا مع الصادقين؛ أي: مع المجاهدين^(٥).

وقيل: يا أيها الذين آمنوا من أهل مكة ولم يهاجروا، اتَّقُوا الله وكونوا مع المهاجرين.

(١) ذكر قوله الزمخشري في «الكشاف» (٣١٩/٢).

(٢) في «الكشاف»: «ولم يكن لآخر إلا اهله فقال: يا أهلاه».

(٣) «لا جرم» ليست في (ف).

(٤) في (أ): «بغلته».

(٥) ذكره الواحدي في «البيسط» (٨٧/١١) عن ابن عباس ومقاتل بلفظ: (يعني به مؤمني أهل الكتاب، يأمرهم بالجهاد وأن يكونوا مع المهاجرين)، وبهذا اللفظ ذكره في «الوسيط» (٥٣٣/٢) لكن عن الكلبي ومقاتل، فلعله مما روي من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. أما مقاتل بن حيان فقد رواه عنه باللفظ المذكور ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٩٠٦/٦).

وذكره عن ابن عباس أيضاً الزمخشري في «الكشاف» (٣٢١/٢)، وفيه بدل: «أي: مع المجاهدين»: (أي: كونوا مع المهاجرين والأنصار، ووافقوهم وانتظموهم في جملتهم، واصدقوا مثل صدقهم). وهذا الذي قاله الزمخشري هو الأوفق بالمعنى، فغير المسلم يطلب منه أولاً أن يكون مع المسلمين قبل أن يطلب كونه في المجاهدين.

قال الضحاك: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾: مع أبي بكر وعمر رضي الله عنهما^(١).
وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: اتقوا مخالفة الله فيما يأمركم به، وكونوا مع
الموافقين لأمره.

ودلت الآية على أن إجماع الأمة حجة؛ لأنه أمرهم بالكون مع الصادقين في
دينه، فلزم قبول قولهم^(٢).

وقال يمان بن رثاب: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾: اصدّقوا كما صدّق هؤلاء الثلاثة.
وقال ابن مسعود رضي الله عنه: والله ما يصلح الكذب في جد ولا هزل، ولا
أن يعد^(٣) أحدكم صبيّه ثم لا يُنجزه، اقرؤوا إن شئتم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ
وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾^(٤).

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٨٦ / ١٢) عن الضحاك وسعيد بن جبیر.

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥ / ٥٠٦).

(٣) في (أ): «أن بعد»، وفي (ف): «لأن يعد».

(٤) رواه بتمامه وكيع في «الزهد» (٤٠١)، والثعلبي في «تفسيره» (٥ / ١٠٩)، والواحدي في «الوسيط»
(٥٣٣ / ٢).

ورواه دون قوله: (اقرؤوا إن شئتم...) ابن ماجه (٤٦)، والإمام أحمد في «المسند» (٣٨٩٦)، ووكيع
في «الزهد» (٣٩٦)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٢٠٠٧٦) و(٢٠١٩٨)، وسعيد بن منصور في
التفسير من «سننه» (١٠٤٩)، وهناد في «الزهد» (١٣٧٢)، والطبراني في «الكبير» (٨٥١٨).
ورواه دون قوله: «ولا أن يعد أحدكم صبيّه ثم لا يُنجزه»، ابن المبارك في «الزهد» (١٤٠٠)،
وسعيد بن منصور في التفسير من «سننه» (١٠٤٧) و(١٠٤٨)، ووكيع في «الزهد» (٣٩٥)، والطبري
في «تفسيره» (١٢ / ٦٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٩٠٦ / ٦). وجاء عند وكيع والطبري وابن
أبي حاتم بدل ﴿مَعَ الصَّادِقِينَ﴾: (من الصادقين)، وهو الصواب في هذا الخبر، فقد جاء عند الطبري
وابن أبي حاتم عقبها: (قال يعني: الراوي للخبر: وكذلك هي قراءة ابن مسعود: «من الصادقين»).

وقال عبد الله بن عامر: أتانا رسول الله ﷺ في بيتنا وأنا صبيٌّ، فخرجت أَلْعُبُ، فقالت أُمِّي: تعال أعطِكَ، فقال رسول الله ﷺ: «ما أردتِ أن تعطيه؟» قالت: تمرّاً، فقال رسول الله ﷺ: «أما إنك لو لم تُعْطِه كانت كذبة»^(١).

وقال قتادة: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ الصدق في النية، والصدق في العمل، والصدق في الليل والنهار، والصدق في السر والعلانية^(٢).
وقال أهل المعرفة: هو الصدق في الأحوال.
وفي الزبور: كَذَبَ مَنْ ادَّعَى مُحِبَّتِي إِذَا جَنَّهُ اللَّيْلُ نَامَ عَنِّي.

(١٢٠) - ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾:

ثم حثَّ جَلَّ جلاله ساكني المدينة من غير المهاجرين والأنصارِ وَمَنْ حولهم من الأعراب - مُزِينَةً وَأَشْجَعَ وَأَسْلَمَ وَجْهِيَّةً وَغِفَارَ - على ما حثَّ عليه الأنصار، فقال: ما ينبغي لهؤلاء أن يتخلفوا عن رسول الله ﷺ إذا استنفرهم واستنهضهم إلى

(١) في (أ): «كنت كذابة»، وفي (ف): «فأنت كذابة». والحديث رواه أبو داود (٤٩٩١). وفي الباب عن أبي هريرة، رواه الإمام أحمد في «المسند» (٩٨٣٦)، ولفظه: «من قال لصبي: تعال هاك، ثم لم يُعْطِه، فهي كذبة».

(٢) رواه ابن أبي حاتم (١٩٠٧/٦).

غزو، ولا أَنْ يَضُنُّوا بِأَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَنْفَرِدَ هُوَ بِتَحْمُلِ الْمَشَقَّةِ دُونَهُمْ، بَلْ يَلْزُمُهُمْ جَمِيعاً أَنْ يَخْرُجُوا مَعَهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ﴾؛ أي: ولا أَنْ يَرْغَبُوا، عطفاً على الأول، والرغبة: طلب المغفرة، فقولك: رغب في كذا؛ أي: طلب المنفعة به، وقولك: رغب عن كذا؛ أي: طلب المنفعة بتركه، ومعنى ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾؛ أي: يطلبوا المنفعة بتوقية أنفسهم دون نفس رسول الله ﷺ.

وقال قطرب: أي: لا يكرهوا لأنفسهم ما يرضاه الرسول لنفسه.
وقال أبو الهيثم السَّجْزِيُّ^(١): أي: لا يكونوا أشفقَ على أنفسهم منهم على رسول الله ﷺ.

وقال ابن كيسان: أي: لا يَرْضَوْنَ أَنْ يَكُونُوا فِي خَفْضٍ وَدَعَةٍ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي شِدَّةٍ وَنَصَبٍ.

وقال القشيري رحمه الله: أي: ليس لهم أَنْ يُؤْثِرُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ شَيْئاً مِنْ أَهْلِ وَوَلَدٍ وَمَالٍ وَنَفْسٍ وَرُوحٍ، وَلَا يَخْسِرُونَ بِذَلِكَ بِهِ^(٢).
ثم وصل به ما يحركهم به عليه، وهو قوله تعالى:

(١) لعلة عبيد الله بن عبد الله السَّجْزِيِّ أبو الهيثم، يروي عن أبي إسحاق السَّبَّيْعِي، روى عنه ابنه حسين بن عبيد الله. انظر: «الثقات» لابن حبان (١٤٧/٧). وفي موضع آخر من «الثقات» (٤٠٤/٨): عبيد الله السَّجْزِيُّ أبو الهيثم يروي عن سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ روى عنه قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ الْحَكَايَاتِ. وفي «تاريخ الإسلام» للذهبي (٦٨٨/٤): عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سِنَانٍ بْنِ طُعَانَ التُّرْكِيُّ الْخُرَاسَانِيُّ السَّجْزِيُّ الْفَقِيهَ، أَبُو الْهَيْثَمِ، تَوَفِيَ (١٧١ - ١٨٠ هـ)، كَانَ جَدُّهُ مُتَوَلِّئِي إِمْرَةِ خُرَاسَانَ، وَقَدْ أَدْخَلَ عُبَيْدُ اللَّهِ وَهُوَ صَغِيرٌ عَلَى الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَسَمِعَ مِنْ أَيُّوبَ السَّخْتِيَّانِيِّ، وَهَشَامِ بْنِ حَسَّانٍ، وَابْنِ إِسْحَاقَ. وَعَنْهُ: عَثْمَانُ بْنُ زَائِدَةَ وَهُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ، وَابْنُ الْمُبَارَكِ، وَغَيْرُهُمَا، كَانَ مِنْ كِبَارِ الْفُقَهَاءِ، وَمَا رَأَيْتُ لِأَحَدٍ فِيهِ تَضَعِيفًا.

(٢) «به» من (ف)، وفي «اللطائف»: (وليس يخسرون على الله، وأنى ذلك؟). انظر: «اللطائف الإشارات» (٧٢/٢).

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: أي: ذلك الحثُّ والترغيب بأنهم لا ينالهم عطشٌ ولا تعبٌ ولا مجاعة في طريق الجهاد. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَطْعُونُ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾: أي: ولا يطؤون بأقدامهم أو خيولهم أرضاً، والموطئ يجوز أن يكون مصدراً ويجوز أن يكون موضعاً كالموضع^(١). وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَأَلَوْنَ مِنْ عَدُوِّتَيْلًا﴾: أي: لا يجدون، ومعناه: لا يصيبون من أحدٍ منهم شيئاً من جرح أو قتل أو ضرب أو تشديد أو أخذ مالٍ ونحو ذلك. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾: أي: حصل لهم بكل واحدٍ من هذه الآثار حسنة مقبولة.

وإنما قال: ﴿بِهِ﴾ مع ذكر أشياء جمعاً؛ لأنه لما أدخل بين شيئين (لا) مكرراً صار كل فعل مفرداً بالذكر مقصوداً بالوعد، وهو كما قال أصحابنا: مَنْ حَلَفَ لَا يَأْكُلُ خَبْزاً وَلَا لَحْماً، يَحْنُثُ بواحدٍ منهما، ولو قال: والله لا أكلُ خبزاً ولحماً، لم يحنث إلا بهما جميعاً.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾: أي: هم محسنون، والله لا يُبطل ثوابهم.

(١٢١) - ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِحَجْرِ يَهُمُّ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: قليلة ولا كثيرة^(٢).

(١) في (ر) و(ف): «كالمرجع».

(٢) انظر: «تنوير المقباس» (ص: ١٦٨). وذكر عنه الواحدي في «البيسط» (١١ / ٩١): يريد تمرّة فما =

وقيل: ﴿صَغِيرَةً﴾: إنعال فرسٍ، أو خَرَزُ مِطْهَرَةٍ، أو خَصْفُ نعلٍ،
و﴿كَبِيرَةً﴾: شراكُ كُرَاعٍ أو سلاح، أو إعدادُ زاد.
وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًّا﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: مُقْبِلِينَ ومُدْبِرِينَ^(١).
وقوله تعالى: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾: أي: عملٌ صالحٌ كما مرَّ مرةً، ويستقيم: إلا
كُتِبَ لهم ذلك.

وقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: أي: يأمر بكتابة هذه
الأشياء في كتبهم ليُخرجها لهم يوم القيامة، فيجزئهم على كلِّ واحد منها جزاءً
أحسنَ عملٍ كان لهم، فيُلحق ما دونه به شكراً لسعيهم وتوفيراً لأجرهم.
قالوا في الآية: إن مَنْ قصَد طاعةً كان قيامه وقعوده ومشيه وحركاته فيها كلُّها
حسناً مكتوبةً له، فما أعظمَ بركات الطاعات.

وقال قتادة: ما ازداد قومٌ في سبيل الله من أهاليهم بعداً إلا ازدادوا من الله قرباً^(٢).
وقال القشيري رحمه الله: ذلك بأنهم لا يرفعون لأجله سبحانه خطوةً إلا قابلهم
بألفِ خطوةٍ، ولا ينقلون لله قدماً إلا لقاهم لطفاً وكرماً، ولا يقاسون فيه عطشاً إلا
سقاهم من شرابٍ لطفه كأساً، ولا يتحملون لأجله مشقةً إلا أعطاهم سروراً ونصرةً،
ولا ينالون من الأعداء ما يوجب وهنهم إلا شكرَ سعيهم^(٣).

(١٢٢) - ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ
طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

= فوقها ولا أدنى منها، وروي عنه: ولو علاقة سوط.

(١) ذكره الواحدي في «البيسط» (١١ / ٩٢).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٧٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ١٩٠٩).

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» (٢ / ٧٢).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾:

قال الكلبي: لما أنزل الله تعالى عيوب المنافقين وبين نفاقهم في غزوة تبوك، قال المؤمنون: والله لا نتخلف عن غزوة يغزوها رسول الله ﷺ ولا سرية أبداً، فلما قدم رسول الله ﷺ وأمر بالسرايا إلى العدو^(١) نفر المسلمون - رضي الله عنهم أجمعين - جميعاً، وتركوا رسول الله ﷺ وحده بالمدينة، فنزلت الآية الكريمة الشريفة عليه ﷺ^(٢).

فعلى هذا تفسير الآية: ليس من حكم المؤمنين رضي الله عنهم أن ينفروا جميعاً ويتركوا رسول الله ﷺ بغير أصحابٍ ويضيّعوا أهاليهم وأموالهم، فهلاً خرج من كل قبيلة جماعة منهم للغزو، وقعد طائفة ليتعلموا من رسول الله ﷺ القرآن والأحكام. والتفقه: التفعل من الفقه، وهو طلبه وتحصيله، والفقه: فهم موجبات المعاني المضمّنة فيها من غير تصريح بالدلالة عليها، ولينذر هؤلاء المتفقهون قومهم الخارجين إلى الغزو إذا رجعوا من الغزو إليهم ليحذروا مخالفة الشرع إذا سمعوا وعلموا^(٣).

وبنحوه قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا﴾ جميعاً ويتركوا النبي ﷺ وحده، فهلاً ﴿نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ يعني: السرايا، ولا يخرجوا إلا بإذنه، فإذا رجعت السرايا ونزل بعدهم قرآنٌ تعلّمه القاعدون من النبي ﷺ، قالوا: إن الله تعالى أنزل على نبيكم بعدكم قرآنًا، وقد تعلّمناه، فيمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله تعالى على نبيهم بعدهم، ويبعث سرايا أخرى، [فذلك قوله]:

(١) في (أ): «الغزو».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١١١)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٦٣)، وفي «البيسط»

(١١/ ٩٣)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٥١٦)، جميعهم عن ابن عباس من رواية الكلبي.

(٣) في (ر): «وعملوا».

﴿لَيَنْفَقَهُوا فِي الدِّينِ﴾ [يقول]: حتى يعلموا ما أنزل الله على نبيِّهم ويعلموه السرايا إذا رجعت إليهم لعلهم يحذرون^(١).

وذكر الإمام أبو منصور رحمه الله هذا القول وقولاً آخر عن بعضهم: أن النبي ﷺ كان إذا خرج للغزو خرجوا جميعاً معه، فتبقى المدينة خالية من الرجال، فنهى الله عن ذلك وقال: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ مع رسول الله ﷺ، فهلا نفر من كل عشيرة قوم ليتفقهوا في الدين من رسول الله ﷺ ولينذروا قومهم أهل المدينة إذا رجع المتفقهون إليهم لعلهم يحذرون.

وقيل: ﴿وَلِيُنْذِرُوا﴾؛ أي: وليُخبروا الكفار المقيمين بالمدينة بما نصر الله به رسوله وقهر أعداءه، وليحذر الكفار عن أن ينالهم كذلك فيسلموا، وإليه ذهب الحسنُ وابن كيسان، وقالوا: نسخت هذه الآية ما قبلها: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ﴾^(٢).

وهذه الآية في الظاهر بخلاف قوله: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ ولكن التوفيق بينهما: أن النبي ﷺ إذا خرج وفي أصحابه قلة فعلى الآخرين أن يخرجوا معه، وإذا خرج وفي أصحابه كثرة قعد البعض لحفظ المدينة والأهل والولد.

وقيل: أحدهما إذا عمَّ النَّفِيرُ والآخر إذا لم يعمَّ.

وذكر أيضاً قولاً ثالثاً: أنه في الوفود القادمين من الآفاق للتعلُّم^(٣).

وقد روي أن حياً من بني أسد بن خزيمة أصابتهم سنةٌ وشدةٌ، فأقبلوا بالذراري معهم والصبيبة حتى نزلوا المدينة، وأفسدوا طرقها بالعذرات وأغلوا أسعارها، فنزلت:

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٧٧)، وما بين معكوفتين منه.

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥ / ٥٠٦).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥ / ٥٠٨ - ٥٠٩).

﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ الآية (١)، وفيه تعليلٌ لهم أن الواجب عليهم أن ينفر إلى رسول الله ﷺ قومٌ يتعلمون ثم يرجعون إلى مواضعهم فيعلمون أولئك.

قال: وفي الآية دليلٌ سقوط الجهاد عن الجماعة إذا قام به البعض.

وفيها دلالةٌ لزوم العمل بخبر الآحاد (٢) وإن احتمل الغلط؛ لأن الطائفة تحتل اجتماعهم على الكذب أو الغلط، ثم ألزم قومهم قبول خبرهم (٣).

وقال القشيري رحمه الله: المسلمون على مراتب: فعوامهم كالرعية للملك، وكتبه الحديث كخزان الملك، وأهل القرآن كحفاظ الدفاتر ونفائس الأموال، والفقهاء بمنزلة الوكلاء للملك؛ إذ الفقيه يوقع عن الله تعالى، وعلماء الأصول كالقواد وأمراء الجيوش، والأولياء كأركان الباب، وأرباب القلوب وأصحاب الصفا كخواص الملك وجلسائه، فيشتغل كل قوم بحفظ أركان الشرع، وآخرون بامضاء الأحكام، وآخرون بالرد على المخالفين، وآخرون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجعل قومٌ مفردين بحضور القلب وهم أصحاب الشهود، وليس لهم شغل، يراعون مع الله أنفاسهم وهم أصحاب الفراغ، لا يستغفرونهم طلب ولا يهزهم أرب (٤)، فهم بالله الله بمحو [عن] ما سوى الله، وأما الذين يتفقهون في الدين فهم الداعون إلى الله، وإنما يفهم الخلق عن الله إذا كان يفهم عن الله (٥).

(١٢٣) - ﴿يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَتَنَلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَتَنَلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾: أي: يقربون

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١١١)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ١١٢)، عن الكلبي.

(٢) في (ر): «الواحد».

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/ ٥١٠ - ٥١١).

(٤) في (أ): «يهزهم أمن» وفي (ف): «يهزهم أمر»، وفي (ر): «يهمهم أمر»، والمثبت من «اللطف».

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٧٣)، وما بين معكوفتين منه.

منكم، وقد وَلَّيْهِ يَلِيهِ وَلِيًّا؛ أي: جَاهِدُوا الْأَقْرَبَ فالأقرب إليكم، ولا تَدْعُوا الْأَقْرَبَ وتَقْصِدُوا الْأَبْعَدَ فَيَقْصِدَ الْأَقْرَبُ بلادكم وأهاليكم وأموالكم وأولادكم.

وفيه: أنهم إذا أَمِنُوا الْأَقْرَبَ كان لهم مجاوزتهم إلى الأبعد^(١).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: أمر الله المؤمنين أن يقاتلوا الأدنى فالأدنى من عدوهم من أهل المدينة مثل قُرَيْظَةَ والنَّضِيرَ وخَيْبَرَ وفدك^(٢).

وذكر أن الذين يَلُونَهُم من الأعداء يومَ نزول هذه الآية هم الروم الذين بهم ختم رسول الله ﷺ غزوة تبوك؛ لأن بلاد العرب كانت قد فتحت عليه وكانت مسافتهم إلى الروم أقرب منها إلى بلاد الأعاجم^(٣)، وكان الكلام متصلاً بما تقدم من ذكر غزوة تبوك.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: قيل: كان هذا الأمر أولاً بقتال الأدنى فالأدنى، ثم ورد الأمر بقتال الكل بقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾.

وقيل: كان النبي ﷺ إذا غزا ربما يجاوز^(٤) كفاراً ويقاثل الأبعد لتكون آية لنبوته، وأنه لا يبالي ولا يخاف من تركه، فنزلت الآية تعليماً للمؤمنين أمر الحرب كما علمهم ذلك في سائر الآيات من الأمر بأخذ الحذر وإعداد ما استطاعوا من قوة. وقيل: هذا إنباء عن دوام الجهاد مع الأعداء أبداً؛ لأنه كلما فُتِحَ ناحيةٌ صار الذين بقوا وراء هؤلاء يَلُونَهُمْ^(٥).

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾: قال الضحاك: أي: عنفاً، وقال مجاهد:

(١) في (ف): «كان لهم محاربة الأبعد».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١١٢/٥)، والواحدي في «السيط» (٩٦/١١) واللفظ له.

(٣) روي نحو هذا عن ابن عمر عند الثعلبي في «تفسيره» (١١٢/٥)، وعن ابن عباس عند الواحدي في «السيط» (٩٦/١١).

(٤) في (أ): «يجاور».

(٥) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥/٥١١-٥١٢).

أي: شدة، وقال عطاء: أي: شجاعة، وقال الحسن: أي: صبراً^(١).
 وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾: أي: معكم إن اتَّقَيْتُمُوهُ^(٢) في أوامره
 ونواهيه من الجهاد وغيره، ومعكم؛ أي: مُعِينُكُمْ وناصرُكُمْ وحافظُكُمْ.
 (١٢٤) - ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَانًا فَآمَّا الَّذِينَ
 ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَانًا﴾: أي:
 فَمِنَ المنافقين مَن يقول لأصحابه أو لضعفة المؤمنين على سبيل الهزاء والاستخفاف
 بالقرآن عند نزول السورة: أَيُّكُمْ زادته هذه السورة تصديقاً؟ أي: إِنَّا لَم نَزِدْ بِهَذِهِ
 إِيْمَانًا، ولا أحدث بنا^(٣) نزولها تصديقاً بما يدَّعيه محمد من الوحي والشرائع التي
 فيها المشاق والمخاطرة بالنفوس والأموال والأولاد.
 ثم أجيبوا عن هذا بما يذكر بعده، وهو قوله تعالى:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾: أي: فأما المخلصون فإن هذه
 السورة صارت سبباً لزيادة تصديقهم ويقينهم وإخلاصهم، وهم يفرحون بما نزل
 فيها من الوعد على الإيمان والعمل حتى يتبين ذلك في وجوههم وبشرتهم.
 (١٢٥) - ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ
 كَافِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾: أي: شك، وقيل: أي: نفاق،
 وقيل: غُلٌّ، وقيل: ضغنٌ على المؤمنين.
 وقوله تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾: أي: صارت سبباً لزيادة كفرهم
 وتكذيبهم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨].

(١) ذكر هذه الأقوال الواحدي في «البيسط» (٩٧/١١) وقول عطاء عزاه لابن عباس.

(٢) في (ر): «اتبعتموه».

(٣) في (ف): «لنا».

وقيل: الرَّجْس: الأذى، ومعناه: امتلاء صدورهم من الغيظ مما يرون من علو المسلمين وقهر الكافرين والمنافقين.

وقوله تعالى: ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾: وهو إخبار عن إصرارهم عليه إلى الموت، وهو كقوله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُعِثُهُمُ الَّذِي بَوَّأَ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ١١٠].

وقال القشيري رحمه الله: إنزال^(١) القرآن لقوم شفاء ولقوم شقاء، فأما المخلصون فزادتهم السورة إيقاناً فارتقوا من حد تأمل البرهان إلى روح البيان، ثم من روح البيان إلى أنس العيان، فشُموسُ العِرفان طالعة على أسرارهم، وأنوار التحقيق مالكة لأرواحهم، فلا لهم تعبُ الطلب، ولا عليهم سلطان الفكر والدأب، وشعاعُ شُمس العِرفان مستغرق لأنوار العلم والبيان، يقول قائلهم:

فلَمَّا استَبَانَ الصُّبْحُ أَدْرَجَ ضَوْؤُهُ بِإِسْفَارِهِ أَنْوَارَ ضَوْءِ الْكَوَاكِبِ^(٢)
(١٢٦) - ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾: قرأ حمزة: ﴿أَوَلَا تَرَوْنَ﴾ بقاء المخاطبة للمؤمنين، وقرأ الباقون بقاء المغاية خبراً عن المنافقين^(٣)؛ أي: عجباً منهم كيف قست قلوبهم وعميت أبصارهم عما يتتابع عليهم من أنواع المحن حتى لا يخلو كل عام من محنة أو محتتين، ثم لا يرجعون عن كفرهم ولا يتعظون بما يصيبهم.

وقال الحسن وقتادة: هذه الفتنة هي القتل^(٤) والسبي ونصر المؤمنين^(٥).

(١) في (ف): «أنزل»، وفي «الطائف»: (جعل الله إنزال).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٧٤).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٣٢٠)، و«التيسير» (ص: ١٢٠).

(٤) في (أ): «القتال».

(٥) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٩٢)، وعن الحسن عبد الرزاق في «تفسيره» (١١٤٥)، =

وقال مجاهد: القحط والجوع^(١).

وقيل: بهتك أستارهم كإخراجهم من المسجد وطردهم عن المحافل.

وقيل: بالمرض والحوادث.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: قيل: يُتَلَوْنَ بالجهاد والغزو، فيتخلَّفون عنه فيظهر بذلك نفاقهم^(٢).

وقال عكرمة: ينافقون ثم يؤمنون ثم ينافقون^(٣).

وقال يمان بن رثاب: ينقضون عهدهم مرةً أو مرتين.

وقال القشيري رحمه الله: ثم إن سنة الله تعالى ألا يُخلي أرباب التكليف من دلائل التعريف، والتحريك لهم في كل وقت بنوع من البيان، والتعريك في كل أوانٍ بضربٍ من الامتحان، فمنهم من لا يزداد بإيضاح البرهان إلا زيادة الخذلان، والحجبة عن فوائد البيان، وأما أصحاب الحقائق فما يكون لغيرهم في كل عام مرة أو مرتين فلهم في كل نفسٍ مرات وتارات، لا يخليهم الحق سبحانه من زواجر توجب بصائر، وخواطر زواهر تتضمن تكليفات وأوامر، قال قائلهم:

كأن رقيباً منك حلَّ بمهجتي إذا رُمّت تسهلاً عليّ تصعباً^(٤)

(١٢٧) - ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرِيكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

= وكلها بلفظ: (يبتلون بالغزو في سبيل الله في كل عام مرة أو مرتين).

(١) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (١٢ / ٩٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ١٩١٥).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٥ / ٥١٥).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥ / ١١٣).

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» (٢ / ٧٥).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾: أي: بعض هؤلاء المنافقين إلى بعض إيماءً ببصره واستخباراً بإشارته.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِّنْ أَحَدٍ﴾: أي: هل يتفقد^(١) انصرافكم أحد من المخلصين.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْصِرُوا﴾: أي إذا وجدوا غفلةً من المؤمنين انصرفوا كراهيةً لسماع القرآن.

وقيل: خوفاً مما ينزل من ذكر مقابحهم.

وقيل: حذراً من نزول الأمر بالجهاد، وتكليف النبي ﷺ إياهم بالخروج، واضطرارهم إلى الإجابة إذا خاطبهم به.

وقيل: هي كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ، وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٦].

وقوله تعالى: ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾: حيث اختاروا الانصراف عن الإيمان، وعلم الله ذلك منهم فصرفهم عنه، وهو دليل خلق الأفعال، وهو كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

وقال الحسن: ثم انصرفوا على عزم الكفر والتكذيب بمحمد والقرآن^(٢).
وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهِمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾: أي: استحقوا ذلك عقوبةً لهم على تركهم التدبر في القرآن كمن لا يفقه ذلك.

(١٢٨) - ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

(١) في (ف): «يتقصد».

(٢) ذكره الواحدي في «البيوط» (١١/١٠٤).

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾: ختم السورة بذكر صفات الرسول الذي أنزل عليه القرآن، ومنه كان لهم البيان؛ كما في هذه السورة وسائر الفرقان.

وقوله تعالى: ﴿مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾: أي: آدمي مثلكم.

وقيل: هو خطاب للعرب؛ أي: من نسبكم عربي مثلكم، وذاك أقرب إلى الألفة، وأبعد من اللجاجة، وأسرع إلى فهم الحجة.

وقيل: لما كان منكم وقد عرفتم صدقه وأمانته لم يقع في قلوبكم كذبه ولا خيانه^(١).

وقرأ ابن عباس وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ورَضِيَ عنها: (مِنْ أَنْفُسِكُمْ) بفتح الفاء^(٢)؛ أي: من أشرفكم وأفضلكم، من قولهم: شيءٌ نفيسٌ؛ أي: خطير.

وقوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾: أي: شديدٌ عليه عنتكم؛ أي: هلاككم، وقيل: مشقتكم، وقيل: إثمكم.

وقيل: العنت: الأذى الذي يضيق به الصدر، ولا يهتدي للمخرج منه؛ أي: لشفقته عليكم يشق عليه ما يسوءكم.

وقيل: أي: لا يدعوكم إلى شيء فيه ذلك، بل إلى كل يسرٍ وخفٍّ^(٣).

وقال عبد العزيز بن يحيى الكِنَانِي: ﴿عَزِيزٌ﴾ نَعَتُهُ بِالْعِزَّةِ عَلَى رَبِّهِ ثُمَّ قَالَ: ﴿عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾؛ أي: عليه الشفاعةُ فيما أثمتُم كالدِّيةِ عَلَى الْعَاقِلَةِ^(٤).

(١) في (أ): «وهم كذب وخيانة» وفي (ف): «كذب ولا خيانة» بدل: «كذبه ولا خيانه».

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٠).

(٣) في (ف): «كل سر وخفية».

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٤٧/١٤) لكن باختلاف عما هنا، ولفظه: قال عبد العزيز بن يحيى:

نظم الآية: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ =

وقوله تعالى: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾: أي: على إيمان من لم يؤمن منكم.
 وقوله تعالى: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾: الرأفة: أشد الرحمة، والرحمة أعم من الرأفة؛ لأنها استعملت في كل نفع كالنفع والسعة والعافية وغيرها، فكان المعنى في الرؤوف: الشَّفِيقُ^(١)، العطوف، وفي الرحيم: النافع المفضل^(٢).
 وقال الحسين بن الفضل: لم يجمع الله تعالى لأحد من الأنبياء بين اسمين من أسمائه إلا لنبيِّنا محمد ﷺ، فإنه قال: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾، وقال إبراهيم: ﴿حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]، وقال لإسماعيل: ﴿صَادِقُ الْوَعْدِ﴾ [مريم: ٥٤] وليحيى: ﴿وَسِيدًا وَحْشُورًا﴾ [آل عمران: ٣٩].

(١٢٩) - ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾: أي: قرَّرنا صفاتك عندهم، فإن أعرضوا عنك ولم يصدِّقوك بل خالفوك وعادوك ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فعرفهم أن الله أن الذي لا إله إلا هو كافيك مكروههم^(٣) وناصرك عليهم.
 وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾: أي: أخبرهم أنك فوّضت أمورك إليه.
 وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾: أي: ذو القدرة والسلطان والملك، والعرش عبارة عن الملك، يقال: ثلَّ عرشه؛ أي: زال ملكه.
 وإن حُمل على العرش الذي فوق السماوات فذكره ذكر كل المخلوقات لأنه

= رَجِيمٌ ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾، لا يهمه إلا شأنكم، وهو القائم بالشفاعة لكم، فلا تهتموا لما عتم ما أقمتُم على سنَّته فإنه لا يرضيه إلا دخولكم الجنة.

(١) في (ر): «الشَّفِيق».

(٢) «المفضل» ليست في (ف).

(٣) في (أ) و(ر): «مكروههم».

أَعْظَمُهَا فَذَكَرَهُ ذِكْرَهَا، وَإِضَافَةُ اللَّهِ إِلَيْهِ إِضَافَةٌ^(١) بَيَانِ خَلْقِهِ وَمُلْكِهِ وَقُدْرَتِهِ وَعِلْمِهِ وَعَظَمَتِهِ وَسُلْطَانِهِ^(٢).

وقال القشيري رحمه الله: لقد جاءكم رسولٌ يشاكيكم في البشرية لكنه يأتيكم فيما أفردناه^(٣) به من الخصوصية، وألبسناه لباس الرحمة عليكم، وأقمناه بشواهد العطف والشفقة على جملتكم، قد وكل همته بشأنكم، [و]أكبر^(٤) همته في إيمانكم. وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أمره أن يدعو الخلق إلى التوحيد، ثم قال: فإن أعرضوا عن الإجابة فكُنْ لنا بنعت التجريد.

ويقال: قال له: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ [الأنفال: ٦٤] ثم أمره بأن يقول: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾، وقوله: ﴿حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ عين الجمع، وقوله: ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ تفرقة، بل هو جمع الجمع؛ أي: قل، ولكن بنا تقول، فنحن المتولون عنك، وأنت مستهلك^(٥) في عين التوحيد، فأنت بنا، ومحو عن غيرنا^(٦).

وروى الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب: أنهم جمعوا القرآن في مصحف في خلافة أبي بكر رضي الله عنه، فكان رجال يكتبون يملئ عليهم أبي بن كعب، فلما انتهوا إلى هذه الآية: ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ظنوا أنه آخر القرآن، فقال لهم أبي بن كعب: إن النبي ﷺ قد أقراني بعد هذه آيتين: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ إلى آخر السورة، فهذا آخر ما أنزل من القرآن، فحُتِمَ الأمرُ

(١) «إضافة» زيادة من (ف).

(٢) «وسلطان» ليس من (أ).

(٣) في (ر) و(ف): «أوردناه».

(٤) في (أ): «أكبر».

(٥) في (ر): «ستهلك»، وفي (ف): «المستهلك».

(٦) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٧٦).

بما فُتِحَ به؛ ب: لا إله إلا الله، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيْ
إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] (١).

وقال البراء بن عازب: آخرُ سورةٍ نزلت كاملةً براءة (٢).

وقال يحيى بن جعدة: كان عمر رضي الله عنه لا يكتب آيةً في المصحف
حتى يشهدَ عليها رجلان، فجاءه رجل من الأنصار بالآيتين من آخر سورة
التوبة، فقال عمر رضي الله عنه: والله لا أسألك عليهما بينةً كذلك كان رسول الله
ﷺ، فأثبتته (٣).

والحمد لله رب العالمين، قد أتممت هذه السورة بعون الله وطاقته، وتوفيقه
ورأفته.

(١) رواه عبد الله ابن الإمام أحمد في زوائده على «المسند» (٢١٢٢٦)، وابن أبي داود في «المصاحف»
(ص: ٥٦ و ١١٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦ / ١٩١٩)، والضياء في «المختارة» (١١٥٥).
وقوله: «إلا يوحى» هكذا جاءت في النسخ الخطية و«المسند»: بالياء التحتية المضمومة،
وفتح الحاء، وهي قراءة جمهور القراء، وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم: ﴿نُوحِيْ﴾،
بالنون المضمومة وكسر الحاء.

قوله: «فختم بما فتح به...» يعني: أن الله تعالى افتتح الدين بالتوحيد، واستدلَّ على ذلك بقوله
تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيْ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ وختم الدين بالتوحيد
أيضاً فقال في آخر آية من سورة براءة: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ
رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

(٢) رواه البخاري (٤٣٦٤)، ومسلم (١٦١٨).

(٣) رواه سعيد بن منصور في «سننه» (١٠٥٣ - تفسير)، وإسناده منقطع لأن يحيى بن جعدة لم يسمع
من عمر كما في «المراسيل» لابن أبي حاتم (ص: ١٨٨). ورواه من طريق آخر الطبري في «تفسيره»
(١٠٠ / ١٢)، وفيه سفيان بن وكيع وهو ضعيف جداً. وخبر وجود هاتين الآيتين مع خزيمة الأنصاري
رواه البخاري (٤٦٧٩) من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه حين أمره الصديق بجمع القرآن.